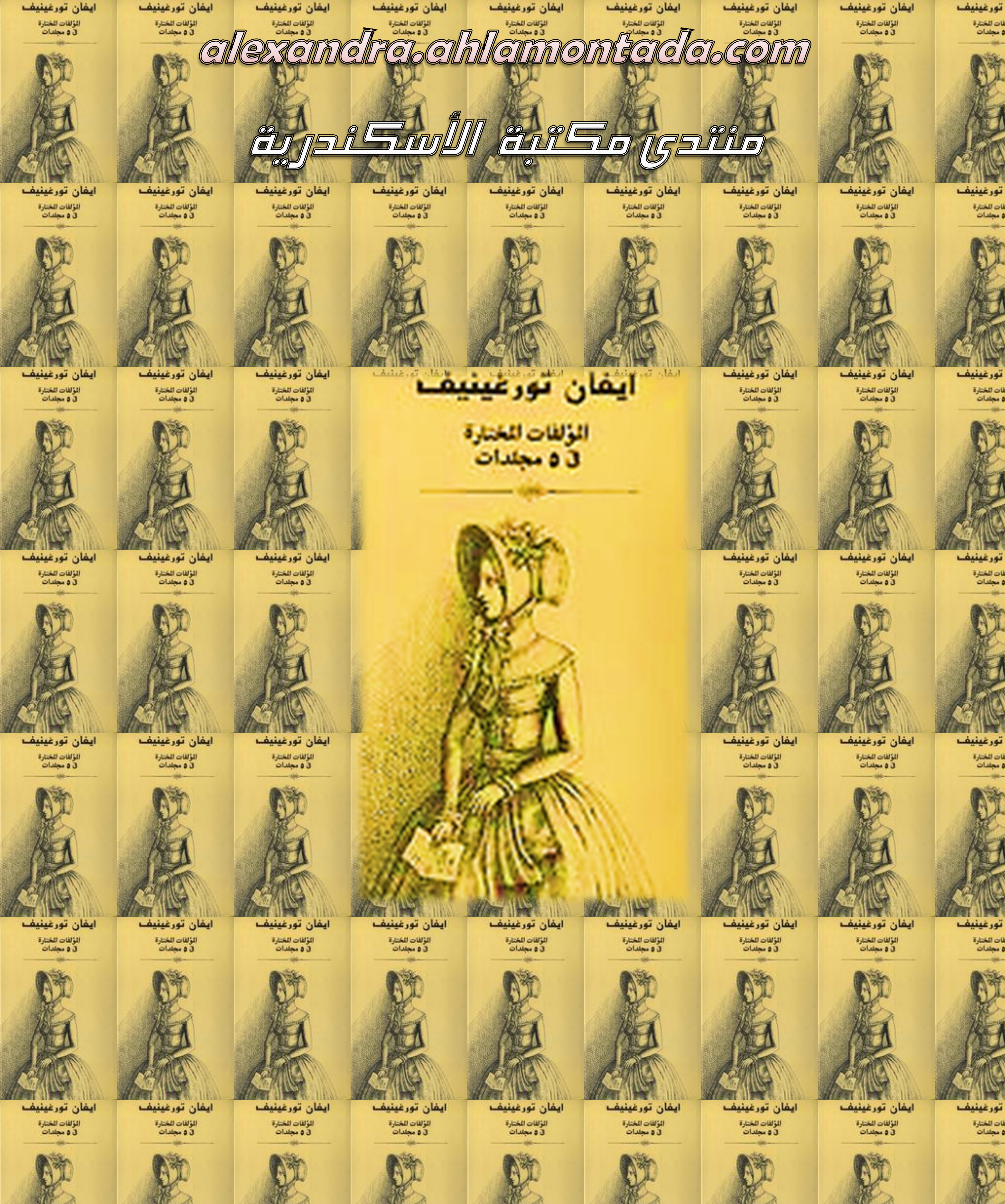
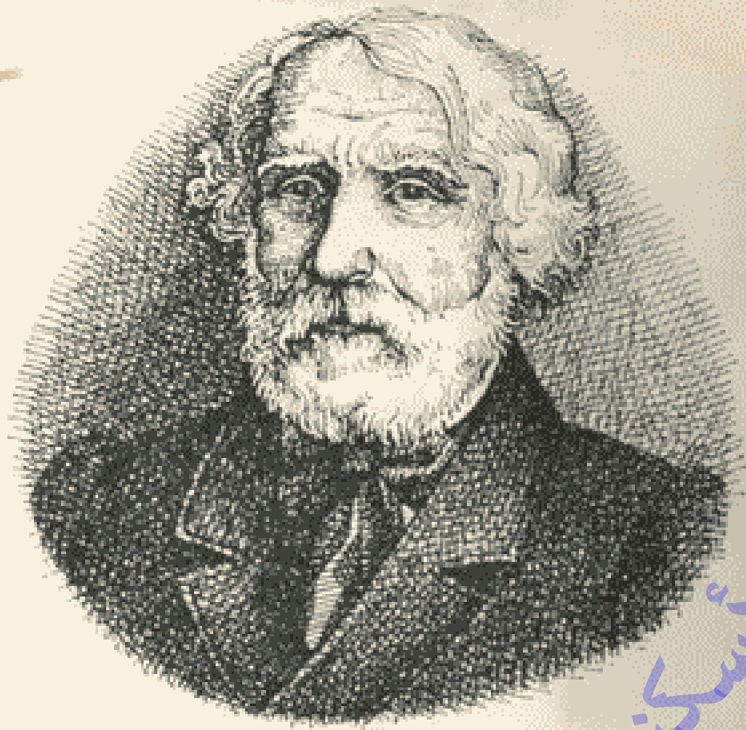


alexandra.ahlamontada.com
منتدى مكتبة الأسكندرية
ايفان تورغينيف
المؤلفات المختارة
في ٥ مجلدات



ايفان تورغينيف

المؤلفات المختارة
فى ٥ مجلدات

المجلد
١

قصص
و روايات قصيرة

عام ١٨٤٤ – عام ١٨٦٠



دار «رادوغا»
موسكو

ترجمة غائب طعمة فرمان
«آسية» و«الحب الأول» ترجمة مواهب الكيالي
رسوم اندري كوستين

Иван Тургенев

ИЗБРАННЫЕ ПРОИЗВЕДЕНИЯ
В 5 ТОМАХ

ТОМ I
Повести и рассказы
1844—1860 годов

на арабском языке

طبع في الاتحاد السوفييتي

T $\frac{4702010100—674}{031(01)—84}$ 256—84

ايفان سيرغييفيتش تورغينيف

ولد ايفان تورغينيف في ٢٨ تشرين الاول (٩ تشرين الثاني في التقويم الجديد) عام ١٨١٨ في مدينة اوريول . وكان ابوه سيرغي نيقولايفيتش يخدم في فوج يلزافيتغراد الذي كان يرابط آنذاك في اوريول ، وتقاعد برتبة عقيد . وامه فارفارا بتروفنا ، من مواليد لوتوفينوف . وكان ايفان سيرغييفيتش الابن الاوسط من ثلاثة ابناء . والاخ الاصغر توفي في ريعان الصبا ، والاكبر يعيش في موسكو . فقد تورغينيف اباه ، وهو في السابعة عشرة ، الا ان امه عاشت حتى بلغت السبعين ، وتوفيت عام ١٨٥٠ . في عام ١٨٢٢ سافرت عائلة تورغينيف الى الخارج ، وزارت ، فيما زارت ، سويسرا . واثناء احدى الزيارات كاد ايفان الطفل ، وهو في الرابعة من العمر ، يقع في حفرة الدببة الشهيرة في برن ، وربما كان سيدفع ثمنا غاليا لتهاونه ، لو لم يفلح ابوه في اخراجه فورا من هناك . وبعد العودة الى الوطن اقامت العائلة فترة طويلة في ضيعتها ، في قضاء متسينسك من ولاية اوريول . وفيها بدأ تورغينيف يتعلم على ايدي اساتذة من مختلف القوميات ما عدا الروسية . ومن اوائل الكتب الروسية التي قرأها «روسيادا» لمؤلفه خيراسكوف . وهو مدين بتعرفه على هذا الكتاب الى واحد من اقنان امه ، كان شغوفا جدا بالشعر ، وبهذه القصيدة القديمة ايضا . وفي عام ١٨٢٨ انتقل ايفان تورغينيف مع والديه الى موسكو ، وفي عام ١٨٣٤ دخل جامعة موسكو ، حيث انهاها باطروحة «مرشح» . وفي عام ١٨٣٨ سافر الى الخارج ، وكاد يودى به في حريق شب على الباخرة «نيقولاي الاول» قرب ترافيميونده . وحضر تورغينيف في برلين محاضرات في التاريخ واللغتين اللاتينية واليونانية وفلسفة هيغل .

في عام ١٨٤١ عاد تورغينيف إلى بطرسبورغ ، وبقي فيها زهاء العام موظفا في مكتب وزير الداخلية . وخلال ذلك الوقت كان يلتقي كثيرا ببلينسكي الذي صار على صلة وثيقة به . ورغم ان تورغينيف زاول الشعر وهو صبي ، الا ان قصيدته الاولى «باراشا» لم تنشر الا في عام ١٨٤٣ ، كتب بعدها بعض الاعمال الاخرى التي لم تحظ بقدر كبير من النجاح .

وعزم تورغينيف ، بعد تشككه في موهبته الشعرية ، على هجر الادب ، وغادر بطرسبورغ في نهاية ١٨٤٦ . الا انه قبل هذا ، كان قد اعطى لبلينسكي ونزولا عند رجاوات هذا الناقد قصة قصيرة لتنشر في مجلة «سوفريمينيك» ، وهي بالذات : «خور وكالينيتش» . وقد ضمت هذه القصة فيما بعد الى مجموعة «مذكرات صياد» ، وتركت وقعا شديدا للغاية في نفوس الجمهور ، واقنعت مؤلفها نفسه بموهبته ككاتب . فكرس تورغينيف نفسه للادب ، وسافر الى باريس ، وكتب فيها معظم قصص «مذكرات صياد» التي جعلته فورا على راس الادباء الروس . وفي عام ١٨٥٢ ، عقابا لكتابته لمقالة عن غوغول (وفي الحقيقة عقابا لـ«مذكرات صياد») ارسل للاقامة في القرية ، حيث مكث فيها عامين .

ومنذ ذلك الحين عاش تورغينيف مرة في روسيا ومرة في الخارج حتى عام ١٨٦٣ ، حيث استقر في بادن-بادن ، ومنها يزور وطنه من حين الى آخر .

(ايفان تورغينيف)

عن القسم الاول من مقالة عن «حياة ايفان تورغينيف» نشرت بلا توقيع في مجلة «نيفا» ، العدد ٩ ، ٢٨ شباط ١٨٧٢ .

كان تورغينيف ككاتب يملك القدرة الرائعة على ملاحظة الظواهر الجديدة في حياة عصره ، وتجسيدها في اعمال فنية . ومضمار ابداع تورغينيف واسع على نحو غير اعتيادي . فهو يكتب الشعر ، والروايات القصيرة ، والمسرحيات ، والروايات التي يعالج فيها حياة فئات مختلفة من المجتمع الروسي .

في العقدين الخامس والسادس من القرن الماضي كان يبحث عن البطل الايجابي وسط النبلاء المثقفين . فصور في قصصه الطويلة «اندريه كولوسوف» و«هاملت قضاء شيغري» و«يوميات رجل فائض» و«ياكوف باسينكوف» و«آسية» وفي روايتيه «رودين» و«عش النبلاء» ما حدث في ذلك الحين من انفصام الشخصية المتطورة الموهوبة عن الظروف الاجتماعية لذلك العهد . وقد ظهر في روسيا في تلك الاعوام مَنْ يسمون بـ«الفائضين» . وكان هؤلاء احسن ممثلي شبيبة النبلاء المتمثلين لافكار متقدمة . الا ان جميع اندفاعاتهم النبيلة اصطدمت بالجمود والرتابة السائدين في البلاد . ولافتقارهم لخصال الارادة الصلبة الضرورية في هذا النضال اضحوا فرسان الكلام ، ووعّاظ الروح الانسانية التجريدية . و«رودين» في الرواية المعنونة بهذا الاسم ، ولافريتسكي في «عش النبلاء» اكثر الابطال تمثيلا لهذه الفكرة .

الا ان قوة اجتماعية جديدة تتمثل بالديموقراطيين غير النبلاء ظهرت في المجتمع الروسي في نهاية العقد السادس وبداية العقد السابع . ورغم ان تورغينيف كان يختلف معهم فكريا اكثر فاكثر ، الا انه كفنان لم يستطع ان يغفل البطل الجديد الذي تكون في

المعسكر الديموقراطي . فظهرت روايتاه «في العشية» و«الآباء والبنون» .

فنجد تورغينيف يبرع في رواية «في العشية» (١٨٦٠) صورة انسان ناشط ذي ارادة وهدف واضح . فان اينساروف «شخصية بطولية عن وعي» ، يكرس حياته للنضال من اجل تحرير وطنه .

وفي رواية «الآباء والبنون» (١٨٦٢) صور تورغينيف في شخصية بازاروف غير النبيل الملامح الاكثر تميزا للديموقراطي الروسي في العقد السابع ، ذلك المادي الذي يدرس العلوم الطبيعية ، ويناضل في سبيل تنوير الشعب ، ومن اجل تحرير العلم من التقاليد البالية . وقد عكست شخصية بازاروف المتناقض في نواح عديدة بعض التناقضات المتاصلة في الديموقراطيين غير النبلاء الفعليين لذلك الزمن ، وعكستها الى درجة كبيرة .

وفي العقد الثامن ، حين ظهرت حركة الشعبية على مسرح المجتمع ، اصدر تورغينيف روايته «النبت الجديد» (١٨٧٧) القى فيها الاضواء على نشاط الشعبيين .

وابتداء من وسط العقد الخامس يقضي تورغينيف شطرا كبيرا من حياته في الخارج ، ودفعه الى هذا تعرفه على المغنية الشهيرة بولينا فياردو التي كانت قد جاءت الى بطرسبورغ عام ١٨٤٣ في جولة فنية مع الاوبرا الايطالية . وانعقد بينهما خلال اكثر من ثلاثين عاما حب كبير لاهب ترك اثره في حياة تورغينيف كلها .

في عام ١٨٤٨ كان تورغينيف في باريس ، فكان شاهد عيان لاحداث ثورية تركت فيه اثرا عميقا . وفي هذه المدينة ايضا عقد اواصر صداقة قريبة مع الكاتب الثوري الكسندر غيرتسن . وحين يعود تورغينيف الى موسكو يزور نيقولاي غوغول . وقد لعب لقاؤه مع هذا الكاتب الروسي البارز دورا كبيرا في حياة تورغينيف . وحين توفي غوغول عام ١٨٥٢ كتب تورغينيف رثاء له قيّم فيه مساهمته الرفيعة في الادب الروسي . فكان ذلك ذريعة الى ان يقع مؤلف «مذكرات صياد» المعادية للقنانة تحت انظار الشرطة في قرية سباسكويه ، حيث كان يزوره الممثل الروسي الشهير ميخائيل شيبكين ، ومحرر مجلة «سوفريمينيك» الشاعر الديموقراطي نيقولاي نيكراسوف ، وليف تولستوي العظيم .

في تموز ١٨٥٦ يسافر تورغينيف الى الخارج مرة اخرى ، ويقيم هناك اقامة دائمية تقريبا ، فلا يزور بطرسبورغ وسباسكويه الا في الصيف . ويلتقي تورغينيف بغيرتسن في لندن ، ويقدم له مواده للنشر . وتعرف في انجلترا على الروائي الشهير وليم تيكري ، والمؤرخ توماس ماكولي ، وعلى شخصيات ثقافية بارزة اخرى . وفي ذلك الحين يضحى تورغينيف كاتبا ذا شهرة عالمية ، اعترف المجتمع الروسي بجداراته . وقد انعكس هذا ، على سبيل المثال ، في انتخابه عام ١٨٥٩ عضوا عاملا في جمعية محبي اللغة الروسية ، وعضوا في لجنة الصندوق الادبي .

وفي العقدين السابع والثامن تتوسع علائق تورغينيف بالشخصيات الاجتماعية المختلفة والكتاب الاجتماعيين ، والممثلين البارزين للادب والفن . ويتعرف تورغينيف بمناسبة صدور روايته «دخان» (١٨٦٧) على الناقد دميتري بيساريف ، ويتراسل معه ، ويلتقي في باريس عام ١٨٧٢ ببيوتر لافروف احد منظري الحركة الشعبية الروسية ، الذي كان قد هرب من المنفى القيصري ، ويدرس مؤلفاته لكتابة روايته «النبت الجديد» . وفي هذه السنوات بالذات تبدأ اواصر صداقة قريبة مع اعظم كتاب فرنسا : فلوبير وزولا وغونكور . وكان الكاتب الروسي يعتبر بينهم عميدا عن حق . ويروج تورغينيف وهو في الخارج الادب الروسي دون كلل . وحين يزوره في باريس الكتاب الروس ميخائيل سالتيكوف-شيدرين ، وغليب اوسبينسكي ، والكسي بيسيمسكي ينظم معهم ومع بولينا فياردو عدة ندوات ادبية لصالح المكتبة الروسية في باريس . ويعرف سالتيكوف-شيدرين بزولا وفلوبير . وتشكل في باريس في عام ١٨٧٧ وبمساعدة تورغينيف جمعية اعانة الفنانين الروس . وقد قدر عن استحقاق نشاط تورغينيف في حقل الادب والعلم والفن في فرنسا وانكلترا ، فانتخب في عام ١٨٧٨ نائبا لرئيس المجلس الادبي العالمي في باريس ، وتمنحه جامعة اكسفورد في عام ١٨٧٩ درجة الدكتوراه في الحقوق .

ويوسع تورغينيف نشاطه الاجتماعي والثقافي التنويري في سنواته الاخيرة في روسيا . فعندما جاء الى بطرسبورغ في عام ١٨٧٩ بمناسبة موت اخيه نيقولاي كان ، وعلى رغم اعتلال صحته الشديد ، يخطب كثيرا امام الادباء والطلاب . وفي ٧ حزيران ١٨٨٠

يلقي تورغينيف في اجتماع محبي اللغة الروسية خطبته الرائعة : «حول بوشكين» .

وكان صيف ١٨٨١ آخر صيف يقضيه تورغينيف في قريته سباسكويه ـ لوتوفينوفو . وفي الخريف سافر الى الخارج ، وفي ربيع ١٨٨٢ ساءت صحته الى درجة كبيرة ، وتوفي في ٢٢ آب (٣ ايلول) ١٨٨٣ بسرطان العمود الفقري (في بوجيفال ، قرب باريس) . ودفن رفاته في بطرسبورغ في مقبرة فولكوفو .

بيتر بوستوفويت

قصص

خور وكالينيتش (٢)

من انتقل من قضاء بولخوف الى قضاء جيزدرا لا بد من انه قد انبهر بالفارق الحاد بين عرق الناس في ولاية اوريل وعرقهم في ولاية كالوغا . فالريفي من سكان اوريل غير طويل القامة ، محدودب قليلا ، جهم الاسارير ، مرتاب النظرات ، يعيش في اكواخ بائسة متداعية مصنوعة من خشب الحور ويؤدي اعمال السخرة ، ولا يزاول البيع والشراء . غذاؤه سيىء ، ونعله من الليف . اما الريفي الكالوغي المستأجر لقطعة ارض باللزمة ، فيعيش في اكواخ رحبة مصنوعة من خشب الصنوبر ، طويل القامة ، جرىء النظرات بهيجها ، وجهه نظيف ابيض ، يبيع الزيت والقطران ، وفي الاعياد يلبس الاحذية الطويلة السيقان . والقرية الاورلوفية (ونحن نتكلم عن الجزء الشرقي من الولاية) تقع ، عادة ، وسط حقول محروثة ، قرب وهدة حوّلت ، بطريقة ما ، الى بركة قذرة . وما عدا بعض اشجار الصفصاف المستعدة دائما لتأدية الخدمات * ، وشجرتين او ثلاث اشجار بتولا عجفاء لن ترى حولك شجرة واحدة على مدى فرسخ . وكوخ ملتصق بكوخ ، والسطوح مفروشة بالقش العفن . . . والقرية الكالوغية ، على العكس ، محاطة في معظمها بغابة ، والاكواخ تقف افسح مجالا ، واكثر استقامة ، سقوفها من الالواح . وابواب الاسيجة محكمة الاغلاق ، والاسيجة نفسها مضفورة بكثافة لا تكشف من الفناء شيئا ، ولا تتداعى الى الخارج ، ولا تدع اي خنزير عابر يبصبص من خلالها . . . وولاية كالوغا

---

* يقصد لان تضفر منها الاحذية الليفية . **المعرب** .

افضل للصياد . في ولاية اوريل ستختفي الغابات والاحراش الاخيرة بعد خمس سنوات او نحوها ، ولا وجود فيها للمستنقعات على الاطلاق ، بينما في ولاية كالوغا ، على العكس من ذلك ، تمتد نواحي الغابات الكثيفة الى مئات الفراسخ ، والمستنقعات الى عشرات ، وطائر الطيهوج الوجيه لم ينزح بعد ، والشُنقب يتكاثر ، والحَجَل الصفّاق الجناحين يبهج ويخيف الصياد وكلبه بتحليقه الخاطف .

اثناء زيارتي لقضاء جيزدرا (٣) ، قصد الصيد ، التقيت ذات مرة بأحد ملاك الاراضي الصغار في ولاية كالوغا ، وجرى التعارف بيننا . وهذا الرجل يدعى بولوتيكين ، وهو صياد متحمس ، وبالتالي ، فهو انسان رائع . حقا كانت له بعض نقاط ضعف . فمثلا انه كان يقدم يده ليخطب كل الاوانس الغنيات في الولاية فترفض يده ولا تقبل زيارته من بعد ذلك ، فصار يفضي بلواه ، مسحوق القلب ، الى جميع الاصدقاء والمعارف ، ويواصل اهداء ذوي الاوانس الخوخ الحامض والثمار الفجة الاخرى لحديقته . وكان شغوفا بترداد نكتة واحدة لم تكن قط تضحك احدا رغم احترام السيد بولوتيكين لمزاياها . وكان يثني على مؤلفات اكيم ناخيموف وقصة بينا (٤) . وكان لسانه يتلعثم ، وكان يسمي كلبه «الفلكي» . وبدلا من ان يقول «على اية حال» يقول «عل اية حالة» ، وقد اقام في بيته مطبخا فرنسيا ، كان سره ، حسب مفاهيم طباخه ، يكمن في تغيير المذاق الطبيعي لكل لون من الوان الطعام ؛ فاللحم عند هذا الماهر كانت له نكهة السمك ، وللسمك نكهة الفطر ، وللمعكرونة نكهة البارود ، ومقابل ذلك ما من جزرة تقع في الحساء الا بعد ان تتخذ شكل المعيَّن او المربع المنحرف . ولكن السيد بولوتيكين كان ، باستثناء هذه النواقص القليلة وغير المهمة ، رجلا رائعا ، كما قلت سالفا .

في اليوم الاول من تعارفي مع السيد بولوتيكين دعاني لقضاء ليلة في بيته ، مضيفا :

– يبعد بيتي خمسة فراسخ . وهي مسافة بعيدة على الماشي ، فلنذهب اولا الى خور (وليعذرني القارئ على عدم نقل تلعثم لسانه) .

– ومَن خور هذا ؟

– فلاحي . . . وهو قريب من هنا .

وقصدنا اليه . كانت دارة خور تنهض وحيدة وسط فرجة غابة مفلوحة ومستغلة باتقان . وكانت تتألف من بعض الاكواخ من خشب الصنوبر تربط بينها اسيجة ، وامام الكوخ الرئيسي تمتد واجهة ترتفع على اعمدة دقيقة . دخلنا . فالتقانا شاب فتي في نحو العشرين من العمر طويل القامة وسيم الطلعة . سأله بولوتيكين :

– ها ، فيديا ، هل خور في البيت ؟

اجاب الشاب مبتسما عن صف من الاسنان البيض كالثلج .

– لا ، بل ذهب الى المدينة . هل تأمر بتهيئة العربة ؟

– حسنا ، يا اخ ، اخرج العربة ، واعطنا شيئا من الكفاس .

دخلنا الكوخ . كانت الجدران النظيفة من روافد الخشب عارية من اية لوحة من اللوحات الرخيصة . وكان قنديل صغير يشتعل امام ايقونة ثقيلة لها اطار من الفضة ، والمنضدة من خشب الزيزفون مسحوجة منذ وقت قصير ، ومغسولة . ولم تكن الصراصير اللعوب ولا الخنافس الساهمة تجري بين الروافد وقوائم النوافذ . وسرعان ما ظهر الشاب يحمل قدحا كبيرا ابيض مملوءا بالكفاس الجيد ، وقطعة كبيرة من خبز الحنطة ، واكثر من عشرة من الخيارات المملحة في طاسة خشبية . ووضع كل هذه المأكولات على المنضدة ، واتكأ على الباب ، واخذ يتطلع الينا مبتسما . وما كدنا نأتي على مشهياتنا ، حتى سمعنا كركبة العربة امام واجهة الكوخ . خرجنا . كان غلام في نحو الخامسة عشرة ، اجعد الشعر ، متورد الوجنتين ، يجلس في مقعد الحوذي ، وهو لا يكاد يسيطر على حصان ارقط مغتذى . وقد تحلق حول العربة زهاء ستة من العمالقة الشبان يشابه بعضهم بعضا ويشبهون فيديا . قال السيد بولوتيكين : – «كلهم ابناء خور – بادر فيديا الذي خرج الى واجهة البيت في اثرنا – وهناك آخران . بوتاب في الغابة ، وسيدور ذهب مع العجوز خور الى المدينة . . . انتبه ، يا فاسيا – تابع قوله مخاطبا سائق العربة – انطلق على طول ، فالراكب معك سيد . احذر فقط حين تجتاز الحفر ، هدِّئ قليلا ، فلا تضر بالعربة ، ولا تقلق معدة السيد !» . ابتسم الآخرون من فورة فيديا . – اقعد الفلكي معنا ! – صاح السيد بولوتيكين في ابهة ، وبحركة لا تخلو من متعة رفع فيديا في الهواء الكلب المكشر عن ابتسامة مرغمة ، ووضعه في قاع العربة . ارخى فاسيا العنان للحصان . وغادرنا . – «هذه

دائرتي – قال السيد بولوتيكين فجأة مشيرا الى بيت صغير واطئ – هل ترغب في ان تشاهدها ؟» – «حسنا» . – «انها الآن مهجورة – علّق السيد وهو ينزل من العربة – ومع ذلك تستحق نظرة» – كانت الدائرة مكونة من غرفتين فارغتين . هرع الحارس ، وهو شيخ اعور خارجا من الفناء . فقال السيد بولوتيكين : – «مرحبا ، مينايتش ، اين الماء ؟» – اختفى العجوز الاعور ، وعاد في الحال يحمل زجاجة ماء وقدحين . قال بولوتيكين لي : – «تذوق ، انه ماء زلال ، من الينبوع» . شرب كل منا قدحا ، بينما انحنى العجوز لنا بنصف جذعه . – «حسنا ، الآن ، يبدو لي من الممكن ان نغادر – نوه صديقي الجديد – في هذه الدائرة بعت للتاجر اليلويف اربعة هكتارات * من الغابة بسعر رابح» . جلسنا في العربة ، وبعد نصف ساعة كنا قد دخلنا فناء بيت الملاك .

على العشاء سألت السيد بولوتيكين :

– قل لي ، من فضلك ، لماذا يعيش خور عندك في معزل عن فلاحيك الآخرين ؟

– السبب في ذلك انه فلاح ذكي . قبل حوالى خمسة وعشرين عاما احترق كوخه ، فجاء الى ابي المرحوم ، وقال له : «اسمح لي ، يا نيقولاي كوزميتش ، ان اسكن في الارض السبخة في غابتك . وسادفع لك ايجارا طيبا» . – «ولكن ما الذي يضطرك الى ان تسكن في الارض السبخة ؟» – «لا شيء ، ارجو فقط الا تستخدمني في اي عمل ، يا سيدي نيقولاي كوزميتش ، وستحصل على الجزية التي تريد» . – «خمسون روبلا في العام !» – «تفضل» – «ولكن انتبه ، دون متاخرات في الدفع !» «معلوم ، دون متاخرات . . .» وهكذا سكن في الارض السبخة . ومنذ ذلك الحين سمي «خور» * * .

سألت :

– طيب ، ونجح ؟

– نجح . والآن يدفع لي مائة روبل حق الايجار . واظن انني سأزيدها . وقد قلت له غير مرة : «ادفع ثمن نفسك ، واعتقها ،

* في الاصل اربعة ديساتين (واحدة ديساتينا) وهو قياس روسي يساوي ١٫٠٩٢ هكتار . **المعرب** .

* * خور بالروسية تعني فار الخيل : وهو حيوان وحشي له فراء ثمين . **المعرب** .

يا خور ، ادفع واعتق نفسك !» بينما المحتال يؤكد لي انه ليس له ما يعتقه بها ، يعني ليست عنده فلوس . . . ولكن لا يبدو معقولا ! . .

في اليوم التالي ، توجهنا الى الصيد ثانية حالما فرغنا من شرب الشاي . ولدى اجتيازنا القرية امر السيد بولوتيكين الحوذي ان يتوقف عند كوخ واطئ ، ونادى بصوت صدّاح : – «كالينيتش !» – فتردد صوت من الفناء : – «حالا ، يا سيدي ، حالا . اشد نعلي» . سرنا ببطء . ولحق بنا وراء القرية رجل في نحو الاربعين من العمر ، طويل القامة ، نحيل العود ، له راس صغير مائل الى الوراء . كان ذلك كالينيتش . اعجبني من الوهلة الاولى وجهه الاسمر البادي الطيبة ، المنمش في بعض اجزائه . كان كالينيتش (كما عرفت فيما بعد) يخرج كل يوم مع سيده الى الصيد ، ويحمل حقيبته ، واحيانا بندقيته ، ويدل على محط الطير ، ويجلب الماء ، ويجمع الفريز البري ، وينصب الخصاص ، ويهرع ليجلب العربة الصيفية . وبدونه لم يكن السيد بولوتيكين يخطو خطوة واحدة . كان كالينيتش رجلا من ابهج الناس خلقا واكثرهم وداعة ، لا يفتأ يترنم بصوت خافت ، وينظر في جميع الجهات خلي البال ، ويخن قليلا ، ويقلّص عينيه الزرقاوين الفاتحتين حين يبتسم ، وغالبا ما يمسك بعثنونه المدبب القليل الشعر . كان يمشي مشية غير سريعة ، ولكن بخطوات كبيرة ، متوكئا على عصا نحيفة طويلة . خلال اليوم بادرني الكلام غير مرة ، وكان يخدمني دون تذلل ، ولكنه كان يرعى سيده ، كما يرعى طفلا . وحين اضطرنا حر الظهيرة غير المحتمل الى البحث عن ملجأ ، قادنا الى منحلته في قلب الغابة . فتح كالينيتش لنا باب كوخ علقت داخله حزم من العشب الجاف الشذي ، وارقدنا على دريس غض ، بينما وضع على رأسه ما يشبه الكيس له شبكة ، وتناول سكينا ، وجفنة وخشبة داخنة ، وتوجه الى المنحلة ، ليقطع لنا شيئا من قرص العسل . اشفعنا العسل الشفاف الدافئ بماء الينبوع ، وغفونا على طنين النحل الرتيب ، وهفهفة الاوراق الثرثارة . ايقظتني هبة نسمة خفيفة . . . فتحت عيني ، ورايت كالينيتش . كان جالسا على عتبة الباب الموارب ، ينحت ملعقة بسكين . تمعنت طويلا في وجهه الوديع الصافي مثل السماء المسائية . استيقظ السيد بولوتيكين ايضا . لم ننهض حالا . فمن



الممتع ان يستلقي المرء على الدريس بلا حراك ، بعد مشي طويل ، ونوم عميق : فالجسم ينعم بتعب هانئ ، والوجه لافح بحر خفيف ، والعينان منغلقتان بكسل حلو . واخيرا نهضنا ، وعدنا ثانية الى التجوال حتى المساء . وعلى العشاء اخذت اتكلم ثانية عن خور وكالينيتش . قال لي السيد بولوتيكين : «كالينيتش فلاح طيب ، ومجتهد وخدوم . واستثمارته سليمة ، الا انه لا يستطيع تسييرها ، فانا دائما اجره منها . كل يوم يخرج معي الى الصيد . . . فاية استثمارة هنا ، احكم بنفسك» . وافقته ، وآوينا الى مضاجعنا لننام .

في اليوم التالي اضطر السيد بولوتيكين الى السفر الى المدينة بشأن قضية جاره بيتشوكوف . وكان بيتشوكوف قد حرث ارضا له ، وساط في الارض المحروثة امراة من فلاحاته . خرجت الى الصيد لوحدي ، وقبيل المساء عرجت على بيت خور . التقاني عند عتبة الكوخ عجوز اصلع قصير القامة ، عريض المنكبين ، ركين البنيان . انه خور نفسه . نظرت الى خور هذا بفضول . كانت تقاطيع وجهه تذكر بسقراط ، نفس الجبهة العالية ، المدورة قليلا ، ونفس العينين الصغيرتين ، ونفس الانف الافطس . دخلنا الكوخ سوية . وسرعان ما جلب فيديا لي حليبا وخبزا اسود . قعد خور على مسطبة . ودخل معي في حديث وهو يمسد بهدوء لحيته الجعداء . كان ، كما بدا ، يشعر بقدر نفسه فكان يتكلم ويتحرك ببطء ، ويضحك ، من حين لآخر ، من تحت شاربيه الطويلين .

تحدثنا عن الحصاد ، وعن المحصول ، وعن معيشة الفلاحين . . . وكان يبدو كالمتفق معي . وفيما بعد فقط احسست بالخجل ، وشعرت بأنني لا اتحدث بما يناسب . . . طلع الحديث في شيء من الغرابة . كان خور في بعض الاحيان يغمض في كلامه بسبب حذره ، بالتاكيد . . . واليكم نموذجا من حديثنا .

قلت له :

– اسمع ، يا خور . لماذا لا تعتق نفسك من سيدك ؟

– ولاي شيء اعتق منه نفسي ؟ الآن اعرف سيدي ، واعرف ما ادفع له من اللزمة . . . سيدنا رجل طيب .

قلت ملاحظا :

– ومع ذلك فالحرية افضل .

نظر خور الي من جانب . وقال :
– بالطبع .
– فلماذا ، اذن ، لا تعتق نفسك ؟
هزّ خور راسه .
– باي شيء اعتقها ، يا سيدي ؟ خبرني ؟
– اوه ، كفاك ، يا شيخ . . .
– اذا صار خور بين احرار الناس – تابع خور قوله بصوت خافت كالمحدث نفسه – فان اي شخص بلا لحية سيكون اعلى مقاما من خور (٥) .
– حسنا ، احلق لحيتك .
– وما اللحية ؟ اللحية عشب يمكن حصده .
– فماذا ، اذن ؟
– ولكن ربما يصير خور تاجرا ، والحياة للتجار طيبة ، وهم في لحى ايضا .
سالته :
– يعني وتزاول التجارة ايضا ؟
– نتاجر ، قليلا ، بالزيت والقطران . . . طيب ، يا سيدي ، هل تامر بتقديم العربة ؟
فكرت مع نفسي : «اوه ، انت ذلق اللسان ، وتخفي شيئا في نفسك» . وقلت بصوت مسموع :
– لا ، لا احتاج الى العربة . غدا ، ساطوف قرب بيتك ، واذا سمحت ، فساقضي الليلة في سقيفة الدريس .
– على الرحب والسعة . ولكن هل ستحرتاح في السقيفة ؟ سآمر النسوة بان يفرشن لك مفرشا ، ويضعن وسادة . هاي ، يا نسوان ! – صاح ناهضا من مكانه – الى هنا ، يا نسوان ! وانت ، يا فيديا ، اذهب معهن . فالنسوان بليدات !
بعد ربع ساعة قادني فيديا ، وفي يده مصباح ، الى السقيفة . استلقيت على الدريس العطر ، تكور الكلب عند قدمي . تمنى فيديا لي ليلة سعيدة ، وصرف الباب ، وانصفق . ظللت وقتا طويلا غير قادر على ان انام . اقتربت بقرة من الباب ، وتنفست تنفسا صاخبا مرتين او نحوهما . ونبح الكلب عليها بعزة نفس . مرّ خنزير

عابرا ، يقبع بسهوم ، وراح حصان ، على مقربة ، يعلك الدريس ، ويحمحم . . . وأخيرا غفوت .

عند الفجر ايقظني فيديـــا . اعجبني كثيرا هذا الفتى المرح النشيط ، كما انه ، على قدر ما لاحظت ، كان محبوبا لدى خور العجوز ايضا . كان كلاهما يسخر من الآخر بلطف ومحبة . خرج العجوز للقائي . عاملني معاملة ارق بكثير من معاملة البارحة ، فذلك بسبب انني قضيت الليل في كنفه ، ام لسبب آخر . قال لي بابتسامة :

– السماور جاهز لك . فلنذهب لنشرب الشاي .

جلسنا قرب المنضدة . جلبت لنا احدى كناته طاسة حليب . ودخل جميع اولاده الكوخ بالتوالي .

قلت للعجوز :

– ان لك فتيانا معافين !

– نعم – غمغم العجوز ، وهو يقضم قطعة من السكر صغيرة للغاية – ليس لهم ما يشكون منه لا عليّ ، ولا على امهم ، كما يبدو .

– وجميعهم يعيشون معك ؟

– جميعهم . راغبون انفسهم في ذلك ، فتراهم يعيشون معنا .

– والجميع متزوجون ؟

– هذا واحد لم يتزوج ، لعوب – اجاب مشيرا الى فيديا الذي اتكا على الباب من جديد – فاسكا ما زال فتيا ، ويمكن ان ينتظر .

– وما حاجتي الى الزواج ؟ – اعترض فيديا – انا مرتاح بهذا الشكل . وما فائدتي من الزوجة ؟ اتنابح معها ، ام ماذا ؟

– اوه ، انت . . . انا اعرفك ! تلبس خواتم فضية . تحب دائمـــا ان تغازل خادمات الاسياد . . . «كفاكـــم ، يا مَنْ لا تستحون !» – تابع العجوز مقلدا الخادمات – انا اعرفك ، انت ابن دلال !

– وما نفع الريفية ؟

– الريفية شغالة – ردّ خور بمهابة – الريفية خادمة زوجها .

– ولكن ما حاجتي الى شغّالة ؟

– كفاك . . . انت تحب ان تغرف النار بايدي الآخرين . انا اعرف صنفك .

– طيب ، زوجني ، اذا كان كذلك . ها ؟ ماذا ! لماذا انت ساكت ؟

– طيب ، كفى ، كفى ، يا مازح . انت ترى اننا نزعج السيد . سازوجك ، ان شاء الله . . . وانت ، يا سيدي ، لا تتضايق . انه صغير ، كما ترى ، ولم يلحق ان يعقل .

هزّ فيديا راسه . . .

– خور في البيت ؟

تردد وراء الباب صوت مالوف ، ودخل كالينيتش الكوخ يحمل ضمّة من الفريز البري جمعها لصديقه خور . حيّاه العجوز مبتهجا . نظرت الى كالينيتش مندهشا ، واعترف انني لم اكن اتوقع هذه «الالطاف» من فلاح .

في ذلك اليوم خرجت الى الصيد متاخرا عن الوقت المعتاد بنحو اربع ساعات ، وقضيت الايام الثلاثة التالية عند خور . كان معارفي الجدد يستولون على اهتمامي . لا ادري ما الذي اكسبني ثقتهم ، ولكنهم كانوا يتحدثون اليّ دون تكلف . وكنت اصغى اليهم بمتعة واراقبهم . لم يكن الصديقان يتشابهان في شيء . كان خور رجلا ايجابيا ، عمليا ، وراسا اداريا ، وعقلانيا . بينما كان كالينيتش ، على العكس ، ينتمي الى فئة المثاليين والرومانسيين ، ومن الناس الحماسيين والحالمين . وكان خور يفهم الواقـــع ، اي انه عمّر لنفسه ، وجمع مالا ، وكان على وفاق مع سيـــده ومع السلطات الاخرى . وكان كالينيتش ينتعل الحذاء الليفي ، ويدبر معيشته بصعوبة وعلى نحو ما . انجب خور ذرية كبيرة ، طائعة وموحدة . وكان لكالينيتش ، في وقت ما ، زوجة كان يخشاها ، ولم يرزق بمولود . وكان خور ينفذ الى اعماق السيد بولوتيكين ، بينما كان كالينيتش يبجل سيده . وكان خور يحب كالينيتش ، ويشمله بالرعاية . وكان كالينيتش يحب خور ويحترمه . كان خور قليل الكلام ، يضحك ويكتم ما في نفسه ، بينما كان كالينيتش يكشف عن مكنون نفسه بحرارة ، رغم انه لم يكن فيّاض اللسان ، مثل عامل فوّار في معمل . . . ولكن كالينيتش كان يتمتع بمزايا كان خور نفسه يعترف بها : فمثلا كان يعالج بالتعاويذ نزيف الدم ، والهلع ، والجنون ، ويطرد الدود . وكان النحل يستسلم له ، ويوفق في كل عمل يبداه . في حضوري طلب اليه خور ان يقود الى

الاسطبل حصانا قد اشتراه حديثا ، فلبى كالينيتش طلب المرتاب العجوز بمهابة صافية النية . كان كالينيتش اقرب الى الطبيعة ، وخور اقرب الى الناس ، والمجتمـــع . ولم يكن كالينيتش يحب المحاججة ، وكان يؤمن بكل شيء ايمانا اعمى . بينما كان خور يترفع على الحياة ، الى حد النظرة التهكمية . لقد راى الشيء الكثير ، وعرف الشيء الكثير ، وقد تعلمت الكثير منه . فمثلا عرفت من حكاياته ان عربة صغيرة من طراز خاص كانت تظهر في القرى كل صيف قبيل الحصاد . وفي هذه العربـة رجل في قفطان يبيـــع المحشات * ، ويأخذ على كل واحد منها روبلا وخمسة وعشرين كوبيكا نقداً – روبلا وخمسين كوبيكا بأوراق النقد ، وفي حالة الدين ثلاثة روبلات وروبلا فضيا . وطبيعي ان جميع الفلاحين يأخذون منه بالدين . وبعد ثلاثة او اربعة اسابيع يظهر من جديد ، ويطالب بالنقود . والفلاح قد حصد الشوفان لتوه ، ومعنى ذلك ان هناك ما يدفع به . ويذهب الفلاح مع التاجر الى حانـــة ، وهناك يصفى الحساب . وفكر بعض الملاكين بان يشتروا هم المحشات بنقود معدنية ، ويوزعوها للفلاحين بالدين بنفس السعر ، ولكن الفلاحين لم يرضوا بل وجزعوا من ذلك . فقد حرموا من متعة النقر على المحش والاستماع الى رنينه ، وتقليبه في ايديهم ، وسؤال التاجر المحتال ابن المدينة عشرين مرة : «أليس هذا المحش ، يا عم ، كثير ال . . ؟» ونفس الاحابيل تحدث عند بيع المناجل ، مع فارق واحد فقط ، وهو ان الفلاحات يتدخلن في الامر ، الى ان يدفعن التاجر احيانـــا الى ضرورة ضربهن ، ولصالحهن . ولكن النسوة يتأذين اكثر من اي شيء آخر في الواقعة التالية . يعهد مجهزو المواد لمعامل الورق بشراء الخرق الى اناس من صنف خاص يسمونهم في بعض الاقضيـــة بـ«النسور» . و«النسر» من هؤلاء يتسلم من التاجر على حوالى مائتي روبل من اوراق النقد ، ويتجه للتصيد . ولكنه خلافا للطائر النبيل الذي سمي باسمه لا يهجم علانية وبجسارة ، بل على الضد ، يلجأ «النسر» الى الحيلة والمراوغة . يترك عربته في حرش ، قرب القرية ، ويتجه خاليا الى الافنية الخلفية ، والابواب الخلفية ، كأنه عابر سبيل ، او مجرد عاطل متسكع . وتحدس القرويات باقترابه

* مناجل ذات مقابض طويلة يحش بها الفلاح الزرع وهو واقف . **المعرب .**

بالفطنة ، وينسللن للقائه . وتجري الصفقة التجارية على عجل . وتعطي القروية «النسر» لقاء بضع نقود معدنية لا مختلف الخرق العديمة الفائدة فقط ، بل واحيانا قميص زوجها وتنورتها من النسيج البيتي . وفي الفترة الاخيرة وجدت النسوة من النافع ان يسرقن من انفسهن ذاتها ، وان يبعن ، بهذه الطريقة ، تيل القنّب ، وعلى الاخص «الخيش البيتي» – وذلك توسيع وتحسين مهم لصناعـة «النسور» ! الا ان الفلاحين ، بدورهم ، صاروا اكثر براعة ، وعند اقل شك ، ولاي اشاعة عابرة عن ظهور «النسر» يسرعون خفافا الى اتخاذ التدابير الاصلاحية والوقائية . وفي الواقع اليس ذلك فعلا شائنا ؟ فان بيع القنب من شؤونهم ، وسيبيعونه حتمـــا ، لا في المدينة ، فان ذلك يقتضي ان تحمله بنفسك الى هناك ، بل الى المتاجرين القادمين الذين ، بسبب انعدام القبّان ، يعتبرون البود * اربعين غَرْفة – وانتم تعرفون اية غرفة واية كف للروسي لا سيما حين «يتحمس» ! – وانا الرجل غير المجرب ، وغير «العايش» في القرية (كما يقول قومنا في اوريل) كنت استمع الى مثل هذه الحكايات بكثرة . ولكن خور لم يكن يتحدث دائما ، بل كان يسألني عن اشياء كثيرة . فقد عرف انني سافرت عدة مرات الى الخارج ، فتأجـج فضوله . . . ولم يكن كالينيتش اقل منه سؤالا ، ولكن كالينيتش كان يتأثر اكثر في وصف الطبيعة ، والجبال ، والشلالات ، والعمارات غير المألوفة ، والمدن الكبيرة . وكان خور يهتم بمسائل الادارة والدولة . كان يسأل عن كل شيء بالتوالي : «يعني ، عندهم هناك ، مثل ما عندنـــا ام يختلف ؟ طيب ، تكلـم ، يا سيدي ، كيف الحال ؟» – «آه ، يا الهي ، ارادتك !» كان كالينيتش يدعو ، اثناء ما ارويه . وكان خور يصمت ،ويعقد بين حاجبيه الكثيفين ، وبين الفينة والاخرى فقط. كان يلاحظ قائلا : «ذلك ما كان ليناسبنا ، اما هذا فشيء جيد ، انه نظام» . وانا لا استطيع ان انقل لكم كل استفساراته ، فضلا عن ان ذلك لا لزوم له . ولكنني خرجت من احاديثنا باعتقاد واحد ، من المحتمل ان القراء لا يتوقعونه ابدا . الاعتقاد بأن بطرس الاكبر (٦) كان ، في الاغلب ، رجلا روسيا ، وهذا ما تجسد في اصلاحاته بالذات . والرجل الروسي واثق بقوته

* عيار روسي قديم يساوي ١٦،٣ كيلوغراما . **المعرب .**

وصلابته الى حد انه لا يمانع من ازهاق روحه ، وهو قليل الاهتمام بماضيه ، وينظر الى الامام بجراة . وما هو جيد فهو يروق له ، وما هو معقول فعليك به ، ولا فرق عنده من اي جهة يجيء . وعقله السليم يتهكم بولع من الحصافة الالمانية الجافة . ولكن الالمان ، على حد قول خور ، قوم يثيرون الفضول ، وهو مستعد لان يتعلم منهم . وكان خور ، بفضل وضعه الاستثنائي ، واستقلاله الفعلي ، يتحدث معي عن اشياء كثيرة ، لا تستطيع ان تستخرجها ولو بعتلة ، او – كما يعبر الفلاحون هنا – ان تجرشها بمجرشة . وكان خور بالفعل يعي وضعه . وفي حديثي مع خور استمعت لاول مرة الى لغة الفلاح الروسي البسيطة والذكية . كانت معارفه على شيء من السعة ، ولكنه لم يكن يعرف القراءة . وكالينيتش كان يعرفها . – «هذا المتبطّل راضت له القراءة – قال خور منوها – والنحل ايضا لم يمت عنده قط» . – «وهل علمت اولادك القراءة والكتابة ؟» صمت خور . – «فيديا يقرأ ويكتب» . – والآخرون ؟ – «والآخرون لا يعرفون» . – «ولماذا ؟» لم يجب العجوز ، وغيَّر الحديث . ولكنه ، مهما كان ذكيا ، فقد كان له الكثير من الاوهام والتحاملات . كان ، مثلا ، يزدري الفلاحات ، بطبيعته ، وفي ساعة المرح كان يتفكه ، ويهزأ منهن . وكانت زوجته العجوز الشكسة لا تبارح سطح الموقد طوال اليوم ، وتدمدم وتشتم دون انقطاع ، ولم يكن ابناؤها يعيرون لها التفاتا ، ولكنها كانت تُبقي كناتها في وجل دائم . فلا عجب في ان تقول الحماة في الاغنية الروسية : «اي ابن انت لي ، واي راس عائلة ، اذا كنت لا تضرب زوجتك ، لا تضرب الشابة . . .» ذات مرة فكرت في الوقوف الى جانب الكنات ، وحاولت اثارة عطف خور عليهن ، الا انه اعترضني بهدوء قائلا : «ما الداعي الى ان تشغل نفسك بهذه . . . التافهات . دع النسوان يتشاجرن . . . حتى لو مزقتهن لكان ذلك اسوأ . . . كما لا يستحق ذلك تلويث اليدين» . واحيانا كانت العجوز اللئيمة تنزل من الموقد ، وتدعو كلب الحراسة من الرواق مستميلة اياه : «هونا ، هونا ، يا كليب !» وتضرب ظهره النحيل بقضيب تحريك النار ، او تتوقف تحت سقيفة واجهة البيت ، و«تتنابح» ، على حد تعبير خور ، مع المارين . ومع ذلك فقد كانت تخاف زوجها ، وتصعد ، بامر منه ، الى مكانها على سطح الموقد . ولكن كان من الممتع ،بشكل خاص ، الاستماع الى

جدال كالينيتش مع خور ، حين يتطرق الحديث الى السيد بولوتيكين . فكان كالينيتش يقول : – «اسمع ، يا خور ، اياك ان تمس سيدي بولوتيكين» . فيعترض عليه خور قائلا : – «ولماذا لا يخيط لك حذاءا طويلا ؟» – «اهوه ، حذاءا طويلا ! . . . وما حاجتي الى حذاء طويل ؟ انا فلاح . . . » – «وانا فلاح ايضا ، ولكن انظر . . .» وبهذه الكلمة يرفع خور قدمه ، ويري كالينيتش فردة حذاء طويل مصنوع ، ربما ، من جلد الماموث . وكان كالينيتش يرد : – «اوه ، انت لست على شاكلتنا !» – «طيب ، على الاقل لو اعطاك ما تشتري به حذاء ليفيا ، فانت تخرج معه للصيد . كل يوم تستهلك حذاء ليفيا ، على ما اظن . .» – «هو يفعل ذلك ، يعطيني ما اشتري به الحذاء الليفـــي . .» – «نعم ، وهبـــك في العام الماضي عشرة كوبيكات» . ويشيح كالينيتش بوجهه متضايقـــا ، فينفجر خور ضاحكا ، وعند ذاك تختفي تماما عيناه الصغيرتان .

كان كالينيتش يغني بصوت عذب جدا ، ويعزف على البلالايكا . وكان خور يطيل الاستماع اليه ، ويثني راسه فجاة الى جانب ، ويبدأ بالانضمام اليه بصوت شاكٍ . وكان يحب بشكل خاص اغنية «ايه ، يا نصيبي ، نصيبي !» . وكان فيديا لا يفوت الفرصـــة للتنكيت على ابيه : «ما هذا الذي يشجيك ، يا عجوز ؟» ولكن خور كان يسند خده على يده ، ويغمض عينيه ، ويتابع التشكي مـــن نصيبه . . . ومع ذلـــك ، ففي وقت آخر كان لا يبزه رجل في النشاط . طوال الوقت ينكب على شيء . يصلح عربة ، او يقوّم سياجا ، او يفحص عدة حصان . ولكنه لم يكن يراعي النظافة كثيرا وقد اجاب ، ذات مرة ، على ملاحظتي هذه ، بأن «الكوخ يجب ان تفوح منه رائحة السكن» .

اعترضته قائلا :

– انظر الى المنحل عند كالينيتش ، كم هو نظيف .

قال متنهدا :

– لو لا ذاك لما عاش النحل ، يا سيدي .

وفي مرة اخرى سألني : – «هل لديك ضيعة موروثة» – «نعم» . – «بعيدة عن هنا ؟» – «حوالى مائة فرسخ» . – «وهل تعيش في ضيعتك ، يا سيدي ؟» – «اعيش» . – «ولكن تستمتع ببندقية الصيد اكثر ، على ما يبدو ؟» – «نعم ، واعترف لك» . – «حسنا ما

تفعل ، يا سيدي . اصطد بالعافية ما شئت من طيور الطيهوج ، ولكن غيِّر عمدتك اكثر» .

وفي مساء اليوم الرابع بعث اليّ السيد بولوتيكين مَنْ يدعوني اليه . وتاسفت على فراق العجوز . ركبت في العربة مع كالينيتش . قلت : –«وداعا ، يا خور ، عندك العافية . وداعا ، فيديا» . – «وداعا ، يا سيدي ، وداعا ، ولا تنسنا» . وتحركنا . كان الغروب يتوهج لتوه . – «سيكون الطقس طيبا يوم غد» . لاحظت ، وانا انظر الى السماء الصافية . – «لا ، سينزل مطر – اعترضني كالينيتش – ها هو البط يضرب الماء هناك ، كما ان للعشب رائحة قوية جدا» . طلعنا الى احراش . انشأ كالينيتش يغني بصوت خافت ، قافزا بجسمه على مقعد الحوذي قليلا ، لا يصرف نظره عن الغروب . . .

في اليوم التالي غادرت كنف السيد بولوتيكين المضياف .

بيريوك (٧)

كنت عائدا لوحدي من الصيد مساء على عربة خفيفة . ولم يكن قد تبقى على وصولي الى البيت غير زهاء ثمانية فراسخ . كان فرسي الطيب في عدوه الخَبَب يجري سريعا على الطريق المتربة ، ومن حين لآخر يحمحم ويحرك اذنيه . والكلب المتعب لم يبتعد عن العجلتين الخلفيتين خطوة واحدة ، وكانما شُدَّ اليهما . وكانت عاصفة رعدية تتقدم ، والى الامام سحابة ليلقية تصعد ببطء من وراء الغابة ، وغيوم رمادية طويلة تنطلق فوق راسي وللقائي . وكانت شجيرات الصفصاف تحف حفيفا مذعورا ، وتهمهم . وفجأة حلت برودة رطبة محل الحر الخانق ، وتكاثفت الظلال بسرعة . ضربت الحصان بالعنان ، ونزلت الى وهدة ، واجتزت جدولا جافا ، غطت اجمات صفصاف حوضه السابق . ارتقيت مرتفعا ، ودخلت غابة . كان الطريق امامي يتلوى وسط احراش كثيفة من شجر الجوز قد اغرقتها العتمة . صرت اتقدم بصعوبة . كانت العربة تنط على الجذور الصلبة لاشجار البلوط والزيزفون المعمرة ، والمتقاطعة دائما اخاديد طولانيـة عميقة ، هي آثار عجلات العربات . وبدأ حصاني يتعثر . ودوّت ريح شديدة في الاعالي فجاة ، واخذت الاشجار تهدر بجنون ، وقطرات المطر الكبيرة تضرب باوراقها وتدق بشدة ، ووميض البرق ، وهدرت العاصفة الرعدية . ابطات السير ، وسرعان ما اضطررت الى ان اتوقف : كانت فرسي تغطس في الوحل ولم أعد ابصر شيئا . وبعد لأي استجرت باجمة عريضة . تكوّرت ولففت وجهي ، ورحت انتظر صبورا انتهاء المطر ، وفجاة وفي وميض البرق ، تراءى لي في الطريق شخص عالي القامة . اخذت اتفرّس في تلك الجهة ، واذا بذلك الشخص يبرز قرب عربتي ، وكانه طلع من الارض .

سأل صوت صداح :

– مَنْ هذا ؟

– وانت نفسك مَنْ تكون ؟

– انا حارس الغابة هنا .

سميت نفسي .

– آه ، اعرف ! في طريقك الى البيت ؟

– نعم . ولكن انظر اية عاصفة . . .

– نعم ، عاصفة – اجاب الصوت .

اضاء وميض البرق الابيض حارس الغابة من راسه حتى قدميه ، واعقبه على الاثر هزيم رعد مفرقع قصير . وهطل المطر بقوة مضاعفة .

مضى حارس الغابة يقول :

– لا ينقطع عن قريب .

– ما العمل ! – وقال الحارس بصوت حاد :

– ساوصلك الى كوخي ، على ما يبدو .

– اعمل معروفا .

– تفضل اجلس .

دنا من راس الفرس ، وامسكه من رَسَنه ، وجذبه من موضعه . وتحركنا . امسكت بمقعد العربة التي كانت تترنح «مثل زورق في البحر» (٨) ، وناديت الكلب صائحا . كانت فرسي المسكينة تخوض بسنابكها في الوحل بثقل ، وتزلق ، وتتعثر . وكان حارس الغابة يترنح امام عريشَيْ العربة يمينا وشمالا ، كالخيال . سرنا وقتا طويلا ، وفي آخر الامر توقف مرافقي . «ها نحن في البيت ، يا سيد» نطق بصوت هادئ . صر باب السياج ، ونبحت عدة جراء نباحا متساوقا . رفعت راسي ، فرايت ، في ضوء البرق ، كوخا صغيرا وسط فناء واسع محاط بسياج من الاغصان المضفورة . ولاح ضوء خافت من احدى النوافذ الصغيرة . اوصل حارس الغابة الفرس الى مدخل الكوخ ، وطرق الباب . وصدر صوت نحيل «هالآن هالآن» ، وترددت كركبة قدمين حافيتين ، وارسل المزلاج صريفا ، وظهرت على الباب فتاة في نحو الثانية عشرة في جلباب محزّم بحاشية من قماش ، وفي يدها فانوس . قال حارس الغابة لها :

– اضيئي للسيد . اما انا فساضع عربتك تحت السقيفة .

رمقتني الفتاة بنظرة ، وسارت في الكوخ . وسرت انا في إثرها .

كان كوخ حارس الغابة يتألف من غرفة واحدة مسخّمة واطئة وخاوية ، وبلا تخوت نوم معلّقة ، ولا حواجز ، وكانت فروة طويلة ممزقة معلقة على الحائط ، وعلى المسطبة بندقية بماسورة واحدة ، وفي الزاوية كومة متراكمة من الخرق ، وقرب الموقد قدران كبيران . وكانت شعلة عود الخشب تضيئ على الطاولة ، تتوهج تارة بوهج بائس ، وتكمد تارة اخرى . وفي وسط الكوخ تماما تدلت ارجوحة مهد معلقة بطرف عمود طويل . اطفات الفتاة الفانوس . وجلست على مسطبة صغيرة ، واخذت تهز الارجوحة باليد اليمنى ، وتعدل الشعلة باليد اليسرى . نظرت فيما حولي . وجزع قلبي ، فليس من المبهج ان اقضي الليل في كوخ ريفي . كان الطفل في ارجوحة المهد يتنفس بثقل وتسارع . سالت الفتاة :

– انت وحدك هنا ؟

– وحدي ، – نبست بصوت لا يكاد يبين .

– انت ابنة حارس الغابة ؟

– ابنته .

صرف الباب ، وتخطى حارس الغابة العتبة ، بعد ان احنى راسه . رفع الفانوس من الارض ، وتقدم من الطاولة ، واشعل فتيلته .

– اظنك لم تتعود على شعلة العود ؟ – قال ، ودفع خصلاته الجعداء الى الوراء .

نظرت اليه . نادرا ما صادف ان رأيت رجلا بادي القوة مثله . كان مديد القامة ، عريض المنكبين ركين البنيان . كانت عضلاته الجبارة تبرز ناتئة من تحت قميصه المبلل المصنوع من الخيش . كانت لحيته السوداء الجعداء تغطي ما يقرب من نصف وجهه الصارم الرجولي ، وكانت عيناه الصغيرتان البنيتان تطلان بجراة من تحت حاجبيه العريضين الكثيفين . اسند يديه على جنبيه قليلا ، وتوقف امامي .

شكرته ، وسالته عن اسمه . اجاب :

– اسمي فوما ، ولكنني أُلقب بـ«بيريوك» * .

* في ولاية اوريل يسمى الرجل الوحيد الجهم «بيريوك» (**الملاحظة للمؤلف**) .



– انت بيريوك ، اذن ؟

ونظرت اليه بفضول مضاعف .

وكنت كثيرا ما اسمع من خادمي يرمولاي ، ومن آخرين حكايات عن حارس الغابة بيريوك الذي كان يخشاه جميع فلاحي المنطقة ، مثلما يخشون النار . ولم يظهر في الدنيا ، حسب اقوالهم ، مَنْ يضارعه بالمهارة في عمله : «لن يسمح بأخذ ضمة من المساليج ، في اي وقت كان ، ولو في منتصف الليل ، يسقط عليك فجاة ، كما يسقط الثلج على الراس ، ولا تفكر انت بالمقاومة ، فانه قوي ، على ما يقولون ، وحَذِق كالعفريت . . . ولا يمكن ان ترشيه بشيء ، لا بالخمرة ولا بالنقود ، ولا يستجيب لاي طُعم . تهيأ الناس الطيبون غير مرة ليرسلوه الى العالم الآخر ، ولم يفلحوا ، فانه لا يقهر» .

بهذا الشكل كان الفلاحون المجاورون يتحدثون عن بيريوك .

– انت بيريوك ، اذن – كررت قولي – انا ، يا اخ ، سمعت عنك . يقولون إنك لا تغفر لاحد اساءة .

– اقوم بواجبي – اجاب جهوما – لا ينبغي ان يؤكل خبز صاحب الامر بالمجان .

تناول فاسا من وراء حزامه ، واقعى على الارض ، واخذ يشظي عود خشب للشعلة . سألته :

– اليست لك زوجة ؟

– لا . – اجاب ، ورفع الفاس والقاها بقوة .

– يعني ماتت ؟

– لا . . . نعم . . . ماتت . – اضاف ، واشاح وجهه .

صمتُ . فرفع عينيه ، ونظر اليّ .

– هربت مع عابر من اهل المدينة – قال بابتسامة قاسية .

نكّست الفتاة راسها ، واستيقظ الطفل ، وراح يصرخ ، واقبلت الفتاة على المهد . – خذي ، اعطيها له – قال بيريوك ودسّ في يدها قنينة رضاعة وسخة – وتركته ايضا – تابع بصوت خافت مشيرا الى الطفل . وتقدم من الباب ، وتوقف ، واستدار وبادر يقول :

– اظنك ، ايها السيد ، لا تاكـل خبزنا ، وليس لي غير خبز . . .

– لست جائعا .

— كما تشاء . . كنت سانصب لك السماور ، ولكن ليس عندي شاي . . . انا ذاهب لاتفقد حصانك .

خرج ، وصفق الباب . اجلت ببصري مرة اخرى . فبدا لي الكوخ اكثر بؤسا ووحشة من المرة الاولى . كانت الرائحة المرة للدخان الخامد تضيّق على انفاسي . لم تتحرك الفتاة من مكانها ، ولم ترفع بصرها ، ومن حين لآخر كانت تدفع ارجوحة المهد . وتعدل على كتفها بحياء قميصها النازل ، وقدماها الحافيتان متدليتان بلا حراك .

سالتها :

— ما اسمك ؟

— اوليتا . — قالت ، وخفضت وجهها الحزين اكثر .

دخل حارس الغابة ، وجلس على المسطبة .

— العاصفة توشك ان تنتهي — ذكر بعد صمت قصير — اذا امرت ، فساخرجك من الغابة .

نهضت . تناول بيريوك البندقية ، وعاين خزان البارود . سالته :

— لماذا هذه ؟

— هناك تجاوز في الغابـــة . . . في وهدة كابيلي يقطعون الاشجار — اضاف ردا على نظرتي المتسائلة .

— والصوت مسموع من هنا ؟

— مسموع من الفناء .

خرجنا سوية . توقف المطر . وفي البعيد ما زالت كتل السحب الهائلة تتلبد ، ومن حين لآخر تتوهج بروق طويلة ، ولكن السماء الزرقاء الداكنة كانت ترى هنا وهناك فوق راسينا ، وتتوامض النجوم من خلال غمائم رقيقة متطايرة بسرعة . . واخذت تبرز من الظلمة معالم اشجار بللها المطر ، واثارتها الريح . صرنا نتسمع . خلع حارس الغابة قبعته ، واطرق براسه : «اسمع . . . اسمع — قال فجاة ، ومدّ ذراعه — اية ليلة داجية اختار» . لم اسمع غير ضجيج اوراق الشجر . قاد بيريوك الحصان من تحت السقيفة .

— وبهذا الشكل ، اظن — اضاف بصوت مسموع — سيفلت مني .

— ساذهب معك . . هل تريد ؟

— طيب ، — اجاب بيريوك ، واعاد الحصان الى موضعه — سنمسكه حالا ، وبعدها ساوصلك . لنذهب .

سرنا ، بيريوك في المقدمة ، وانا وراءه . والله يعلم كيف كان يتبين الطريق ، ولكنه لم يكن يتوقف الا نادرا ، وما ذلك الا ليتسمع هبدة الفاس .

— اسمع— تمتم من خلال اسنانه — هل تسمع ؟ تسمع ؟

— ولكن اين ؟

هزّ بيريوك كتفيه . هبطنا الى الوهدة ، وهدأت الريح لحظة . وبلغت سمعي بوضوح ضربات متساوقة . رمقني بيريوك بنظرة ، وهزّ رأسه . تابعنا سيرنا خلال السرخس البليل والقراص . صدر طنين ناءٍ متواصل . . تمتم بيريوك :

— اوقعها . . .

وفي غضون ذلك استمرت السماء بالصحو ، وتنورت الغابة قليلا . وطلعنا من الوهدة آخر الامر . همس لي حارس الغابة : «انتظر هنا» ، وانحنى ، ورفع بندقيته الى الاعلى ، واختفى بين الاجمات . اخذت اتسمع متوتر الاعصاب . وخيل الي انني اسمع ، من خلال عصف الريح المستمر ، اصواتا ضعيفة غير بعيدة عني . كانت فاس تضرب الاغصان بحذر ، وصرّت العجلات ، وصهل حصان . . . «قف ! الى اين ؟» هدر فجاة صوت بيريوك الحديدي . صاح صوت آخر متشكيا كصوت الارنب . . . وبدأ صراع . — «وتكذب . . تكذب — قال بيريوك مؤكدا لاهث الانفاس — لن تذهب . . .» اندفعت صوب الضجة ، وركضت الى مكان العراك متعثرا في كل خطوة . كان حارس الغابة يضطرب على الارض ، عند الشجرة المقطوعة ، ويمسك اللص تحته ، ويربط يديه على ظهره بنطاق . تقدمت . نهض بيريوك ، واوقفه على رجليه . فرايت فلاحا مبللا في ثياب مهلهلة ، ولحية طويلة مشعثة . وفي نفس البقعة كان حصان هزيل بائس مغطى الى النصف بحصيرة عجراء يقف مع العربة . لم يتفوه حارس الغابة بكلمة وكان الفلاح صامتا ايضا ، سوى انه كان ينفض راسه لا غير . همست في اذن بيريوك :

— اطلق سراحه ، وسادفع قيمة الشجرة .

امسك بيريوك ناصية الحصان بيده اليسرى صامتا ، وقبض باليمنى على اللص من حزامه . وقال بحدة : — «هيا ، استدر ، ايها العاطل» . تمتم الفلاح : — «الفاس هناك ، خذها» . — «حقا ، ولِمَ تضيع سدى ؟» قال حارس الغابة ، ورفع الفاس . واتخذنا طريقنا .

سرت في المؤخرة . . . بدات السماء تنث من جديد ، وسرعان ما تساقط المطر مدرارا . ووصلنا الى الكوخ بعد لأي . اطلق بيريوك الحُصين الماسور وسط الفناء ، وقاد الفلاح الى الغرفة ، وارخى عقدة الحزام ، واجلس الفلاح في ركن . هبّت الفتاة التي كانت قد غفت قرب الموقد ، وراحت تنظر الينا بذعر صامت . جلست على المسطبة الصغيرة .

— اهوه ، بدأ المطر يهطل — لاحظ حارس الغابة — يقتضي الانتظار مرة اخرى . الا ترغب في الاستلقاء ؟

— شكرا .

— كان من الممكن ان احجزه بالشونة ، من اجل خاطرك — تابع مشيرا الى الفلاح — ولكن انظر ، الرتاج . . .

قاطعت بيريوك :

— اتركه هنا ، لا تمسه .

نظر الفلاح اليّ من تحت حاجبيه . وفي دخيلتي قطعت على نفسي عهدا بأن اطلق سراح المسكين ، مهما كلّف الامر . كان يجلس على المسطبة بلا حراك . وفي ضوء الفانوس كان في وسعي ان اتبين وجهه المنحول المتغضن ، وحاجبيه الاصفرين الناتئين ، وعينيه القلقتين ، واطرافه النحيلة . . . استلقت الفتاة على الارض ، عند قدميه تماما ، وغفت من جديد . جلس بيريوك الى الطاولة مسندا راسه الى يديه . شرع جندب يزعق في ركن . . المطر يضرب على السطح ، ويسيل على النوافذ . وصمتنا جميعا .

— فوما كوزميتش — انشأ الفلاح يقول فجأة بصوت مهشم لا رنة فيه — يا فوما كوزميتش .

— ماذا تريد ؟

— اعتقني .

لم يجب بيريوك .

— اعتقني . . . من الجوع . . اعتقني .

— انا اعرفكم — اعترض حارس الغابة بتجهم — قريتكم كلها مثلك — لص على لص .

— اعتقني — كرر الفلاح — المامور . . . خربنا ، هكذا . . . اعتقني !

— خربتم ! . . لا يجوز لاحد ان يسرق .

– اعتقني ، فوما كوزميتش . . . لا تهلكني . صاحبكم ، وانت نفسك تعرف ، يذيقني الامرّين .

اشاح بيريوك بوجهه . واخذ الفلاح يرتعش ، وكان حمسى اثنابته .كان يرعش رأسه ، ويتنفس باضطراب .

– اعتقني – كان يكرر باستماتة الجزع – اعتقني ، من اجل الرب ، اعتقني ! سادفع جيدا ، والله . من الجوع والله ، الاطفال يولولون ، انت نفسك تعرف . الظروف قاسية .

– مهما يكن لا تلجا الى السرقة .

– الحصين – تابع الفلاح قوله – الحصين هذا ، على الاقل . . الحيوان الوحيد لدينا ، اطلقه ! . .

– قلت غير ممكن . انا ايضا لست حرا . لا يتسامحون معي كما لا يجوز التساهل معكم .

– اعتقني ! هي الحاجة ، يا فوما كوزميتش ، الحاجة الشديدة ولا شيء . . . اعتقني !

– انا اعرفكم !

– ولكن اعتقني !

– اوه ، لا نفع في التحدث معك ، اجلس بهدوء ، عندي تعرف ؟ الا ترى السيد ؟

اطرق البائس راسه . تثاءب بيريوك ، ووضع راسه على الطاولة . والمطر لم يتوقف قط . كنت انتظر ماذا سيكون .

انتصب الفلاح فجاة . وتوهجت عيناه ، وظهرت الحمرة على وجهه . «طيب ، هاك ، كلْ ، هاك ، واختنق ، هاك – شرع يقول مقلصا عينيه ، وقد ارتخى طرفا شفتيه – خذ ، يا زاهق الروح ، اللعين ، اشرب دم المسيحي ، اشرب . . .» .

ادار حارس الغابة راسه .

– كلامي لك ، يا همجي ، يا شارب الدم ، كلامي لك !

– هل انت سكران لتشتم هذه الشتائم ؟ – قال حارس الغابة باندهاش – هل جننت ؟

– سكران ! . . . ليس من فلوسك ، يا زاهق الروح اللعين ، وحش ، وحش ، وحش !

– اوه ، يا لك . سأريك ! . .

– لا يهمني ، كل شيء عندي واحد ، الضياع . الى اين اذهب

بدون حصان ؟ اقتلني ، النتيجة واحدة . سواء من الجوع او بهذا الشكل ، النتيجة واحدة . الجميع ضاعوا ، الزوجة ، الاطفال ، الجميع هلكوا . . . اما انت فانتظر ، سنصل اليك .

رفع بيريوك جذعه من مقعده .

– اضرب ، اضرب – زعق الفلاح بصوت ضار – اضرب ، هاك هاك ، اضرب (هبّت الفتاة من الارض على عجل ، وتفرست فيه) اضرب ! اضرب !

– اسكت ! – هدر حارس الغابة ، وتقدم خطوتين .

صحت انا :

– كفى ، كفى ، يا فوما . اتركه . . . عافاه الله .

وواصل التعيس كلامه :

– لن اسكت . لا مفر من الموت ، انت زاهق ارواح ، وحش ، الموت لا يأخذك . . . ولكن ، انتظر ، الآخرة ليست بعيدة عنك ! سيقلعون لك لوزتك ، إنتظر !

امسكه بيريوك من كتفه . . . وهرعت لنجدة الفلاح . . .

– لا تمسه ، يا سيد ! – صاح حارس الغابة بي .

وما كنت ساعبأ بتهديداته ، وقد مددت يدي ، ولكن ، ولدهشتي القصوى ، سحب بيريوك الحزام من مرفقيّ الفلاح ، بجرة واحدة ، وامسكه من تلابيبه ، ودفع قبعته على عينيه ، وفتح الباب ، ودفعه الى الخارج .

– اذهب الى الجحيم ، مع حصانك – صاح في اثره – ولكن اياك ان تمر في المرة الثانية . . .

وعاد الى الكوخ ، واخذ ينبش في ركن .

– حسن ، بيريوك – نطقت اخيرا – لقد ادهشتني ، ارى انك فتى طيب .

– هوه ، كفى ، يا سيد – قاطعني بانزعاج – ارجو ان لا تتحدث عن ذلك – ثم اضاف – ولكن من الاحسن ان اوصلك . اظن انك لن تنتظر حتى يتوقف المطر . . .

في الفناء اخذت عجلات عربة الفلاح تدق الارض .

– ذهب ، يعني ! – تمتم بيريوك – ولكن سأريه .

بعد نصف ساعة تودع معي عند حافة الغابة .

المغنيان (٩)

كانت قرية كولوتوفكا الصغيرة ملكا في وقت من الاوقات ، لمالكة اراض كانت تكنى في المنطقة بـ«ستريغانيخا» * بسبب خلقها الطائش الشموس (ظل اسمها الحقيقي مجهولا) ، وهي الآن ملك لالماني من بطرسبورغ . والقرية تقع على منحدر تل اجرد تقطعه ، من الاعلى الى الاسفل ، وهدة رهيبة محفورة متآكلة ، فاغرة الشدق كالهاوية تتلوى وتشطر القرية الصغيرة المسكينة الى شطرين ، اسوأ مما يشطرها نهر – على الأقل من الممكن عند وجود النهر مد جسر عليه . وكانت بعض اشجار الصفصاف الهزيلة تتحدر بتهيّب ، على جنبيها الرمليين . وفي القاع تماما ، الجاف والاصفر ، كالنحاس ، ترقد صفائح هائلة من الحجر الصلصالي . منظر غير بهيج ، دون ريب ، ومع ذلك فان اهالي القرى المجاورة يعرفون جيدا الطريق الى كولوتوفكا (١٠) . فقد كانوا يغدون اليها طواعية ومرارا .

عند راس الوهدة ، على بعد خطوات قليلة من النقطة التي تبدا بالانحدار منها كأخدود ضيق ، يقع كوخ مربع صغير ، يقف وحيدا منعزلا عن الاكواخ الاخرى . سقفه مغطى بالدريس ، وله مدخنة ، ونافذته الوحيدة ، تطل كعين ثاقبة ، على الوهدة ، وفي الاماسي الشتائية ، حين تضاء من الداخل تلوح من بعيد ، في ضباب الصقيع الشاحب ، وتتوامض كالنجم الهادي لغير واحد من الفلاحين المارين . وفوق باب الكوخ دقت لوحة زرقاء . ان هذا الكوخ حانة تسمى «الملاذ» تبيع النبيذ بسعر ، ربما ، لا يقل عن السعر المعيّن ، ولكن المترددين عليها اكثر ، بدرجة كبيرة ، من المترددين على جميع

* تعطي هذه الكنية بمدلولها في اللغة الروسية صورة صاحبة اقنان ضارية . **الناشر** .

مثيلاتها في القرى المجاورة . والسبب في ذلك يرجع الى ساقي الحانة نيقولاي ايفانيتش .

ونيقولاي ايفانيتش – الذي كان في يوم ما فتى ممشوق القوام ، اجعد الشعر ، متورد الخدين ، وهو الآن رجل بدين بشكل غير اعتيادي ، اشيب ، منتفخ الوجه ، عيناه تنمان عن طيبة ومكر ، وجبينه دسم مشدود بغضون كالخيوط – يعيش في كولوتوفكا منذ اكثر من عشرين عاما . انه رجل حاذق سريع البديهة ، كمعظم سقاة الحانات . وهو ، وان لم يكن يتميز بمجاملة ملحوظة ، ولا ذلاقة لسان ، يملك موهبة اجتذاب الزوّار ، وابقائهم عنده ، حيث كان يبهجهم الجلوس امام منصة صاحب الدار الفاتر المزاج ، وتحت نظرته الهادئة الخفيّة ، رغم نفاذها . ان له الكثير من العقل السليم ، كما انه يعرف جيدا حياة مالكي الاراضي ، والفلاحين ، واهل المدن ، وفي اللحظات العسيرة في وسعه ان يسدي نصحا معقولا ، ولكنه ، وكرجل حذر اناني ، يفضل البقاء في ناحية ، وبالتلميحات البعيدة وحدها ، والتي تبدو وكانها قد القيت دون اى قصد ، يهدي زائريه ، والمفضلين لديه وحدهم ، الى طريق الصواب . انه ضليع في كل شيء مهم او ممتع للروسي : في الخيول والمواشي ، في الخشب ، في الآجر ، في الاواني ، في انواع المنسوجات ، في الجلد ، في الاغاني والرقصات . وحين تخلو حانته من الزوار يطوي تحته ساقيه النحيفتين ويجلس في العادة كالزكيبة ، على الارض ، امام باب حانته ، يتبادل الكلمات الرقيقة مع المارين جميعا . لقد راى نيقولاي ايفانيتش الكثير في حياته ، وعاصر عشرات عديدة من الملاكين الصغار ممن قضوا نحبهم ، وكانوا في حياتهم يترددون عليه طلبا للخمرة المصفاة ، وهو يعرف كل شيء يجري في دائرة قطرها مائة فرسخ ، ولا يُفشي خبرا ابدا ، بل ولا يظهر انه يعرف ما لا يرتاب في وقوعه اكثر رجال الشرطة نفاذ بصيرة . انه يصمت غير ملتفت الى شيء ، ويضحك ، ويرن بالاقداح . وجيرانه يحترمونه : الجنرال المدني * شيريبيتنكو ، اول مالك في القضاء بهذه الرتبة ، ينحني له متلطفا ، كلما مرّ ببيته الصغير . ان نيقولاي ايفانيتش رجل ذو نفوذ ، فقد اجبر سارق خيول مشهورا على

* في روسيا القيصرية كانت الجنرالية رتبة مدنية ايضا . **المعرب** .

ان يرد الحصان الذي سرقه من فناء احد معارفه ، واعاد الى الصواب فلاحي قرية مجاورة لم يريدوا قبول وكيل جديد ، الى غير ذلك . ومع هذا لا ينبغي الظن بانه كان يفعل ذلك حبا في العدالة ، وإيثارا للقريبين منه . لا ! بل سعيا منه لتفادي كل ما يمكن ان يعكر صفوه على نحو ما . نيقولاي ايفانيتش متزوج ، وله اولاد . وزوجته إمراة من اهل المدينة حاذقة مدببة الانف ، سريعة العينين ترهل جسمها قليلا ، في الفترة الاخيرة ، مثل زوجها . والزوج يعتمد عليها في كل شيء . الفلوس ايضا محفوظة عندها في خزانة مغلقة . ان السكيرين المعربدين يخافونها ، وهي لا تحبهم ، الفائدة منهم قليلة ، والضجة كثيرة ، والاقرب الى قلبها هم الصامتون العابسون . الاولاد ما يزالون صغارا . الاوائل ماتوا جميعا ، ولكن الباقين ساروا على منوال والديهم . والتطلع الى وجوه هؤلاء الفتية الاصحاء ، الى وجوههم الصغيرة الذكية بهجة للناظرين .

في نهار من تموز لا يطاق قيظه ، كنت أصعد مع كلبي بمحاذاة وهدة كولوتوفكا صوب حانة الملاذ ، منقلا قدمي ببطء . كانت الشمس تتوهج في السماء ، وكانها تتلظى . كان الجو حارا ورطبا بضراوة . وكله مشبع بالغبار الخانق . وكانت غربان القيظ اللامعة والزيغان بمناقيرها الفاغرة تنظر بتشك الى المارة ، وكانها تطلب منهم تعاطفا . والعصافير وحدها لم تكن تاسى . نفشت ريشها ، وراحت تزغرد اقوى من ذي قبل ، وتتعارك على الاسيجة ، وتطير بوئام من الطريق المترب ، وتحوم كالغمائم الرمادية فوق حقول القنب الخضراء . كان العطش يضنيني ، ولا ماء في جواري . اذ كان الفلاحون في كولوتوفكا ، كما في القرى السهبية الكثيرة الاخرى ، يشربون وحلا سائلا من بركة ، لافتقارهم الى الينابيع والآبار . . . ولكن مَنْ الذي يسمي هذا المشروب المقزز ماء ؟ كنت اريد ان اطلب من نيقولاي ايفانيتش قدح بيرة او كفاس .

ويجب الاعتراف بان كولوتوفكا ليست منظرا بهيجا في اي فصل من فصول السنة ، ولكنها تثير شعورا شجيا بشكل خاص ، حين تغرق شمس تموز الساطعة باشعتها الضارية سطوح البيوت البنية بقشها المنحول ، وتلك الوهدة العميقة ، والمرعى المحروق المغبر الذي يسرح فيه ، بلا امل ، الدجاج المحول الطويل السيقان ، والهيكل الرمادي من جذوع الحور بثقوبه بدلا من النوافذ ، وهو

طلل بيت مالك اراض ، نما حوله القرّاص والاعشاب الطفيلية والافسنتين ، والبركة السوداء، كما لو سُفِحت بنار ، المحفوفة بوحل نصف يابس ، وسدتها مائلة جانبا ؛ وقرب هذه السدة ، وعلى ارض كالرماد دقتها الاقدام دقا ناعما تتزاحم خراف فيما بينها ، وهي لا تكاد تتنفس ، وتسعل من شدة الحر ، وتخفض رؤوسها بصبر جازع ، الى اوطا ما يمكن ، وكانها تنتظر متى سيزول اخيرا هذا القيظ الذي لا يطاق . اقتربت من مسكن نيقولاي ايفانيتش بخطى متعبة ، مثيرا في الاطفال ، بحكم العادة ، دهشة بلغت حد الحلقة المجهدة التي لا معنى لها ، وفي الكلاب غيظا تعرب عنه بنباح مبحوح خانق الى درجة تشعر معها ، وكان كل احشائها قد تقطعت ، حتى انها ، فيما بعد ، راحت نفسها تسعل وتلهث ، وعندئذ ، ظهر ، فجاة ، على عتبة الحانة رجل طويل حاسر الرأس ، في معطف من النسيج القطني الخشن ، محزم بنطاق ازرق هابط . كان في مظهره يبدو كخادم في بيت مالك ارض ، وكان شعره الكثيف الاشيب ينتصب في فوضى فوق وجهه النحيف المتغضن . نادى شخصا ما ، محركا بعجالة ذراعيه اللتين كانتا ، على ما يظهر ، تمتدان اطول من الحد الذي كان هو راغبا فيه . وكان ملحوظا انه لحق ان يحتسي شرابا .

— تعال ، تعال حالا — تمتم رافعا حاجبيه الكثين بجهد — تعال ، مورغاتش ، تعال ! اوَه ، انت تزحف ، يا اخ ، كلمة حق ، يا اخ ، ليس لطيفا .هم ينتظرونك هنا ، وانت تزحف . . . تعال .

— طيب ، قادم ، قادم — صدر صوت مهتز ، وخرج من وراء الكوخ من جهة اليمين رجل قصير بدين اعرج . عليه معطف من الجوخ يصل الى حد الركبة ، نظيف بدرجة كافية ، ملبوس بردن واحد ، وقبعة مدببة نازلة الى حاجبيه تماما تضفي على وجهه المدوّر المنتفخ تعبيرا لعوبا ساخرا . كانت عيناه الصغيرتان الصفراوان تتحركان كثيرا ، وشفتاه الرقيقتان لا تبرحهما ابتسامة متحفظة متوترة ، والانف ، المدبب الطويل ، يبرز الى الامام بوقاحة كالدفة . — انا قادم ، يا اخ — تابع قوله ، وهو يقزل نحو الحانة — لماذا تناديني؟ من الذي ينتظرني ؟

— لماذا اناديك ؟ — قال الرجل ذو المعطف القطني بعتاب — اوه ، يا لك ، مورغاتش ، غريب انت ، يا اخ . انا ادعوك الى الحانة ،

وانت تسأل : لماذا ؟ في انتظارك جميع الناس الطيبين : ياشكا * التركي ، والسيد الوحشي ، ووكيل العمال من جيزدرا . تراهن ياشكا مع وكيل العمال ، والرهان قدح كبير من البيرة : من الذي سيتغلب على الآخر في الغناء ، من ، يا ترى ، احسن . . . تفهم ؟

— ياشكا سيغني ؟ — قال المسمى مورغاتش بحيوية — لعلك تكذب ، يا عيّار ** ؟

— انا لا اكذب — اجاب العيّار بعزة نفس — انت تكذب . اذن ، سيغني ما دام هناك رهان ، يا خنفس ، يا غشاش ، يا مورغاتش !

اعترض مورغاتش قائلا :

— طيب ، لنذهب ، يا غرير .

— اذن ، قبلني ، على الاقل ، يا روحي . — غمغم العيّار ، بعد ان فتح ذراعيه بسعة .

— اوّه ، يا للمكار المدلل .

اجاب مورغاتش بازدراء ، دافعا اياه بكوعه ، ودخل الاثنان الباب الواطئ منحنيين .

اثار الحديث الذي سمعته فضولي بدرجة كبيرة . وكنت قد سمعت ، غير مرة ، اشاعات عن ياشكا التركي ، كاحسن مغن في الضواحي ، واذا بي اجد الفرصة امامي لسماعه في مباراة مع فنان آخر . حثثت خطاي ودخلت الحانة .

لعلّ القليل من قرائي قد اتيح له الفرصة لمشاهدة الحانات الريفية ، ولكن الصياد ، من امثالي ، لا يترك مكانا دون ان يدخله . ان بناءها بسيط للغاية . وهي ، في العادة ، تتكوّن من رواق مظلم ، وكوخ نظيف يشطره حاجز لا يحق لأحد من الزوّار ان يجتازه . وفي هذا الحاجز ، وفوق طاولة من خشب البلوط فتحة كبيرة مستطيلة ، وعلى هذه الطاولة او على المنصة يباع النبيذ . وعلى الرفوف مقابل الفتحة تماما صُفت قنانٍ مختومة من مختلف الاحجام . وفي الجزء الامامي المخصص للزوار وضعت مساطب صغيرة ، وبرميلان او ثلاثة فارغة ، ومنضدة في زاوية . ومعظم الحانات الريفية مظلمة

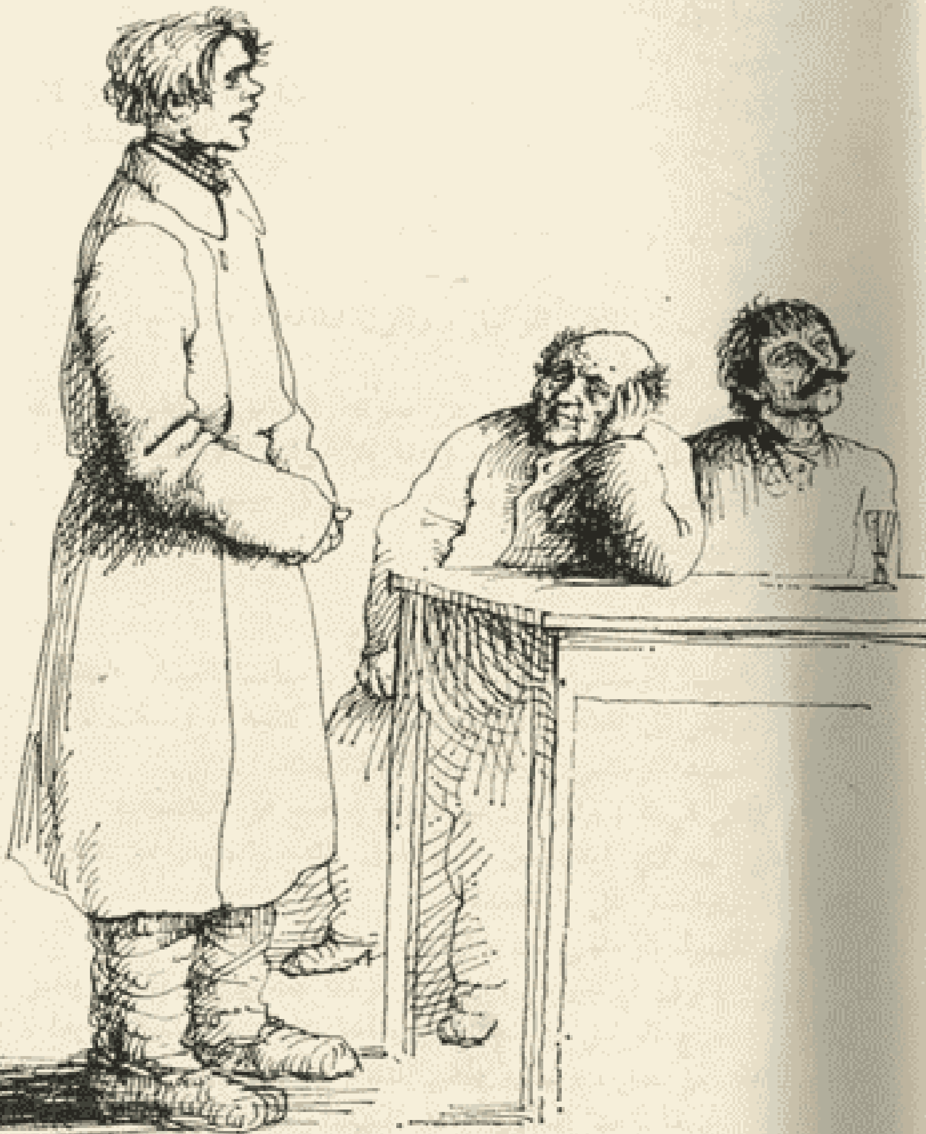
* هي صيغة التحبب من ياكوف ، وسيرد الاسم الكامل ياكوف فيما بعد . **المعرب** .

** العيّار : من يذهب ويجيء بلا عمل . **المعرب** .

عادة ، وجدرانها المصنوعة من الروافد تكاد تخلو من اية لوحة رخيصة ساطعة الالوان ، من تلك اللوحات التي لا يستغني عنها اي بيت ريفي .

عندما دخلت حانة الملاذ ، كان جمع كبير من الناس قد تجمع فيها .

وراء المنصة ، وعلى عرض الفتحة كلها تقريبا كان نيقولاي ايفانيتش يقف كالعادة ، في قميص مبرقش من القطن يصب بيده الممتلئة البيضاء ، والتكشيرة الفاترة على خديه المنتفخين ، قدحين من النبيذ للصديقين مورغاتش والعيّار اللذين دخلا قبلي . والى الخلف منه ، في ركن عند النافذة ، لاحت زوجته ذات العينين النافذتين . كان ياشكا التركي يقف في وسط الحجرة ، وهو رجل نحيل ممشوق في نحو الثالثة والعشرين في قفطان ازرق اللون ، طويل الحاشية من النسيج القطني المنزلي . كان يبدو فتى جسورا من المشتغلين في المعامل ، ولا تلوح عليه مخايل العافية الممتازة . كان خداه الغائران ، وعيناه الرماديتان الواسعتان القلقتان ، وانفه المستقيم بمنخريه الدقيقين الحركين ، وجبينه الابيض المتحدر بخصلاته الجعداء من الشعر الفاتح ، المسرحة الى الوراء ، وشفتاه السميكتان والجميلتان المعبرتان في نفس الوقت ، وكل وجهه يكشف عن رجل متأثر مشبوب العاطفة . كان في انفعال شديد ، يرمش بعينيه ، ويتنفس باضطراب ، ويداه ترتجفان ، وكأنه في قشعريرة ، بل وكان في قشعريرة فعلا ، في تلك القشعريرة المفاجئة الهالعة التي يعرفها جيدا اولئك الذين يتحدثون او يغنون امام جمع من الناس . وبالقرب منه وقف رجل في نحو الاربعين من العمر ، واسع الكتفين ، عريض الوجنتين ، منخفض الجبين له عينان تتريتان ضيقتان ، وانف قصير مفلطح ، وذقن مربع ، وشعر اسود لامع خشن كشعر الخنزير . كان التعبير على وجهه الاسمر ذي اللمعة الرصاصية ، ولا سيما شفتيه الشاحبتين يمكن ان يوصف بالضراوة ، لولا تلك المسحة من التفكير الهادئ . كان بلا حراك تقريبا ، لا يبدو منه غير تلفت بطيء فيما حوله ، كتلفت الثور من تحت النير . كان يرتدي معطفا طويل الاذيال ضيق الخصر مستهلكا له ازرار نحاسية مصقولة ، ومنديلا حريريا اسود قديما يحيط برقبته الضخمة . وكان يسمى السيد الوحشي وقبالته تماما



جلس على مسطبة تحت الايقونات وكيل العمال من جيزدرا ، منافس ياشكا . وهو رجل ركين متوسط القامة ، في نحو الثلاثين من العمر ، مجدّر الوجه ، اجعد الشعر ، ذو انف مرفوع مسطح ، وعينين بنيتين حيويتين ، ولحية هزيلة الشعر . كان ينظر فيما حوله جم النشاط ، وقد طوى يديه تحته ، وراح يؤرجح ساقيه بلا مبالاة ، ويدق الارض بقدميه المكسوتين بحذاء انيق طويل ذي حاشية . وكان يرتدي معطفا رقيقا جديدا من الجوخ الرمادي له ياقة من المخمل القطني ، برزت منها ، بشكل حاد ، حافة قميص احمر مزررة حول عنقه بإحكام . وفي الركن المقابل الى يمين الباب جلس الى طاولة فلاح صغير الجرم في رداء اوكراني طويل فيه ثقب هائل في الكتف . كان ضوء الشمس يتدفق سيلا شحيحا ضاربا الى الصفرة من خلال الزجاج المغبر لنافذتين صغيرتين ، ويبدو غير قادر على الانتصار على ظلام الحجرة المعتاد . كانت جميع الاشياء مضاءة بشحة ، وكأنما ببقع ، إلا ان الجو في الحجرة كان طربا تقريبا ، حتى انزاح عن كاهلي الشعور بالقيظ والاختناق ، كما ينزاح عبء ، ما ان دخلتها .

في بادئ الامر اربك دخولي ضيوف نيقولاي ايفانيتش ، – وهذا ما امكنني ان الاحظه ، إلا انهم ، حين رأوا انه ينحني لي بالتحية ، كرجل معروف له ، هدأ روعهم ، وبعد ذلك لم يعيروا اليّ التفاتا . طلبت بيرة ، وجلست في ركن قرب الفلاح ذي الرداء الاوكراني المثقوب .

– طيب ، اذن ! – زعق العيّار فجاة ، بعد ان احتسى قدح النبيذ جرعة واحدة ، مصاحبا هتافه هذا بتلويحات غريبة بيديه يبدو بدونها غير قادر على ان ينطق بكلمة واحدة . ومضى يقول :

– ماذا ننتظر اكثر ؟ لنبدأ اذا كان علينا ان نبدأ . ها ؟ ياشكا ؟

التقط نيقولاي ايفانيتش كلامه مؤيدا :

– نبدأ ، نبدأ .

نطق الوكيل * ببرود اعصاب ، وعلى شفتيه ابتسامة الثقة بالنفس :

---

* فيما بعد سيسمى وكيل العمال بهذا الاسم اختصارا . **المعرب** .

– لنبدأ ، على ما اظن . انا حاضر .
فقال ياكوف باضطراب :
– وانا حاضر .
فصاصا مورغاتش :
– طيب ، ابدآ ، يا حلويين ، ابدآ .
إلا ان احدا لم يبدا ، رغم الرغبة المعلنة بالاجماع ، بل ان الوكيل لم يرفع جسمه عن المقعد ، وبدا الجميع ، وكانهم ينتظرون شيئا .
قال السيد الوحشي بصوت حاد وعق :
– ابدأ !
جفل ياكوف . ونهض الوكيل ، وانزل نطاقه ، وتنحنح .
– ولمن البداية ؟
سال بصوت يختلف قليلا عن صوته السابق مخاطبا السيد الوحشي الذي ظل ، على حاله ، واقفا بلا حراك ، وسط الحجرة ، وقد افرج ساقيه المثلثتين بسعة ، ودس في جيبي سرواله يديه الضخمتين حتى الكوع تقريبا .
غمغم العيّار :
– لك ، لك ، يا وكيل . لك ، يا اخ .
نظر السيد الوحشي اليه نظرة شزراء ، صاصا العيّار بضعف ، وتلعثم ، ونظر الى نقطة ما في السقف ، وهز كتفيه ، وسكت .
قال السيد الوحشي يتوقف بين الجملتين :
– تلقي قرعة . والرهان من النبيذ يوضع على المنصة .
انحنى نيقولاي ايفانيتش ، وتناول القدح المعيار من الارض متأوها ، ووضعه على المنضدة .
نظر السيد الوحشي الى ياكوف ، وقال : «هيا !»
نبش ياكوف في جيوبه ، واخرج قرشا معدنيا ، وعلّمه بحز بسنه ، واخرج الوكيل من تحت اذيال قفطانه كيسا جلديا جديدا ، وفك رباطه على مهل ، وصبّ بعض النقود الصغيرة في يده ، واختار منها قرشا جديدا . مدّ العيّار قبعته المهلهلة ذات الظليلة المتكسرة المرتخية ، فوضع ياكوف قرشه ، والوكيل قرشه .
قال السيد الوحشي موجها كلامه الى مورغاتش :
– عليك ان تسحب .

ابتسم مورغاتش في رضى ، وتناول القبعة بكلتا يديه ، وبدا يرجّها .

ساد صمت عميق في الحال . ورنّ القرشان رنينا خافتـا ، واحدهما يضرب الآخر . نظرت فيما حولي بامعان . كان الترقب المتوتر يرتسم على الوجوه جميعا ، والسيد الوحشي نفسه يقلّص عينيه ، وحتى جاري الفلاح الصغير ذو الرداء الاوكراني المهلهـل مدّ عنقه بفضول . ادخل مورغاتش يده في القبعة ، واخرج قرش الوكيل . تنهد الجميع . واحمر ياكوف ، بينما مرر الوكيل يده على شعره . هتف العيّار :

– لقد قلت ان القرعة رست عليك . قلت ذلك .

– طيب ، طيب ، لا «تصفر» * – قال السيـد الوحشي بازدراء ، وتابع يقول مشيرا براسه الى الوكيل : – ابدا .

سال الوكيل وقد ساوره الاضطراب :

– اي اغنية اغني ؟

اجاب مورغاتش :

– التي تريدها ، غنّ ما تطرأ على بالك .

واضاف نيقولاي ايفانتش واضعا يديه على صدره ببطء :

– التي تريدها ، بالطبع . لا اجبار لك في ذلك . غنّ مـا تشاء ، فقط ان تغني بشكل حسن ، وبعد ذلك سنحكم بما يرضي الضمير .

– بما يرضي الضمير ، بالطبع .

التقط العيّار عبارته ، ولطع حافة قدحه الفارغ .

– يا اخوان ، دعوني انظف حنجرتي قليلا .

قال الوكيل متلمسا باصابعه ياقة قفطانه . فقال السيـد الوحشي في عزم :

– هيا ، هيا ، لا تتلكا ، إبدا .

ونكّس راسه .

فكر الوكيل قليلا ، ونفض راسه ، وتقدم الى الامام . وغرز ياكوف عينيه فيه . . .

قبل ان اشرع في وصف المباراة نفسها ارى من غير الزائد ان

* تصفر العقبان حين تفزع من شيء (**الملاحظة للمؤلف**) .

اقول بعض الكلمات عن كل شخصية من شخصيات قصتي . كانت حياة بعضهم معروفة لي ، حين التقيتهم في حانة الملاذ ، والبعض الآخر جمعت عنه المعلومات فيما بعد .

ولنبدأ بالعيّار . كان الاسم الحقيقي لهذا الرجل هو يفغراف ايفانوف ، ولكنّ ما من احد في الضواحي كان يعرفه بغير العيّار ، وكان هو يسمي نفسه بهذه الكنية ، اذ كانت لائقة به كثيرا . وبالفعل لم يكن اليق منها بملامحه الباهتة المضطربة ابدا . كان خادما عند اصحاب الاطيان اعزب انغمر في اللذات وتبرأ منه سادته منذ زمان بعيد ، ولم يكن له اي عمل ، ولا يحصل على اي قرش ، ومع ذلك فقد كان يجد الوسيلة في كل يوم ليشرب ويمرح على حساب الآخرين . وكان له الكثير من المعارف الذين كانوا يقدمون لـه الخمرة والشاي ، دون ان يعرفوا لماذا ذلك ، اذ لم يكن فقط غير مسلٍ في عشرته ، بل ومضجرا للجميع بهذره السخيف ، وتطفله غير المحتمل ، وحركاته المحمومة ، وقهقهته الدائمة المتكلفة . لم يكن يحسن الغناء ولا الرقص ، وطوال عمره لم يقل كلمة ذكية ، بل ولا كلمة معقولة ، لا شيء غير الهذر والتلفيق كيفما اتفق ، فهو على كنيته عيّار مهذار ! ومع ذلك فما من وليمة شرب وقصف في دائرة قطرها اربعون فرسخا ، كانت تخلو منه ، وبدون ان يدور فيها بين الضيوف بقامته الطويلة الهزيلة ، وبهذا الشكل تعود الناس عليه ، وتحملوا وجوده كشر لا بد منه . حقا كان يعاملونه بازدراء ، ولكن السيد الوحشي وحده كان يحسن كبح سوراتـه السخيفة .

ولم يكن مورغاتش يشبه العيّار في كثير او قليل . وكانت كنية مورغاتش * ايضا تنطبق عليه ، رغم انه لم يكن يرمش اكثر من الآخرين . وهذه قضية معروفة ، فالشعب الروسي مجيد في اختيار الكنى والالقاب . ورغم اجتهادي في استكشاف ماضي هذا الرجل بشكل اوسع ، الا انه بقيت لي ، وفي اغلب الظن للكثيرين غيري ، نقاط غامضة في حياته ، او ، كما يقول اهل الكتب ، مواضع مغلقة بعتمة عميقة من الغموض . لم اعرف سوى انه كان ، في وقت من الاوقات ، حوذيا لدى سيّدة لا اولاد لها ، وهرب مع

* بالروسية تعني مَن يرمش اهدابه كثيرا . **المعرب** .

ثلاثة خيول كانت قد عُهدت اليه ، واختفى عاما كاملا ، وعاد بنفسه ، ربما بعد ان اقتنع واقعيا بما في حياة التشرد من مشاق وعبث ، إلا انه عاد اعرج ، وارتمى على قدمي سيدته ، وبعد سنوات من السلوك المثالي ، كفّر عن جريرته ، وكسب حظوتها شيئا فشيئا ، ونال ، اخيرا ، ثقتها التامة ، وصار وكيل اعمالها . وبعد وفاة سيدته اُعتق من القنانة ، بطريقة غير معروفة ، وصار من طبقة البرجوازيين الصغار ، ويأخذ الرشاوى من الجيران ، واغتنى ، وهو الآن يعيش عيشة مرح ودِعة . ان هذا الرجل مجرَّب ، ذو دهاء ، لا هو بالخبيث ولا بالطيب ، بل اميل الى القصد . لقد خبر الدنيا ، وهو يعرف الناس ، ويحسن الاستفادة منهم . وهو محترس ، وواسع الحيلة في الوقت ذاته ، كالثعلب . انه ثرثار كالعجوز ، إلا انه لا يكشف عن مكنون نفسه ابدا ، بينما يجعل كل واحد يبوح بما في نفسه ، إلا انه لا يتصنع السذاجة ، كما يفعل كثيرون من الماكرين من صنفه ، كما كان من الصعب عليه ان يتصنع ، وانا لم ار قط عينين اكثر نفاذا وذكاء من «باصرتيه» * الصغيرتين اللعوبتين . انهما لا تنظران فقط ، بل تكتشفان وتستبطنان . ومورغاتش ، تارة ، يمعن التفكير ، اسابيع كاملة ، في مشروع ما ، بسيط فيما يبدو ، وتارة اخرى يقدم فجاة على فعل جسور مقدام – يلوح وكأنه سيذهب بعقله . . . واذا بك ترى ان كل شيء قد سلس له ، كل شيء سار مسار السكين في الزبدة . إنه سعيد ، ويؤمن بسعادته ، ويؤمن بالتكهنات . وهو ، بشكل عام ، يعتقد بالخرافات كثيرا . والناس لا يحبونه ، لانه هو نفسه لا يهتم بأحد ، ولكنهم يحترمونه . وليس له من عائلته غير ابن واحد يحبه الى حد العبادة ، ومن المحتمل انه سيصعد في الحياة ، وقد تربى على يدي مثل هذا الاب . ومنذ الآن كان الشيوخ يقولون بصوت خافت ، وهم جالسون على الدكات يتحدثون فيما بينهم في امسيات الصيف : «مورغاتش الصغير طلع على ابيه» ، والجميع يفهمون ما يعني ذلك ، فلا يضيفون اية كلمة اخرى .

اما عن ياكوف التركي ووكيل العمال فلا حاجة الى الافاضة

* يسمى اهل اوريل العينين «الباصرتين» مثلما يسمون الفم «الاكّال» . (**الملاحظة للمؤلف**) .

في الحديث طويلا . كان ياكوف الملقّب بالتركي ، بسبب انحداره فعلا من امراة تركية اسيرة ، فنانا بروحه في كل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ ، ولكنه في حرفته غرّاف في معمل للورق يملكه تاجر . اما الوكيل الذي اعترف بأن قدَره بقي مجهولا لي ، فقد بدا لي رجلا من اهل المدن حاذقا جمّ النشاط . ولكن ينبغي التحدث عن السيد الوحشي في شيء من التفصيل .

كان الانطباع الاول الذي تركه مظهر هذا الرجل فيك ، هو الاحساس بقوة فظة ثقيلة لا تكبح . كان غير متناسق البنيان «مرصوصا» كما يقال عندنا ، ولكن عافية جامحة كانت تشع منه ، ومن الغريب ايضا ان حركات جسده الضخم لم تكن تعوزها الرشاقة المتفردة المنبعثة ، ربما ، من الثقة المطمئنة تماما بجبروته . وفي الوهلة الاولى كان يصعب تعيين الفئة التي ينتمي اليها هذا «الهرقل» ، فهو لا يشبه قنا من خدم الاعيان ، ولا رجلا من اهل المدن ، ولا موظفا متقاعدا كلكل عليه الدهر ولا واحدا من الملاكين الصغار اصيب بالافلاس ، مولعا بكلاب الصيد وشغوفا بالعراك . بل كان متفردا في ذاته . لا احد كان يعرف من اين جاء الى قضائنا . كان يقال انه ينحدر من عائلة من الموظفين المالكين لقطع صغيرة من الارض (١١) ، وقد شغل وظيفة في الماضي ، على ما يزعم ، ولكن لم يُعرف عنه شيء على وجه التحديد ، ثم من اين يُعرف عنه ، وهل يُعرف منه ، وهو الرجل الاكثر صمتا وجهامة . كما لا احد كان يعرف ، على وجه التحديد ، من اين يأتي رزقه . فهو لا يمارس اية حرفة ، ولا يقصد احدا ، وليس في معية احد ، بينما كانت لديه فلوس ، قليلة حقا ، ولكنها فلوس . ولم يكن في مسلكه متواضعا – لم يكن فيه شيء متواضع مطلقا – ولكنه هادئ ، وكان يعيش وكأنه لا يلحظ احدا فيما حوله ، ولا يحتاج الى احد على الاطلاق . كان السيد الوحشي (وهذه كنيته ، بينما كان اسمه الحقيقي بيريفليسوف) يتمتع بنفوذ هائل في كل المنطقة . وكان يُطاع فورا ، وعن طواعية ، رغم انه لم يكن يملك اي حق في اصدار الاوامر لأي شخص كان ، ولكن حتى هو نفسه لم يكن يبدي اقل إدعاء في ان يطيعه الذين صادف وان احتك بهم . كان يكفيه ان يقول ، فيخضعون له ، لان القوة لها اليد الطولى دائما . كان لا يشرب الخمرة تقريبا ، ولا يصاحب النساء ، وله هوى

شديد في الغناء . لقد كان في هذا الرجل الكثير من اللغز ، وكان يبدو كما لو كانت قوى هائلة تكمن فيه على نحو جهوم ، وكأنما كانت تعرف انها لو استيقظت ، وافلتت من عقالها فانها ستدمر نفسها وكل ما تمسه . وساكون على خطأ فظ ، اذا تصوّرت ان في حياة هذا الرجل لم يحصل مثل هذا الانفجار ، واذا لم يكن ، وهو الذي علمّته التجربة ، واوشك على الهلاك ، استطاع ان يمسك نفسه الآن . بغاية من الصرامة . وكان يبهرني فيه ، بشكل خاص ، ذلك المزيج من الضراوة الطبيعية المولود بها ، والنبل المولود به ايضا – المزيج الذي لم يصادفني في اي شخص آخر .

تقدم الوكيل الى الامام ، اذن ، واغمض عينيه نصف اغماض ، وغنى بصوت عالي الطبقة جدا . كان صوته على قدر كاف من اللذاذة والحلاوة ، رغم بحته بعض الشيء . وكان يلعب ويداور بهذا الصوت كما يلعبون بدوامة ، ويماوج بلا انقطاع ، ويهبط من الاعلى الى الاسفل ، ويعود دائما الى النبرات العليا التي كان يحافظ عليها ، ويطيلها بسعي بارز ، ويسكت ، وبعد ذلك وفجأة يلتقط النغمة السابقة باندفاع جسور جارف . كانت انتقالاته احيانا جريئة جدا ، واحيانا مسلية جدا ، لو استمع اليها خبير لحصل على الكثير من المتعة ، ولو استمع اليها الماني لتميّز حنقا منها . كان tenore grazia, ténor léger * روسي . غنى اغنية مرحة راقصة كانت كلماتها ، كما يلي ، على قدر ما استطعت ان التقطها من خلال عدد كبير من الزخرفة والهتافات التي صاحبت اغنيته .

ساحرث ارضي الصغيرة
يا فتاي الفتي
وازرع لك زهرة حمراء
يا فتاي الفتى . (١٢)

غنى ، والجميع يصغون له بانتباه كبير . والظاهر انه كان يحس بان المستمعين اليه اناس ضليعون في هذا المضمار ، ولهذا كان يجهد جهده حتى لكأن روحه ستخرج من حنجرته ، حسب التعبير الشائع . وبالفعل كان الناس في اصقاعنا يفهمون في الغناء ،

* تينور غنائي (بالايطالية والفرنسية) . والتينور طبقة قوية للرجال . **المعرب** .

فلا عجب ان تشتهر في روسيا كلها ، قرية سيرغييفسكويه (١٣) ، الواقعة على طريق اوريل الكبيرة بنغمها الصدّاح الممتع . غنى الوكيل وقتا طويلا ، دون ان يثير في مستمعيه تعاطفا بالغ الحد ، فقد كان ينقصه سند من جوقة تصاحبه . واخيرا ، وعند نقلة موفقة بشكل خاص جعلت السيد الوحشي نفسه يبتسم ، لم يضبط العيّار نفسه ، وصرخ من المتعة . اضطرب الجميع . وبدأ العيّار ومورغاتش يترنمان في اللحن بصوت خافض ، وينضمان الى المغني ، ويصيحان : «شطارة ! . . إصعد ، إصعد ، اطل ، يا افعوان ، اطل اكثر ! في حماس اكثر ، يا كلب ، يا سلوقي ! ليقتل هيرودس نفسك !» . وعلى هذا المنوال . كان نيقولاي ايفانتش يدير رأسه يمينا ويسارا وراء المنصة استحسانا . واخيرا اخذ العيّار يطبطب بقدميه ، ويراوح بخطوه ، ويهز كتفيه . اما ياكوف فاخذت عيناه تتوهجان كالجمر ، وكان يرتجف كورقة من اوراق الشجر ، ويبتسم باختلال . والسيد الوحشي وحده لم يتغير وجهه ، وبقي كالسابق لا يتحرك من مكانه ، إلا ان نظرته المتفرسة في الوكيل قد رقّت قليلا ، رغم ان الازدراء بقي مرتسما على شفتيه . تشجع الوكيل بامارات الرضى العام ، فاشتد به الحماس حتى اخذ يصدر لولبات صوتية ، ويداور ويتمطق بلسانه ، ويلاعب حنجرته ، واخيرا أنهك وشحب وتصبب عرقا حارا ، واطلق الصداح الاخير المتلاشي ، فرد عليه هتاف عارم محبوك عام . ارتمى العيّار على عنقه واخذ يطوقه بذراعيه الطويلتين العظميتين ، واصطبغ وجه نقيولاي ايفانيتش السمين بحمرة ، وبدا وكأنه قد عاد الى شبابه . وراح ياكوف يهتف كالمجنون «شاطر ، شاطر !» ، وحتى جاري ، الفلاح ذو الرداء المهلهل لم يصطبر ، وضرب بقبضته الطاولة ، وصاح : «أها ! لطيف ، وحق الشيطان ، لطيف !» وبصق في ناحية بحماس .

– طيب ، يا اخ ، امتعتنا ! – صاح العيّار دون ان يطلق الوكيل المنهك من طوق ذراعيه – امتعتنا ولا شك ! الفوز لك ، يا اخ ، الفوز لك ! اهنئك . حصة النبيذ لك ! سبقت ياشكا بشوط بعيد . . . اؤكد لك ، بشوط بعيد . . . صدقني ! (ومرة اخرى ضغط الوكيل على صدره) .

قال مورغاتش بانزعاج :

– ولكن اطلقه ، اطلقه ، يا لزقة . . . دعه يجلس على المقعد ، فهو تعبان ، كما ترى . يا لك من مغفل ، يا اخ ، مغفل حقا . ما لك لصقت به كالقشة المبللة ؟

– لا اعتراض ، فليجلس ، وساشرب نخب صحته – قال العيّار ذلك ، وتقدم من منصة الحانة ، واضاف مخاطبا الوكيل – على حسابك ، يا اخ .

هزّ هذا راسه ، وجلس على المقعد ، واخرج من قبعته فوطة ، وراح يمسح وجهه ، بينما شرب العيّار قدح النبيذ بنهم عجول ، وعلى عادة السكارى الميئوس منهم تاوه ، واتخذ مظهر مكسور الخاطر .

قال نيقولاي ايفانيتش برقة :

– غناؤك جميل ، يا اخ ، جميل . والآن جاء دورك ، يا ياكوف . فحذار ان تتخوف . وسنرى مَنْ يفوز على الآخر ، سنرى . . . ولكن الوكيل يغني جيدا ، والله العظيم ، يغني جيدا .

– واضح انه يغني جيدا .

لاحظت زوجة نيقولاي ايفانيتش ذلك ، ورمقت ياكوف بابتسامة . فردد جاري بصوت خافض :

– جيد ، نعم !

– بوليخي متوحش ! * – زعق العيّار فجاة ، وتقدم من الفلاح المثقوب الرداء عند الكتف ، وصوّب اليه اصبعه ، وقفز ، وانفجر في قهقهة مرتجة – بوليخي ! بوليخي ! متوحش ! لماذا تشرفت بالمجيء ، يا متوحش ؟ – صاح من خلال الضحك .

اضطرب الفلاح المسكين ، وتهيا للنهوض والانصراف في الحال ، واذا بصوت السيد الوحشي القوي يهدر :

– اي حيوان لا يطاق انت ؟

قال ذلك كازاً على اسنانه ، فتمتم العيّار :

– لا شيء ، انا لم . . انا . . .

فقال السيد الوحشي :

---

* بوليخي يطلق على سكان بوليسيه الجنوبية ، وهي شريط طويل من الغابات يبدأ على حدود قضائي بولخوف وجيزدرا . وهم يتميزون بخصائص كثيرة في نمط الحياة والاخلاق واللغة . ويسمون بالمتوحشين بسبب خلقهم المرتاب الصعب . **(الملاحظة للمؤلف)** .

– طيب ، اسكت ، اذن ! إبدا ، يا ياكوف !

امسك ياكوف حنجرته بيده .

– ماذا ، يا اخ ، عن . . . ماذا . . حم . حقا لا اعرف ، عن اي . . .

– طيب ، كفى ، لا ترتعب . اخجل من نفسك ! ما هذه المداورة ؟ . . غنّ ، كما يامرك الرب .

واطرق السيد الوحشي براسه في انتظار .

صمت ياكوف قليلا ، ونظر فيما حوله ، وغطى وجهه بيده . ثبّت الجميع ابصارهم فيه ، لا سيما الوكيل ، الذي ظهر على وجهه قلق خفيف لاارادي ، من خلال ثقته الاعتيادية بالنفس ، ونشوة الانتصار . اتكا على الحائط ، ووضع يديه تحته مرة اخرى ، ولكن دون ان يزرجع قدميه . وعندما كشف ياكوف عن وجهه اخيرا ، كان وجهه شاحبا كوجه الميت ، وعيناه لا تكادان تلمعان من تحت رموشه المسبلة . ارسل زفرة عميقة ، وشرع يغني . . . كانت رنة صوته الاولى ضعيفة وغير متسقة ، بدت وكانها لم تكن تخرج من صدره ، بل دخلت الغرفة عرضا مترامية من مكان بعيد . وترك هذا الصوت المهتز المرن تاثيرا غريبا على الجميع ، فنظر بعضنا الى بعض ، وتنبهت زوجة نيقولاي ايفانيتش وانتصبت بجذعها على نحو ملحوظ . وتبعت هذه الرنة رنة اخرى اكثر تماسكا واستطالة ، ولكن الاهتزاز لم يزايلها في الظاهر ، وكالوتر بعد ان يرسل الرنين من تحت اصبع قوية راحت تتذبذب ذبذبة متلاشية بسرعة ، واعقبت الرنة الثانية ثالثة ، والتهبت اغنية نائحة ، بتوهج واتساع : «كانت في الحقل دروب كثيرة» * . غنى وشعرنا جميعا بلذة ورهبة . اعترف بانني نادرا ما سمعت مثل هذا الصوت . كان مهشّما قليلا ويرن كالمتصدع ، بل ولاح في البداية ، معتلا ، ولكنه كان ينطوي على عاطفة عميقة ، وفتوة ، وقوة ، وحلاوة ، ولوعة جذابة في رخاوتها ، وحزينة . كانت الروح الروسية الحقة الحارة ترن وتعبق فيه ، حتى ليستولي على قلبك ، على اوتاره الروسية . وقويت الاغنية ، وترامت . ومن الواضح ان الغناء اسر ياكوف ، فلم يعد يتهيب ، واستسلم بكليته الى توفيقه فيه وكفّ صوته عن

---

* اغنية شعبية رخيمة نشرت في مجموعات الاغاني في العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، وحظيت بشعبية فائقة . **(الناشر)** .

الاهتزاز ، ولكنه كان يرتعش تلك الرعشة الباطنية التي لا تكاد تلحظ وتاتي من جيشان العاطفة وتنفذ الى قلوب المستمعين كالسهم ، وظلّ يقوى بلا انقطاع ، ويشتد ، ويتسع . اتذكر انني رايت ، ذات مساء ، اثناء الجزر ، وعلى الساحل الرملي المنبسط للبحر الهادر بوعيد وثقل ، نورسا ابيض كبيرا ، كان يحط بلا حراك ، وهو يشرع صدره الحريري لألق الغسق الاحمر ، ومن حين لآخر فقط يبسط جناحيه الطويلين ببطء بمواجهة البحر الأليف له ، بمواجهة الشمس القرمزية المنخفضة ، وقد تذكرته ، وانا استمع الى ياكوف . غنى وقد نسي تماما منافسه وكلنا جميعا ، محمولا ، على ما يبدو ، بمشاركتنا العاطفية الصامتة ، مثلما تحمل الامواج السبّاح النشيط . غنى ، وقد انبعث من كل رنة من رنات صوته شيء حبيب رحب ، مثلما ينداح امامنا سهب مالوف موغلا في المدى البعيد . وشعرت بالعَبَرات تغلي في قلبي ، وتصعد الى عيني ، وفجاة اذهلتني نشجات جافة مكتومة . . . التفت ، فرايت زوجة صاحب الحانة تبكي ، وقد ضغطت صدرها على النافذة . القى ياكوف عليها نظرة سريعة ، وراح يغني بصوت اقوى واشهى من ذي قبل . اطرق نيقولاي ايفانيتش ، واشاح مورغاتش بوجهه ، ووقف العيّار متاثرا كليا ، فاغرا فمه كالابله ، ونشج الفلاح الصغير بخفوت في الركن ، وناد براسه بهمهمة مريرة . وتحدرت دمعة ثقيلة في بطء على وجه السيد الوحشي الحديدي من تحت حاجبيه المقطبين تماما ، ورفع الوكيل قبضته الى جبينه ، وجمد لا يريم حراكا . . . ولا اعرف بم كان سينتهي النغمُ الشامل ، لو لم يختتم ياكوف غناءه بصوت عالٍ رفيع النبرة بشكل غير اعتيادي ، وكان صوته قد تقطّع . لم يصرخ احد ، بل ولم تصدر ململة ، وكان الجميع كانوا ينتظرون هل سيمضي في الغناء ، غير انه فتح عينيه وكانما ادهشه صمتنا ، واجال في الجميع نظرة متسائلة ، وراى في كل الوجوه ان النصر كان حليفه . . .

— ياشا !

نطق السيد الوحشي ، ووضع يده على كتفه ، وصمت .

وقفنا جميعا مبهورين . ونهض الوكيل بهدوء ، وتقدم من ياكوف . «انت . . . اغنيتك . . . ربحت الرهان» — نطق اخيرا بصعوبة ، واندفع تاركا الغرفة .

وكان حركته السريعة المصممة ابطلت السحر ، فاخذ الجميع يتحدثون فجاة بصخب وابتهاج . وراح العيّار ينط ، ويهمهم ، ويدير ذراعيه ، كما تدير الطاحونة اذرعها . وتقدم مورغاتش من ياكوف يقزل ، وراح يقبله . ورفع نيقولاي ايفانيتش جسمه ، واعلن على الناس انه يضيف من نفسه حصة اخرى من البيرة . وضحك السيد الوحشي ضحكة سمحاء لم اتوقع قط ان اصادفها على وجهه ، وكان الفلاح الصغير يردد في ركنه من حين الى آخر ، وهو يمسح عينيه ، وخديه ، وانفه ، ولحيته بكلا كميه : «اوه ، لطيف ، لطيف ، والله لطيف ، ساكون ابن كلب ، إن يكن غير لطيف !» اما زوجة نيقولاي ايفانيتش ، فقد نهضت بسرعة . وقد اصطبغت بحمرة كليا ، وانصرفت . تلذذ ياكوف بفوزه كالطفل ، وتغير وجهه كله ، لا سيما عينيه اللتين تألقتا سعادة بالغة . جروه الى منصة الحانة ، فاوما الى الفلاح الصغير الباكي يدعوه اليه ، وارسل ابن صاحب الحانة ليدعو الوكيل ، ولكن هذا لم يجده ، وبدا الشرب . «ستغني لنا المزيد ، ستغني لنا الى المساء» اكّد العيّار رافعا ذراعيه عاليا .

نظرت ثانية الى ياكوف ، وخرجت . لم ارد ان امكث ، فقد خشيت ان افسد انطباعي . إلا أن القيظ كان ضاريا كما من قبل . كان يبدو وكانه يكلكل على الارض تماما كطبقة كثيفة ثقيلة . ولاحت انوار وضيئة دقيقة وكانها تدور في السماء الداكنة الزرقة من خلال نقاب رقيق جدا من الغبار اسود تقريبا . وصمت كل شيء . وكان في هذا الصمت العميق للطبيعة المنهكة شيء مسحوق لا امل فيه . صعدت على مستودع للتبن ، واستلقيت على عشب محصود لتوه ، إلا انه قد جف تقريبا . لم يراودني النعاس وقتا طويلا ، فقد ظل صوت ياكوف الذي لا يمكن وصفه يطن في اذني وقتا طويلا . . . ولكن الحر والتعب غلباني اخيرا ، فغرقت في نوم عميق . وعندما استيقظت كان الظلام قد خيّم ، والعشب المتناثر حولي يفوح برائحة قوية ، وقد تبلل قليلا ، وكانت النجوم الشاحبة تومض بوهن من خلال العوارض الخشبية الدقيقة للسطح المغطى بشكل سيئ . خرجت . كان الشفق قد خفت منذ وقت طويل ، واثره الاخير لا يكاد يبين على القبة السماوية ، إلا ان الدفء ما يزال يتنفس من خلال طراوة الليل في الهواء الذي كان الحر يلهبه منذ قليل ، وصدري ما يزال متعطشا الى نسمة باردة . كان الجو بلا

ريح ، وما من سحابة ايضا ، والسماء فيما حولي صافية شفافـــة داكنة تتوامض فيها بخفوت نجوم لا حصر لها ولكن لا تكاد تلوح . كانت الانوار تتراقص باهتة في القرية ، ومن الحانة غير البعيدة ، الساطعة النور يترامى طنين مشوش غامض ، بدا لي وكانني اسمع في غضونه صوت ياكوف . واحيانا كان الضحك ينطلق من هناك منفجرا . تقدمت من النافذة الصغيرة ، ووضعت وجهي على زجاجها . فرايت صورة غير بهيجة رغم انها حيّة وحافلة : كان الجميـــع سكارى ، الجميع ابتداء من ياكوف . كان هذا يجلس على مسطبة عاري الصدر ، يغني بصوت ابح اغنية راقصة من اغاني الشارع ، وهو يضرب ويلاعب اوتار القيثار بكسل ، وشعره المبلل يتدلى خصلات على وجهه الممتقع على نحو رهيب . وفي وسط الحانة كان العيّار وقد «تفكك» كليا وخلع قفطانه يرقص وينط امام الفلاح ذي الرداء الممزق ، وكان الفلاح ، بدوره ، يطبطب بصعوبة ، ويشحط بقدميه المرتخيتين ، مبتسما ابتسامة لا معنى لها من خلال لحيته المشعثة ، ويلوح بذراعه من حين لآخر ، وكانما يريد ان يقول : «ليكن ما يكون !» ، وما من شيء كان يجاري وجهـــه في الإضحاك ، إذ مهما حاول ان يرفع حاجبيه كان جفناه المثقلان لا يريدان ان ينفرجا ، فبقيا على حالهما مسبلين على عينين لا تكادان تلوحان ، ذابلتين وإن كانتا متلذذتين . كان في تلك الحال من الرقة التي يكون عليها رجل سكر تماما ، فكل رجل ينظر في وجهه يقول بالتاكيد : «نشوة ، يا اخ ، نشوة !» . وكان مورغاتش يبتسم في زاوية ابتسامة سامة ، وقد احمر كالسرطان ، وانفتح منخراه منفرجين . ونيقولاي ايفانيتش وحده ، بقي محافظا على برودة اعصابه الثابتة ، كما ينبغي لصاحب حانة حقيقي . وكانت الحانة حافلة باشخاص جدد ، الا انني لم ار السيد الوحشي بين الحاضرين .

استدرت ، واخذت انحدر سريع الخطى من التل الذي كانت تقع عليه قرية كولوتوفكا . وعند قدم هذا التل ينبسط سهل واسع ، بدا ، وقد التفّ بالموجات الظلماء لضباب المساء اكثر تراميا ، وكانما قد اندمج بالسماء الآخذة بالإظلام . نزلت بخطى واسعة في الطريق بمحاذاة الوهدة ، واذا بي اسمع صوت صبي رنانا في مكان بعيد في السهل ينادي : «انترويكا !! انتروبكـ . . ا . . . ا !» . ظل

يصيح باستماتة ملحاحة ناحبة لوقت طويل ، وطويل جدا ، ممدا المقطع الاخير .

صمت لحظات ، وعاد الى الصياح مرة اخرى . كان صوته يترامى رنانا في الهواء الراكد الهاجع قليلا . صاح مرددا إسم انترويكا ثلاثين مرة على الاقل ، وفجاة اجابه صوت لا يكاد يسمع ، صادر من الطرف المقابل للسهل ، وكانه صادر من عالم آخر :

— ما . . . ذا !!! ؟

وفي الحال ارتفع صوت الصبي باحتداد فرح :

— تعال هنا ، يا عفريت الغا . . . بة ة ة !

ردّ هذا بعد وقت طويل :

— ولما ذا!!! ؟

فاسرع الصوت الاول بالرد عليه :

— لان بابا يريد أن يضر بـ . . ك .

لم يرد الصوت الثاني بعد هذا ، فعاد الصبي ينادي انترويكا . وظلت هتافاته تبلغ مسمعي اقل واخفت ، حتى بعد أن ساد الظلام تماما ، واتخذت مساري على حافة الغابة المحيطة بقريتي ، والممتدة اربعة فراسخ بعد كولوتوفكا . . .

ظلت «انترو بكـ . . ا ا !» تتردد في الهواء ، الغارق في ظلام الليل .

اللقاءات الثلاثة (١٤)

Passa que'colli e vieni allegramente;
Non ti curar di tanta compagnia —
Vieni, pensando a me segretamente —
*Ch'io t'accompagni per tutta la via.**

١

خلال الصيف لم اخرج للصيد الى اي مكان بقدر خروجي الى قرية غلينويه الواقعة على بعد عشرين فرسخا عن قريتي . اذ توجد بالقرب من تلك القرية اماكن للصيد ، ربما هي افضل الاماكن في قضائنا كله . وكنت ، بعد تجوالي في كل الاجمات والحقول المحيطة ، اعرج ، لا محالة ، في نهاية النهار ، على المستنقع الوحيد تقريبا ، الموجود في الجوار ، ومن هناك اعود الى مضيِّفي الحفي عمدة غلينويه الذي انزل في بيته دائما . وغلينويه تبعد عن المستنقع مسافة فرسخين ، والطريق كله يحاذي منخفضا ، وفي منتصفه فقط يضطر العابر ان يرتقي تلا صغيرا تقع في قمته ضيعة ليس فيها غير بيت مهجور من بيوت الاسياد وحديقة . وكان يصادف دائما تقريبا ان امر بها في ذروة الغروب ، واتذكر انني ، في كل مرة ، كنت اتصور هذا البيت بنوافذه المحكمة الاغلاق عجوزا اعمى خرج ليتدفأ في الشمس . فهو ، المسكين ، قابع قرب الطريق ، وقد اختفى الق الشمس بالنسبة له منذ زمن بعيد ، وحلت محله ظلمة ابدية . الا انه يتحسس بهذا الالق ، في الاقل ، على وجهه المرفوع قليلا والممدود ، وخديه المتدفئين . وكان يبدو وكان احدا لم يسكن هنا

* اقطع هذه التلال ، وتعال اليّ مرحـــا ، ولا يهمك المجموع الكبير ، تعال لوحدك ، وفكـر فيّ ، طوال الطريق ، لأكون رفيقة لك في الطريق كله . **(الملاحظة للمؤلف)** .

4—88

البيت منذ زمن طويل . ولكن المبنى الصغير الملحق به ، والقائم في فنائه كان يقيم فيه قن معتوق شائخ طويل محدودب اشيب ، قسمات وجهه معبِّرة وجامدة . كنت اراه جالسا طوال الوقت على مقعد امام نافذة المبنى الوحيدة ، يحدق في البعيد باستغراق حزين . وكان ، حين يراني ، يرفع جسمه قليلا عن المقعد ، وينحني بتلك العظمة المتباطئة التي يتميز بها الخدم الشيوخ المنتمين لا الى جيل ابائنا ، بل الى جيل اجدادنا . وكنت ابادره بالكلام ، الا انه لم يكن محبا له ، فلم اعرف منه غير ان الضيعة التي كان يقيم فيها كانت ملكا لحفيدة سيده القديم ، وهي ارملة كانت لها اخت صغرى ، وكلتاهما تعيش في المدن ، وفيما وراء البحر فضلا عن ذلك ، ولا تزور البيت ، وانه هو نفسه يفضل ان يحين اَجَله ، لانك «تمضغ الخبز وتمضغ ، حتى يصيبك الضيق من طول الزمن الذي انقضى عليك وانت تمضغ» . وكان هذا العجوز يسمى لوكيانتش .

وذات مرة تأخرت في الحقل طويلا ، فقد كان الصيد وفيرا ، والنهار مناسبا جدا للصيد ، هادئا منذ الصباح ورماديا وكان المساء تغلغل في ثناياه كله . توغلت بعيدا ، حتى خيَّم الظلام تماما ، بل وطلـع القمر ، وكان الليل ، كما يقال ، قد عسكـر في السماء منذ زمان ، حين بلغت الضيعة المألوفة . واضطررت ان اسير بمحاذاة الحديقـة . . . فيمـا حولـي كان سكـون ، واي سكون . . .

عبرت الطريق العريضة ، وشققت طريقي بحذر خلال القراص المغبر ، واتكأت على السياج الواطئ من الاغصان المضفورة . كانت تنبسط امامي حديقة صغيرة لا حركة فيها مضاءة كلها ، كالهاجعة في اشعة القمر الفضية ، ومتضوعة تماما ، ورطبة ، وقد خططت حسب العادة القديمة على شكل منبسط مستطيل . وكانت ممراتها المستقيمة تلتقي في وسط هذا المنبسط تماما بحوض مستدير للزهور نما فيه الاسطر بكثافة ، وكانت اشجار الزيزفون العالية تحيط به كطوق مستدير ليست فيه غير ثغرة بعرض ذراعين تقريبا كان يلوح منها جزء من بيت واطئ له نافذتان رايتهما مضاءتين فاندهشت . وكانت اشجار التفاح الفتية ترتفع فوق المنبسط ، والسماء الليلية تلوح وديعة من خلال اغصانها الهزيلة ، وينهمر ضوء القمر الناعس . وامام كل شجرة تفاح كان ظلها النحيـل

المبرقش يرتمي على العشب المبيَّض . كانت اشجار الزيزفون في احد جانبي الحديقة مخضرة اخضرارا كدرا ، ومسربلـــة بضوء شاحب اللمعان جامد ، وفي الجانب الآخر سوداء كلهـا وصماء . وكانت خشخشة مكتومة غريبة تصدر ، من حين لآخر ، في اوراقها المكتظة ، وكأنما كانت تدعوك الى الممرات المتلاشية تحتها ، كأنما تغريك لتلوذ تحت كنفها الوثير . كانت السماء كلها مرصعـــة بالنجوم ، التي كان ينهمر من عليائها بغموض رفيف ازرق ناعم ، وكأنما كانت تنظر الى الارض البعيدة بانتباه هادئ . وكانت الغيوم الصغيرة النحيفة ، حين تحجب القمر ، تحيل لمعانه الهادئ ، للحظة ، الى ضباب مبهم ولكنه منوَّر . . . كان كل شيء هاجعا ، والهواء المشبع بالدفء والشذى لم تسر فيه حتى هبة نسيم ، الا انه كان يهتز ، من حين لآخر ، كما يهتز الماء عند وقوع غصن فيه . . . وكان المرء يحس وكأن في الهواء ظمأ ، رعشة . . . انحنيت على السياج ، فرأيت امامي زهرة خشخاش برية حمراء تنهض بعودهـا المستقيم من العشب المهمل ، وقطرة كبيرة مستديرة من ندى الليل تلمع لمعانا داكنا في قعر هذه الزهرة المفتوحة . لقد هجع كل شيء فيما حولي ورقَّ كأنما كان يتطلع الى الاعلى ، مشرئبا ، جامدا ، مترقبا . . . فماذا كان ينتظر هذا الليل الدافئ ، هذا الليـــل الناعس ؟

كان ينتظر صوتا ، كان هذا السكون المرهف ينتظر صوتا حيا ، ولكن كل شيء قد صمت . كفت البلابل عن الصداح منذ زمـــن طويل . . . والصرير المباغت لجندب عابر ، والمطقة الخفيفة لسمكة صغيرة في حوض السمك وراء اشجار الزيزفون ، في نهاية الحديقة ، والصفير الناعس لطائر جافل ، والصياح القصي في الحقل الى درجة ان الاذن لم تكن تميِّز اكان ذلك صياح انسان ، ام حيوان بري ، ام طائر — والطبطبة القصيرة السريعة على الطريـــق ، كل هذه الاصوات الضعيفـــة ، كل هذه الخشخشات لم تزد السكون الا عمقا . . . اثقل على قلبي شعور غير واضح شبيه بما بين انتظار سعادة وتذكرها ، فلم استطع ان اتململ ، ووقفت بلا حراك امام هذه الحديقة الجامدة المغمورة بضوء القمر وبالندى ، وانا نفسي لا اعرف لماذا ظللت اتفرس في تينك النافذتين المحمرتين احمرارا كامدا في الظل الباهت الرقيق ، وفجأة صدر لحن من البيت ، صدر

وسرى كالموجة . . . ردد الهواء المرن المستثار رجعَ صداه . . . وجفلت لاارادياً .

واعقب اللحن صوت نسائي . . . ارهفت سمعي بنهم و . . . هل في وسعي ان اعبر عن اندهاشي ؟ . . قبل عامين سمعت في سورنتو ، في ايطاليا ، نفس الاغنية ، ونفس الصوت . . . نعم ، نعم . . .

Vieni, pensando a me segretamente...

انها هي ، لقد عرفتها ، انها تلك الاصوات . . . واليكم ما حدث آنذاك . كنت راجعا الى البيت بعد نزهة طويلة على ساحل البحر . سرت في الشارع مسرعا ، وقد خيَّم الليل منذ وقت طويل — ليل بهي ، جنوبي ، غير هادئ ، ومستغرق حزين ، مثل الليل عندنا ، لا ! وضَّاء كله ، ومترف وجميل ، مثل امرأة سعيدة في زهرة العمر ، وكان القمر ينير ساطعا على نحو لا يصدق ، والنجوم الكبيرة المشعة ماضية في توامضها الحرك في السماء الداكنة الزرقة ، والظلال السود تبرز بحدة على الارض المضاءة الى حد الصفرة . وعلى جانبي الشارع كانت تمتد اسيجة الحدائق الحجرية ، واشجار البرتقال ترفع فوقها اغصانها المعوجة ، وثمارها الثقيلة ككرات من الذهب لا تكاد تلوح تارة مختفية بين الاوراق الملتفة ، وتبرز تارة ساطعة اللون طالعة الى القمر بأبهة . وكانت الزهور تبدو في لون ابيض رقيق في اشجار كثيرة ، والهواء كله مضمخ بأريج قوي على نحو مرهق ، حاد وثقيل تقريبا ، رغم عذوبته التي لا توصف . سرت ، وقد الفت — واعترف بذلك ، — كل هذه العجائب ، وصرت لا افكر بغير الوصول الى فندقي في اقرب وقت ، واذا بي اسمع صوتـــا نسائيا من جناح صغير مبني فوق حائط الحديقة الذي كنت اغذ السير بمحاذاته . وكان هذا الصوت يغني اغنية لا اعرفها ، وفي الحانه شيء آسر تماما ، وذلك الصوت نفسه بدا مشبعا بالترقب الواله والبهيج المصبوب في كلمات الاغنية ، حتى انني توقفت في الحال ، دون ارادتي ، ورفعت راسي . كان في الجناح نافذتان ، الا ان الصفاقات كانت مطبقتين عليهما ، وثمة ضوء شاحب ينصب ، بضَنَك ، من خلال الخصاص الضيقة . ردد الصوت vieni, vieni مرتين ، وسكت . وتردد رنين خفيف لاوتار تشبه اوتار قيثار وقع على بساط ، وخشخش ثوب نسائي ، وصرَّت ارضية الغرفة صريرا

خافتا . واختفت خطوط الضوء في احدى النافذتين . . . واقبل شخص من الداخل ، واتكأ عليها . خطوت خطوتين الى الوراء . وفجأة دقت الصفاقتان ، وانفتحتا ، واخرجت امراة هيفاء في ثياب بيض ، رأسها الفتّان من النافذة بسرعة ، ومدّت ذراعيها اليّ ، وقالت : «Sei tu?» * ذهلت ، ولم اعرف ماذا اقول ، الا ان المراة المجهولة ارتدت الى الوراء ، في نفس اللحظة ، مرسلة صيحة خافتة ، وانطبقت الصفاقتان ، وخفت الضوء في الجناح اكثر من ذي قبل ، وكأنما نُقل الى غرفة اخرى . بقيت جامدا ، ولوقت طويل لم استطع ان افيق على نفسي . كان وجه المراة التي ظهرت امامي فجأة جميلا الى حد مذهل . وقد مرّ امام عيني بسرعة خاطفة جدا لم تدعني اتذكر في الحال كل قسمة من قسماته على انفراد ، الا ان الانطباع العام كان قويا وعميقا الى حد لا يوصف . . . آنذاك ، ايضا ، احسست بان ذلك الوجه لن انساه طول عمري . كان نور البدر ينسكب على جدار الجناح ، على تلك النافذة التي اطلت عليّ منها ، ويا آلهي ! كم كان بهيا في الق البدر ، لمعان عينيها الكبيرتين الداكنتين ! وكيف انسرح شعرها الاسود نصف المحلول ، كالموجة الثقيلة على كتفها المدور المرفوع ! وكم كان من دِعَة خَفِرة في الانعطاف الناعم لقوامها ، وكم من رقة في صوتها ، حين هتفت بي ، في تلك الهمسة العجول والرّنانة لما تزل ! وقفت وقتا طويلا في نفس المكان ، واخيرا ابتعدت قليلا في ناحية ، في ظل السياج المقابل ، ورحت من هناك اتطلع الى الجناح في حيرة بلهاء ، وترقب . واخذت انصت . . . انصت بارهاف متوتر . . . كان يخيّل اليّ بانني اسمع تارة انفاسا هادئة وراء النافذة التي غاب عنها الضوء ، وتارة هسهسة وضحكا خافتا . واخيرا صدر وقع خطوات من بعيد . . . وصارت الخطوات تقترب ، وظهر في نهاية الشارع رجل يطول قامتي تقريبا ، ودنا بسرعة من باب حديقة عند الجناح تماما ، وهو باب لم اكن لحظته من قبل ، وطرق طوقه الحديدي مرتين ، دون ان يتلفت ، وانتظر ، ثم طرق مرة اخرى ، وترنم بصوت خافت «Ecco ridente» ** فانفتح الباب . . . ودلف فيه دون صوت . ارتعدت ، وهززت رأسي ، وبسطت ذراعيّ ، ونكست قبعتي على حاجبيّ بحدة ، واتجهت الى

* «وأهذا انت ؟» (بالايطالية في الاصل) .

** «وها هو المرح . . .» (بالايطالية في الاصل) .

بيتي متكدرا . وفي اليوم التالي قضيت ساعتين في اوج الحر ، ودون اية جدوى اذرع ذلك الشارع مارا بالجناح ، وفي مساء ذلك اليوم غادرت سورنتو ، حتى دون ان ازور بيت تاسو (١٥) .

وليتصور القراء الآن الدهشة التي تملكتني فجأة ، حين سمعت في السهب ، في احد انحاء روسيا القصوى ، ذلك الصوت ذاته ، تلك الاغنية نفسها . . . والآن ليل ، مثلما كان حينذاك ، والصوت ، مثلما كان حينذاك ، صدر فجأة من حجرة صغيرة مضاءة غريبة عليّ . فكنت وحيدا مثلما كنت حينذاك وكان قلبي يخفق خفقانا شديدا . وفكرت مع نفسي «لعله حلم ؟» وها هي Vieni الاخيرة تتردد مرة اخرى . . . هل من المعقول ان النافذة ستفتح ؟ هل من المعقول ان امراة ستلوح فيها ؟ انفتحت النافذة . وظهرت فيها امراة . وعرفتها في الحال ، رغم ان خمسين خطوة كانت تفصل بيننا ، رغم ان غمامة قد حجبت البدر . كانت هي ، امراتي الغريبة من سورنتو . ولكنها لم تمد الى الامام ذراعيها العاريتين ، كما فعلت في السابق ، بل صالبتهما بهدوء ، واتكأت بهما على النافذة ، واخذت تحدق الى نقطة في الحديقة صامتة وبلا حراك . نعم ، كانت هي ، وكانت تلك قسماتها التي لا تنسى ، وعينيها اللتين لم ار لهما مثيلا . والآن ايضا كان ثوب ابيض واسع يسربل جسدها . وكانت اكثر امتلاء بقليل مما كانت وهي في سورنتو . كان كل شيء فيها يعبق بالثقة وبراحة الحب ، وانتصار الجمال الهانئ بالسعادة . ظلت وقتا طويلا لا تبدي حراكا ، ثم نظرت الى الوراء ، الى الحجرة ، وانتصبت بجذعها فجأة ، وهتفت ثلاثا بصوت عال رنان : «Addio» * وترامت النبرات الجميلة بعيدا بعيدا ، وارتعشت طويلا ، متخافتة متلاشية فوق زيزفون الحديقة ، وفي الفضاء ورائي ، وفي كل مكان . ولبعض لحظات امتلأ كل ما حولي بصوت تلك المراة ، ورنّ كل شيء جوابا لها ، رنّ بها . فاغلقت النافذة ، وبعد لحظات انطفأ الضوء في البيت .

وما ان افقت على نفسي — واعترف بأن ذلك لم يكن سريعا — حتى اتخذت طريقي ، على الفور ، بمحاذاة الحديقة وباتجاه الضيعة ، وتقدمت من البوابة الخارجية المغلقة ، ونظرت عبر السياج . لم

* «وداعا !» (بالايطالية في الاصل) .

الحظ شيئا خارقا في الفناء . رايت في احد الاركان عربة تحت سقيفة ، وجزؤها الامامي ، المبقع كليا بالوحل الجاف يلوح ابيض حاد المعالم في ضوء القمر . وكانت صفاقات البيت مغلقة من الخارج كما من قبل . لقد نسيت ان اقول انني قبل هذا لم ازر غلينوبه حوالي اسبوع . قضيت اكثر من نصف ساعة اتمشى جيئة وذهوبا امام السياج حيران ، حتى لفت ، اخيرا ، انتباه كلب الحراسة العجوز اليّ ، الا انه لم ينبح عليّ ، بل اكتفى بأن نظر اليّ باستهزاء كبير من فتحة الباب بعينيه المقلصتين الضعيفتي البصر . فهمت ايماءته ، فانصرفت . ولكن ما كدت ابتعد نصف فرسخ ، حتى سمعت ورائي فجاة كركبة حوافر حصان . . . وبعد لحظات مرق بي فارس على حصان اسحم في عدو سريع ، وانعطف عن الطريق يمينا ، مديرا اليّ وجهه بسرعة ، غير انني لم استطع ان الحظ غير انفه الشبيه بانف النسر ، وشاربيه الفخمين تحت قبعته المنكسة ، واختفى الفارس في الحال وراء الغابة . وفكرت مع نفسي : «هذا هو» ، واحسست وكان قلبي يتحرك في صدري بشكل غريب . خُيِّل اليّ انني عرفته . قوامه ذكرني ، في الحقيقة ، بقوام الرجل الذي رايته يدخل باب الحديقة في سورنتو . بعد نصف ساعة كنت في غلينوبه ، في بيت مضيِّفي . ايقظته ، وشرعت على الفور اساله عمن جاء الى الضيعة المجاورة . اجابني بجهد بان المالكتين قد وصلتا .

سالته بلهفة :

– اية مالكتين ؟

اجاب بفتور شديد :

– معروف اية مالكتين بالطبع . من علية القوم .

– مَنْ مِن علية القوم ؟

– معروف بالطبع مَنْ هن من علية القوم .

– روسيتان ؟

– ومَنْ خلاف ذلك ؟ روسيتان ، بالطبع .

– وليستا اجنبيتين ؟

– مَنْ ؟

– هل وصلتا منذ زمان ؟

– بالطبع ، منذ قريب .

– وهل ستمكثان طويلا ؟

– هذا غير معروف ، بالطبع .

– هل هما غنيتان ؟

– غير معروف لنا ، بالطبع . ربما هما غنيتان .

– الم يات اي سيد معهما ؟

– سيد ؟

– نعم ، سيد .

زفر العمدة . وقال متثائبا :

– اوه ، يا ربي ! لا ، لا سيد . . . اظن لا يوجد سيد هناك . – واضاف فجاة : – غير معروف !

– واي جيران آخرين يقيمون هنا ؟

– اي جيران ؟ مختلف الجيران ، بالطبع .

– مختلف الجيران ؟ هل تعرف الاسماء ؟

– اسماء مَنْ ؟ المالكتين ؟ ام الجيران ؟

– اسم المالكتين .

زفر العمدة مرة اخرى ، وتمتم :

– الاسم ؟ الله يعرف الاسم ! اسم الكبرى انا فيدروفنا ، على ما يبدو لي . . واسم الاخرى . . . لا ، لا اعرف ما اسم الاخرى .

– طيب ، على الاقل اسم عائلتهما ؟

– اسم عائلتهما ؟

– نعم ، اسم العائلة ، الكنية .

– الكنية . . . ولكني ، وحق الرب ، لا اعرف .

– هل هما شابتان ؟

– اوه ، لا ، ليس .

– وكيف ؟

– الصغرى تتجاوز الاربعين .

– انت تكذب دائما .

صمت العمدة .

– طيب ، انت تعرف احسن منا ، نحن لا نعرف ذلك .

صحت بضيق :

– لا تفتا تكرر نفس الكلمة !

ولانني اعرف من التجربة ان الروسي ، حين يأخذ بالاجابة بهذه الطريقة ، تنعدم اية امكانية لاستخراج شي، نافع منه (لا سيما وان

مضيفي كان قد أوى لتوه الى مضجعه ، وكان عند كل جواب ينوس برأسه قليلا الى الامام ، موسّعا عينيه بدهشة الصبي ، فاتحا بصعوبة شفتيه الدبقتين بعسل باكورة النوم الحلوة) فقد هززت ذراعي عيوفا ، وذهبت الى السقيفة ممتنعا عن العشاء .

قضيت وقتا طويلا غير قادر على النوم . ظللت اسأل نفسي باستمرار : «من هي تلك المرأة ؟ روسية ؟ اذا كانت روسية ، فلماذا تتكلم بالايطالية ؟ . . العمدة يقول انها ليست شابة . . . ولكنه يكذب . . . ومَنْ ذلك المحظوظ ؟ . . لا شيء يفهم على الاطلاق . . . ولكن ما اغربها من مغامرة ! وهل من الجائز ان تقع مرتين متتاليتين ؟ . . الا انني لا بد ان اعرف مَنْ هي ، ولماذا جاءت الى هنا . . .» . اقلقتني مثل هذه الافكار المضطربة المفككة ، فلم اغف الا في ساعة متأخرة ، ورأيت احلاما غريبة . . .

فتارة ارى نفسي اجوب في صحراء في سمت حر الظهيرة ، وفجأة اجد امامي لطخة ظل كبيرة تركض على الرمل الاصفر المتلظي . . . ارفع رأسي ، فأراها ، حسنائي ، تمرق في الهواء بيضاء في بياض ، بجناحين ابيضين ، وتدعوني اليها . فأندفع في اثرها ، ولكنها تطير في الهواء بخفة وسرعة ، وانا لا استطيع الارتفاع عن الارض ، وابسط ذراعي المتلهفتين دون جدوى . . . تقول لي وهي تطير مبتعدة عني : «Addio» لماذا ليس لك جناحان ؟ . . Addio! وتصدر «Addio!» من كل الجهات . كل ذرة رمل تصيح وتصوصي لي Addio. . . وترن i هذه بدندنة حادة غير محتملة . . . اكشها بذراعي ، كما اكش بعوضة ، وابحث عن المرأة بعيني . . . ولكنها صارت غمامة ، وتصعد بهدوء نحو الشمس . والشمس ترتعش ، تخفق ، تضحك ، تمد للقائها خيوطها الذهبية الطويلة ، وها هي هذه الخيوط قد لفتها ، فتغيب هي فيها ، بينما اصيح انا بكل حنجرتي كالمأخوذ : «هذه ليست شمسا ، هذه ليست شمسا ، هذا عنكبوت ايطالي ، فمن الذي اعطاه جواز سفر الى روسيا ؟ ساكشف امره ، فقد رأيته يسرق البرتقال من حدائق الآخرين . . .» وتارة اخرى كان يتراءى لي انني اسير في درب جبلي ضيق . . . وانا عجول ، فقد كان عليّ ان اصل الى مكان ما في اقرب وقت ، في انتظاري هناك سعادة لا مثيل لها ، وفجأة تطلع صخرة ضخمة امامي . وابحث عن ممر . اميل

الى اليمين ، واميل الى الشمال ، وما من ممر ! وفجأة ينبعث صوت من وراء الصخرة Passa, ... passa quei colli وهذا الصوت يدعوني ، يكرر نداءه الحزين . فأندفع هنا وهناك في لوعة ، ابحث عن منفذ ، مهما يكن صغيرا . . . واأسفاه ! كـل ما حولي جدار عمودي ، غرانيت . . . passa quei colli... الصوت يكرر ذلك شاكيا . وقلبي يئن في داخلي ، فألقي بصدري على الصخرة الملساء ، واخدشها باظافري مذعورا . . . وفجأة ينفتح امامي ممر داكن . . . اندفع الى الامام مفعما بالفرح . . . يصرخ صوت بي : «مستحيل ! . . لن تمر . . .» انظر فأرى لوكيانتش يقف امامي ، يلوح مهددا ، ويشمر ذراعيه . . ابحث في جيوبي عجولا ، اريـد ان ارشيه ، ولكن جيوبي فارغة . . اقول له . «لوكيانتش ، لوكيانتش ، دعني امر ، ساكافئك بعد ذلك» . يجيبني لوكيانتش ويتخذ وجهه تعبيرا غريبا : «انت مخطئ ، سينيور ، لست خادما ، اعرف في شخصي دون كيشوت اللامانسي الفارس الجوّال الشهير . كنت ابحث طوال حياتي ، عن حبيبتي دولسينيا ، ولم استطع ان اجدها ، ولا اتحمل ان تجد صاحبتك ايضا . . .» ويصدر من جديد ، الصوت الناحب تقريبا ، Passa quei colli «تنحَّ ، سينيور !» — اهتف بذلك بضراوة ، واتهيأ للاندفاع . . . الا ان رمح الفارس الطويل يصيبني في قلبي تماما . . . اسقط كالميت ، وانطرح على ظهري . . . ولا استطيع حراكا . . . واذا بي اراها تدخل والمصباح في يدها ، وترفعه بجمال فوق رأسها ، تتلفت في الظلمـة ، وتنحني عليّ منسلة بتوجس . . . تقول بضحكة مزدرية : «انه هو ، اذن ، هذا المضحك ! هو الذي اراد ان يعرف مَنْ انا» ، ويغلي زيت مصباحها الحارق في قلبي الجريح تماما . . . اصرخ بجهد «بسيشه !»* واستيقظ . . .

نمت طوال الليل نوما سيئا ، وقبل ان يطرّ الفجر كنت على قدمي . اسرعت في ارتداء ملابسي ، وتزودت بالسلاح ، واتجهت الى الضيعة قدُما . كان تلهفي من الشدة بحيث انني ، حالمـا بدأ الشروق بالتوهج ، كنت ادنو من البوابة المعروفة . كانت القبّرات تصدح حولي ، والزيغان تصيح على اشجار البتولا ، ولكن كل ما في

* في الاساطير اليونانية تشخيص لانسانة في صورة فتاة فائقة الجمال لها جناحا فراشة . احبها كيوبيد . **الناشر** .

البيت كان ما يزال في نوم الصباح العميق . والكلب كان يشخر وراء السياج . رحت اسير على العشب المندى جيئة وذهوبا في لوعة الانتظار مغتاظا بما يقرب من الحنق واتطلع الى البيت الصغير الواطئ الزري المظهر ، الذي كان يضم بين جدرانه ذلك المخلوق الملغز . . . وفجأة ارسلت البوابة صريفا واهنـا ، وزعقت ، وانفتحت ، وظهر لوكيانتش على العتبة ، في قفطان قصير مخطط . بدا لي وجهه الاشعث الشعر ، الممدود اكثر جهامة من اي وقت مضى . نظر اليّ نظرة لا تخلو من دهشة ، وهمّ بأن يسد البوابة مرة اخرى .

هتفت مسرعا :

– اعمل معروفا ، اعمل معروفا !

قال ببطء وجمود :

– ماذا تريد في هذا الوقت المبكر ؟

– قل لي ، ارجوك ، يُقال ان السيدة وصلت اليكم ؟

تريث لوكيانتش قليلا .

– وصلت . . .

– وحدها ؟

– مع اختها .

– هل كان عندهما ضيوف امس ؟

– لم يكن .

وجذب مصراع البوابة نحوه .

– انتظر ، انتظر ، ارجوك . . . اعمل معروفا . . .

سعل لوكيانتش ، واقشعرّ من البرد .

– ولكن ماذا تريد بالضبط ؟

– قل لي ، من فضلك ، كم عمر سيدتك ؟

نظر لوكيانتش اليّ بارتياب .

– كم عمر السيدة ؟ لا اعرف . تعدّت الاربعين .

– تعدت الاربعين ؟ وكم عمر اختها ؟

– اقل من الاربعين .

– عجيب ! وهل هي حلوة ؟

– مَنْ ؟ الاخت ؟

– نعم ، الاخت .

ضحك لوكيانتش ضحكة تهكم .

– لا ادري ، حسب الذوق . في رايي انها ليست مليحة .

– لماذا ؟

– دميمة جدا ، ونحيلة قليلا .

– هكذا ، اذن ! ولم يأت احد غيرهما ؟

– لا احد . ومَنْ يأتي ؟

– ولكن هذا غير ممكن ! . . انا . . .

اعترض العجوز قائلا بانزعاج :

– اوه ، يا حضرة السيد ! اظن الحديث لا ينتهي معك ، والجو بارد كما ترى ! ارجو المعذرة .

– قف ، قف . . . هذا لك . . .

ومددت اليه ربع روبل كنت قد اعددته مسبقا ، ولكـن يدي اصطدمت بالبوابة التي انغلقت بسرعة . ووقعت القطعة النقدية الفضية على الارض ، وتدحرجت ، ووقعت عند قدميّ .

قلت لنفسي : «اوه ، ايها المخادع العجوز . ايهـا الدون كيشوت اللامانسي ! الظاهر انهـم امروك بالسكوت . . ولكـن انتظر ، لن تستطيع ان تخدعني . . .»

وآليت على نفسي ان اخرج بنتيجة ، مهما يكن في الامر شيء . قضيت زهاء نصف ساعة اذرع الارض ذهابا ومجيئا ، غير عارف علامَ استقر . واخيرا عزمت على ان استفسر في القرية في بادئ الامر ، لاعرف من جاء الى الضيعة بالضبط ، ومَنْ مالكها ، وبعد ذلك اعود ، على اية حال ، كيلا اتاخر عن مجرى الاحداث ولا يهدأ لي بال ، كما يقال ، حتى يتوضح لي الأمر . ستخرج المجهولة من بيتها ، واراها اخيرا في وضح النهار ، وعن كثب ، كامرأة حية ، وليس طيفا . كانت المسافة الى القرية حوالي الفرسخ ، فاتجهت اليها حالا ، في سير خفيف حثيث ، فقد كانت جسارة غريبة تغلي في دمي وتضطرم . وكانت طراوة الصباح المنشطة تستثيرني بعد الليلة المضطربة . وفي القرية عرفت من فلاحين خارجين الى العمل كل ما استطعت ان اعرفه منهما ، وعلى وجه التخصيص عرفت ان الضيعة مع القرية التي دخلتها تعرفان بـ«ميخائيلوفسكويه» ، وانها كانت تعود الى ارملة هي زوجة رائد تدعى آنا فيدوروفنا شليكوفا ، لها اخت غير متزوجة هي الانسة بيلاغيا فيدوروفنا بادايفا ، وان

الاختين كلتيهما تجاوزتا سن الشباب ، وهما غنيتان ، ولا تقيمان في البيت تقريبا ، وتقضيان الوقت في السفر والترحال ، ولا تستخدمان غير خادمتين وطباخ ، وان آنا قد عادت من موسكو قبل ايام بصحبة اختها لا غير . . . وهذه الحقيقة اربكتني كثيرا ، اذ لم يكن ، ثمة ، مجال للافتراض بان الفلاح أمر ايضا بالسكوت عن المراة المجهولة لي . كما كان من المستحيل الافتراض بأن آنا فيدوروفنا شليكوفا ، الارملة في الخامسة والاربعين ، وتلك المراة الشابة الفاتنة التي رايتها يوم امس ما هما الا شخص واحد . ان بيلاغيا فيدوروفنا ايضا ، حسب الاوصاف ، لم تكن تتميز بجمال ، وفوق ذلك ، فقد هززت كتفي ، وضحكت بغيظ من مجرد التفكير بان المراة التي رايتها في سورينتو ربما كانت تسمى بيلاغيا ، بل وتلقب ببادابيفا ، فضلا عن ذلك . . . وفكرت : ولكنني رايتها امس ، في هذا البيت . . . رايتها بام عيني ، وتكدرت عظيم التكدر ، وجنّ جنوني ، ولكنني ازددت اصرارا على مرامي ، فراودتني الرغبة في ان اعود حالا الى الضيعة . . . ولكنني نظرت الى ساعتي . لم تكن قد بلغت حتى السادسة . عزمت على ان اتريث قليلا . قد يكون جميع مَنْ في الضيعة نياما حتى الآن . . . ثم ان التطواف بالقرب من البيت ، في مثل هذه الاوقات ، ما كان سيعني الا اثارة الشبهة بدون طائل ، وبالاضافة الى ذلك ، فقد كانت تمتد امامي اجمات تُرى من خلفها غابة من اشجار الحور . . . يجب ان انصف نفسي فاقول ان الولع النبيل في الصيد ، لم يخمد تماما في داخلي ، رغم الافكار التي كانت تقلقني . قلت في سري : «ربما اعثر على صغار الطير في اعشاشها ، وينقضي الوقت» . ودخلت الاجمات . ولكن ، والحق يقال ، كنت اسير بتهاون شديد ، ودون مراعاة على الاطلاق لقواعد فن الصيد . فلم اكن دائما اراقب الكلب بعيني ، ولم احمحم فوق الاجمة الكثيفة ، على امل ان يطير منها قطا الغابة احمر الحاجبين في هدير وخشخشة ، وكنت انظر الى ساعتي باستمرار ، وهو امر غير لائق البتة . واخيرا ، حلت الساعة التاسعة . فهتفت بصوت مسموع «حان الوقت !» فعدت الى الضيعة ، واذا بقطا هائل ياخذ فعلا بالرفرفة في العشب الكثيف ، على بعد خطوتين مني . اطلقت النار على الطائر البهي ، وجرحته تحت جناحه ، وكاد يسقط ، الا انه جمع قواه ، وجرجر نفسه نحو الغابة خافقا بجناحيه غائصا الى الاسفل ، وحاول

التحليق اعلى من شجيرات الحور الاولى من الغابة ، الا انه وهن ، وسقط متلقبا في دغل . وليس مغفورا على الاطلاق التخلي عن مثل هذه الغنيمة . فانطلقت في اثره خفيف الحركة ، ودخلت الغابة ، واومات الى كلبي ديانكا ، وبعد لحظات سمعت خفقا واهنا ، وخشخشة . ومعنى ذلك ان القطا البائس كان يضطرب تحت براثن الكلب الحاد السمع . رفعته ، ووضعته في محفظة الصيد ، وتلفت فيما حولي ، وجمدت في مكاني كالمسمّر . . .

كانت الغابة التي دخلت فيها كثيفة جدا ومتراصة النبت ، حتى شققت طريقي بصعوبة الى حيث وقع الطائر ، ولكن على مسافة غير بعيدة عني كان يتعرج درب للعربات ، وعلى هذا الدرب كانت حسنائي والرجل الذي سبقني في العشية يسيران على فرسين في خطى متقاربة وجنبا الى جنب ، وقد عرفت الرجل من شاربيه . كانا يسيران بهدوء وصمت ، واحدهما يمسك بيد الآخر ، وفرساهما يطئان الارض بعسر ، ويترنحان بكسل من جنب الى جنب ، وقد مدا عنقيهما الطويلين بجمال . وبعد ان افقت من فزعي الاول – ما من اسم آخر استطيع ان اطلق على الشعور الذي انتابني فجأة . . . غرزت بها بصري . . . ما احلاها ! وما افتن قوامها الممشوق المندفع نحوي ، وسط الخضرة الزمردية ! كانت الظلال الرقيقة ، وانعكاسات الضوء الناعمة تنزلق عليها بهدوء ، تنزلق على ثوبها الرمادي الطويل ، على عنقها الاهيف المنحني قليلا ، على محياها الوردي الباهت ، على شعرها الاسود اللامع الفالت بغزارة من تحت القبعة الواطئة . ولكن لا سبيل الى نقل ذلك التعبير من الهناءة الكلية ، الجيّاشة ، والجيّاشة الى حد الصمت المطبق ، ذلك التعبير الذي كان يفيض من قسماتها ! وكان رأسها قد انحنى تحت ثقل هذه الهناءة ، وكان شرر ذهبي ندي يشف في عينيها السوداوين المطبقتين الى النصف بالرموش الطويلة . لم تكونا مصوبتين الى شيء ، هاتان العينان الهانئتان ، يكلكل عليهما حاجبان رقيقان . وعلى شفتيها طافت ابتسامة مبهمة صبوَية ، ابتسامة فرح عميق . وبدا وكان فيض السعادة كان يتعبها ، ويثقل عليها قليلا ، مثلما تثقل زهرة متفتحة على عودها احيانا . كانت يداها كلتاهما تستقران بوهن ، احداهما في يد الرجل الذي كان يسير معها ، والثانية على حارك الفرس . استطعت ان اتمعن فيها ، بل وفيه ايضا . . . كان رجلا



وسيما ممشوق القوام له وجه غير روسي . كان ينظر اليها بجرأة وانشراح ، ويتمتع بمرآها ، على قدر ملاحظتي ، بما لا يخلو من اعتزاز خفي . وكان ، الوغد ، يتمتع بمرآها برضى كثير عن النفس ، وتأثر كبير ، وحنان عميق ، حنان بالضبط . . . اجل ، وفي حقيقة الامر يندر ان يستحق انسان مثل هذا الاخلاص ، يندر ان تكون روح رائعة قمينة بأن تقدم للروح الاخرى مثل هذه السعادة . . . واعترف بأنني حسدته ! وفي غضون ذلك حاذاني كلاهما . . . وكلبي قفز الى الدرب فجاة ، واخذ ينبح . . . جفلت الغريبة ، والتفتت بسرعة ، وبعد ان رأتني ، ساطت عنق فرسها بالسوط بقوة . صهل الفرس ، ووثب على قائمتيه الخلفيتين ، وقذف الاخرين دفعة واحدة الى الامام ، وانطلق في عدو سريع . . . وفي الحال همز الرجل حصانه الاسحم بمهمازيه ، وحين طلعت من الدرب الى حافة الغابة بعد بضع لحظات ، كان كلاهما يرقل في المدى الذهبي ، عبر الحقل ، صاعدا هابطا على السرج بجمال وانسياب . . . ولم يكن اتجاههما صوب الضيعة . . .

نظرت . . . سرعان ما غابا وراء التل ، بعد ان تالقا ، للمرة الاخيرة ، في ضوء الشمس الساطع على خلفية القبة السماوية السوداء . وقفت قليلا ، وبعدها عدت بخطى هادئة الى الغابة ، وجلست على الدرب وغطيت عيني بيدي . وكنت قد لاحظت ان الانسان ، حين يلتقي باناس غرباء ، لا يكلفه الامر الا ان يغمض عينيه حتى تظهر امامه قسمات وجوههم وكل امرئ يستطيع ان يتاكد من صحة ملاحظتي هذه في الشارع . وكلما كانت الوجوه مالوفة اكثر ، صعب ظهورها اكثر ، والتبس الانطباع عنها ، فانت تذكرها ولا تراها . . . اما وجهك فلا تستطيع ان تتصوره . . . ان اصغر تقطيع فيه معروف لك ولكن الصورة الكاملة غير واضحة في الذهن . وهكذا ، جلست ، واغمضت عيني ، واذا بي ارى المراة الغريبة على الفور ورفيقها ، وفرسيهما ، وكل شيء . . . على الاخص وجه الرجل البسّام برز امامي بحدة ووضوح . فاخذت امعن النظر فيه . . . اختلط الوجه ، وذاب في عتمة قرمزية ، وفي اثره مرقت صورتها ايضا ، وغاصت ، وبعد ذلك ابت ان تعود . رفعت جسمي ، وقلت لنفسي : «طيب ، ماذا بعد ! لقد رايتهما ، على الاقل ، رايتهما كليهما بوضوح . . يبقى ان اعرف اسميهما» . احاول ان

اعرف اسميهما ! اي فضول تافه فج ! ولكن اقسم بأن الذي تأجج في داخلي ليس فضولا . لقد بدا لي في الحقيقة ، ان من غير الممكن الا اسعى الى ان اعرف في آخر الأمر ، "من" هما ، على اقل تقدير ، بعد تلك المصادفة التي قادتني اليهما على هذا النحو الغريب والملحاح . وعلى العموم زايلتني الحيرة السابقة اللهوف ، وحل محلها شعور مبهم حزين خجلت منه قليلا . . . الحسد . . .

لم استعجل في العودة الى الضيعة . فقد صار يخجلني ، واعترف بذلك ، النفاذ الى سر الآخرين . كما ان ظهور العاشقين نهارا ، وفي ضوء الشمس ، على ما فيه من فجاءة ، واكرر ، وغرابة ، لا اقول قد هدأني ، بل أبرد حرارة لهفتي على نحو ما . فلم اعد ارى في هذا الحادث كله شيئا خارقا للطبيعة ، عجيبا . . . شيئا اشبه بحلم يعز عن التحقيق . . .

عدت الى الصيد باهتمام اكثر من السابق ، ومع ذلك لم تحدث لي لحظات من السرور الغامر . وقعت على صغار الطير ، فاخَّرني حوالي ساعة ونصف . . . ظلت الديوك البرية الفتية وقتا طويلا لا ترد على صفيري ، وربما لأنني لم اكن أصفر «بطبيعية» كافية . كانت الشمس قد ارتفعت كثيرا (كانت الساعة تشير الى الثانية عشرة) ، حين يممت خطاي صوب الضيعة . سرت بغير عجالة . وظهر اخيرا ، البيت الواطىء من التل . . . وارتجف قلبي في صدري مرة اخرى . اخذت اقترب . . . ورأيت برضى خفي لوكيانتش الذي كان على سابق عهده جالسا على مسطبة بلا حراك ، امام المبنى الملحق بالبيت . وكانت البوابة مقفلة . . . والصفاقات ايضا . هتفت وانا ما ازال بعيدا :

– مرحبا ، يا عم ! خرجت لتتشمس ؟

ادار لوكيانتش وجهه النحيف نحوي ، ورفع قبعته قليلا في صمت .

دنوت منه . وعدت راغبا في كسب مودته :

– مرحبا ، يا عم ، مرحبا . – واضفت وقد رأيت ، "عرضا ، ربع الروبل الجديد الذي اردت ان اقدمه له صباحا . – ما هذا منك ، الم تره ؟

واشرت الى قطعة النقد الفضية المدورة ، الطالع نصفها من تحت العشب القصير .

— لا ، رأيته .
— ولماذا لم تتناوله ؟
— ليس من نقودي ، فلم اتناوله .
— هكذا ، يا اخ ! — اعترضت ، وليس دون ارتباك ، التقطت ربع الروبل ، وقدمته اليه ثانية قائلا — خذه ، خذه للشاي .
اجاب لوكيانتش ، مبتسما بهدوء :
— متشكرون كثيرا ، لا حاجة . نعيش بدونه . متشكرون كثيرا .
فاعترضت بحيرة :
— ولكنني مستعد الى ان اقدم لك اكثر بسرور .
— ولاي شيء ؟ لا تتعب نفسك . متشكرون كثيرا على اللطف . تكفينا كسرة من الخبز ، وحتى هذه تبقى منها فضلة . لا احد يعرف متى تحل ساعته .
نهض ، ومدّ يده الى البوابة .
— انتظر ، انتظر ، — قلت في استماتة تقريبا . — حقا ، انك اليوم غير ميّال للحديث . . . قل لي ، على الاقل ، هل استيقظت سيدتك ، ام لا ؟
— استيقظت .
— وهي . . . الآن في البيت ؟
— لا ، ليست في البيت .
— هل خرجت لزيارة احد ؟
— لا ، ابدا . . . رحلت الى موسكو .
— كيف الى موسكو ؟ ولكنها اليوم صباحا كانت هنا ؟
— هنا .
— وباتت هنا ؟
— باتت هنا .
— وقبل قليل جاءت الى هنا ؟
— قبل قليل .
— وكيف ذاك ، يا اخ ؟
— هكذا ، قبل ساعة تقريبا تفضلت بالعودة الى موسكو .
— الى موسكو !

ونظرت الى لوكيانتش مشدوها : اعترف بأنني لم اتوقع ذلك . . .
بينما نظر لوكيانتش اليّ . . . انفرجت شفتاه اليابستان عن ابتسامة مواربة دأب الشيوخ ، وتألقت الابتسامة قليلا في عينيه الحزينتين . واخيرا قلت انا :
— ورحلت مع اختها ؟
— مع اختها .
— اذن ، لا يوجد احد في البيت الآن ؟
— لا أحد . . .
ولمع في ذهني ان «هذا العجوز يخدعني . فلا عجب ان يبتسم تلك الابتسامة المواربة» . وقلت بصوت مسموع :
— اسمع ، يا لوكيانتش . اتريد ان تعمل معروفا لي ؟
— ماذا تبتغي ؟
قال ذلك ببطء ، والظاهر انه اخذ يستثقل استجواباتي .
— انت تقول لا احد في البيت ، فهل تستطيع ان تريه لي ؟ ساكون ممتنا لك جدا .
— يعني تريد ان ترى الغرف ؟
— نعم ، الغرف .
صمت لوكيانتش قليلا ، ثم نطق :
— آمرك ، تفضل . . .
واجتاز عتبة البوابة منحنيا ، سرت في اثره . وبعد ان عبرنا فناء صغيرا ، صعدنا درجات مدخل البيت المتخلخلة . دفع العجوز بابا ، ولم يكن فيه قفل وكان حبل فيه عقدة يبرز من ثقب المفتاح . . . دخلنا البيت . لم تكن فيه غير خمس او ست غرف واطئة السقف ، اثاثها بسيط جدا ورث ، بقدر ما استطعت ان اميزه في الضوء الشاحب الناضح بتقتير من خلال خصاص الصفاقات . وفي احداها (وبالذات تلك التي كانت تطل على الحديقة) بيانو صغير قديم . . . رفعت غطاءه المعوج ، وضربت على مفاتيحه ، فتردد صوت وَعِق مكدود ، وهمد عليلا ، وكأنما يشكو جسارتي . وما من اثر يمكن ان يذكرك بان اناسا رحلوا من هذا البيت لتوهم ، ان رائحة شيء ميت مختنق — رائحة غير سكنية كانت تفوح منه — لا شيء غير ورق ملقى هنا وهناك يوحي ببياضه بانه رُمي قبل زمن غير

طويل . التقطت ورقة منه ، فتبين انها قطعة من رسالة خربشـــت على صفحة منها بخط نسائي سريــــع كلمتان : «se taire?» * وفي جانبها الآخر استطعت ان اتبين كلمة : «bonheur» ** . وعــلى طاولة مستديرة بالقرب من النافذة باقة من الزهور نصف الذابلة موضوعة في قدح ، وشريطا اخضر مدعوكا . . . اخذت هذا الشريط للذكرى . فتح لوكيانتش بابا ضيقا الصقـــت بـــه اوراق تزيين الجدران .

قال ، وقد بسط ذراعه :

– هذه غرفـــة النوم ، ووراءهـــا هناك غرفة الوصيفة ، ولا غيرها . . .

عدنا عبر الدهليز .

– وما تلك الغرفة هناك ؟

سألت مشيرا الى باب ابيض عريض مغلق بالقفل .

– تلك ؟ – اجابني لوكيانتش بصوت كامـــد ، – لا شيء بالذات .

– كيف لا شيء بالذات ؟

– لا شيء بالذات . . . غرفة خزن . . .

وسار الى الرواق .

– غرفة خزن ؟ هل يمكن ان اراها ؟

اعترض لوكيانتش في غير رضى :

– ولكن ماذا تبغي حقا ، يا حضرة السيد ! ماذا تريد ان ترى ؟ صناديق ، اوان قديمة . . . غرفة خزن ، ولا شيء آخر . . .

– ارني اياها ، على اية حال ، ارجوك ، ايها الشيخ . – قلت ذلك ، رغم انني خجلت في دخيلة نفسي من الحاحي غير اللائق . – الحقيقة . . اود . . اريـــد ان ابني في قريتي مثل هذا البيـــت بالضبط . . .

واحسست بالخجل ، لانني لم استطع انهاء ما بداته من الكلام .

وقف لوكيانتش مميلا رأسه الاشيب على صدره ، ينظر اليّ من تحت حاجبيه نظرة غريبة . تابعت القول :

– ارني .

---

* اسكت انا ؟ (بالفرنسية في الاصل) .

** السعادة . . (بالفرنسية في الاصل) .

– طيب ، لو سمحت .

اعترض قائلا اخيرا ، واخرج مفتاحا ، وفتح الباب على مضض .

نظرت في غرفة الخزن . وبالفعل لم يكن فيها ما يلفت النظر . علقت على الجدران صور نصفية قديمة لاناس ذوي وجوه كئيبـــة سوداء تقريبا ، وعيون غاضبة . وعلى الارض مختلف المهملات مـن سقط المتاع .

سألني لوكيانتش بعبوس :

– طيب ، هل شبعت من النظر ؟

اسرعت في القول :

– نعم ، وشكرا !

صفق الباب . خرجت الى الرواق ، ومن الرواق الى الفناء .

شيّعني لوكيانتش وتمتم مودعا : «معذرة ، يا سيدي» واتجـه الى بيته . هتفت في اثره :

– مَنْ كانت ضيفة عند سيدتك يوم امس ؟ لقد التقيتها اليوم في الدغل !

كنت آمل ان احيره بسؤالي المفاجىء هذا ، واستخراج جواب عفوي منه . الا ان العجوز اكتفى بان ضحك ضحكة باهتة ، وصفــق الباب ، وهو يعتكف في مسكنه .

عدت راجعا الى غلينويه . كنت اشعر بالحراجة مثل صبي اُخجِلَ .

قلت لنفسي : «لا ، الظاهر انني لا استطيع التوصل الى حل هذا اللغز . فليذهب الى حيث ! لن افكر في كل هذا بعد الآن» .

وبعد ساعة كنت في طريقي الى البيت مغتاظا متوتر الاعصاب .

انقضى اسبوع . ومهما حاولت ان اصرف عن ذهني ذكرى عــن الغريبة ، وعن رفيقها ، عن لقاءاتي معهما ، كانت تعاودني ، مــن حين لآخر ، وتلح عليّ بكل اللجاجة المضجرة لذبابة بعد الغداء . . . كما ان لوكيانتش بنظراته الغامضـــة ، وعباراتـــه المتحفظة ، وابتسامته الباردة الحزينة كان لا يبرح ذاكرتي . والبيت نفسه ، حين كان يخطر في بالي ، نفس ذلك البيت كان يبدو وكأنه ينظـــر اليّ بمكر وكمد من خلال صفاقاته نصف المغلقة ، وكأنه يناكدني ، كأنه كان يقول لي : وعلى اية حال انت لن تعرف شيئا ! وفي نهايـــة الامر لم اتحمل . وفي يوم من الايام سافرت الى غلينويه ، ومـــن غلينويه اتجهت ماشيا . . . الى اين ؟ القارىء يحدس بسهولة .

يجب ان اعترف بانني شعرت بقلق شديد جدا ، وانا اقترب من الضيعة الغامضة . من الخارج لم يطرأ على البيت اي تغير : نفس النوافذ المغلقة ، ونفس المظهر المقبض الميتّم ، سوى ان المقعد ، امام الجناح الملحق ، حيث كان يجلس لوكيانتش العجوز احتله خادم شاب فتي ، في نحو العشرين من العمر ، يرتدي قفطانا طويلا من النسيج القطني اليدوي ، وقميصا احمر . كان يجلس وقد وضع على كفه رأسه الاجعد الشعر يهوّم في نعاس ، متمايلا وجافلا من حين لآخر .

قلت بصوت عال :

– مرحبا ، يا اخ !

هبّ على الفور ، وحملق فيّ بعينيه المبهورتين . كررت قائلا :

– مرحبا ، يا اخ ، اين العجوز ؟

قال الفتى ببطء :

– اي عجوز ؟

– لوكيانتش .

– آه ، لوكيانتش ! – ونظر في ناحية . – تريد لوكيانتش ؟

– نعم ، لوكيانتش . هل هو في البيت ؟

– لا . . . – قال الفتى مقطعا كلامه ، – هـو . . يعني . . كيف . . يعني . . . اقول لك . . .

– هل هو مريض ؟

– لا .

– ماذا ، اذن ؟

– انتهى .

– كيف انتهى ؟

– هكذا . . . حصل . . . له . . . مكروه .

سألت بدهشة :

– مات ؟

– شنق نفسه .

– شنق نفسه !

هتفت بذعر ، وبسطت ذراعيّ .

صمت كلانا ، واحدنا ينظر في عيني الآخر . واخيرا قلت :

– منذ زمان ؟

– اليوم خامس يوم . دفنوه امس .

– ولكن لماذا شنق نفسه ؟

– الله يعلم . كان معتوقا ، ويتسلم معاشا ، ولم يعرف العوز في شيء ، وكانت سيدتاه تتلطفان معه كما تتلطفان مع قريب . سيدتان في غاية الرقة ، الله يعطيهما العافية ! ولا يدخل في العقل ما حصل له . لعل الشيطان اغواه .

– ولكن كيف فعل ذلك ؟

– ببساطة . قام وشنق نفسه .

– الم تلحظوا عليه شيئا من قبل ؟

– كيف اقول لك . . . لا شيء . . . يذكر . كان ضجرا دائما ، منقبض النفس . لا ينقطع عن التأوه . يقول : مللت . كما كان في اواخر العمر . في المدة الاخيرة كانما صار يغرق في افكاره . كان يأتي الى القرية ، وانا ابن اخيه . وكان يقول : «فاسيا ، يا ولدي ، تعال ونَم عندي !» – «ماذا هناك ، يا عم ؟» – «لا شيء ، مجرد رهبة وضجر حين اكون وحيدا» . فاذهب اليه . احيانا يخرج الى الفناء ، ويتطلع الى البيت ويتطلع ، ويهز رأسه ويهز ، ويزفر زفرة شديدة . . . وقبيل الليلة التي قضى فيها على حياته ، جاءنا ايضا ، ودعاني . فذهبنا الى جناحه . جلس على المسطبة قليلا ، ونهض ، وخرج الى الفناء . وانتظره ، واقول لنفسي لماذا تأخر كل هذا الوقت . خرجت الى الفناء ، وناديته : «يا عم ! اين انت يا عم ؟» ولا يرد العم على ندائي . فافكر الى اين ذهب ؟ لعله في البيت ؟ سرت الى البيت . وكان المساء بدأ يحل . وامرّ بغرفة الخزن ، واسمع خربشة وراء الباب . فتحت الباب . فرأيته جالسا هناك ، منكمشا تحت الشباك . قلت له : «ماذا تفعل هنا ، يا عم ؟» فاذا به يلتفت ، ويصيح فيّ ، ياه ! وعيناه تسرعان وتسرعان وتتوقدان ، مثل عيني القط . «ماذا بك ؟ الا تراني احلق ؟» وصوته مبحوح جدا ، حتى ان شعري وقف على رأسي وانتصب ، ولا اعرف لماذا استولت عليّ الرهبة . . . الظاهر ان الابالسة قد احاطت به في ذلك الحين . اقول : «وفي العتمة» بينما ركبتاي ترتجفان . يقول : «طيب ، اذهب» . فذهبت وخرج هو ايضا من غرفة الخزن ، واغلق بابها بالقفل . وعدنا الى الجناح . وزال الخوف مني حالا . قلت : «ماذا كنت تفعل في غرفة الخزن ، يا

عم ؟» واذا به يضطرب ، ويقول : «اسكت انت ، اسكت !» وصعد الى دكة الموقد * . واقول لنفسي : «طيب ، الافضل ان لا اتحدث معه . الظاهر انه متوعك اليوم ، ربما» . حملت نفسي ، واستلقيت على دكة الموقد ايضا . والقنديل يشتعل في الركن . واظل مستلقيا ، والنعاس يطوف بي . . . وفجأة اسمع الباب يصرف صريفا خفيفا . . . ثم ينفتح . . . قليلا ، يعني . كان العم راقدا وظهره الى الباب . ولعلك تتذكر ان سمع العم ثقيل ، ولكنه في تلك اللحظة يقفز فجأة . . . «من يدعونني ؟ ها ؟ من ؟ جاءوا لاستدعائي ، جاءوا !» وطلع الى الفناء حاسر الراس . . . فكرت مع نفسي : «ماذا حصل له ؟» غير انني ، انا الآثم ، غفوت في الحال . واستيقظ في الصباح التالي . . . لوكيانتش غير موجود . خرجت من الحجرة ، واخذت اناديه . غير موجود في اي مكان . واسأل الحارس : «الم تر العم خارجا ؟» فيقول هذا : «لا ، لم اره» . — «غير موجود ، يا اخ . . .» — «اوه !» وكلانا استولى عليه خوف شديد . واقول : «لنذهب ، يا فيدوسيتش ، لنذهب ، ونر هل هو موجود في البيت» . يقول الحارس : «لنذهب ، يا فاسيلي تيموفيتش» بينما هو نفسه باهت اللون ، كالطين . ذهبنا الى البيت . . . اخذت امر بغرفة الخزن ، وارى القفل مفتوحا متدليا من قوسه . دفعت الباب . كان مغلقا من الداخل . . . دار فيدوسيتش على الفور ، ونظر في الشباك ، ويصيح : «فاسيلي تيموفيتش ! رِجلان متدليتان ، رجلان !» فاهرع الى الشباك . الرِجلان رجلاه ، رجلا لوكيانتش . وكان مشنوقا وسط الغرفة . . . طيب ، بعثنا على القضاء . . . انزلناه من الحبل . كان الحبل معقودا اثنتي عشرة عقدة .

— طيب ، وماذا قال القضاء ؟

— ماذا يقول ؟ لا شيء . فكروا ، وفكروا : اي سبب يمكن ان يكون ؟ لا سبب ، على الاطلاق . وهكذا قرروا : لا بد من الافتراض بانه كان مختل العقل . في المدة الاخيرة كان راسه يوجعه . وكثيرا ما كان يشكو من راسه . . .

تحادثت مع الفتى نصف ساعة بعد هذا ، وانصرفت ، اخيرا ، في حيرة تامة . واعترف بانني لم استطع ان انظر الى ذلك البيت

* هي بروز طويل عند الموقد الروسي يستخدم للاستلقاء . المعرب .

المتداعي دون ان يتملكني خوف خفي خرافي . . . بعد شهر ، غادرت القرية ، وشيئا فشيئا تبددت من راسي كل تلك المخاوف ، تلك اللقاءات الغامضة .

٢

مضت ثلاثة اعوام ، قضيت معظمها في بطرسبورغ وفي خارج البلاد ، واذا ذهبت الى قريتي في وقت من الاوقات ، فلم امكث فيها غير بضعة ايام ، ولهذا لم يصادف ان ذهبت الى غلينويه ، ولا الى ميخائيلوفسكويه . ولم ار حسنائي ، ولا ذلك الرجل في اي مكان . وذات مرة ، في اواخر العام الثالث صادف ان التقيت في امسية عند احدى معارفي في موسكو بالسيدة شليكوفا واختها بيلاغيا باداييفا ، نفس باداييفا التي كنت ، انا الرجل الآثم ، اعتبرها ، حتى ذلك الحين ، شخصا موهوما . كلتا السيدتين قد تخطت سن الشباب ، ولهما مظهر لطيف جدا . وكان حديثهما يتميز بالعقل والمرح . وقد قامتا بسياحات كثيرة ، وذات فائدة . وكان في سلوكهما مرح غير متكلف . ولكن لم يكن بينهما وبين امرأتي الغريبة اي شيء مشترك ، على الاطلاق . قدموني لهما . فتحدثت مع شليكوفا (كان جيولوجي طارق منشغلا باختها) اعلنت لها بأن من دواعي سروري كوني جارا لها في قضاء . . .

هتفت :

— آ ! بالضبط عندي ضيعة صغيرة هناك ؛ قرب غلينويه .

قلت :

— بالطبع ، بالطبع . انا اعرف قريتك ميخائيلوفسكويه . هل تسافرين الى هناك ؟

— انا ؟ نادرا .

— هل كنت هناك قبل ثلاثة اعوام ؟

— على مهلك ! يبدو انني كنت . نعم ، كنت ، بالضبط .

— مع اختك ام لوحدك ؟

رمقتني بنظرة .

— مع اختي . قضينا اسبوعا هناك ، في الاشغال . انت تعرف على العموم لم نر احدا .

– حم . . . اظن جيرانكم قليلون هناك .
– نعم ، قليلون . لست ميالة اليهم .
بادرتها قائلا :
– خبريني ، اظن ان مصابا وقع هناك في تلك السنة . لوكيانتش . . .
اغرورقت عينا شليكوفا بالدموع في الحال . وقالت بحرارة :
– هل كنت تعرفه ؟ اي مصاب ! كان عجوزا طيبا . . . واتصور ، بدون اي سبب . . .
تمتمت :
– نعم ، نعم . اي مصاب . . .
اقبلت علينا اختها . من المحتمل انها اخذت تضجر من مناقشات الجيولوجي العلمية عن تكوّن شواطىء الفولغا .
شرعت محدثتي تقول :
– تصوّري * Pauline ان monsieur كان يعرف لوكيانتش .
– صحيح ؟ العجوز المسكين !
– خرجت للصيد غير مرة بالقرب من ميخائيلوفسكويه ، اثناء وجودك هناك ، قبل ثلاثة اعوام .
– وجودي ؟
اعترضت بيلاغيا بشيء من الحيرة . فسارعت اختها لترد :
– نعم ، بالطبع ! هل معقول انك لا تتذكرين ؟
وحدّقت في عينيها متفرسة . فاذا بيلاغيا تقول فجاة :
– اها ، نعم ، نعم . . . بالضبط !
قلت في سري : «اهوه ، لا اظنك كنت في ميخائيلوفسكويه يا حلوة» .
وفجاة قال شاب طويل له ناصية شقراء نافرة ، وعينان عذبتان مربدتان :
– هلاّ غنيت لنا شيئا ، يا بيلاغيا فيدوروفنا .
قالت الآنسة باداييفا :
– الحقيقة ، لا اعرف .
– وهل انت تغنين ؟ – هتفت بحيوية ، ونهضت من مكاني

* بولينا (بالفرنسية في الاصل) تقابلها بالروسية – بيلاغيا (المعرب) .

بسرعة . – بحق الرب . . . آه ، بحق الرب ، غني لنا شيئا .
– ولكن ماذا اغني لكم ؟
– الا تعرفين ، –قلت محاولا بكل وسيلة ان اضفي على نفسي مظهر اللامبالي والمستخف ، – اغنية ايطالية . . . انها تبدأ ب Passa que' colli...
اجابت بيلاغيا بسذاجة تامة :
– اعرف . يعني اغنيها لكم ؟ تفضلوا .
وجلست الى البيانو . وصوّبت انا نظراتي مثل هاملت (١٦) على السيدة شليكوفا . وبدا لي انها في الصوت الاول ، جفلت قليلا ، ولكنها ظلت جالسة بهدوء حتى النهاية . غنت الآنسة باداييفا غناء لا باس به . انتهت الاغنية ، وتردد التصفيق المعتاد . وراح الحاضرون يسالونها ان تغني شيئا آخر ، الا ان الاختين تغامزتا ، وبعد بضع دقائق انصرفتا . حين كانتا تخرجان من الغرفة بلغت سمعي كلمة : importun * .
قلت لنفسي : «مستحق !» ولم التق بهما بعد ذلك .
انقضى عام آخر . وانتقلت للاقامة في بطرسبورغ . وحل الشتاء ، وبدات الحفلات التنكرية . وذات مرة ، وانا خارج في الساعة الحادية عشرة من بيت احد الاصدقاء ، احسست بانقباض شديد في النفس ، فذهبت الى حفلة تنكرية في مجمع النبلاء (١٧) . تجولت طويلا بمحاذاة الاعمدة والمرايا ، وعلى وجهي تعبير التواضع والقبول بالقضاء والقدر وهو تعبير يظهر في مثل هذه الحالات ، والله يعلم السبب ، وعلى قدر ما اسعفتني الملاحظة ، في وجوه اكثر الناس استقامة ، تجولت طويلا ، متملصا بالنكتة بين الفينة والاخرى من المتنكرات الموصوصات بمخرماتهن المريبة ، وقفازاتهن غير المغسولة ، مبادرا اياهن بالحديث ، وذلك اندر ، واسلمت اذني طويلا الى زعيق الابواق وصريف الكمانات ، واخيرا استولى عليّ الضجر ، واصابني الصداع ، فاردت الذهاب الى البيت . . . ولكن . . . ولكن بقيت . رأيت امرأة بلباس تنكري اسود متكئة على عمود – رأيتها ، وتوقفت ، وتقدمت منها – و . . . هل سيصدقني القراء ؟ عرفت بشخصها ، على الفور ، امرأتي الغريبة . ولا استطيع ان احسم مم عرفتها ، هل من النظرة التي القتها عليّ

* ملحاح (بالفرنسية في الاصل) .

بسهوم من خلال ثقبي القناع المستطيلين ، ام من تقاطيع كتفيهـا ويديها المذهلة ، ام من المهابة النسوية لكل هيئتها ، ام ، وهذا اخيرا ، من الصوت المسارر الذي وسوس في داخلي فجأة . . . ولكنني عرفتها ، وحسب . مررت بها عدة مرات ، والرجفة في قلبي . لم تبد اية حركة . وكان في الوضع الذي اتخذته شيء حزين لا امل فيه ، حتى رايت نفسي ، وانا انظر اليها ، اتذكر بيتا من اغنيـة اسبانية رومانسية :

انا لوحة حزينة
متكئة على جدار * .

تحولت الى وراء العمود الذي كانت تتكئ عليه ، واحنيت راسي الى اذنها ، وهمست :

— Passa que'colli. . .

اهتزت بكل كيانها ، والتفتت اليّ بسرعة . والتقت عيوننا عن قرب ، حتى كان في وسعي ان الحظ كيف اتسعت حدقتاها من الذعر . مدّت يدا واحدة بوهن وحيرة ، ونظرت اليّ .

— السادس من ايار — ١٨٤ ، في سورنتو ، في الساعة العاشرة مساء ، في شارع della Crose ** — قلت بصوت بطيء ، غير صارف بصري عنها — ثم في روسيا . . . في ولايـة . . . ، في قريـة ميخائيلوفسكويه ، في الثاني والعشرين من تموز — ١٨٤ . . .

قلت كل ذلك بالفرنسية . تراجعت قليلا الى الوراء ، وشملتني بنظرة مندهشة من قدمي حتى راسي ، وبعد ان همست : Venez*** خرجت من الصالة سريعة الحركة . سرت في اثرها .

سرنا صامتين . ليس في مقدوري ان اصف مشاعري وانا اسير الى جانبها . الحلم الجميل صار حقيقة فجأة . . . تمثال غالاتيا النازل من قاعدته امراة حيّة امام بصر بجماليون المصعوق (١٨) . . . لم اصدق نفسي ، وكنت اتنفس بعسر .

اجتزنا عددا من الغرف . . . واخيرا توقفت المراة في احداها ، امام اريكة صغيرة قرب النافذة ، وجلست . وجلست بالقرب منها .

---

* Sou un cuadro de tristeza, Arrimado a la pared. (الملاحظة للمؤلف) .

** الصليب (بالايطالية في الاصل) .

*** تعال (بالفرنسية في الاصل) .

ادارت نحوي رأسها ببطء ، وامعنت النظر فيّ . وقالت :

— انت . . . هل ارسلك هو ؟

كان صوتها ضعيفا غير واثق . . .

اربكني سؤالها قليلا ، واجبت متلعثما :

— لا . . . لم يرسلني .

— هل تعرفه ؟

— اعرفه ، — رددت بوقار خفي ، فقد اردت ان اواصـل دوري . — اعرفه .

نظرت اليّ بارتياب ، وهمّت ان تقول شيئـا ، واطرقت براسها . قلت :

— كنت تنتظرينـه في سورنتو ، والتقيت به في قريـة ميخائيلوفسكويه ، وخرجت معه على فرس . . .

شرعت تقول :

— كيف قدرت . . .

— انا اعرف . . اعرف كل شيء . . .

تابعت تقول :

— يبدو وجهك مالوفا لي ، ولكن لا . . .

— لا ، انت لا تعرفينني . لم اتعرف عليك .

— طيب ، ماذا تريد ؟

قلت مكررا :

— ولكنني اعرف كل شيء .

كنت ادرك جيدا ان عليّ ان انتهز هذه البدايـة الممتازة ، وامضي فيما انا فيه ، وان تكراري : «اعرف كل شيء ، اعرف كل شيء» صار مضحكا ، ولكن اضطرابي كان شديدا جدا ، وهذا اللقاء المفاجئ قد اربكني كثيرا ، حتى تبلبلت ، ولم اعد استطيع قط ان اقول شيئا آخر . اضف الى ذلك انني في الحقيقة لم اكن اعرف شيئا زائدا . شعرت بأنني اتبلد ، شعرت بأنني اتحول بسرعة من ذلك المخلوق المغلف بالاسرار العارف بكل شيء ، والذي كان يجب ان اظهر به لها في البداية ، الى ابله متهكم . ولكن لم يكن هناك خيار آخر .

تمتمت مرة اخرى :

— نعم ، انا اعرف كل شيء .

نظرت اليّ ، ونهضت بخفة ، وهممت بالانصراف .
ولكن ذلك كان قاسيا جدا . امسكت يدها . وقلت :
– من اجل الرب ، اجلسي ، واصغي اليّ . . .
فكرت قليلا ، وجلست .
تابعت كلامي بحرارة :
– قبل لحظة كنت اقول لك : انا اعرف كل شيء . وهذا هراء . انا لا اعرف شيئا ، لا شيء على الاطلاق . لا اعرف مَنْ انت ، ولا من هو . واذا كنت قد استطعت ان اثير دهشتك بما قلته لك قبل لحظات ، عند العمود ، فاعزيه الى المصادفة ، الغريبة ، غير المفهومة التي القتني اليك مرتين وبطريقة واحدة تقريبا ، وكأنما ذلك لمجرد السخرية ، وجعلتني ، لاارادياً ، شاهدا على ما يمكن ان ترغبي في كتمانه . . .
وهنا اخذت اقص عليها كل شيء دون اي تردد ، واي اخفاء : لقائي معها في سورنتو ، ولقائي في روسيا ، استفساراتي العديمة الجدوى في ميخائيلوفسكويه وحتى حديثي مع شليكوفا واختها في موسكو .
وبعد ان انهيت روايتي واصلت القول :
– الآن تعرفين كل شيء . لا اريد ان اصف لك الانطباع العميق ، المذهل الذي اثرته فيّ . من المستحيل رؤيتك دون الوقوع في سحرك . ومن جهة اخرى لست بحاجة الى ان اقول لك اي نوع من الانطباع كان ذلك . وليكن في بالك في اي ظروف رايتك في كلتا المرتين . . . ثقي بانني لا احب الاستسلام الى الآمال الجنونية ، ولكن افهمي ايضا ذلك الاضطراب غير المفسّر الذي استولى عليّ اليوم ، واعذريني ، اعذريني على الحيلة غير اللائقة التي عزمت على ان الجا اليها لاثير انتباهك ، ولو لبرهة من الوقت . . .
اصغت الى توضيحاتي المفككة ، دون ان ترفع راسها .
واخيرا قالت :
– طيب ، ماذا تريد مني ؟
– انا ؟ لا اريد شيئا . . . انا الآن سعيد بدون اي شيء . . . انا احترم اسرار الآخرين كثيرا .
– معقول ؟ مع ذلك ، تبدو حتى الآن . . . على اية حال ، – تابعت قولها . – لا اريد ان اونبك . كل انسان في مكانك سيتصرف

نفس التصرف . كما ان المصادفة قد قرّبت بيننا باصرار شديد فعلا . . . وذلك ، على ما يبدو ، يعطيك بعض الحق في ان اصارحك . اسمع ، انا لست من النساء التعيسات اللواتي لا يفهمهن احد واللواتي يترددن على الحفلات التنكرية ليثرثرن مع اي شخص عن عذاباتهن وهن بحاجة الى قلوب مفعمة بالتعاطف . . . لست بحاجة الى اي تعاطف . قلبي مات ، وقد جئت الى هنا لمجرد ان ادفنه نهائيا . – ورفعت المنديل الى شفتيها .
تابعت قولها بشيء من الجهد :
– آمل ان لا تعتبر كلماتي من تلك التدفقات العاطفية التي تحدث عادة في الحفلات التنكرية . يجب ان يكون على بالك انه لا يهمني ان . . .
وبالفعل ، كان في صوتها شيء مفزع ، رغم كل النعومة المتسللة من نبراته .
وقالت بالروسية ، وكانت حتى ذلك الحين تتكلم باللغة الفرنسية :
– انا روسية ، رغم انني عشت قليلا في روسيا . . . لا حاجة لك لتعرف اسمي . آنا فيدوروفنا صديقة قديمة لي ، وبالفعل سافرت الى ميخائيلوفسكويه تحت اسم اختها . . . حينذاك كان لا يجوز ان التقي به علنا . . . بدون ذلك بدات الشائعات تسري . . . حين كانت العقبات قائمة ، اذ لم يكن حرا . . . هذه العقبات زالت . . . ولكن الرجل الذي كان يجب ان احمل اسمه ، والذي رايتني معه ، قد هجرني .
وادّت حركة بيدها ، وصمتت . . .
– اكيد أنك لا تعرفه ؟ لم تلتق به ؟
– ولا مرة واحدة .
– كل ذلك الوقت تقريبا قضاه في الخارج . بالمناسبة ، هو الآن هنا . . . هذه قصتي كلها ، – اضافت ، – وانت ترى ليس فيها اي شيء غامض ، اي شيء خاص .
قاطعتها بتوجس :
– وسورنتو ؟
– تعرفت به في سورنتو .
ردّت ببطء ، وغرقت في افكارها .

صمت كلانا . استحوذ عليّ ارتباك غريب . جلست قربها ، جلست قرب تلك المرأة التي كانت صورتها غالبا ما تتراءى في احلامي ، وتقلقني بعذاب ، وتثير اعصابي ، جلست قربها ، وشعرت بثقل بارد في قلبي . كنت اعرف ان هذا اللقاء لن يسفر عن شيء ، وان بيني وبينها هاوية لا قرار لها ، واننا ، حين ننصرف ، سنفترق الى الابد . وكانت هي قد مدّت راسها ، وارخت ذراعيها كلتيهما ، وقعدت بلا مبالاة ، وباهمال . انا اعرف هذا الاهمال المتأتي من محنة لا شفاء لها . اعرف اللامبالاة لتعاسة محققة ! كانت الاقنعة تمر بنا ازواجا ، واصوات رقصة الفالس الرتيبة المخبولة (١٩) تتناءى في البعيد خابية تارة ، ومترامية دفقات حادة تارة اخرى . كانت الموسيقى الراقصة المرحة تثير فيّ الحزن والانقباض . فكرت : «هل من المعقول ان هذه المرأة هي نفس المرأة التي ظهرت لي ، آنذاك ، في نافذة ذلك البيت الريفي البعيد بكل الق الجمال المنتصر ؟» ومع ذلك فقد بدا وكأن الزمن لم يمسسها . كان الجزء الاسفل من وجهها ، غيرُ المحجوب بمخرمات القناع ناعما نعومة صبوية ، ولكن البرودة كانت تنبعث منها ، كما تنبعث من تمثال . . . لقد عادت غالاتيا الى قاعدتها ، ولن تنزل منها بعد الآن .

انتصبت المرأة فجاة ، والقت نظرة الى الغرفة الاخرى ، ونهضت قائلة لي :

– اعطني يدك . ولنذهب سريعا ، سريعا .

عدنا الى الصالة . سارت بسرعة كبيرة ، حتى كدت لا الحق بها . وتوقفت عند احد الاعمدة ، وهمست :

– لننتظر هنا قليلا .

شرعت اقول :

– انت تبحثين عن احد . . .

الا انها لم تعرني التفاتا . فقد كانت نظرتها المتفرسة منغرسة في جمع الناس . كانت عيناها السوداوان الوسيعتان تنظران من تحت المخمل الاسود عبوستين متوعدتين .

استدرت باتجاه نظرتها ، وادركت كل شيء . في الممر الذي تشكله الاعمدة والحائط كان يسير هو ، ذلك الرجل الذي التقيته معها في الغابة . عرفته في الحال . لم يتغير تقريبا . كان شاربه

الاشقر يلوح بنفس الجمال ، وعيناه البنيتان تشعان بنفس المرح الهاديء الواثق . كان يسير دون عَجَل ، وقد امال قليلا قوامه الممشوق ، يُحدّث امرأة متنكرة ، متأبطا ذراعها . وعندما حاذانا ، رفع راسه فجأة ، ونظر اليّ اولا ، ثم اليها ، الى تلك التي كنت اقف معها ، ومن المحتمل انه عرفها ، عرف عينيها ، لان حاجبيه ارتعشا قليلا ، فقلّص عينيه ، وتحركت شفتاه بابتسامة ساخرة لا تكاد تلحظ ، ولكنها وقحة الى حد لا يطاق . انحنى نحو رفيقته ، واسرّ في اذنها كلمتين ، فنظرت هذه على الفور ، عيناها الزرقاوان الصغيرتان القتا نظرة على كلينا ، وضحكت ضحكة خفيفة مهددة اياه بيدها الصغيرة . رفع كتفا واحدة بحركة خفيفة ، وانضغطت هي عليه بغنج . . .

التفت الى امرأتي الغريبة . كانت تنظر في اثر الزوجين المبتعدين ، وفجأة سحبت يدها مني ، واندفعت نحو الباب . انطلقت في اثرها ، الا انها استدارت ونظرت اليّ نظرة جعلتني انحني لها بشعور عميق ، واظل في مكاني . لقد ادركت ان ملاحقتها ستكون فظاظة وحماقة .

بعد ربع ساعة من ذلك قلت لصديق لي هو دليل حي لعناوين بطرسبورغ ووقائعها :

– قل لي ، ارجوك ، يا اخي العزيز ، من ذلك السيد الطويل الوسيم ذو الشاربين ؟

– ذاك ؟ ذاك اجنبي ، مخلوق ملغز الى حد كبير ، نادرا جدا ما يظهر في وسطنا . ما الخبر ؟

– لا شيء ! . . .

وعدت الى البيت . ومنذ ذلك الحين لم التق قط بامرأتي الغريبة . ومن المحتمل ، وقد عرفت اسم الرجل الذي احبته ، كنت ساعرف ، اخيرا ، مَنْ هي ، ولكن لم اكن راغبا في ذلك . وقد قلت آنفا ان هذه المرأة تراءت لي كحلم وكالحلم ايضا مرّت بي ، واختفت الى الابد .

مومو (٢٠)

في احد شوارع موسكو النائية ، وفي بيت رمادي ذي اعمدة بيضاء ، وعلية وشرفة مائلة كانت تعيش ، في زمن من الازمان ، سيدة من الاكابر ، ارملة ، يحيطها عدد كبير من الخدم . كان ابناؤها في مناصب في بطرسبورغ ، وبناتها متزوجات . وكانت نادرا ما تخرج في سفر ، فكانت تقضي الاعوام الاخيرة من حياتها الشحيحة وشيخوختها المضجرة في عزلة . انقضى نهار حياتها الكئيب المكفهر منذ زمان ، ولكن مساءها كان اكثر اكفهرارا .

وكان الكناس غيراسيم اروع شخصية من بين خدمها كلهم . وهو رجل فارع القامة جدا * مارد البنيان ، اصم ابكم بالولادة . وقد اخذته السيدة من القرية ، حيث كان يعيش في كوخ صغير ، بمعزل عن اخوته ، ويعتبر اكثر الفلاحين الملزمين (٢١) استقامة . وكان ، وهو الموهوب قوة غير اعتيادية ، يعمل ما يعمله اربعة اشخاص ، فقد كان العمل يطاوع يديه ، فما ابهج ان تراه يحرث سائدا المحراث بكفيه الضخمتين ، فيبدو وكأنه يشق صدر الارض الصلد وحده وبدون معونة الحصان ، او تراه في عيد القديس بطرس ينزل بمنجله كالصاعقة ، حتى لكأن دغل البتولا الفتي سينقلع من جذوره ، على ضرباته ، او تراه يدرس بالمدراس الطويل بخفة واستمرار ، وعضلات منكبيه الطويلة الصلبة تهبط وترتفع كالعتلة . وكان صمته المستديم يضفي على عمله الدؤوب مهابة ظافرة . كان رجلا لطيفا ، ولو لا عاهته لقبلته كل فتاة زوجا لها عن طيب خاطر . . . ولكن غيراسيم أخذ الى موسكو ، واشتروا له

* في النص حوالي اثني عشر «فيرشوكا» اي ١٩٥،٥ سنتمترا . **المعرب** .

حذاء طويلا ، وخاطوا له قفطانا للصيف ، وفروة طويلا للشتاء ، ووضعوا في يده مكنسة ورفشا ، وعينوه كناسا .

في بادئ الامر ضاق من حياته الجديدة ضيقا شديدا . لقد تعود ، منذ الطفولة ، على اعمال الحقل ، ومعيشة القرية . فنما ، وقد عزلته محنته عن معاشرة الناس ، ابكم وجبارا ، كما تنمو الشجرة في ارض خصبة . . . وعندما نقلوه الى المدينة ، لم يكن يفهم ما الذي يجري له ، فكان يشعر بالوحشة ، ويتحيّر ، مثلما يتحيّر ثور فتي معافى أخذ للتو من ارض مزروعة ، كان عشبها الريان يبلغ بطنه طولا ، أخذ ، ووضع في عربة شحن في قطار ، وها هو القطار ينطلق به مغلفا بدنه المسمّن تارة بالدخان والشرر ، وتارة بالبخار المموج ، القطار ينطلق به مقرقعا زاعقا ، والله وحده يعلم الى اين ! وكانت اشغال غيراسيم في وظيفته الجديدة تبدو له مزاحا ، بعد اعمال الفلاح الشاقة ، فكان ينجز كل شيء على الفور ، ويعود تارة الى التوقف ، في وسط الفناء ، ينظر فاغر الفم الى كل عابر سبيل ، كأنما يريد ان يحصل منه على حل لوضعه الغريب ، وتارة الى الانزواء فجأة في ركن ، يقذف المكنسة والرفش بعيدا ، وينطرح بوجهه الى الارض ، ويقضي ساعات كاملة منطرحا على صدره بلا حراك ، مثل وحش مقتنص . ولكن الانسان يتعود على كل شيء ، وغيراسيم تعود ، اخيرا ، على حياة المدينة . لم تكن اشغاله كثيرة . كان عمله كله لا يتجاوز الاحتفاظ بالفناء نظيفا ، وجلب برميل الماء مرتين في اليوم ، وحمل الحطب وتقطيعه ليستخدم في المطبخ وفي البيت ، ومنع الغرباء من الدخول ، والحراسة في الليل . ويجدر القول ان غيراسيم كان يقوم بعمله بدأب : الفناء بين يديه خال من اية قشة ونفاية ، واذا توحل ، في موسم الاوحال ، الحصان المنهوك القوى الذي وضع تحت تصرفه ، فقد كان غيراسيم يكتفي بهز كتفيه ، ويجعل العربة مع برميل الماء والحصان ذاته يخرجان من الوحلة ، والحطب اذا شرع في تقطيعه يرن تحت ضربات الفأس رنين الزجاج ، وتتطاير الشظايا والقِصَم كل مطار . اما بخصوص الغرباء ، فالناس جميعا في الجوار اخذوا يحترمونه ، بعد تلك الحادثة الليلية ، حين امسك غيراسيم بلصين ، ونطح احدهما بجبين الآخر ، نطحة لم تعد هناك حاجة بعدها الى اخذهما الى مركز الشرطة ، وليس هذا فحسب ، بل ان المارين نهارا ، حتى وان لم

يكونوا محتالين ابدا ، بل مجرد اناس لا يعرفون هذا الكناس ، كانوا يهزون اذرعهم عند رؤيتهم له في سحنته الرهيبة ، ويصيحون عليه ، وكانما كان قادرا على سماع صيحاتهم . وكان غيراسيم على علاقة ودية مع جميع الخدم الآخرين ، وان لم تكن على علاقة صحبة ، فقد كانوا يرهبونه ، بينما كان غيراسيم يعتبرهم من جماعته . كانوا يتكلمون معه بالاشارات ، وكان هو يفهمهم ، وينفذ كل الاوامر بدقة ، ولكنه في الوقت ذاته كان يعرف حقوقه ، فلم يجرؤ احد على احتلال مكانه على المائدة . وعلى العموم كان غيراسيم ذا خلق صارم جاد ، يحب النظام في كل شيء ، وحتى الديكة لم تكن تجرؤ على العراك في حضوره ، والا فالويل لها ! فقد كان يمسكها من ارجلها حالا ، ويديرها في الهواء عشر مرات ، كما تدار العجلة ، ويقذفها بعيدا . وكان الوز يربى في فناء السيدة كذلك ، ولكن الاوزة ، كما هو معروف ، طائر مهيب عاقل ، فكان غيراسيم يشعر بالاحترام نحوه ، ويشمله بالرعاية ، ويطعمه ، وكان هو نفسه يشبه ذكر الوز المهيب . خصصوا له حجرة صغيرة فوق المطبخ ، فاعدها لنفسه ، حسب ذوقه : صنع فيها من الواح خشب البلوط سريرا على اربع قوائم ، هو للعمالقة عن حق ، فقد كان من الممكن ان تضع فوقه مائة بود * ، دون ان ينوء بهــا ، وتحت السرير صندوق ضخم وفي الركن طاولة بنفس المتانة ، وبالقرب منها مقعد على ثلاث قوائم ، قوي وركين ايضا ، حتى ان غيراسيم نفسه كان يرفعه احيانا ويلقيه من يده ، ويرسل ضحكة . وكانت الحجرة تغلق بقفل يشبه بشكله كعكة مدورة ، سوى انه اسود . وكان غيراسيم يحتفظ بمفتاح هذا القفل معه في حزامه دائما . وكان لا يحب ان يُزار .

وانقضى عام على هذه الحال ، وفي نهايته حدث لغيراسيم حادث صغير .

كانت السيدة العجوز التي يخدمها غيراسيم ككناس تراعي العادات القديمة في كل شيء ، وتحيط نفسها بعدد كبير من الخدم ، فكان لها في بيتها غسالات ، وخياطون وخياطات ، ونجارون ، بل وكان

* البود : معيار وزن روسي قديم يعادل اكثر من ١٦ كيلوغراما . **المعرب** .

لها سراج كان يعتبر في الوقت ذاته طبيبا بيطريا ، ومطببا للخدم ، وكان هناك طبيب خاص للسيدة ، واخيرا ، كان عندها اسكاف يدعى كابيتون كليموف ، هو سكير عتيد . كان يعتبر نفسه مخلوقا مظلوما لم تقدر قيمته ، وانسانا متعلما من اهل العاصمة لا يليق به العيش في موسكو * ، في مكان قصي ، وبلا شان ، واذا ما شرب الخمرة ، فقد كان ، حسب قوله ، وهو يضرب على صدره متقطع الانفاس ، يشربها عن شقائه . وحدث ذات مرة ان ذُكر الاسكاف في حديث للسيدة مع رئيس خدمها غافريلا ، وهو انسان كان يبدو من عينيه الصفراوين وانفه المعكوف وكان القدر نفسه حكم بان يكون الشخص المهيمن . تأسفت السيدة من فساد خلق كابيتون ، الذي وُجد في العشية سائبا في الشارع .

وفجاة قالت السيدة :

– ما رايك ، يا غافريلا ، في ان نزوجه ؟ ربما سيعقل .

رد غافريلا :

– ولِمَ لا ! ممكن ان نزوجه ! بل وسيكون ذلك مفيدا جدا .

– نعم ، ولكن من ستتقبل به زوجا ؟

– بالطبع ، يا مولاتي . ولكن حسب مشيئتك . ربما سينفع في شيء ما . فهو لا يخلو من جسارة .

– اظن ان تاتيانا تروق له ؟

اراد غافريلا ان يعترض بشيء ، ولكنه ضمّ شفتيه ولم يقل شيئا .

– نعم ، ليخطبوا له تاتيانا ، – اصدرت السيدة امرها ، وهي تشم التبغ بتلذذ . – هل تسمع ؟

– حاضر ، يا سيدتي .

نطق غافريلا بذلك ، وانصرف .

عاد غافريلا الى حجرته (كانت في المبنى الملحق بالبيت ، ومثقلة كلها تقريبا بالصناديق المصفحة بالمشدات الحديدية) واول ما فعله ان اخرج زوجته ، ثم جلس الى النافذة ، وراح يفكر . الظاهر ان امر سيدته المفاجئ قد اذهله . واخيرا نهض ، وطلب ان يستدعى كابيتون . وجاء كابيتون . . . ولكن قبل ان انقل للقراء

* كانت عاصمة روسيا في ذلك الحين بطرسبورغ . **المعرب** .

حديثهما ، ارى من غير الزائد ان اتحدث ببعض الكلمات عن تاتيانا التي كان على كابيتون ان يتزوجها ، ولِمَ اثار تصرف السيدة قلق الخادم .

كانت تاتيانا التي تشغل وظيفة غسالـــة ، كما قلنا آنفا ، (وبالمناسبة لم يعهد اليها ، وهي الغسالة الماهرة المتعلمة بغير البياضات الرفيعة) امراة في نحو الثامنة والعشرين من العمر ، صغيرة الجسم ، نحيلة ، شقراء ، لها خال على خدها الايسر . والخال على الخد الايسر يعتبر في روسيـــا علامـــة شؤم ، تنذر بحياة تعيسة . . . وما كان في وسع تاتيانا ان تفتخر بنصيبها من الدنيا . منذ صباها وهي تعامل معاملة سيئة ، وتقوم بما تقوم به امراتان ، اما الرقة فلم ترها قط . كانوا يلبسونها ردئ الثياب ، ويعطونها اقل مرتب ، والاقارب سواء لديها وجودهم او عدمه ، لم يكن لها غير عم هو وكيل اقوات عجوز تُرك في القرية لانعدام الفائدة منه ، واعمام آخرين من الفلاحين . وهذا كل شيء . كانت تاتيانا في وقت من الاوقات معروفة بجمالها ، الا ان الجمال سرعان ما زال عنها . كانت وديعة الخلق جدا او مرعوبة ، وهذا اصح ما يقال ، وكانت تحس بعدم المبالاة نحو نفسها ، وتخشى الآخرين خشية الموت ، ولا تفكر الا في ان تنجز عملها في موعده ، ولم تكن تتحدث الى احد قط ، وترتجف من مجرد ذكر اســم السيدة ، رغم ان هذه لم تلمحها قط . وحين جلب غيراسيم من القرية كادت تاتيانا ان تفقد وعيها ذعرا ، من مجرد رؤيتها لجرمه الضخم ، فكانت تحاول بكل وسيلة ان تتجنب الالتقاء به ، بل وكانت تقلّص عينيها ، اذا صادف وان مرّت به راكضة ، مسرعة من البيت ، الى حجرة الغسيل . وغيراسيم ، في بادئ الامر ، لم يكن يعير لها اي التفات خاص ، ثم اخذ يضحك عند رؤيته لها ، ثم اخذ يرمقها ، واخيرا راح لا يصرف عنها بصره . فقد راقت له سواء لمسحة الوداعة في وجهها ، او للتهيب في حركاتها . الله يعلم ! وذات مرة مرقت تاتيانا في الفناء ، رافعة بلوزة السيدة المنشاة باصابعهـــا الحاذقة . . . واذا بيد قوية تمسك بمرفقها فجاة ، فالتفتت ، وارسلت صرخة شديدة ، فقد كان غيراسيم يقف وراءها . كان يمد لها كعكة على شكل ديك مذهب في ذيله وجناحيه ، وكان يضحك ببلاهة ويجار برقة . ارادت ان ترفض ، الا ان غيراسيم دسها في

يدها عنوة ، وهزّ رأسه ، وابتعد عنها ، ثم التفت ، وجار لها مرة اخرى بشيء شديد المودة . ومنذ ذلك اليوم لم يتركها في سكينة . كانت اينما ذهبت تجده هناك مقبلا عليها ، يبتسم ويجار ، ويلوح بذراعيه ، ويدس لها شريطا يخرجه من فتحة قميصه ، او ينظف الغبار امامها بالمكنسة . لم تكن الفتاة المسكينة تعرف ماذا تفعل ، وكيف تتصرف . وسرعان ما عرف كل مَن في البيت كله باحابيل الكناس الاصم . فراحوا يمطرون تاتيانا بعبارات التهكم والتفكه ولواذع الكلمات . ومع ذلك لم يجرأ الجميـــع على السخريـــة بغيراسيم ، فقد كان هذا لا يحب النكات ، كما انهـــم لم يكونوا يتحرشون بها في حضوره . وهكذا وجدت الفتاة نفسها تحت رعاية غيراسيم سواء اسرها ذلك ام لم يسرها . وكان غيراسيم ، مثل جميع الصمّ البكم ، فطنا يدرك جيدا حين يهزأ الناس به او بها . وذات مرة على الغداء اخذت مسؤولة البياضات ، رئيسة تاتيانا ، تقرصها بقوارص الكلم ، كما يقال ، الى حد ان الفتاة المسكينة لم تعرف اين توجه بصرها ، وكادت تبكي من شدة الضيق . واذا بغيراسيم يرفع جذعه من مقعده ، ويمد يده الضخمة ، ويضعها على راس المسؤولة ، ويتفرس في وجهها بضراوة جهماء ، حتى ان هذه المراة انحنت نحو المائدة ، وبقيت كذلك لا تتحرك . ولزم الجميع الصمت . وعاد غيراسيم فامسك الملعقـــة ، ومضى يحتسي حساء الكرنب ، كما كان . تمتم الجميع بصوت خافض : «يا لك ، ايها الشيطان الاصم ، العفريت !» بينما نهضت مسؤولة البياضات ، وذهبت الى حجرة الخادمات . وفي مرة اخرى لاحظ غيراسيم ان كابيتون ، وهو نفس الرجل المذكور آنفا ، راح يتودد لتاتيانـــا بحرارة ، فاومأ اليه غيراسيم يدعوه باصبعه ، واختلى به في سقيفة العربات ، وامسك طرف عريش عربة كان مركونا في زاوية ، وهزه عليه هزا خفيفا ، ولكنه كثير الدلالة مهددا اياه به . ومنذ ذلك الحين لم يبادر احد الكلام مع تاتيانا . وكل ذلك مر دون ان يكلفه عقابا . في الحق ان رئيســـة البياضات ما ان ركضت الى حجرة الخادمات ، حتى سقطت في غيبوبة ، وبشكل عام تصرفت بحذق ، حتى انها في نفس اليوم اوصلت الى السيدة خبر تصرف غيراسيم الفظ ، الا ان العجوز الغريبة الاطوار اكتفت بالضحك ، وشعرت هذه باهانة بالغة ، حين اجبرتها سيدتها على ان تكرر ما حدث قائلة :

كيف جعلك تنحني بيده الثقيلة ، وفي اليوم التالي ارسلت لغيراسيم روبلا . وكانت تكافئه كحارس امين قوي الشكيمة . وكان غيراسيم يتهيبها على قدر كبير ، الا انه كان يعتمد على نعماها ، فعقد العزم على ان يلتمس منها عسى ان تزوجه تاتيانا . ولم يكن ينتظر الا القفطان الجديد الذي وعده به رئيس الخدم ليمثل امام السيدة في مظهر لائق ، وفجأة يخطر ببال السيدة ان تزوج تاتيانا لكابيتون .

والآن يسهل على القارئ ان يفهم بنفسه سبب الارتباك الذي اعترى غافريلا رئيس الخدم ، بعد حديثه مع السيدة . فكر وهو جالس الى النافذة : «بالطبع ان السيدة تشفق على غيراسيم (وكان غافريلا على معرفة جيدة بذلك ، ولهذا كان يجاريه) ثم انه مخلوق اخرس . من المستحيل ان ابلغ السيدة بان غيراسيم يغازل تاتيانا . واخيرا ايعقل ، والحق يقال ، ان يكون زوجا ؟ ومن جهة اخرى ، اذا عرف هذا العفريت ، لا قدّر الله ، بان تاتيانا ستزف الى كابيتون ، فانه سيحطم كل ما في البيت ، والله العظيم . ولا احد يستطيع ان يتفق معه . ان هذا الشيطان لا يستطيع احد ان يقنعه ، وارجو المغفرة من الله على هذا القول ، انا الآثم . . . حقا ! . .»

قطع وصول كابيتون على غافريلا خيط افكاره . دخل الاسكاف الخلي البال ، وطرح يديه الى الوراء ، واتكأ رخيا على طلعة في الجدار ، قرب الباب ، ووضع رجله اليمنى متصالبة على رجله اليسرى ، والقى راسه الى الخلف ، وكانه يقول : «هذا انا ، فماذا تبتغي ؟»

نظر غافريلا الى كابيتون ، وراح ينقر باصابعه على عضادة الشباك . فاكتفى كابيتون بان قلص قليلا عينيه القصديرتين ، دون ان يخفضهما ، بل واطلق تكشيرة خفيفة ، وارسل يده في شعره الفاتح الذي ظل نافرا ، كما كان ، مبعثرا في كل ناحية . وكانه يقول : طيب ، هذا انا ، فلماذا تحدق فيّ ؟

قال غافريلا :

– لطيف ، – ثم صمت قليلا وعاد يقول : – لطيف ، دون شك !

هز كابيتون كتفيه ولا غير ، وفكر مع نفسه : «وهل تظن انك احسن ؟»

بينما تابع غافريلا كلامه موبخا :

– طيب ، انظر الى نفسك ، طيب انظر . في اي حال انت ؟

القى كابيتون نظرة هادئة الى معطفه المستهلك الممزق ، والى بنطلونه المرقع ، ونظر بعناية خاصة الى حذائه الطويل المثقب ، ولا سيما الى تلك الفردة التي كانت قدمه اليمنى تتكئ على بوزها بتلك الطريقة المتانقة ، وعاد يتفرس في رئيس الخدم .

– وماذا ؟

قال غافريلا :

– وماذا ؟ تقول وماذا ؟ بينما انت اشبه بشيطان ، وليحاسبني الرب ، انا الآثم ، بهذه الحال انت .

راح كابيتون يرمش رمشا شديدا .

وعاد يفكر مع نفسه : «اشتم ، اشتم ، يا غافريلا اندريتش» .

وطفق غافريلا يقول :

– كنت سكران مرة اخرى . مرة اخرى ؟ ها ؟ طيب ، اجب .

رد كابيتون قائلا :

– لضعف الصحة عاقرت الخمرة ، حقا .

– لضعف الصحة! . . العقاب قليل في حقك ، بصراحة . وتقول كنت تتعلم في بطرس* . . . فما الفائدة ؟ انت لا تستحق حتى الخبز الذي تاكله .

– في هذه المسألة يوجد قاض واحد ، يا غافريلا اندريتش ، هو الرب نفسه ، ولا احد سواه . هو وحده يعرف اي انسان انا ، وهل انا لا استحق اكل الخبز حقا . اما بخصوص السكر ففي هذه المرة ايضا لم اكن الملوم ، بل يقع اللوم اكثر على صاحب اغواني ، ووسوس لي ، وانصرف ، بينما انا . .

– بقيت في الشارع متورطا . آه ، منك ، يا طائش ! طيب ليست هذه المسألة ، – تابع رئيس الخدم كلامه . – المسألة هي . . . – وهنا صمت قليلا – السيدة شاءت ان تزوجك . سامع ؟ وحضرتها ترى انك ستعقل حين تتزوج . فاهم ؟

– وكيف لا ؟

– اشك . ومن الافضل في رايي ان تمسك من زمامك بشكل جيد . ولكن تلك مشيئة السيدة . كيف ؟ هل انت موافق ؟

* يقصد بطرسبورغ وهذه الصيغة المختصرة شائعة . **المعرب** .

كشَر كابيتون .
– الزواج شيء حسن للانسان ، يا غافريلا اندريتش . وانا من جانبي ، بكل متعة وسرور .
– اشك – رد غافريلا ، وفكر في سره «كلام الرجل معقول ، دون شك» ورفع صوته قائلا : – ولكن الخطيبة التي رست عليها ليست تامة الصفات .
– لو تكرمت وقلت من هي ؟ . .
– تاتيانا .
– تاتيانا ؟
وبحلق كابيتون عينيه ، وابتعد عن الجدار .
– طيب ، ما لك جفلت ؟ . . الا تروق لك ؟
– ليست مسالة رواق ، يا غافريلا اندريتش ! فهي فتاة لا باس بها ، شغولة ووديعة . . . ولكن انت تعرف بنفسك ، يا غافريلا اندريتش ، تعرف العفريت ذاك ، جني السهوب هذا ، انه يصبو اليها . . .
قاطعه رئيس الخدم في ضيق :
– اعرف ، يا اخ ، اعرف كل شيء ، ولكن . . .
– عدم المؤاخذة ، يا غافريلا اندريتش ! سيقتلني ، وحق الرب سيقتلني ، سيخبطني ، كما يخبط ذبابة ، انت تعرف اية يد له ، ولا مؤاخذة ، جبارة يد مينين وبوجارسكي (٢٢) . وهو اصم ، يضرب ولا يسمع كيف يضرب ! كانه يلوح بقبضتيه في الحلم . وليس من الممكن ايقافه ابدا . لماذا ؟ لانه اصم ، كما تعرف ، يا غافريلا اندريتش ، وعلاوة على ذلك ابله وناشف كعقب القدم . انه وحش ضار ، صنم لا يفقه ، يا غافريلا اندريتش ، واسوأ من صنم . . . عود غرب . ولماذا عليّ ان اقاسي منه الآن ؟ بالطبع سواء لدي كل شيء الآن . فانا رجل اتلف ماله ، وشرب كأس الصبر الى الآخر ، وتشبع كما تتشبع بالدهن السلطانية الفخارية ، ومع ذلك فانا انسان ، على اية حال ، وليس سلطانية حقيرة .
– اعرف ، اعرف ، فلا تسترسل في الوصف . . .
– يا ربي ! – تابع الاسكاف قوله بحماسة – متى ينتهي هذا ؟ متى ؟ يا رب ! انا تعيس ، تعيس لا محال ! حظي ، آه يا حظي ، تصور ! في شبابي ضُربت بسبب الالماني الذي كنت اعمل

عنده ، وفي احسن اوقات عمري ضربني من هم على شاكلتي ، واخيرا ، في اعوام الرجولة يصل بي الحظ الى هذي الحال . . .
قال غافريلا :
– كفاك ، يا معذب . ما هذا الكلام الزائد . حقا !
– زائد ، يا غافريلا اندريتش ؟ انا لا اخاف الخبط والضرب ، يا غافريلا اندريتش . فليضربني سيدي بين جدران اربعة ، وليحترمني امام الناس . عندئذ ساكون في عداد الناس ، اما الآن فعلي يد من اضطر ان . . .
قاطعه غافريلا نافد الصبر :
– كفى ، هيا اخرج .
استدار كابيتون ، وانسل خارجا . صاح رئيس الخدم في اثره :
– لنفرض انه لم يكن في الوجود . فهل ستقبل عندئذ ؟
– على العين والراس . – رد كابيتون ، وانصرف .
ان الفصاحة لم تكن تفارقه حتى في اشد الظروف .
ذرع رئيس الخدم الحجرة عدة مرات . وقال اخيرا :
– طيب ، ادعوا الآن تاتيانا .
وبعد بضع لحظات دخلت تاتيانا في خطو لا يكاد يسمع ، ووقفت عند العتبة . وقالت بصوت خافت :
– ماذا تأمر ، يا غافريلا اندريتش ؟
حدق رئيس الخدم فيها ، وقال :
– طيب ، يا تاتيانا ، هل تريدين ان تتزوجي ؟ السيدة وجدت لك خطيبا .
– سمعا ، يا غافريلا اندريتش . ومن الخطيب الذي عينته ؟
قالت ذلك بتردد .
– كابيتون ، الاسكاف .
– سمعا .
– صحيح انه رجل ارعن ، ولكن السيدة تعتمد عليك في هذا الامر .
– سمعا .
– هناك محذور واحد . . . هو ذاك الاطرش ، غيراسيم ، فهو يغازلك . فباي شيء سحرته ؟ سيقتلك هذا الدب ، على ما اظن . . .

– سيقتلني ، يا غافريلا اندريتش ، سيقتلني حتما .

– يقتلك . . . طيب ، سنرى بعد . كيف تقولين : سيقتلني ! هل له الحق في ان يقتلك ؟ احكمي بنفسك .

– لا ادري ، هل له الحق ام لا .

– يا لك ! . . ولكنك لم تعديه بشيء . . .

– ماذا ، ارجوك ؟ . .

صمت رئيس الخدم ، وفكر مع نفسه : «يا لك من وديعة !» واضاف :

– اذن ، طيب ، سنعاود الحديث معك . والآن ، اذهبي ، يا عزيزة . اراك وديعة حقا .

استدارت تاتيانا ، وانصرفت مستندة قليلا الى عضادة الباب .

وفكر رئيس الخدم : «ربما ستنسى السيدة الزواج هذا في الغد . فلماذا اعذب نفسي بالقلق ؟ سنذلل ذلك المشاكس ، واذا حصل شيء سنخبر الشرطة . . .»

ونادى على زوجته بصوت عال :

– اوستينيا فيدوروفنا ! انصبي السماور ، يا محترمة . . .

قضت تاتيانا اليوم كله تقريبا دون ان تغادر حجرة الغسيل . في بادئ الامر راحت تبكي ، ثم مسحت دموعها ، وشرعت تعمل كما كانت . اما كابيتون فقد ظل جالسا في حانة الى ساعة متأخرة من الليل مع صاحب كئيب المظهر ، كان كابيتون يقص عليه باطناب كيف انه كان يعيش في بطرس عند سيد قد يكون محمود الخصال في كل شيء ، ان لم يكن متعنتا في مراقبة . ولم يخطئ الا في شيء واحد ، اذ كان يسرف في الشرب كثيرا . والجنس اللطيف لا يفرق الشين والزين . . . وكان النديم الكئيب يوافقه مستجيبا لحديثه ، ولكن كابيتون اعلن اخيرا ان عليه ان ينتحر غدا ، لسبب من الاسباب ، واذا بالرفيق الكئيب يقول : ان وقت النوم قد حان . فيفترقان صامتين وعلى غير وئام . وخلال ذلك لم يتحقق ظن رئيس الخدم . فقد استحوذت على السيدة فكرة زواج كابيتون حتى انها كانت حتى في الليل لا تتحدث الا عن ذلك لواحدة من صاحباتها كانت لا تبقيها في بيتها الا حين ينتابها الارق ، فكانت هذه كالحوذي الليلي لعربة الاجرة لا تعمل الا ليلا وتنام في النهار . وعندما دخل غافريلا عليها بعد موعد تناول الشاي ليبلغها بتقريره عن شؤون اليوم ،

كان اول سؤال طرحته عليه : هل قضية الزواج جارية ؟ وطبيعي انه اجاب بان الزواج جار على احسن ما يكون ، وان كابيتون سيمثل امامها اليوم ذاته يخطب ودها . كانت السيدة هذا اليوم في صحة متوعكة ، فلم تشغل نفسها في هذه الشؤون طويلا . وعاد رئيس الخدم الى حجرته ، ودعا الى اجتماع للتشاور . كان الامر يتطلب مناقشة خاصة بالتأكيد . لم تكن تاتيانا تعارض ، بالطبع . ولكن كابيتون اعلن امام الحاضرين جميعا ان له راسا واحدة لا راسين او ثلاثا . . . كان غيراسيم ينظر الى الجميع نظرات جهماء سريعة ، ولم يغادر مدخل مأوى الخادمات ، وبدا وكأنه حدس ان شيئا منحوسا يبيت له . بدأ المجتمعون (وكان بينهم الساقي العجوز المكنى العم «ذيل» ، والذي كان الجميع يطلبون منه نصحا ، رغم انهم لم يكونوا يسمعون منه غير : هكذا ، اذن ، و نعم ، نعم ، نعم) بدأوا من الاتفاق على ان يحجزوا كابيتون للامان ودفعا لكل طارئ ، في الشونة الصغيرة التي تضم آلة تنقية الماء ، واخذوا يغرقون في تفكير عميق . كان من السهل ، بالطبع ، اللجوء الى القوة . ولكن الله يستر ! فقد تحدث ضجة ، وتقلق السيدة . عندئذ ستحل مصيبة ! فكيف اذن ؟ فكروا ، وفكروا ، ورسوا الى فكرة في آخر الامر . كانوا قد لاحظوا غير مرة ان غيراسيم لا يطيق السكارى . . . كان في كل مرة ، اثناء جلوسه وراء البوابة يستدير بحنق ، حين يمر به انسان سارح يسير في خطى متخلخلة ، وظليلة طاقيته نازلة على اذنه . فقرروا ان يعلموا تاتيانا التظاهر بالسكر ، فتمر بغيراسيم مترنحة متمايلة . ظلت الفتاة المسكينة ترفض ذلك وقتا طويلا ، الا انهم اقنعوها اخيرا ، لا سيما وانها رأت بنفسها ان لا سبيل الى الخلاص من قبضة مغازلها بغير ذلك . وسارت تاتيانا واطل كابيتون من الشونة ، فان الامر يخصه على اية حال . وكان غيراسيم جالسا على مقعد عند البوابة يغرس المجرفة في الارض . . . والناس تنظر اليه من وراء الزوايا كلها ، ومن تحت الستائر خلف النوافذ . . .

ونجحت الحيلة كاحسن ما يكون النجاح . ابصر غيراسيم بتاتيانا ، فهزّ راسه لها في البداية بجؤاره الودي على مألوف عادته . ثم امعن النظر ، واسقط المجرفة من يده ، ووثب ، وتقدم منها ، وقرّب وجهه من وجهها . . . ومن الفزع ازدادت تاتيانا



ترنحا ، واغمضت عينيها . . . امسك غيراسيم يدها ، وجرها عبر الفناء كله ، ودخل معها الغرفة التي يجتمع فيها الحاضرون ، ودفعها الى كابيتون راسا . وجمدت تاتيانا هناك . . . وقف غيراسيم قليلا ، ونظر اليها ، وهز ذراعه عيوفا ، وحمّ ، وانصرف الى حجرته بخطى ثقيلة . . . ولم يخرج منها اليوم كله . وفيما بعد ذكر انتيبكا الحوذي انه رأى غيراسيم ، من خلال شق ، جالسا على سريره ، مسندا خده على يده ، يغني بخفوت وتلحين صاهلا من حين لآخر ، اي كان يهز جسمه ، ويغمض عينيه ، وينود برأسه كالحوذية او ساحبي المراكب ، حين يمطون اغانيهم الشاجية . واحس انتيبكا بالرهبة ، فابتعد عن الشق . وعندما خرج غيراسيم من حجرته في اليوم التالي ، لم يُلحظ عليه تغير ظاهر . الا انه بدا اكثر جهامة ، ولم يلق اي التفات لتاتيانا وكابيتون . وفي المساء توجه الاثنان الى السيدة ، يتأبطان وزتين ، وبعد اسبوع تم زواجهما . وفي يوم الزفاف لم يغير غيراسيم شيئا من منواله ، الا انه عاد من النهر بلا ماء ، فقد حطم البرميل في الطريق ، وفي الاسطبل ليلا نظف وفرك حصانه بقوة ، حتى ان الحصان تمايل كنصل العشب في الريح ، وترنح من قدم الى اخرى تحت قبضتيه الحديديتين .

كل ذلك حدث في الربيع . وانقضى عام آخر ، غرق كابيتون خلاله في الشرب تماما ، حتى ارسل ، كرجل لا جدوى منه كليا ، الى قرية بعيدة في قافلة من العربات ، ومعه زوجته . وفي يوم السفر اظهر ، في البداية ، عزيمة كبيرة ، وراح يؤكد بأنه لن يهلك حتى ولو ارسلوه الى اقاصي الدنيا حيث السماء تنطبق على الارض والنسوة ينشرن غسيلهن عليها ، الا ان عزيمته فترت بعد ذلك ، وراح يتشكى بانه يرسل الى جهلاء الناس ، ثم خار تماما ، حتى لم يستطع ان يضع قبعته على رأسه ، فاشفق عليه احد المشفقين ، وحطها على جبينه ، وعدل وضع ظليلتها ، وثبتها على رأسه بضربة من فوق . وعندما تهيأ كل شيء ، وصار سائقو العربات من الفلاحين يمسكون بالاعنة ، ولا ينتظرون غير الامر بالانطلاق ، خرج غيراسيم من حجرته ، واقترب من تاتيانا ، واهدى لها ، للذكرى ، منديلا قطنيا أحمر كان قد اشتراه لها قبل عام . كانت تاتيانا حتى تلك اللحظة تبدي عدم اكتراث شديد بكل تقلبات حياتها ، غير

انها لم تتحمل عندئذ ، وانفجرت العبرة في صدرها ، وقبل ان تركب العربة قبّلت غيراسيم ثلاث مرات ، حسب العادة المسيحية . اراد غيراسيم ان يوصلها الى بوابة المدينة ، وسار ، في بادئ الامر ، مع عربتها ، الا انه توقف قرب مخاضة كريمسكي (٢٣) ، ولوح بذراعه ، وسار بمحاذاة النهر .

كان الوقت عند المساء . سار غيراسيم بهدوء ، محدقا في المياه . وفجأة خيل اليه ان شيئا يلبط في السطح اللزج عند حافة الماء تماما . انحنى ، فرأى جروا صغيرا ابيض مرقطا ببقع سود لم يستطع ان يخرج من الماء رغم كل ما يبذله من جهد ، فكان يتخبط ، وينزلق ، ويرتجف بكل جسده النحيل المبلل . نظر غيراسيم الى الكلب البائس ، وامسكه بيد واحدة ، ودسّه في طية قميصه ، واتجه الى البيت بخطى واسعة . دخل حجرته ، ووضع الكليب المنتشل على سريره ، وغطاه بمعطفه الشتائي الثقيل ، وهرع اولا الى الاسطبل ليجلب قشا ، ثم الى المطبخ ليأخذ طاسة من الحليب . وبعد ان رفع المعطف بحذر وفرش القش ، وضع الحليب على السرير . كان عمر الجرو المسكين لا يتجاوز ثلاثة اسابيع . كانت عيناه قد انفتحتا على الدنيا قبل حين ، بل وبدت احداهما اكبر قليلا من الاخرى ، ولم يتعلم بعد كيف يشرب من الطاسة ، فكان لا يفتأ يرتجف ، ويقلص عينيه . امسك غيراسيم من رأسه بخفة وباصبعين ، واحنى بوزه الصغير نحو الحليب ، وفجأة شرع الكليب يشرب الحليب بنهم شارقا به ومرتجفا . نظر غيراسيم ، ونظر ، واذا به يكشر عن ابتسامة . . . انشغل غيراسيم به طوال الليل ، واضجعه لينام ، ودلكه ، وغط هو الآخر ، في نوم هادئ فرح بالقرب منه .

ما من ام ترعى طفلها رعاية غيراسيم لصغيرته (تبين ان الكليب انثى) . وفي الفترة الاولى كانت الكلبة ضعيفة جدا ، هزيلة ودميمة الشكل ، الا انها تعافت شيئا فشيئا ، وسمنت ، وبعد حوالي ثمانية اشهر ، وبفضل رعاية منقذها الشديدة لها صارت كلبية كريمة جدا من اصل اسباني ، لها اذنان طويلتان وذيل غزير اسطواني الشكل ، وعينان واسعتان معبرتان . تعلقت بغيراسيم تعلقا شديدا ، ولم تبتعد عنه خطوة واحدة وصارت تسير وراءه اينما ذهب مبصبصة بذيلها . واعطى غيراسيم لها كنية – البكم

يعرفون ان موماتهم تلفت انظار الآخرين اليهم – فسمّاها «مومو» . واحبها جميع من في الدار ، وصاروا يكنونها ايضا بـ«مومونيا» . كانت كلبة ذكية ذكاء فائقا ، تتلاطف مع الجميع ، ولكن لا تحب الا غيراسيم . وغيراسيم نفسه شغف بها حبا وكان يمتعض حين يمسد الآخرون عليها ، والله يعلم هل كان يخاف عليها ، ام يغار ! كانت توقظه في الصباح ، جاذبة اياه من طرف ردائه ، وتقود اليه الحصان العجوز ناقل الماء من مقوده ، وكانت على مودة كبيرة مع هذا الحصان ، وكانت تخرج مع غيراسيم الى النهر ، والهيبة على وجهها ، وتحرس مكانسه وارفاشه ، ولا تسمح لاحد بالدخول الى حجرته . وكان غيراسيم قد حفر ثقبا في بابه خصيصا لها ، وكانت هي تبدو وكأنها تشعر بانها في حجرة غيراسيم فقط ربة بيت كاملة ، ولهذا كانت ، حين تدخل الحجرة ، تقفز على السرير حالا ، وعليها سيماء الرضى . وفي الليل لم تكن تنام قط ، ولكنها لم تنبح بلا تمييز ، كما تفعل الكلبة الهجينة الحمقاء التي تقعو على رجليها ، وترفع بوزها ، وتقلص عينيها ، وتنبح على النجوم لمجرد الضجر ، ثلاث مرات متتاليات في العادة . عيب ! كان صوت مومو الرقيق لا يصدر عبثا ، بل إما لان غريبا يتقدم قريبا من السياج ، وإما لان ضجيجا مريبا او همسهسة ارتفعت في مكان ما . . . وباختصار كانت تحرس بشكل ممتاز . حقا كان في الفناء ، بالاضافة اليها ، كلب آخر عجوز اصفر اللون ذو بقع بنية يدعى فولتشوك ، ولكن هذا الكلب لم يطلق من سلسلته حتى في الليل ، كما انه هو نفسه ، بسبب هزاله ، لم ينشد الانطلاق ، فكان لا يريم قابعا ملفوفا على نفسه في كشكه ، ومن حين لآخر فقط كان يصدر نباحا ابح لا رنة فيه تقريبا سرعان ما يتوقف ، وكان صاحبه نفسه يحس بعدم جدواه . لم تكن «مومو» تدخل بيت السيدة ؛ وحين كان غيراسيم يحمل الحطب الى الحجرات ، كانت تتخلف عنه دائما ، منتظرة اياه عند مدخل البيت بلهفة ، وقد اشرعت اذنيها ، محولة راسها الى اليمين ، ومديرة اياه الى اليسار حالما تسمع اقل وقع وراء الابواب . . .

وعلى هذا النحو انقضى عام . واستمر غيراسيم في اشغاله كفراش ، وكان راضيا جدا بمصيره ، واذا بظرف مفاجىء يحدث فجأة . . . وهو بالذات : في يوم من ايام الصيف كانت السيدة تذرع

حجرة الضيوف ومعها مُعيلاتها . كانت في مزاج رائق ، تضحك وتمزح والمعيلات يضحكن ويمزحن ايضا ، ولكنهن لم يكن يشعرن بفرح كثير ، فأهل البيت لم يكونوا يحبون ساعة الفرح لدى السيدة ، لانها اولا كانت تتطلب من الجميع مشاركة عاطفية تامة وفورية ، وتغضب اذا لم يشع وجه احد منهم بالسرور . وثانيا لان هذه الفورات لم تستمر عندها طويلا ، وتخلف في العادة جهامة ومزاجا متعكرا . في ذلك اليوم نهضت سعيدة ، وفي فال الورق طلع لها اربعة اولاد ، ومعنى ذلك تحقيق المآرب (كانت دائما تستخير الورق في الصباح) ، والشاي بدا لها لذيذا على نحو خاص تلقت الخادمة بسببه ثناء بالكلمات وعشرة كوبيكات نقدا . سارت السيدة في غرفة الضيوف والابتسامة على شفتيها المتغضنتين ، وتقدمت من النافذة . امام النافذة حديقة صغيرة . كانت مومو ترقد في حوض وسطي للزهور ، تحت اغراس اوراد ، تقضم عظمة باهتمام . ووقع بصر السيدة عليها . فهتفت فجأة مخاطبة المعيلة التي كانت برفقتها :

– يا إلهي ! اية كلبة هذه ؟

فتمتمت هذه المسكينة بذلك القلق المقهور الذي يستولي عادة على مرؤوس ، حين ما يزال لا يعرف بشكل جيد كيف يفهم كلام رئيسه :

– لا . . . اعرف . اظنها كلبة الابكم .

اوقفتها السيدة قائلة :

– يا إلهي ! ولكنها كلبة لطيفة ! اطلبي ان يجلبوها . هل هي من زمان عنده ؟ كيف لم أرها حتى الآن ؟ اطلبي ان يجلبوها .

اندفعت المعيلة الى الرواق راسا ، وصاحت :

– يا رجل ، يا رجل . اجلب مومو حالا ! انها في الحديقة .

قالت السيدة :

– واسمها مومو . اسم لطيف جدا .

– اها ، لطيف ، يا سيدتي ، – قالت المعيلة ، واضافت : – اسرع بها ، يا ستيبان !

وستيبان فتى ضخم البنيان ، يعمل في وظيفة خادم في الغرف ، اندفع الى الحديقة لا يلوى على شيء ، واراد ان يمسك مومو ، الا ان هذه انزلقت من بين اصابعه بخفة ، ورفعت ذيلها ، وانطلقت الى غيراسيم بكل ما تستطيعه ارجلها . وكان غيراسيم ، حينئذ ، عند

المطبخ ، ينفض البرميل ، ويهزه ، مقلبا اياه بين يديه كما يقلب طبلا من لعب الاطفال . ركض ستيبان وراء الكلبة ، وحاول ان يقبض عليها ، وهي عند قدمي سيدها . الا ان الكلبة الخفيفة الحركة لم تستسلم ليدي الغريب ، وراحت تنط وتدور . نظر غيراسيم الى كل هذه الشغلة بهزء ، واخيرا نهض ستيبان ، واسرع يخبر غيراسيم بالاشارات بان السيدة تريد ان تُجلب الكلبة اليها . اندهش غيراسيم قليلا ، الا انه نادى مومو ، ورفعها من الارض ، وسلمها الى ستيبان . اخذها ستيبان الى غرفة الضيوف ، ووضعها على ارضية الغرفة الخشبية . اخذت السيدة تدعوها اليها بصوت رقيق . لم تكن مومو ، منذ ولادتها ، قد دخلت الى مثل هذه الحجرات المترفة ، فهلعت كثيرا ، واندفعت نحو الباب ، الا انها اصطدمت بستيبان المتهيأ دائما للخدمة ، فاخذت ترتجف ، وانكمشت على الحائط .

قالت السيدة :

— مومو ، مومو ، تعالي اليّ ، تعالي الي سيدة البيت . تعالي ، يا حمقاء ، يا حلوة . . . لا تخافي . . .

وكررت المعيلات :

— اذهبي ، اذهبي ، يا مومو ، اذهبي الى سيدة البيت .

الا ان مومو قلّبت بصرها فيما حولها مغمومة ، ولم تترك مكانها .

قالت السيدة :

— اجلبوا لها شيئا تاكله . اي حمقاء هي ! لا تقبل على سيدة البيت . ماذا تخاف ؟

تمتمت احدى المعيلات بصوت متضرع متهيب :

— لم تألف بعد .

جلب ستيبان صحن حليب ، ووضعه امام مومو ، ولكن مومو لم تقدم حتى على شمه ، وظلت ترتجف وتنظر كما من قبل .

— اوه ، اية كلبة انت !

غمغمت السيدة ، وهي تقترب منها ، وانحنت ، وارادت ان تمسد عليها ، الا ان مومو ادارت رأسها مرتعصة ، وكشرت عن انيابها . وسحبت السيدة يدها بسرعة . . .

وسادت لحظة صمت . ارسلت مومو زعيقا واهنا ، وكأنها

تشكي وتعتذر . . . ابتعدت السيدة ، وقطبت اساريرها . فان حركة الكلبة المفاجئة ارعبتها .

— آه ! — صاحت جميع المعيلات دفعة واحدة ، — ربما عضتك ، حفظك الله ! (لم تعض مومو احدا في حياتها قط) آه ، آه !

صاحت العجوز بصوت متغير :

— اخرجوها . كلبة خبيثة ! يا لها من لئيمة !

واستدارت ببطء ، واتجهت الى غرفة مكتبها . تبادلت المعيلات النظرات في رهبة ، متهيآت للسير وراءها ، الا ان السيدة توقفت ، ونظرت اليهن ببرود ، وتمتمت : «لِمَ هذا ؟ انا لم ادعكن» وانصرفت .

هزت المعيلات اذرعهن على ستيبان في قنوط . امسك هذا مومو ، واسرع في القائها وراء الباب ، عند قدمي غيراسيم تماما ، وبعد نصف ساعة كان السكون العميق يخيم على البيت ، والسيدة العجوز جالسة على اريكتها اشد جهامة من سحابة ممطرة .

يحدث ان اتفه التوافه تستطيع احيانا ان تزعج الانسان !

ظلت السيدة حتى المساء متعكرة المزاج ، لا تكلم احدا ، ولا تلعب الورق ، وقضت ليلة سيئة . وظنت ان ماء الكولونيا الذي قدم لها ليس ما يقدم لها عادة ، وان وسادتها تفوح برائحة الصابون ، واجبرت مسؤولة البياضات ان تشم كل البياضات ، وباختصار اضطربت و«احتدمت» كثيرا . وفي الصباح التالي امرت ان يدعى غافريلا قبل ساعة من حضوره المعتاد .

وحالما اجتاز هذا عتبة غرفة مكتبها وهو يتمتم في داخل نفسه ، حتى بادرت السيدة تقول :

— قل لي ، من فضلك ، ما هذه الكلبة التي كانت تنبح طوال الليل في الفناء ؟ لم تدعني انام !

فقال هذا بصوت غير واثق تماما :

— الكلبة . . . هي . . . ربما كلبة الابكم ، يا سيدتي .

— انا لا اعرف أكانت كلبة الابكم او غيره ، ولكنها لم تدعني انام . ثم انا مندهشة من كثرة الكلاب عندنا ! اريد ان اعرف ، اليس لنا كلب يحرس الفناء ؟

— يوجد بالضبط . فولتشوك .

— فما حاجتنا الى كلبة اخرى ، اذن ؟ للازعاج فقط . لا يوجد في البيت رئيس ، هذا كل ما في الامر . وما حاجة الابكم الى كلبة ؟ ومَن سمح له ان يربي كلبة في فناء بيتي ؟ يوم امس نظرت من النافذة ، فاذا هي راقدة في الحديقة ، تقضم قذارة جرتها الى هنا . بينما ورودي مغروسة هناك . . .

صمتت السيدة .

— منذ اليوم لا اريدها هنا . . . سامع ؟

— حاضر .

— اليوم بالذات . والآن اذهب . سادعوك بعد ذلك بخصوص التقرير اليومي .

خرج غافريلا .

وعندما اجتاز رئيس الخدم حجرة الضيوف نقل الجرس الصغير من طاولة الى اخرى ، كما يقتضي النظام ، ومخط من انفه الطويل في الصالة خلسة ، وخرج الى الرواق . كان ستيبان ينام في الرواق على مسطبة في وضع محارب قتيل في لوحة من تلك اللوحات التي تصور المعارك ، وقد مد رجليه العاريتين يتشنج من تحت المعطف المذيّل الذي كان يستخدمه كغطاء . لكزه رئيس الخدم ، وابلغه امر السيدة بصوت خافت ، فرد عليه ستيبان بما بين التثاؤب والضحك . انصرف رئيس الخدم ، ووثب ستيبان واقفا ، ولبس القفطان والحذاء الطويل ، وخرج ، وتوقف عند واجهة البيت . وقبل ان تنقضي خمس دقائق ظهر غيراسيم يحمل على ظهره حزمة هائلة من الحطب ، وبصحبته مومو لا تفارقه . (كانت السيدة تؤمر بتدفئة مخدعها وغرفة مكتبها حتى في الصيف) . وجه غيراسيم جنبه الى الباب ، ودفعه بكتفه ، ودخل بحمولته الى البيت . وكالعادة بقيت مومو بانتظاره . عندئذ سنحت لستيبان لحظة مؤاتية ، فوثب نحو الكلبة ، كما تثب الحداة على فرخة ، وضغطها بصدره على الارض ، واحتضنها في خبطة واحدة ، — وخرج الى الفناء راكضا وهي معه ، حتى دون ان يضع عليه غطاء لراسه وركب اول عربة اجرة صادفته ، وانطلقت الى اخوتني رياد . وهناك سرعان ما وجد لها مشتريا تنازل له عنها لقاء نصف روبل ، على شرط ان يربطها في مقود اسبوعا واحدا ، على الاقل ، وعاد ستيبان في الحال ، ولكنه قبل ان يصل الى البيت ، نزل من العربة ، ودار حول الفناء ، وقفز

السياج اليه من زقاق خلفي ، فقد كان يخشى الدخول من البوابة متحاشيا لقاء غيراسيم .

الا ان قلقه كان في غير مكانه . لان غيراسيم لم يكن في الفناء عند وصوله . عندما خرج من البيت ، افتقد مومو فورا اذ لم يكن يذكر انها لم تنتظر عودته في وقت من الاوقات ، فراح يركض ، باحثا عنها ، مناديا اياها بطريقته . . . واندفع الى حجرته ، الى مستودع القش ، وخرج الى الشارع ، وبحث هنا وهناك . . . اختفت ! خاطب الناس باكثر الاشارات استماتة يسالهم عنها مشيرا بيده الى نصف ذراع عن الارض ، وراسما اياها بيديه . . . بعضهم كان لا يعرف بالضبط الى اين ذهبت مومو ، فاكتفوا بأن هزوا رؤوسهم ؛ وبعضهم كان يعرف ، فرد عليه بضحكة ، بينما اتخذ رئيس الخدم هيئة غاية في الوقار ، واخذ يصرخ على سائقي العربات . عندئذ ركض غيراسيم خارج الفناء .

عاد وظلام المساء قد خيم . ومن مظهره المنهك ، ومشيته المتخلخلة ، وثيابه المتربة كان من الممكن التصور بأنه لحق ان يطوف في نصف موسكو راكضا . توقف امام نوافذ السيدة ، والقى نظرة على واجهة البيت التي كان يتزاحم عليها زهاء سبعة من الخدم ، واعرض ، وجأر مرة اخرى «مومو !» ، ولم ترد مومو . فانصرف . نظر الجميع في اثره ، ولكن احدا لم يبتسم ولم يتفوه بكلمة . . . في صباح اليوم التالي ، في المطبخ ذكر انتيبكا الحوذي الفضولي ان الابكم الاصم ظل طوال الليل يتأوه .

طوال اليوم التالي لم يظهر غيراسيم ، فكان على الحوذي بوتاب ان يذهب لجلب الماء بدلا منه ، وامتعض الحوذي كثيرا من ذلك . سالت السيدة غافريلا هل نفذ امرها ، فرد غافريلا بأنه قد نفذ . في صباح اليوم التالي خرج غيراسيم من حجرته الى العمل . وحضر ساعة الغداء ، وأكل وخرج ثانية دون ان يسلم على احد . ووجهه الذي كان ، حتى قبل ذلك ، بلا حياة مثل وجوه جميع الصم البكم ، بدا وكأنه قد تحجر . بعد الغداء خرج من الفناء ثانية ، ولكن لوقت قصير ، وعاد ، وتوجه في الحال الى مستودع القش . وحلّ الليل قمريا صافيا . استلقى غيراسيم ثقيل الانفاس ، دائم التقلب ، وفجأة احس بأنه يُسحب من طرف ردائه ، ارتعش بكل كيانه ، الا انه لم يرفع رأسه ، بل وقلّص عينيه ، وجُذب من طرف

ردائه مرة اخرى اقوى من التي قبلها ، فقفز من استلقائه . . . كانت مومو تحوم حوله ، وحول عنقها قطعة من مقود . ندت من صدره الاخرس صيحة فرح ممدودة ، واختطف مومو ، وعصرها في احضانه ، وما هي الا لحظة واحدة حتى اخذت تلعق انفه ، وعينيه ، وشاربيه ، ولحيته . . . وقف ، وفكر ، ونزل من كومة القش بحذر ، وتلفت فيما حوله ، وبعد ان ايقن ان احدا لا يراه ، انسل الى حجرته دون مصاعب . كان غيراسيم قبل هذا قد حدس بان الكلبة لم تضع ، من تلقاء نفسها ، بل ربما ابعدت بأمر من السيدة ، لان الناس شرحوا له بالاشارات ان كلبته اغاضت السيدة ، فقرر ان يتخذ تدابيره . في بادئ الامر اطعم مومو خبزا ، ولاطفها ، وارقدها لتستريح ، وراح يفكر ، وظل طوال الليل يفكر بلا انقطاع ، في احسن وسيلة لاخفائها . واخيرا قر رأيه على ان يبقيها اليوم كله في حجرته ، ويذهب لتفقدها من حين لآخر ، وفي الليل يخرج معها . سد فتحة الباب بمعطفه سدا محكما ، وكان ، حالما طلع النور ، في الفناء ، وكأنما لم يحصل شيء ، بل وابقى سحنة الغم على وجهه (حيلة بريئة !) . ولم يدر في خلد الابكم المسكين ان مومو يمكن ان تكشف عن نفسها بوصوصة تصدرها . وبالفعل سرعان ما عرف اهل البيت جميعا ان كلبة الابكم قد عادت ، وانها محبوسة في حجرته ، ولكنهم اشفقوا عليه وعليها ، وخوفا منه جزئيا ربما ، لم يدعوه يفهم انهم كشفوا سره . ورئيس الخدم وحده ، حك قفاه ، ولم يقدم على شيء وكأنه يقول «وليكن ! ما دام الخبر لا يصل الى سمع السيدة !» . ومقابل ذلك لم يجتهد الابكم ويداب مثلما فعل في ذلك اليوم : نظف وجلف الفناء كله ، واجتث جميع الاعشاب الضارة دون ان يترك واحدة ، وهزّ جميع اوتاد سياج الحديقة ليتأكد من ثباتها بشكل جيد ، وبعد ذلك دقها بنفسه ، وباختصار اجتهد وانشغل كثيرا ، حتى ان السيدة نفسها انتبهت الى ما يبذله من جهد . وخلال اليوم انسل غيراسيم مرتين الى حبيسته ، وحين انسدل الليل ، استلقى لينام معها في حجرته ، وليس في مستودع القش ، وبعد الساعة الواحدة فقط خرج معها الى الهواء الطلق . تمشى معها في الفناء وقتا ليس بالقصير ، واستعد للعودة ، واذا بخشخشة تصدر فجأة من جانب الزقاق وراء السياج . وتنّرت مومو اذنيها ، واخذت تحمحم ، واقتربت من

السياج ، وتشممت ، وراحت تنبح نباحا عاليا حادا . كان احد السكارى يريد ان ينزوي هناك ويقضي ليلته . في تلك اللحظة كانت السيدة قد غفت لتوها بعد «قلق عصبي» طويل . وفترات القلق هذه كانت تحصل لها دائما بعد عشاء دسم جدا . وايقظها النباح المفاجيء وخفق قلبها ، وجمد . نادت متوجعة «يا بنات ، يا بنات !» وهرعت الفتيات المذعورات الى مخدعها . غمغمت السيدة باسطة ذراعيها : «آه ، آه ، انا اموت ! تلك الكلبة مرة اخرى ! . . آه ، ارسلن في طلب الدكتور . يريدون ان يقتلوني . . . الكلبة ، مرة اخرى الكلبة ! آه !» والقت راسها الى الخلف ، وكان ذلك يعني اغماء . هرعوا الى الدكتور ، اي الى المطبب المنزلي خاريتون . هذا المطبب الذي كان كل فنه يتمثل في لبسه حذاء طويلا ذا نعل لين وفي قدرته على جس النبض بلباقة ، كان ينام اربع عشرة ساعة في اليوم ويقضي بقية الوقت في التنهد ، وتقديم قطرات اوراق الغار للسيدة . وقد خفّ على الفور ، وبخر بدخان الريش المحروق ، وعندما فتحت السيدة عينيها ، اسرع بتقديم قدح من القطرات المعهودة على صينية من الفضة . شربت السيدة ما في القدح ، ولكنها عادت في الحال تتشكى بصوت دامع من الكلبة ، ومن غافريلا ، ومن نصيبها ، ومن ترك الجميع لها وهي العجوز المسكينة ، ومن عدم رأفة احد بها ، فالجميع يريدون ان تموت . وفي غضون ذلك واصلت مومو التعيسة نباحها ، بينما كان غيراسيم يحاول عبثا ان يصرفها عن السياج . «ها هي . . ها هي . . . ثانية . . .» غمغمت السيدة بذلك . ومن جديد تدحرجت عيناها في محجريهما . همس المطبب بشيء لفتاة ، فهرعت هذه الى الرواق ، ولكزت ستيبان ، فاسرع هذا ليوقظ غافريلا . وامر غافريلا ، في سورة الحدة ، ان يوقظ كل مَن في البيت .

التفت غيراسيم فرأى انوارا وظلالا تلوح في نوافذ البيت ، فشعر قلبه بوقوع مصيبة ، اختطف مومو تحت ابطه ، وهرع الى حجرته ، واغلق عليه الباب . وبعد بضع لحظات هجم خمسة اشخاص على بابه ، الا انهم توقفوا حين احسوا بمقاومة المزلاج . جاء غافريلا راكضا لاهث الانفاس ، وأمرهم بان يبقوا جميعا عند الباب ويحرسوه حتى الصباح ، وانطلق بعد ذلك الى حجرة الخادمات ، وامر لوبوف ليوبيموفنا ، كبيرة المرافقات التي كان معها

يسرق ويقوم بحسابات الشاي والسكر والبقاليات الاخرى ، بان تبلغ السيدة بان الكلبة عادت من جديد مع الاسف ، ولكنها غدا لن تكون في عداد الاحياء ، فلتتكرم السيدة وتهدأ ولا تغضب . وما كان للسيدة ان تهدأ سريعا في اغلب الظن ، لو لم يخطأ المطبب لعجالته ، فيصب لها اربعين قطرة بدلا من اثنتي عشرة ، وتركت قطرات اوراق الغار مفعولها ، وبعد ربع ساعة غطت السيدة في نوم عميق موزون ، بينما ظل غيراسيم يرقد في سريره ممتقعا بكليته ، يضغط بقوة على بوز مومو .

في صباح اليوم التالي استيقظت السيدة في ساعة متأخرة جدا . وكان غافريلا ينتظر استيقاظها ليأمر باقتحام حجرة غيراسيم عنوة ، بينما تهيأ هو نفسه لعاصفة شديدة . الا ان العاصفة لم تقع . اقرت السيدة ، وهي مستلقية في فراشها ان تستدعى كبيرة المعيلات اليها .

شرعت تقول بصوت خافت واهن :

— لوبوف ليوبيموفنا .

كانت تحب احيانا التظاهر بانها معذبة مهملة ميتمة ولا حاجة الى القول ان كل من في البيت كانوا يحسون ، عندئذ ، بحرج شديد .

— لوبوف ليوبيموفنا ، ها انت ترين في اي وضع انا . فاذهبي ، يا عزيزتي ، الى غافريلا اندريتش ، وتكلمي معه . هل من المعقول ان كلبة سائبة اغلى من راحة سيدة البيت وحياتها ايضا ؟ — واضافت معبرة عن شعور عميق : — ما اود ان اصدق بذلك ، اذهبي ، يا روحي ، واعملي معروفا ، اذهبي الى غافريلا اندريتش .

ذهبت لوبوف ليوبيموفنا الى غرفة غافريلا . ولا يُعرف ماذا جرى بينهما من حديث ، الا ان جمهرة من الناس اجتازت الفناء ، بعد بعض الوقت ، واتجهت صوب حجرة غيراسيم ، وفي مقدمتها غافريلا ساندا قبعته بيده ، رغم سكون الريح . وبالقرب منه سار خدم المنزل والطباخون ، وكان العم «ذيل» ينظر من النافذة ، ويأمر ، اي يبسط ذراعيه لا غير ، وخلف الجميع كان بعض الصبية ينطون ويشاكسون ، ونصفهم غرباء جاءوا من الافنية الاخرى . وعلى الدرج الضيق المؤدي الى الحجرة جلس حارس ، وعند الباب حارسان

آخران مسلحان بالعصي . واخذ الرجال يرتقون الدرج ، واحتلوه بكل طوله . تقدم غافريلا من الباب ، ودقه بقبضته وصاح :

— افتح .

تردد نباح مكتوم ، ولكن لا جواب .

— قالوا لك ، افتح ! — كرر غافريلا .

قال ستيبان من الاسفل منبها :

— ولكنه ، اطرش ، يا غافريلا اندريتش . لا يسمع .

ضحك الجميع .

رد غافريلا من فوق :

— ما العمل اذن ؟

اجاب ستيبان :

— في بابه ثقب ، فحرك عصا فيه .

انحنى غافريلا .

— الثقب مسدود بمعطفه .

— ادفع المعطف الى الداخل .

وهنا صدر نباح مكتوم ثانية .

— اسمعوا ، اسمعوا . . ها هي تعلن عن نفسها .

ترددت اصوات في الجمع ، وعادوا يضحكون .

حك غافريلا ما وراء اذنه . وقال اخيرا :

— لا ، يا اخ . ادفع انت المعطف ، اذا كنت تريد .

— تفضل !

وصعد ستيبان الى فوق ، واخذ عصا ، ودفع المعطف الى الداخل ، واخذ يدير العصا في الثقب ، وهو يردد «اخرج ، اخرج !» ومضى الوقت وهو يديرها ، حتى انفتح باب الحجرة فجأة وبسرعة ، واذا بمعشر الخدم ينزلون الدرج في كركبة عجلى ، وغافريلا قبل الجميع . واغلق العم «ذيل» النافذة .

صاح غافريلا من الفناء :

— اياك ، اياك . . الويل لك !

وقف غيراسيم على العتبة بلا حراك . تجمع حشد الناس في اسفل الدرج . حدق غيراسيم من فوق الى كل هؤلاء الناس الصغار بمعاطفهم الالمانية ، مسندا يديه على جنبيه قليلا . وبدا ازاءهم

وهو في قميصه الفلاحي الاحمر كالعملاق . تقدم غافريلا خطوة الى الامام . وقال :

– احذر ، يا اخ . لا تتشاكس معي .

وراح يشرح له بالاشارات ان السيدة تريد كلبته لا محالة . فهاتها ، والا فستحصل مصيبة لك .

نظر غيراسيم اليه ، واشار الى الكلبة ، وحرّك يده عند رقبته ، وكانه يشد انشوطة ، ورمق رئيس الخدم بوجه متسائل .

ردّ هذا وهو ينود برأسه :

– نعم ، نعم ، بالتاكيد .

اطرق غيراسيم بصره ، ثم ارتعد فجاة ، واشار الى مومو ، التي كانت واقفة بالقرب منه طوال الوقت ، مبصبصة بذيلها ببراءة ، موترة اذنيها بفضول ، واعاد يرسم اشارة الشنق فوق رقبته ، ودق صدره بدلالة ، وكانه يعلن انه سياخذ على عاتقه القضاء على مومو .

هزّ غافريلا ذراعه مجيبا اياه :

– انت تخادع .

نظر غيراسيم اليه ، وارسل ضحكة استهزاء مقتضبة ، ودق على صدره من جديد ، وصفق الباب .

تبادل الجميع النظرات في صمت .

وقال غافريلا :

– ما معنى هذا ؟ اغلق الباب على نفسه ؟

قال ستيبان :

– اتركه ، يا غافريلا اندريتش . ما دام قد وعد ، فسيفعل . انت تعرفه . . . يفعل ما يعد ، بالتاكيد . هو في ذلك ليس على شاكلتنا . ما هو حق ، فهو حق . نعم .

كرر الجميع ، وهزوا رؤوسهم :

– نعم ، هذا بالفعل . نعم .

فتح العم «ذيل» نافذته ، وقال ايضا : «نعم» .

وقال غافريلا :

– طيب لنر . ولكن سنبقي الحرس ، على اية حال . اوه ، يروشكا ! – اضاف موجها جملته الاخيرة الى رجل شاحب في سترة قصيرة صفراء من النسيج القطني البيتي ، كان يعمل بستانيا . –

ماذا تفعل بنفسك ؟ خذ عصا ، واقعد هنا ، وحالما يحصل شيء اهرع اليّ !

اخذ يروشكا عصا ، وقعد على درجة السلم الاخيرة . وتفرق الجمع ما عدا بعض الفضوليين والصبيان ، بينما عاد غافريلا الى البيت ، وطلب ان تبلغ السيدة عن طريق لوبوف ليوبيموفنا بأن كل شيء قد نفذ ، وارسل هو ، احتياطا ، الحوذي الى الشرطي . شدت السيدة منديل جيب على شكل عقدة ، وصبت ماء الكولونيا عليها ، وشمّت ، وفركت صدغيها ، وشربت شايا ، وغفت ثانية وهي ما تزال تحت تاثير قطرات اوراق الغار .

وبعد ساعة من كل هذا الارتياع ، انفتح باب الحجرة ، وظهر غيراسيم . كان في قفطان الاعياد ، يقود مومو من حبل . تنحى يروشكا ، وتركه يمر . اتجه غيراسيم نحو البوابة . شيّعه الصبيان وكل من كانوا في الفناء بعيونهم صامتين . ولم تبد منه اية التفاتة اليهم . ولم يلبس قبعته الا في الشارع . ارسل غافريلا البستاني يروشكا اياه في اثره كمراقب . ورآه يروشكا من بعيد يدخل حانة مع كلبته ، فراح ينتظره عند مدخلها .

كان اهل الحانة يعرفون غيراسيم ، ويفهمون اشاراته . طلب له حساء كرنب باللحمة وجلس ، ساندا يديه على المائدة . وقفت مومو قرب مقعده ، تنظر اليه في هدوء بعينيها الذكيتين . وظل شعرها على لمعته ، والظاهر انها مُشطت قبل وقت قصير . جلبوا لغيراسيم حساء الكرنب . ثرد فيه خبزا ، وقطع اللحم قطعا صغيرة ، ووضع الصحن على الارض . اخذت مومو تاكل برصانتها المعهودة ، وهي لا تكاد تمس الطعام ببوزها . ظل غيراسيم ينظر اليها وقتا طويلا . وفجاة انحدرت من عينيه دمعتان ثقيلتان . سقطت احداهما على جبين الكلبة المدور ، والاخرى في حساء الكرنب . ستر وجهه بيده . اكلت مومو نصف الصحن ، وابتعدت تعلق شفتيها . نهض غيراسيم ، ودفع ثمن حساء الكرنب ، وخرج مشيعا بنظرة النادل المتحيرة قليلا . قفز يروشكا الى ما وراء المنعطف حين رأى غيراسيم ، وتركه يمر ، وعاد يتعقبه .

سار غيراسيم غير متعجل ودون ان يطلق مقود مومو . وحين وصل الى زاوية الشارع توقف ، وكانه يفكر مع نفسه ، وفجاة اتجه نحو مخاضة كريمسكي بخطى سريعة . وفي الطريق دخل فناء

بيت له ملحق في طور البناء ، وخرج من هناك متأبطا آجرتين . ومن مخاضة كريمسكي استدار سائرا بمحاذاة الشاطئ ، حتى بلغ موضعا ربط فيه قاربان بوتدين ، وفي كل قارب مجذافان (وكان قد لاحظهما من قبل) ، وقفز الى احدهما ومعه مومو . خرج الحارس العجوز الاعرج من خص منصوب في ركن حديقة بيت ، وراح يصيح به . الا ان غيراسيم اكتفى بأن هز راسه ، وراح يجذف بقوة شديدة حتى انه قطع حوالي مائة ذراع في لحظة واحدة ، رغم انه كان ضد تيار النهر . . وقف العجوز دقيقة ثم اخرى ، وحك ظهره بيده اليسرى اولا ، ثم اليمنى ، وعاد الى الخص يقزل .

بينما ظل غيراسيم يجذف ويجذف . وها هي موسكو تتخلف الى الوراء . وها هي المروج وحدائق الخضروات والحقول ، والاحراش تمتد على الشاطئين . وظهرت الاكواخ الريفية . وفاحت رائحة الريف . القى المجذافين ، وامال راسه نحو مومو ، التي كانت جالسة امامه على العارضة الجافة — كان قاع القارب مغمورا بالماء — وبقي جامدا ، وقد صالب ذراعيه الضخمتين على ظهرها ، بينما كان القارب يتحدر مع التيار عائدا قليلا صوب المدينة . واخيرا ، عدّل غيراسيم قامته ، ولفّ الحبل على الآجرتين بعجالة ، وعلى سيمائه حنق مرَضي ، وعقَد انشوطة ، وضعها حول عنق مومو ، ورفع الكلبة فوق النهر ، ونظر اليها للمرة الاخيرة . كانت تنظر اليه واثقة به ، مبراة من الخوف ، مبصبصة بذيلها قليلا . استدار بوجهه ، واغمض عينيه ، وفك يديه . . . لم يسمع غيراسيم صيحة مومو السريعة وهي تسقط في النهر ، ولا طرطشة الماء الثقيلة . فقد كان اصخب يوم من ايام الدنيا ساكتا صامتا بالنسبة له مثلما لا تخلو اهدأ ليلة من صوت بالنسبة لنا . وعندما فتح عينيه ثانية كانت الامواج الصغيرة تتراكض على النهر ، كما كانت من قبل ، يسابق بعضها بعضا ، تضرب جانب القارب ، مثلما كانت من قبل ايضا . والى الخلف فقط ، وعلى مسافة بعيدة كانت دوائر واسعة تنداح باتجاه الشاطئ .

عاد يروشكا الى البيت حالما اختفى غيراسيم عن بصره ، وروى كل ما رآه .

قال ستيبان :

— نعم ، بالطبع . سيغرقها . يمكن ان تطمئنوا الآن . ما دام قد وعد . . .

خلال النهار لم ير احد غيراسيم . ولم يتناول غيراسيم غداءه في البيت . وحل المساء ، واجتمع الجميع للعشاء ما عداه .

صاحت غسالة بدينة :

— غريب الاطوار غيراسيم هذا ! . . معقول ان تنكبه كلبة ! . . صحيح ! . .

هتف ستيبان فجأة ، وهو يغرف العصيدة لنفسه بملعقه :

— ولكن غيراسيم كان هنا .

— كيف ؟ متى ؟

— قبل ساعتين . بالضبط . التقيته عند البوابة . كان قادما من هنا ، وخرج من جانب الفناء . اردت ان اسأله بخصوص الكلبة ، ولكن لم يكن على بعضه ، كما يبدو . فدفعني . اظنه كان يريد ان يبعدني عن طريقه فقط . ليقول لي : لا تضايقني . ولكن الدفعة التي تلقيتها على قفاي العياذ منها ! — وانكمش ستيبان بتكشيرة لا ارادية ، وحك قفاه ، واضاف : — نعم ، يده سخية ولا شك .

ضحك الجميع من ستيبان ، وبعد العشاء تفرقوا ليناموا .

وفي غضون ذلك ، وفي تلك اللحظة ذاتها كان عملاق يسير في جادة . . . في داب ولا يتوقف ، يحمل كيسا وراء كتفيه ، وعصا طويلة في يده . وكان ذلك غيراسيم . كان يسرع لا يلوي على شيء ، يسرع الى بيته ، الى قريته ، الى موطنه . بعد ان اغرق مومو المسكينة هرع الى حجرته ، واسرع في جمع سقط متاعه في بردعة قديمة ، وشدها على هيئة صرة ، والقاها على كتفه ، وتهيأ للسفر . وكان قد لاحظ الطريق جيدا منذ ان نقلوه الى موسكو . وكانت القرية التي اخذته السيدة منها لا تبعد عن الجادة اكثر من خمسة وعشرين فرسخا . وقد سار فيها بجسارة لا تقهر ، واستماتة ، وبتصميم متهلل في الوقت ذاته . سار يفرد صدره عريضا ، وعيناه محدقتان الى الامام بلهفة واستقامة . كان يسرع ، وكان امه العجوز تنتظره في موطنه ، كانما دعته اليها بعد جولان طويل في بلاد غريبة ، وبين اناس غرباء . . . كان الليل الصيفي الذي خيّم لتوه ساجيا دافئا . وفي الجانب الذي غربت فيه الشمس كانت حافة السماء ما تزال تلوح بيضاء ، متوردة قليلا بآخر لمعان

النهار الذاهب ، وفي الجانب الآخر كانت ترتفع عتمة مزرقة شيباء . والليل جاء من هناك . وكانت طيور السمان تزعق بالمئات في كل مكان ، والكراكي البرية ينادي بعضها بعضا ملحفة . . . وما كان في مستطاع غيراسيم ان يسمعها ، ولا كان في مستطاعه ان يسمع الحفيف الليلي المرهف الذي كانت ترسله الاشجار ، حين كانت قدماه القويتان تحملانه خلالها ، ولكنه كان يحس بالرائحة الاليفة للجودار الآخذ بالنضوج ، المنبعثة بقوة من الحقول الداكنة ، ويحس بالريح الهابة للقائه – ريح موطنه – خفاقة على وجهه برقة ، مداعبة شعر راسه ولحيته ، ورأى امامه الطريق اللاحب ، الطريق الى البيت ، مستقيما كالسهم ، ورأى في السماء نجوما لا عد لها تنير دربه ، فراح يطأ الارض كالليث بقوة ونشاط ، فلما طلعت الشمس وانارته باشعتها الحمراء الندية كان يفصله عن موسكو خمسة وثلاثون فرسخا . . .

بعد يومين كان في قريته ، في كوخه امام ذهول زوجة الجندي التي اسكنوها في الكوخ . صلّى غيراسيم عند الايقونات ، واتجه الى العمدة على الفور . اندهش العمدة في بادئ الامر ، ولكن حصاد العشب بدأ لتوه ، وغيراسيم شغيل ممتاز ، فسلمه منجلا كبيرا ، وخرج غيراسيم يحصد كما في قديم عهده ، حصادا ابهر الفلاحين فراحوا يتطلعون الى شمرة ذراعه وانقضاضها . . .

وفي موسكو افتقدوه في اليوم الثاني من هروبه . ذهبوا الى حجرته ، وفتشوها ، وبلغوا غافريلا . فجاء هذا ، وتفقد ، وهزّ كتفيه ، واستقر رايه على ان الابكم الاصم هرب ، او غرق مع كلبته البلهاء . وأُبلغت الشرطة ، وأُعلمت السيدة بالخبر . اغتاظت ، وانفجرت باكية ، واقرت بأن يُعثر عليه مهما كلف الامر ، وراح تؤكد بانها لم تامر قط بقتل الكلبة ، واخيرا عنّفت غافريلا تعنيفا شديدا جعله طوال اليوم يهز راسه مرددا «اذن !» حتى اعاده العم «ذيل» الى صوابه بقوله «اذن . . ذن !» . واخيرا وصل نبأ من قرية بقدوم غيراسيم اليها . هدأت السيدة قليلا ، واصدرت أمرها ، في بادئ الامر ، باجباره على العودة الى موسكو ، وبعد ذلك اعلنت انها ليست بحاجة مطلقا الى هذا الرجل العاق . وعلى العموم فارقت السيدة الحياة بعد ذلك بوقت قصير ، وورثتها لم يهمهم أمر غيراسيم ، وحتى اقنانها الآخرون اطلقوهم ليعملوا بنظام اللزمة .

وحتى الآن يعيش غيراسيم في كوخه حياة عزلة معاق جبارا كما من قبل ، يعمل مقابل اربعة ، كما من قبل ، ورصينا مهيبا كما من قبل ايضا . ولكن جيرانه لاحظوا انه كفّ ، منذ عودته من موسكو ، عن معاشرة النساء ، بل لم يعد ينظر اليهن ، ولا يربي باية كلبة . ويقول الفلاحون : «وعلى العموم من حسن حظه انه لا يحتاج الى امراة . اما بخصوص الكلبة ، فما نفعها له ؟ واللص لا تستطيع ان تجره الى فناء بيته ولو بحبل !» مثل هذه الاشاعة تدور عن قوة الابكم الجبارة .

نَزْل المسافرين (٢٤)

على طريق ... الكبيرة ، وعلى مسافة متقاربة بين مدينتين من مراكز الاقضية يمر بهما هذا الطريق ، كان يقع ، الى عهد غير بعيد ، نَزْل واسع للمسافرين معروف جيدا لسائقي عربات الترويكا ، والفلاحين المرافقين لطوابير العربات ، ولمتعهدي التجار ، والباعة البرجوازيين في المدن ، وبشكل عام ، لكل المسافرين الكثار من شتى الاصناف ، الذين يسلكون طرقنا في مختلف فصول العام . كان الجميع يعرجون عادة على هذا النَزْل الا اذا كان المسافر من ملاك الاراضي الكبار يستقل عربة تجرها ستة خيول مرباة في البيت ، وان كان ذلك لا يعيق حوذي العربة والخادم الواقف على جسر مؤخرتها ان يتطلعا الى واجهة هذا النزل الاليفة لهما كثيرا بشعور خاص وباهتمام ، والا اذا كان المار صعلوكا في عربة بائسة لا يملك غير بضع قروش موضوعة في كيس في زيق قميصه ، حتى اذا حاذى هذا النَزْل الفاخر حث حصانه المتعب مسرعا ليقضي ليلته في العِزَب المعزولة في ناحية من الطريق ، لدى فلاح مستقل لا تجد عنده شيئا غير القش والخبز ، الا انك لن تدفع لقاء ذلك قرشا زائدا . كان النَزْل المذكور يجذب النزلاء اليه ، فضلا عن موقعه الممتاز ، بمزاياه الكثيرة الاخرى : بمائه العذب المستقى من بئرين عميقتين لهما بكرتان صارفتان يتدلى منهما دلوان حديديان بسلسلتين ، وبفنائه الرحب بسقائفه المتكاثفة من الالواح الخشبية على اعمدة سميكة ، وبذخيرة ثرة للشوفان الجيد ، وبمبنى دافئ له موقد روسي ضخم تلصق اليه مدخنتان طويلتان تشبهان مناكب العمالقة واخيرا بحجرتين نظيفتين بقدر كاف ، جدرانهما مغلفة بورق احمر ليلقي ممزق قليلا في الاسفل ، فيهما اريكة خشبية مصبوغة ،

ومقاعد من نفس النوع ، ومزهريتان من الجيرانيوم عند نوافذ لم تفتح قط ، كابية من تراكم غبار السنين عليها . وازاء ذلك كانت توجد فضائل اخرى لنزل المسافرين هذا : كان هناك دكان حدادة على مقربة منه ، وفي نفس المكان تقريبا طاحونة ، ومن المستطاع تناول طعام جيد بفضل طباخة بدينة كانت تطهي الطعام لذيذا دسما ، ولا تبخل بما لديها من مؤن . وعلى بعد نصف فرسخ حانة . كما كان صاحب النَزْل يتاجر بالنشوق ، وان كان مخلوطا بالرماد ، الا انه نفاذ يلذع الانف بلطف . وعلى العموم كانت هناك اسباب كثيرة تجعل مختلف المسافرين يترددون عليه بلا انقطاع . والشيء الرئيسي انه كان يغري المسافرين . وذلك شيء ، لا غنى عنه بالطبع ، في كل مشروع رائج . وكان سبب اغرائه الخاص يكمن ، حسب اقوال الناس في المنطقة المجاورة ، في كون صاحبه محظوظا ، وموفقا في كل مشاريعه ، رغم انه كان لا يستحق محظوظيته هذه كثيرا ، ولكن الحظ حين يرسو على احد لا يبارحه ، كما يبدو .

كان صاحب النزل رجلا من سكان المدينة يدعى ناعوم ايفانوف . كان ربع القامة ، بدينا ، محدودبا ، عريض المنكبين ، له راس كبير مدور ، وشعر مموج سرى الشيب فيه ، رغم ان محياه يوحي بانه لم يتجاوز الاربعين . وجهه ممتلئ غض ، وجبينه واطئ بل ابيض أملس ، وعيناه زرقاوان وضاءتان صغيرتان لهما نظرة غريبة جدا ، موطاة ووقحة في الوقت ذاته ، وذلك يندر ان تراه . كان ينكس راسه دائما ، ويديره بصعوبة ، ربما لقصر رقبته الشديد . وكان يمشي كالراكض ولا يحرك ذراعيه عند المشي ، بل يجنحهما . وعندما كان يبتسم ، وهو غالبا ما يبتسم ، ولكن دون ان يضحك ، وكأنما يبتسم في سره ، كانت شفتاه السميكتان تنفرجان انفراجة سمجة ، وتكشفان عن صف من الاسنان المتماسكة اللامعة . وكان يتكلم بتخلخل ، وفي صوته رنة جهوم . وكان حليق الذقن ، ولكنه في لباسه لم يكن يشبه الالمان . فقد كان يرتدي قفطانا طويلا مستهلكا ، وسروالا عريضا ، وحذاء بلا جوربين . وكان كثيرا ما يتغيب عن البيت في شؤونه الخاصة ، وهي كثيرة ، فقد كان يتاجر بالخيول ، ويستاجر الارض ، ويدير حدائق الخضروات ، ويبتاع البساتين في مناطق مختلفة ، ويزاول ، بشكل

عام ، مختلف العمليات التجارية ، ولكن فترات تغيبه لم تكن طويلة قط . كان يعود الى وكره كالحداة التي كان له شبه كبير بها ، لا سيما في تعبير عينيه . كان يحسن اشاعة النظام في وكره . كان موجودا في كل مكان ، ويستمع لكل شيء ، ويصدر الاوامر ، ويفعل هذا وذاك ، ويمسك الحساب بنفسه ، ولا يتسامح مع احد بفلس ، ولكنه لا ياخذ فلسا زيادة .

كان المسافرون لا يحبون مبادرته بالكلام ، كما انه لم يكن يحب اطلاق الكلمات جزافا . كان يقول وكانه يقطع كل كلمة : «انا بحاجة الى فلوسكم ، وانتم بحاجة الى طعامي . وليست بيننا صلة رحم . تعالوا ، وكلوا ، واشربوا ، ولا تطيلوا الجلوس . واذا كنتم متعبين فناموا ، ولا حاجة الى الكلام الفارغ» . كان يختار شغيلة ضخام الاجسام معافين ، الا انهم وديعون ومطاوعون وذوو سلوك حسن ، وكانوا يخشونه كثيرا . وكان لا يضع الخمرة في فمه ، الا انه كان يعطي شغيلته في الاعياد عشرة كوبيكات للفودكا ، وفي الايام الاخرى لم يكونوا يجرأون على شربها . والناس من امثال ناعوم سرعان ما يغتنون . . . ولكن ناعوم لم يصل الى وضعه اللامع ، اي ان يملك اربعين او خمسين الفا من الروبلات ، بطريق مستقيم . . .

عند بداية قصتنا هذه كان قد مضى زهاء عشرين عاما على وجود نزل المسافرين في مكانه على الطريق الكبير . وفي الحقيقة لم يكن له سقف من الالواح الحمراء الداكنة يضفي على منزل ناعوم ايفانوف مظهر ضيعة من ضياع الاعيان ، بل كان مبنى اكثر بؤسا ، السقائف في الفناء من القش ، والجدران من الاغصان المضفورة بدلا من الروافد ، كما لم يكن يتميز في مقدمته بقوصرة اغريقية مثلثة قائمة على اعمدة مسحوجة ، ولكنه كان مع ذلك نزلا للمسافرين لطيفا – واسعا ومتماسكا ودافئا – وكان المسافرون يؤمونه عن طيب خاطر . وصاحبه في ذلك الزمن لم يكن ناعوم ايفانوف ، بل رجلا يدعى اكيم سيميونوف ، هو احد فلاحي صاحبة اطيان مجاورة هي ليزافيتا بروخوروفنا كونتسه زوجة ضابط عالي الرتبة . كان اكيم هذا ريفيا نابها واسع الحيلة خرج ، وما يزال فتى ، ليعمل سائقا مع حصانين رديئين ، وعاد بعد عام ومعه ثلاثة خيول معتبرة ، ومنذ ذلك الحين صار يقضي كل حياته تقريبا في التنقل على الطرق

الكبيرة ، سافر الى قازان واوديسا ، الى اورنبورغ ووارشو ، وطلع الى الخارج ، الى ليبتزغ ، وصار اخيرا يتنقل بعربتين ضخمتين تجر كل واحدة منهما ثلاثة افراس ضخمة قوية . ولا ندري أضجر من حياة التنقل والترحال ، أم اراد ان يقيم له عائلة (في احدى غيباته ماتت زوجته ، ولحقها اولادها ايضا) الا انه عزم ، في آخر الامر ، ان يهجر مهنته السابقة ، ويدير نزلا للمسافرين . وبتصريح من سيدته استقر على الطريق الكبير ، واشترى بأسمها ربع فدان من الارض (٢٥) واقام عليها نزلا للمسافرين . وجرى الامر على ما يرام . فقد كان له من النقود ما يكفي وما يزيد . والخبرة التي حصل عليها خلال تجواله الطويل في كل ارجاء روسيا اتت له بنفع عظيم ، وكان يعرف كيف يريح المسافرين ، لا سيما من اهل حرفته السابقة ، سائقي عربات الترويكا الذين كان يعرف الكثيرين منهم شخصيا ، والذين يكن لهم اصحاب انزال المسافرين تقديرا خاصا ، فان هؤلاء الناس ياكلون ويشربون كثيرا جدا ، وينفقون على انفسهم وعلى خيولهم الجبارة الشيء الكثير . وكان نزل اكيم معروفا في دائرة قطرها مئات الفراسخ . . . بل كان الناس اكثر اقبالا عليه من اقبالهم على ناعوم الذي اعقبه فيما بعد ، رغم ان اكيم كان اقل من ناعوم مقدرة على الادارة بشوط بعيد . كان كل شيء في نزل اكيم على النمط القديم ، فالنزل دافئ ، ولكنه غير نظيف تماما ، الشوفان دقيق او رطب ، والطعام ما بين بين ، بل وكان احيانا طعاما كان من الخير ان يبقى في الموقد كليا ، ليس لان الرجل كان شحيحا فيه ، بل لان الطباخة لا تعتني به . ومقابل ذلك كان اكيم مستعدا لان يتساهل في الاسعار ، ولربما لا يرفض ان يأتمن احدا على دين . وبشكل عام كان اكيم رجلا طيبا ، ومالكا لطيفا . كما كان مطواعا في الحديث والقرى ، واحيانا يطلق لسانه وهو وراء السماور ، حتى لتوليه اذنيك ، لا سيما اذا صار يتحدث عن بطرسبورغ ، او عن السهوب التشيركاسية (٢٦) ، او عن مناطق ما وراء الحدود . وكان يحب بالطبع ان يحتسي الخمرة مع جليس طيب حبا في العشرة وليس لاساءة الادب . وهذا راى المسافرين فيه . كان التجار يميلون اليه كثيرا ، وبشكل عام ، كل الذين يسمون باتباع القديم الذين لا يخرجون الى سفر ، الا اذا شدوا الاحزمة ، ولا يدخلون حجرة دون ان يرسموا علامة الصليب ، ولا يتكلمون مع احد ، الا اذا بادروه

بالتحية . ومظهر اكيم لوحده كان لصالحه ، فقد كان طويلا في شيء من النحافة ، الا انه ممشوق القوام جدا حتى وهو في سن الرجولة . كان له وجه طويل ، قسماته بديعة متناسقة ، وجبينه عال مفتوح ، وانفه مستقيم دقيق ، وشفتاه معتدلتان ، وكانت نظرة عينيه البنيتين الجاحظتين تشعان بالكثير من الدماثة الخفية ، وشعره الخفيف الناعم يلتف حلقات عند رقبته ، بينما شفّ كثيرا في قمة راسه . وكان صوت اكيم ذا رنة محببة جدا ، رغم ما فيه من ضعف . في شبابه كان يغني غناء ممتازا ، ولكن السفرات الطويلة في العراء شتاء اوهنت صدره . الا انه كان يتكلم بسلاسة وعذوبة كبيرتين . وعندما كان يضحك كانت تتكون عند عينيه غضون كالاشعة ، حلوة المنظر الى حد بعيد . ومثل هذه الغضون لا تراها الا عند الناس الطيبين . كانت حركات اكيم ، في معظمها ، بطيئة ، ولا تخلو من بعض الوثوق والمهابة المكرمة التي يتصف بها المجرّب الذي راى الكثير في حياته .

كان اكيم ، او اكيم سيمينوفيتش كما كانوا ينادونه في بيت سيدته ، حيث كان يتردد غالبا ، وفي ايام الآحاد ، بعد القداس بحكم المؤكد ، كان حسنا في كل شيء ، لولا ما فيه من ذلك الضعف الذي اودى بالكثير من الناس ، واودى به هو الآخر في نهاية المطاف ، وهو الضعف ازاء الجنس النسوي . كان سرعة وقوعه في الحب تصل الى الحد الاقصى ، فقد كان قلبه لا يعرف كيف يصمد امام نظرة امراة ، فكان يسيح فيها كما يسيح في الشمس اول الثلج في الخريف . . . فكان يضطر الى ان يدفع ثمنا غاليا لحساسيته الزائدة .

خلال العام الاول من اقامة اكيم في الطريق الكبير كان مشغولا ببناء النزل ، وتهيئة لوازمه ، وبكل المشاغل التي تصحب كل اقامة في مكان جديد ، حتى لم يكن له الوقت قط ليفكر في النساء ، اما اذا خطرت في ذهنه افكار آثمة فقد كان يطردها في الحال بقراءة الكتب المقدسة المختلفة التي كان يكن لها احتراما شديدا (كان قد تعلم القراءة منذ سفرته الاولى) وبتلاوة التراتيل بينه وبين نفسه او باي هم من الهموم الحميدة . وكان آنذاك قد دخل عامه السادس والاربعين ، وفي مثل هذه السن تهدأ العواطف بشكل ملحوظ ، وتبرد ، والزواج قد حان ميقاته . كما ان اكيم نفسه بدأ يفكر بأن

هذه الرعونة ، على حد تعبيره ، زايلته . . . ولكن لا فرار من القدر على ما يبدو .

كانت ليزافيتا بروخوروفنا كونتسه زوجة الضابط ، وسيدته السابقة قد ترملت بعد وفاة زوجها الذي كان من اصل الماني ، بينما كانت هي نفسها من مواليد مدينة ميتافا التي قضت فيها السنوات الاولى من طفولتها ، وتركت فيها عائلتها الفقيرة الكثيرة الافراد ، وكانت قليلة الاهتمام بعائلتها لا سيما بعد ان زارها في بيتها مصادفة احد اخوانها ، وهو ضابط مشاة ، وعربد في اليوم الثاني من زيارته حتى كاد يضرب السيدة نفسها، ناعتا اياها «Du, Lumpen mamselle»* ، بينما في يوم وصوله دعاها بلغة روسيا ركيكة : «اخية ، صانعة المعروف» . كانت ليزافيتا بروخوروفنا تسكن ضيعتها الجميلة لا تكاد تفارقها ، والضيعة ثمرة جهود زوجها الشخصية ، وهو معماري سابق . كانت ليزافيتا بروخوروفنا تدير الضيعة بنفسها ، وتحسن ادارتها ، ولا تتنازل عن اقل نفع منها ، وتستدر من كل شيء فائدة لها . وفي ذلك ، وفي قدرتها الخارقة ايضا في انفاق كوبيك بدلا من كوبيكين تتجلى طبيعتها الالمانية ، ولكن في كل شيء ، ما عدا ذلك ، تروّست ** كثيرا . كان لها الكثير من الخدم ، لا سيما من الفتيات اللواتي ، على اية حال ، لم ياكلن الخبز بلا مقابل ، فقد كانت ظهورهن محنية على العمل من الصباح حتى المساء . كانت ليزافيتا بروخوروفنا تحب التنقل في عربة يقف على جسر مؤخرتها خادمان في بزة الخدم ، وتحب استماع الاقاويل والنمائم ، وكانت هي نفسها تحسن اذاعة الاقاويل ، وكانت تحب ان تشمل الانسان بحظوتها ، وتذهله فجاة بالتنكر له . وباختصار ، كانت ليزافيتا بروخوروفنا تتصرف تصرف السيدة تماما . كانت تحترم اكيم – كان يدفع لها لزمته الكبيرة بشكل منتظم – وتتحدث معه بلطف ، بل وكانت ، على سبيل المزاح ، تدعوه الى زيارتها في بيتها . . . ولكن في بيتها بالذات وقع المكروه لاكيم .

كانت من بين خادمات ليزافيتا بروخوروفنا فتاة في نحو العشرين

* «انت ، يا فاحشة» (بالالمانية في الاصل) .
** اصبحت روسية . **المعرب** .

من العمر ، يتيمة تدعى دونياشا . كانت جذابة المحيا ، هيفاء ، رشيقة الحركات . وقسماتها على تنافرها يمكن ان تروق للعين : بشرة غضة ، وشعر اشقر كثيف ، وعينان رماديتان حيَّتان ، وانف مدور صغير ، وشفتان ورديتان ، وسيماء وجه تتقاسمه الدعابة والتحدي . وكل ذلك على درجة كبيرة من الحلاوة الخاصة به . وفضلا عن ذلك كانت ، رغم تيتمها ، تتسم بالصرامة ، وبالخيلاء تقريبا . كانت من سلالة عريقة في الخدمة قضى ابوها المتوفى أريفي زهاء ثلاثين عاما وكيل مؤنة في احد بيوت السادة ، وجدها ستيبان تعمل خادما خصوصيا لسيد توفي منذ زمن بعيد كان اميرا ورقيبا في الحرس . كانت دونياشا في ثياب نظيفة تتغنج بحركات يديها اللتين كانتا جميلتين جدا في الواقع . وكانت دونياشا تبدي ازدراء كبيرا لكل المفتونين بها ، وتستمع الى ملاطفتهم بابتسامة الثقة بالنفس ، واذا ردَّت عليهم ، ردت في اغلب الاحيان بعبارات قصيرة مبهمة من مثل «اهوه ! هذا العايز ! العياذ ! كأنما ما عندي شغل . . .» . هذه العبارات لم تكن تفارق لسانها . قضت دونياشا زهاء ثلاثة اعوام في التعلم في موسكو ، حيث اتقنت نوعا معينا من الحركات واللمزات تتصف به الخادمات اللواتي قضين وقتا في العاصمتين . فكان يقال عنها فتاة معتزة بنفسها (وذلك اطراء كبير على السنة الخدم) لم تهن نفسها ، رغم ما رات من تجارب . وكانت خياطتها جيدة ايضا ، ولكن رغم كل ذلك لم تحسن ليزافيتا بروخوروفنا معاملتها ، بسبب رئيسة الخادمات كيريلوفنا ، وهي امراة تجاوزت الشباب متحايلة ماكرة . كانت كيريلوفنا تحظى بتأثير كبير على سيدتها ، وتحسن ازاحة منافساتها بحذق شديد .

واكيم وقع في حب دونياشا هذه ! احبها وكأنما لم يحب من قبل قط . رآها لاول مرة في الكنيسة ، وكانت قد عادت من موسكو لتوها . . . ثم التقاها عدة مرات في بيت السيدة ، واخيرا قضى معها امسية كاملة عند المقاول ، حيث دعي لشرب الشاي مع الضيوف المحترمين الآخرين . لم يستنكف منه الخدم ، رغم انه لم يكن منهم ، وكان يطلق لحيته ، ولكنه كان رجلا مهذبا متعلما ، وصاحب نقود ، وهو الأهم ، وبالاضافة الى ذلك لم يكن يرتدي ما يرتديه الفلاحون . كان يرتدي قفطانا طويلا من الجوخ الاسود ، وحذاء من جلد العجل الناعم ، والمنديل على رقبته . حقا ان بعض الخدم كانوا

يقولون انه ليس من رتبتنا ، ولكنهم كانوا يقتربون من التملق له في حضوره . في تلك الامسية ، في بيت المقاول ، استولت دونياشا تماما على قلب اكيم الضعيف ازاء الحب ، رغم انها لم تجب بأية كلمة على كل كلامه المتزلف لها ، واكتفت ، من حين لآخر ، بأن ترميه بنظرة جانبية ، وكأنما مندهشة من وجود هذا الريفي في البيت . وكل ذلك لم يزد اكيم الا ضراما . عاد الى بيته ، وفكر واطال التفكير ، وعزم على ان يطلب يدها . . . الى هذا الحد اثرت فيه «رقيتها» ! ولكن ما اعظم غيظ دونياشا وحنقها ، حين استدعتها كيريلوفنا الى غرفتها بلطف بعد حوالى خمسة ايام ، وابلغتها بأن اكيم (والظاهر انه اذا عزم على شيء فعل) بأن اكيم الفلاح والملتحي الذي كانت تعتبر حتى الجلوس الى جانبه اهانة ، يخطبها زوجة له !

توهجت دونياشا كلية في البداية ، ثم ضحكت ضحكة متكلفة ، وبعدها اخذت تبكي ، الا ان كيريلوفنا شنَّت الهجوم بحذق كبير ، واشعرتها بقوة بوضعها في البيت ، والمحت ببراعة كبيرة الى مظهر اكيم المعتبر والى ثروته وولائه الاعمى ، واخيرا اومأت بدلالة كبيرة الى رغبة السيدة نفسها ، حتى ان دونياشا خرجت من الحجرة ، والتفكير باد على وجهها ، حتى اذا التقت اكيم ظلَّت تتفرس في عينيه لا غير ، ولكن دون ان تصد عنه . وتبددت بقايا حيرتها بالهدايا السخية الفريدة التي اغدقها عليها هذا الرجل المغرم . . . وقبلت ليزافيتا بروخوروفنا بزواجه بدونياشا بعد ان ارسل اكيم اليها مائة خوخة على طبق كبير من الفضة تيمنا بالفرح ، وجرى هذا الزواج . ولم يبخل اكيم بالنفقات ، حتى ان دونياشا سرعان ما تسرَّت ، وهي التي كانت قاعدة في امسية الفتيات عشية الزواج كالقتيلة ، وفي صباح الزواج بالذات ظلت تبكي حينما كانت كيريلوفنا تلبسها ملابس الزفاف . . . اعطتها السيدة شالها لترتديه في الكنيسة ، وفي نفس اليوم اهدى لها اكيم شالا مثله ، ان لم يكن احسن منه .

وبهذا الشكل تزوج اكيم ، ونقل زوجته الشابة الى نُزُله . . . وبدآ يعيشان سوية . وتبين ان دونياشا ربة بيت رديئة وعونا سيئا لزوجها . كانت لا تألف شيئا ، وتكتئب ، وتضجر الا اذا التفت اليها ضابط مسافر ، وتلاطف معها اثناء جلوسهما وراء السماور . وكثيرا ما كانت تتغيب اما في المدينة لشراء الحاجيات ،

او في بيت السيدة الذي لم يكن يبعد عن نزل المسافرين غير اربعة فراسخ . كانت تجد راحة في بيت السيدة ، فقد كانت جماعتها تحيط بها هناك ، وتغبطها الفتيات على حللها ، وتستضيفها كيريلوفنا على شاي ، وتتبسط ليزافيتا بروخوروفنا نفسها في الحديث معها . . . ولكن حتى هذه الزيارات لم تمر دون احاسيس مريرة لدونياشا . . . فهي ، كزوجة صاحب النزل ، مثلا ، لا يحسن بها ان تلبس قبعة ، فكانت تضطر الى ان تشد راسها بمنديل . . . مثل زوجة تاجر ، كما قالت لها كيريلوفنا الداهية ، او كزوجة حَضري كما تفكر هي مع نفسها .

وكم من مرة خطرت في بال اكيم كلمات قريبه الوحيد ، عمه العجوز ، وهو ريفي راسخ في عزوبيته لا عائلة له . قال له حين التقاه في الشارع :

– ايه ، يا اخ اكيم . سمعت انك ستتزوج .

– طيب ، وماذا في الامر ؟

– اوه ، اكيم ، اكيم ! لست الآن من صنفنا بالتاكيد ، كما انها ليست من صنفك .

– ولماذا هي ليست من صنفي ؟

– على الاقل لهذا الاعتبار .

واشار العجوز الى لحية اكيم التي اخذ يشذبها ارضاء لخطيبته . ولم يوافق على حلقها تماما . . . اطرق اكيم ، واستدار العجوز ، واحكم لفّ معطفه الفلاحي الممزق عند الكتفين على جسده ، وابتعد عنه هازا راسه .

اجل ، كم من مرة فكّر اكيم في ذلك ، وتافف ، وتاوه . . . الا ان حبه لزوجته الحلوة لم يفتر ، وكان يفخر بها ، لا سيما حين يقارنها ، ولا نقول قط ، بالريفيات الاخريات ، او بزوجته السابقة التي زوجوه اياها ، وهو في السادسة عشرة ، بل بالخادمات الآخريات ، وهي بينهن «واسطة العقد ! . .» . وكانت اقل ملاطفة منها تمده بمتعة كبرى . . . وكان يقول لنفسه : ارجو ان تتعود ، تالف العيشة . . . وفضلا عن ذلك فقد كانت تحسن التصرف كثيرا ، ولا يستطيع احد ان يذكرها بسوء .

ومرّت بضعة اعوام على هذه الحال . وبالفعل انتهت دونياشا الى ان الفت عيشتها . وكلما تقدمت السن باكيم ازداد تعلقه

بها ، والتمانه لها . ورفيقاتها اللواتي اتخذن ازواجا من غير الريفيين عانين الكثير ، سواء في وقوعهن في ضنك العيش ، او في ايدي غير صالحة . . . بينما ظل اكيم يثري ويثري ، ويوفق في كل شيء . فقد حالفه الحظ ولم يُشقه الا شيء واحد ، هو ان الله لم يرزقه بذرية . وكانت دونياشا قد جاوزت الخامسة والعشرين ، وراح الجميع يسمونها افدوتيا اريفيفنا * احتراما لها . ومع ذلك لم تصر صاحبة بيت حقيقية ، ولكنها احبت بيتها ، واخذت تتعهد بالمؤن ، وتلاحظ العاملة . . . والحق انها كانت تفعل كل ذلك كيفما اتفق ، ودون ان تراعي النظافة والنظام ، كما تنبغي المراعاة . وعوضا عن ذلك كانت صورتها معلقة في حجرة النزُل الرئيسية الى جانب صورة اكيم ، مرسومة بالالوان الزيتية ، وقد اوصت هي نفسها بان يرسمها لها رسام بدائي هو ابن شماس من الابرشية المحلية . كانت تصورها في ثوب ابيض وشال اصفر ، وعلى رقبتها ستة صفوف من اللآلئ الكبيرة ، وفي اذنيها قرطان طويلان ، وفي كل اصبع خاتم . وكان من الممكن التعرف عليها من الصورة ، رغم ان الرسام رسمها بيضاء موردة الى حد مفرط ، وجعل عينيها سوداوين بدلا من رماديتين ، وحولاوين قليلا . . . اما في رسم اكيم فلم يوفق كليا ، فطلع من بين يديه داكنا ، a la Rembrandt (٢٧) حتى ان المسافر ، كان اذا تقدم من صورة اكيم احيانا ، ينظر اليها يحمحم قليلا ، ولا شيء آخر . وصارت افدوتيا تهمل لباسها كثيرا . تلقي منديلا كبيرا على كتفيها ، والثوب تحته باي شكل كان . فقد استولى عليها ذلك الكسل المتحسر الذابل الناعس الذي يميل اليه الروسي كثيرا جدا ، لا سيما اذا كانت عيشه مؤمنا . . .

ومع كل ذلك جرت احوال اكيم وزوجته بيسر شديد ، فقد عاشا بوفاق ، واُعتبرا زوجين مثاليين . ولكن الانسان كالسنجاب الذي يحك انفه في اللحظة التي يصوب فيها الرامي عليه سهمه ، لا يستشعر بالمكروه قبل وقوعه ، فيتحطم فجاة كما يتحطم الجليد فجاة تحت قدميه . . .

في مساء خريفي نزل على اكيم في نزُله قمّاش . كان قد

* عادة روسية ان ينادى الشخص بإسمه واسم ابيه احتراما . المعرب .

سلك مختلف الطرق الجانبية في سفره من موسكو الى خاركوف ، ومعه عربتان محملتان بالبضاعة . كان من اولئك الباعة المتجولين الذين ينتظرهم احيانا اصحاب الاراضي ، ولا سيما زوجاتهم وبناتهم بلهفة بالغة . وقد وصل مع هذا البائع الذي تعدّى سن الشباب رفيقان آخران ، او بالاصح شغيلان ، احدهما شاحب ناحل محدودب ، والآخر شاب بارز الهيئة ، وسيم في نحو العشرين من العمر . طلب الثلاثة ان يقدم لهم العشاء ، وبعد ذلك جلسوا لشرب الشاي ، ورجا البائع من صاحبي النزل ان يحتسيا معهم قدحين ، ولم يرفض المضيفان . وسرعان ما انعقد الحديث بين العجوزين (كان اكيم قد بلغ السادسة والخمسين) ، وراح البائع يسأل عن اصحاب الاراضي الجيران ، ولا احد كان يفضل اكيم في الادلاء بكل المعلومات اللازمة في هذا الموضوع . وكان الشغيل المحدودب يروح ويجيء لتفقد العربتين ، وانسحب اخيرا لينام . واضطرت افدوتيا ان تسامر الشغيل الآخر . . . جلست بالقرب منه ، تصغي الى ما يقصه اكثر مما تتكلم ، والظاهر ان احاديثه كانت ممتعة لها ، فقد دبّت الحيوية في وجهها ، ولمع التورد على خديها ، وضحكت كثيرا ومن كل قلبها . جلس الشغيل الشاب جامدا تقريبا ، مميلا راسه الاجعد الشعر نحو المائدة ، متحدثا بهدوء ، دون ان يرفع صوته ، ولا يتعجل ، غير ان عينيه الصغيرتين ، الوضاءتين والجسورتين الزرقاوين كانتا منغرزتين في افدوتيا ، فكانت هذه تحيد عنهما في البداية ، وبعد ذلك راحت هي نفسها تتفرس في وجهه . كان وجه هذا الفتى غضا املس مثل تفاح القرم . وكان غالبا ما يبتسم عابثا ، وينقر باصابعه البيض على ذقنه المكتسي لتوه بزغب خفيف داكن . كان يتكلم بتعابير التجار ، ولكن بطلاقة وثقة بالنفس لامبالية ، وكان يديم النظر اليها بتفرس ووقاحة . . . وفجأة اقترب منها قليلا ، وقال لها دون ان يظهر اي تغير على وجهه :

– لا يوجد احسن منك في الدنيا ، يا افدوتيا اريفيفنا . يبدو انني مستعد ان اموت من اجلك .

ارسلت افدوتيا ضحكة عالية .

سألها اكيم :

– مم تضحكين ؟

قالت بدون اي ارتباك ظاهر :

– عندهم احاديث مضحكة .

كشّر البائع العجوز عن اسنانه ضاحكا :

– هاها ، نعم . ناعوم هذا فتى مازح . ولكن لا تستمعي اليه .

– لا شغل لي لاسمعه . – ردت افدوتيا وهزت رأسها .

– هاها ، بالطبع ، – قال العجوز ، واضاف منغما صوته – نعم ، ونرجو المعذرة . مرتاحون جدا ، ولكن وقت النوم حان . وشكرا . . .

ونهض . وقال اكيم ونهض ايضا :

– ونحن مثلكم مرتاحون جدا . على الضيافة يعني . نتمنى لكم ليلة سعيدة . هيا ، افدوتيا ، انهضي .

نهضت افدوتيا ، وكأنما على مضض ، وبعدها نهض ناعوم ايضا . . . وتفرق الجميع .

اتجه الزوج والزوجة الى حجرة منفصلة اتخذاها مخدعا لهما . وراح اكيم يشخر في الحال . وظلت افدوتيا وقتا طويلا لا يراودها النوم . . . في بادئ الامر استلقت بهدوء مديرة وجهها الى الحائط ، ثم اخذت تتقلب على حشية الريش الساخنة تلقي اللحاف عنها تارة ، وتسحبه عليها تارة اخرى . . . وبعد ذلك اغفت اغفاءة خفيفة . وفجأة صدر من جانب الفناء صوت رجالي عال ، كان يغني غناء ممطوطا ، ولكنه غير موحش ، وكلماته غير مفهومة للاذن . فتحت افدوتيا عينيها ، ورفعت جذعها على كوعها ، وراحت تنصت . . . تواصل الغناء ، وانساب رنانا في الهواء الخريفي .

رفع اكيم راسه ، وسأل :

– مَنْ يغني ؟

اجابت افدوتيا :

– لا ادري .

– غناؤه لطيف – اضاف بعد ان صمت برهة – لطيف . والصوت قوي . في زماني كنت اغني ايضا ، وغنائي كان لطيفا ، ولكن صوتي تلف . اما هذا فجميل . الشاب هو الذي يغني على ما اظن . اسمه ناعوم ، كما يتهيأ لي ، – وانقلب الى الجنب الآخر ، وتنهد ، وغفا ثانية .

استمر الصوت يغني وقتا طويلا قبل ان يسكت . . . وظلت افدوتيا تنصت اليه وتنصت . واخيرا بدا وكأن الصوت تقطع فجأة ،

ارتفع مرة اخرى بجرأة ، وخمد ببطء . ورسمت افدوتيا علامة الصليب ، ووضعت راسها على المخدة . . . مضى نصف ساعة . . . رفعت افدوتيا جسمها قليلا ، واخذت تنسل نازلة من السرير .

– الى اين ، يا زوجة ؟

سالها اكيم من خلل النعاس . فتوقفت . قالت :

– اعدّل فتيلة القنديل . لا ياتيني النوم . . .

– صلّي ، اذن . . .

تمتم اكيم ، وهو يغفو من جديد .

ذهبت افدوتيا الى القنديل ، واخذت تعدل ذبالته ، فانطفأ بين يديها سهوا . عادت ، واضطجعت . وهدأ كل شيء .

في بكرة الصباح التالي تابع التاجر سفره مع مساعديه . كانت افدوتيا نائمة . رافقهم اكيم مسافة نصف فرسخ ، فقد كان عليه ان يذهب الى الطاحونة ، ولما عاد الى البيت وجد زوجته في كامل لباسها ، وليست وحدها ، بل ومعها فتى الامس ، ناعوم . كانا واقفين قرب الطاولة عند النافذة يتبادلان الحديث . وحين رات افدوتيا زوجها خرجت من الحجرة صامتة ، بينما قال ناعوم انه عاد لياخذ قفازي سيده ، زاعما ان السيد نسيهما على المقعد . وانصرف ايضا .

والآن نقول للقراء ما حدسوه هم انفسهم في اغلب الظن ، دون معونتنا . ان افدوتيا وقعت في غرام ناعوم . فكيف حصل ذلك بهذه السرعة ، ذلك ما يصعب توضيحه ، لا سيما وانها كانت في سلوكها طاهرة ، رغم كل الوقائع والمحاولات لحرفها عن وفائها لزوجها . وبعد هذا ، حين انتشر خبر علاقتها بناعوم صار الناس في الجوار يقولون ان ناعوم نثر في قدح شايها ، في المساء الاول ، عقارا مسحورا (ما يزال الناس عندنا يؤمنون بتاثير مثل هذه الوسائل) وان ذلك كان يمكن ان يلحظ بسهولة على افدوتيا التي زعموا انها بعد ذلك بوقت قصير بدأت تنحل وتستوحش .

ومهما يكن من شيء فقد صار الناس يرون ناعوم كثيرا في نزل اكيم . في المرة الاولى جاء مع نفس التاجر ، وبعد ثلاثة اشهر او نحوها جاء وحده مع بضاعة تعود له ، وبعد ذلك اشيع انه اقام في اقرب مركز من مراكز الفضاء ، ومنذ ذلك الحين لم يمر اسبوع دون ان تظهر على الطريق الكبير عربته المتينة المصبوغة يجرها حصانان

ممتلئان كان يسوقهما بنفسه . لم يكن بينه وبين اكيم صداقة ، كما لم يلحظ بينهما نفور . ولم يكن اكيم يعيره كبير التفات ، وكان لا يعرف عنه الا انه فتى نابه صعد نجمه . ولم يكن يشك بمشاعر افدوتيا الحقيقية ، وظل يثق بها كالسابق .

وعلى هذا النحو انقضى عامان آخران .

وفي نهار صيفي في الساعة الثانية قبيل الغداء ، خرجت ليزافيتا بروخوروفنا ومعها كلبها ومظلة تطوى ، خرجت للتنزه ، في الحديقة الصغيرة النظيفة المرتبة على الطراز الالماني ، وقد تغضنت فجاة ، خلال هذين العامين ، واصفر لونها رغم كل التدليكات والبودرة وطلاء الخدين بالحمرة . كان فستانها المنشى يرسل حفيفا خفيفا ، وهي تسير بخطى قصيرة في درب رملي بين صفين مستقيمين من زهور الاضاليا ، واذا بصاحبتنا القديمة كيريلوفنا تلحق بها ، وتبلغها بان تاجرا من مدينة ب . يود لو يراها في شان مهم جدا . كانت كيريلوفنا ، كالسابق ، صاحبة حظوة لدى السيدة (كانت من الناحية الفعلية تدير ضيعة السيدة كونتسه) وقبل وقت قصير تلقت اذنا منها بان تلبس قبعة بيضاء ذات شريط يحيط بالذقن ، مما اضفى حدة اكثر على قسمات وجهها الاسمر الرقيقة .

سالت السيدة :

– تاجر ؟ ماذا يريد ؟

– لا ادري ماذا يريده – قالت كيريلوفنا بصوت مسارر – فقط يبدو لي انه يريد ان يشتري من سيادتك شيئا .

عادت ليزافيتا بروخوروفنا الى غرفة الجلوس ، وجلست في مكانها المعتاد ، وهو كرسي عليه قبة يتلوى عليها اللبلاب تلويا جميلا ، وامرت بان يدخل عليها هذا التاجر من ب . . .

ودخل ناعوم ، وانحنى محييا ، ووقف عند الباب .

– سمعت انك تريد ان تشتري شيئا مني ؟

بادرته ليزافيتا بروخوروفنا ، وفكرت في سرها : «اي رجل وسيم هذا التاجر» .

– بالضبط ، يا سيدتي .

– وما هو بالذات ؟

– الا تتلطفين ببيع نزل المسافرين العائد لك ؟

– اي نزل ؟

– الموجود على الطريق الكبير ، غير بعيد عن هنا .
– هذا ليس لي . انه نزل اكيم .
– وكيف ليس لك ؟ مبني على ارضك .
– لنفرض على ارضي . . . اُشتري باسمي ، ولكنه عائد له .
– نعم ، فهلا تتفضلين ببيعه لنا ؟
– وكيف ابيعه ؟
– في بساطة وسندفع ثمنا جيدا .
صمتت ليزافيتا بروخوروفنا ، ثم عادت تقول :
– غريب حقا ، هذا الذي تقوله . – ثم اضافت – وكم ستدفع ؟ انا لا اسأل ذلك لي ، بل لاكيم .
– طيب ، بكل المبنى والملحقات وبالطبع مع الارض التي اقيم عليها هذا النزْل سادفع الفي روبل .
اعترضت ليزافيتا بروخوروفنا قائلة :
– الفي روبل ! هذا قليل .
– ثمن جيد .
– ولكن هل تكلمت مع اكيم ؟
– ولماذا اتكلم معه ؟ النزل لك ، ولهذا اتحدث معك ، يا سيدتي .
– ولكن قلت لك . . . غريب هذا حقا ، فكيف لا تفهمني !
– ولماذا لا افهم ، يا سيدتي . نحن نفهم .
نظرت ليزافيتا بروخوروفنا الى ناعوم ، ونظر ناعوم الى ليزافيتا بروخوروفنا . وشرع هذا يقول :
– اذن ، يا سيدتي . ماذا سيكون من جانبك ، اقصد ، اي اقتراح ؟
– من جانبي . . . – وتململت ليزافيتا بروخوروفنا على الكرسي – اولا اقول لك : الفان ثمن قليل ، وثانيا . . .
– نزيد مائة ، تفضلي .
نهضت ليزافيتا بروخوروفنا .
– ارى انك لست تعني ما تقول . فقد قلت لك انني لا استطيع ان ابيع ذلك النزل ، ولن ابيعه . . . لا استطيع . . . يعني لا اريد .
ابتسم ناعوم ، وصمت . ثم قال هازا كتفه هزة خفيفة :

– طيب ، كما تريدين . . . نرجو المعذرة .
وانحنى مودعا ، وامسك بمقبض الباب .
استدارت ليزافيتا بروخوروفنا نحوه .
– بالمناسبة – قالت بلعثمة لا تكاد تلحظ – تريث قليلا . – ودقت الجرس ، وظهرت كيريلوفنا من حجرة المكتب – يا كيريلوفنا ، اطلبي ان يحضّر الشاي للسيد التاجر . ساراك مرة اخرى .
اضافت ذلك ، وقد هزّت راسها هزة خفيفة .
انحنى ناعوم مرة اخرى ، وخرج مع كيريلوفنا .
ذرعت ليزافيتا بروخوروفنا الحجرة مرتين ، ودقت الجرس من جديد . فظهر صبي من الخدم في هذه المرة . فطلبت اليه استدعاء كيريلوفنا . وبعد لحظات دخلت كيريلوفنا وحذاؤها الجديد من جلد الماعز يصرف صريفا خفيفا .
قالت ليزافيتا بروخوروفنا بضحكة متكلفة :
– هل سمعت ماذا يعرض عليّ هذا التاجر ؟ انه غريب الاطوار حقا !
– لا ، لم اسمع ، يا سيدتي . . . ماذا ؟
وقلّصت كيريلوفنا قليلا عينيها المستطيلتين السوداوين الصغيرتين .
– يريد ان يشتري نزل اكيم مني .
– وماذا في ذلك ؟
– وكيف . . . وماذا عن اكيم ؟ . . انا اعطيته لأكيم .
– ما هذا الذي تتفضلين بقوله ، يا سيدتي ؟ اليس النزل لك؟ السنا نحن ملكا لك ؟ وكل ما نملكه اليس ملكا لك ، ملكا لسيادتك ؟
– ما هذا الذي تقولينه ، يا كيريلوفنا ، ارجوك ؟ – وتناولت ليزافيتا بروخوروفنا منديلا من قماش الشاش ، وتمخطت بعصبية . – اكيم اشترى هذا النزل بفلوسه .
– بفلوسه ؟ ومن اين جاء بهذه الفلوس ؟ اليست من افضالك ؟ ثم انه استثمر قطعة الارض وقتا طويلا . كل ذلك بفضل منك . وتظنين ، يا مولاتي ، انه لن تبقى له نقود ؟ انه اغنى منك ، والله .

– هذا كله صحيح ، طبعا . ومع ذلك لا استطيع . . كيف ابيع هذا النُزُل ؟

تابعت كيريلوفنا تقول :

– ولماذا لا تبيعينه ؟ ما دام هناك مشترٍ . لو سمحت ان اعرف كم يعرض عليك ؟

قالت ليزافيتا بروخوروفنا بصوت منخفض :

– اكثر من الفي روبل .

– سيعطيك اكثر ، يا مولاتي ، اذا هو يعرض الفين من الوهلة الاولى . ومع اكيم يمكن ان تتفقي فيما بعد . قد تقللين ثمن اللزمة وسيكون ممتنا لك ، علاوة على ذلك .

– بالطبع يجب تقليل ثمن اللزمة . ولكن ، لا ، يا كيريلوفنا ، كيف ابيع النُزُل . . . – واخذت ليزافيتا بروخوروفنا تقطع الحجرة ذهابا ومجيئا – هذا مستحيل ، هذا لا يصح ، لا ، من فضلك ، لا تعيدي مثل هذا القول . . . والا فسازعل . . .

ولكن كيريلوفنا ظلت تتكلم ، رغم تحذير ليزافيتا بروخوروفنا المنفعلة ، وبعد نصف ساعة عادت الى ناعوم الذي وجدته وراء السماور في حجرة السفرة .

قال ناعوم ، وهو يقلب القدح الذي شربه على الصحن بحركة دلع :

– ماذا عندك لتقوليه لي ، يا امراتي المحترمة ؟

قالت كيريلوفنا :

– الذي اقوله لك اذهب الى السيدة ، فهي تدعوك .

– حاضر .

اجاب ناعوم ، ونهض ، واتجه الى حجرة الاستقبال وراء كيريلوفنا .

أُغلق الباب وراءهما . . . وعندما فتح هذا الباب من جديد اخيرا ، وبعد انقضاء وقت ، وخرج ناعوم منه ، وهو ينحني مديرا ظهره الى الباب ، كان الامر قد سُوِي ، فقد صار نزل اكيم له . اشتراه بالفين وثمانيمائة روبل من اوراق النقد (٢٨) . وا'تفق على اتمام الصفقة باسرع وقت ممكن ، ولا يعلن عنها بعد . وتسلمت ليزافيتا بروخوروفنا مائة روبل عَرْبُونا ، وكيريلوفنا مائتي روبل

اكرامية . وفكر ناعوم وهو يصعد الى عربته : «الثمن ليس غاليا . شكرا لحسن المصادفة» .

في الوقت الذي تمت فيه ، في بيت السيدة ، الصفقة التي وصفناها ، كان اكيم جالسا في حجرته على مقعد قرب النافذة ، يمسد لحيته ، والضيق باد على وجهه . . . قلنا آنفا انه لم يكن يظن ان زوجته تميل الى ناعوم ، رغم ان الناس الطيبين المحوا له غير مرة الى ان الوقت قد حان ليحكّم عقله . وبالطبع كان في بعض الاحيان يلحظ بنفسه ان ربة بيته منذ بعض الوقت صارت اكثر عنادا ، ولكن ذلك معلوم ، فان جنس النسوة شكس وصاحب اهواء . وحتى حين كان يتراءى له بالفعل ان في بيته شيئا على غير ما يرام كان يضرب الهواء بذراعه تسامحا ، ولا يريد ان يثير الغبار ، على حد قول الناس ، فان سماحة النفس لم تضعف فيه مع السنين ، كما ان التواني اخذ منه نصيبه . ولكنه في ذلك اليوم كان متعكر المزاج كثيرا . في عشية اليوم ، وبمحض المصادفة بلغ سمعه في الشارع حديث بين خادمته وامرأة هي جارة لهما . . .

كانت المرأة تسأل خادمته لماذا لم تأت اليها مساء في العيد قائلة لها : «كنت في انتظارك» .

ردّت الخادمة :

– كنت في الطريق اليك ، ولكن ، يا خسارة ، صادفتني ربة البيت . . . عساها بالعمى !

– صادفتك . . . – كررت المرأة بصوت ممطوط ، واسندت خدها على يدها – اين صادفتك ، يا روحي ؟

– وراء حقول القنب ، العائدة للقس . يبدو انها خرجت الى هناك للقاء صاحبها ناعوم ، وفي الظلام ، لا ادري من اي شيء ، هل اعماني ضوء القمر ، ام شيء آخر ، الله يعلم ، فاصطدمت بهما وجها لوجه .

عادت المرأة تقول :

– اصطدمت بهما . طيب ، وماذا كانت تفعل ؟ تقف معه ؟

– نعم ، هو واقف وهي واقفة . ولما رأتني قالت : الى اين انت ذاهبة ؟ عودي الى البيت . فعدت .

– عدتِ – وصمتت المرأة – طيب ، مع السلامة ، فيتينيوشكا .

ومضت المرأة لحال سبيلها .

وترك هذا الحديث في اكيم تاثيرا سيئا كان حبه لافدوتيا قد فتر ، ومع ذلك صعبت عليه كلمات الخادمة . ولكنها قالت الحقيقة ، فقد خرجت افدوتيا في ذلك المساء بالفعل للقاء ناعوم الذي كان ينتظرها في الظلال الكثيفة التي تلقيها على الطريق سيقان القنب العالية الجامدة . كانت كل ساق مبللة بالندى من الاعلى الى الاسفل . وكانت الرائحة نافذة تاخذ بالانفاس ، والقمر قد طلع لتوه كبيرا محمرا في الضباب المسائي الضارب الى السواد . وكان ناعوم قد سمع من بعيد خطوات افدوتيا العجلى ، واتجه للقائها . دنت منه ممتقعة بكليتها من الجري ، وكان القمر يضيئ وجهها . سالها :

— كيف ؟ هل جلبت ؟

— نعم ، جلبت ، — اجابت بصوت مبلبل — ولكن ، يا ناعوم ايفانيتش . . .

قاطعها مادا اليها يده :

— هاتي ، ما دمت قد جلبت .

اخرجت من تحت شالها صرة صغيرة ، تناولها ناعوم في الحال ، ووضعها في زيق قميصه .

قالت افدوتيا ببطء دون ان تصرف عنه بصرها :

— ناعوم ايفانيتش ، اوه ، ناعوم ايفانيتش ، سازهق روحي لاجلك . . .

وفي هذه اللحظة دنت الشغيلة منهما .

وهكذا كان اكيم جالسا على مقعد ، يمسد لحيته بادي الضيق . ومن حين لآخر كانت افدوتيا تدخل الحجرة ، وتخرج منها . فكان يشيعها بنظره لا غير . واخيرا دخلت الحجرة مرة اخرى ، واخذت صدرة ، وعبرت العتبة ، فلم يستطع اكيم صبرا ، وقال كالمخاطب نفسه :

— استغرب من النسوان في رواح ومجيء . لماذا ؟ من المستحيل ان تطلب منهن ان يلازمن مكانهن في البيت . هذا لا يهمهن ولكنهن يحببن الركض في الصباح او في المساء . نعم ، يحببن .

استمعت افدوتيا كلام زوجها حتى النهاية ، دون ان تحرك ساكنا ، سوى انها حين سمعت كلمة «مساء» امالت رأسها قليلا ، وكانها استغرقت في تفكير . وانتهت اخيرا الى ان تقول بانزعاج :

— انت ، يا سيميونتش ، معروف عنك اذا بدأت في كلام لا تنتهي منه . . .

وهزّت ذراعها ، وخرجت ، وصفقت الباب . وبالفعل لم تكن افدوتيا تقدر ذلاقة لسان اكيم كثيرا ، فكانت ، اذا شرع يتناقش مع المسافرين في الامسيات ، وانطلق يروي لهم الروايات ، تتثاءب خلسة او تنسل خارجة . نظر اكيم الى الباب المغلق . . . واعاد بصوت خفيض : «اذا بدات في كلام . . . الامر هو انني ، لم اتحدث معك الا قليلا . . . ومن هو ؟ من صنفنا ، و . . .» ونهض وراح يفكر ، ثم ضرب قفاه بقبضة يده . . .

بعد ذلك مرت بضعة ايام بشكل غريب جدا . كان اكيم يتطلع الى زوجته طيلة الوقت ، وكانما يريد ان يقول لها شيئا ، وهي من ناحيتها كانت تنظر اليه بارتياب . وكلاهما كان يلزم الصمت بافتعال . وكان هذا الصمت ينقطع عادة بملاحظة متافقة يطلقها اكيم عن اهمال في شؤون البيت او عن النساء عموما . وكانت افدوتيا في معظم الاحيان لا ترد عليه بكلمة . ومع ذلك ولكل ما يتسم به اكيم من سماحة كان الامر سينتهي بالتاكيد الى مكاشفة تحسم الموضوع ، لو لم تحدث ، اخيرا ، واقعة كانت كل مكاشفات بعدها لا تجدي نفعا .

وهذه هي بالذات : صباح احد الايام ، حين تهيا اكيم وزوجته لتناول الطعام (كان النزل خاليا من اي مسافر بسبب اعمال الحقل الصيفية) ترددت فجاة كركبة عربة نشيطة على الطريق ، وتوقفت بحدة امام واجهة النزل . نظر اكيم في النافذة ، وتعبّس ، واطرق براسه . فقد نزل ناعوم من العربة غير متعجل . لم تره افدوتيا ، ولكن الملعقة ارتجفت قليلا في يدها ، حين صدر صوته في الرواق . كان يامر الخادم بأن يدخل الحصان الى الفناء . واخيرا فتح الباب ، ودخل ناعوم الحجرة . قال ، وخلع قبعته :

— مرحبا .

رد اكيم على التحية من خلال اسنانه :

— مرحبا . من اين جاء بك الرب ؟

— من جوارك — قال ناعوم ، جلس على مقعد — جئت من السيدة .

– من السيدة – قال اكيم دون ان ينهض من مكانه – في شغل ؟

– نعم ، في شغل . احتراماتنا ، يا افدوتيا اريفيفنا .

اجابت :

– مرحبا ، ناعوم ايفانيتش .

وصمت الجميع . وابتدر ناعوم يقول :

– ارى عندكم حساء . . .

– نعم ، حساء – قال اكيم ، وا'متقع فجاة – ولكن ليس لك .

نظر ناعوم الى اكيم مندهشا .

– كيف ليس لي ؟

– هكذا ، ليس لك – والتمعت عينا اكيم ، وضرب المائدة بيده – ليس في بيتي شيء لك . سامع ؟

– ما هذا منك ، يا سيميونيتش ؟ ماذا بك ؟

– ليس بي شيء ، ولكن ضجرت منك ، يا ناعوم ايفانيتش . هكذا – ونهض العجوز وهو يرتجف بكليته – صرت تتسكع هنا كثيرا جدا . هكذا .

نهض ناعوم ايضا . وقال بابتسامة هازئة :

– اظنك قد جننت ، يا اخ . افدوتيا اريفيفنا ، ماذا به ؟

صرخ اكيم بصوت راعش :

– اقول لك ، اخرج . سامع ولا شان لك بافدوتيا اريفيفنا . . . كلامي لك ، سامع ، اغرب ! . .

سال ناعوم باعتبار :

– ما هذا الذي تقوله لي ؟

– اخرج من هنا . هذا ما اقوله لك . الرب هنا ، والعتبة امامك . . . فاهم ؟ والا فالويل !

تقدم ناعوم الى امام .

– يا محترمين ، لا تتعاركوا ، يا اعزائي .

تمتمت افدوتيا التي كانت حتى هذه اللحظة جالسة وراء المائدة بلا حراك .

نظر ناعوم اليها .

– لا تقلقي ، افدوتيا اريفيفنا ، ولماذا نتعارك ! آه منك ، يا اخ – تابع قوله مخاطبا اكيم – في الحقيقة رفعت صوتك كثيرا ،

خفة وشطارة منك ! امر غريب ان يطرد انسان من بيت لا يخصه – اضاف ناعوم بتقطيع طويل في الكلمات – والمطرود صاحب البيت ، علاوة على ذلك .

غمغم اكيم :

– كيف لا يخصه ؟ واي صاحب بيت ؟

– لنفرض انا .

وقلّص ناعوم عينيه ، وكشر عن اسنانه البيض .

– كيف انت ؟ ألست انا صاحب البيت ؟

– اوه ، انت عديم الفهم ، يا اخ . قلت انا صاحب البيت .

حملق اكيم بعينيه ، ونطق بعد صمت :

– هذا كذب منك . فقدت عقلك . الشيطان يجعل من نفسك صاحب بيت ؟

صاح ناعوم بنفاد صبر :

– لا فائدة من الحديث معك . هل ترى هذه الورقة ؟ – واخرج من جيبه ورقة مدموغة مطوية اربع طيات – هل ترى ؟ هذه ورقة شراء ، لارضك ، وللنزل . اشتريتهما من صاحبة الارض ، من ليزافيتا بروخوروفنا ، اشتريتهما . تمت الصفقة يوم امس في ب . . . يعني انا صاحب الملك هنا ، وليس انت . . . اجمع متاعك اليوم وارحل – اضاف ذلك وهو يعيد الورقة الى جيبه – حتى لا يكون لك اثر هنا في الغد . هل تسمع ؟

وقف اكيم وكان صاعقة صعقته . واخيرا قال متوجعا :

– لص . . لص . . هاي ، فيدكا ، ميتكا ، يا زوجة ، امسكوا به ، امسكوا . اقبضوا عليه !

وكان في غاية الذهول .

قال ناعوم مهددا :

– اياك ، اياك . احذر ، ولا تجن . . .

– اضربيه ، يا مراة ، اضربيه حالا – كرر اكيم بصوت دامع محاولا الوثوب ولكن بلا جدوى ولا حول – يا زاهق الروح ، يا لص . . . هي لا تكفيك . . . وتريد ان تنتزع مني بيتي ايضا ، وكل شيء . . . ولكن لا ، انتظر . . . لن يكون ذلك . . . سأذهب بنفسي ، و اسال بنفسي . . . كيف . . . لاى شيء يباع . . . انتظر ، انتظر . . .

واندفع الى الخارج حاسر الراس .
اصطدمت به الخادمة فيتينيا في الباب ، فقالت :
– الى اين ، اكيم سيميونتش ، الى اين راكض ، يا محترم ؟
– الى السيدة ! اتركيني ! الى السيدة . . .
زعق اكيم ، وحين راى عربة ناعوم ما تزال في الخارج ، ولم تدخل الى الفناء بعد ، قفز اليها ، واختطف العنان ، وساط الحصان بكل ما لديه من قوة ، وانطلق يعدو به الى بيت السيدة . . .
كان طوال الطريق يكرر قائلا :
– مولاتي ، ليزافيتا بروخوروفنا . على اي شيء هذا الجفاء ؟ اظن ، كنت ابذل كل جهدي !
وكان يسوط الحصان مرة بعد الاخرى . والذين التقوا بـه كانوا يتنحون عن طريقه ، ويطيلون النظر في اثره .
وفي خلال ربع ساعة بلغ اكيم ضيعة ليزافيتا بروخوروفنا . واوصل العربة الى واجهة البيت ، وقفز منها ، ودخل الى الرواق رأسا .
– ماذا تريد ؟
غمغم الخادم المذعور ، وكان يهوم في نعاس لذيذ على المسطبة .
قال اكيم بصوت مرتفع :
– السيدة ، انا بحاجة الى مقابلة السيدة .
بدا الذهول على الخادم . قال :
– هل حدث شيء ؟
– لم يحدث شيء ، ولكني بحاجة الى مقابلة السيدة .
– ماذا ، ماذا . . .
تمتم الخادم في ذهول متزايد ، وانتصب ببطء .
افاق اكيم على نفسه . . . وكانما صب عليه ماء بارد . قال وهو ينحني انحناءة واطئة :
– ابلغ السيدة ، يا بيتر يفغرافيتش ، ان اكيم يود لو يرى سيادتها . . .
– طيب . . . ذاهب . . . ابلغها . . . ولكن لعلك سكران ، انتظر .
تذمر الخادم ، وذهب .

اطرق اكيم ، وكانما اخذ يرتبك . . . تخلى عنه الحزم سريعا ، حالما دخل الرواق .
وارتبكت ليزافيتا بروخوروفنا ايضا ، حين ابلغوها عن قدوم اكيم . امرت على الفور باستدعاء كيريلوفنا الى غرفة مكتبها .
وما كادت هذه تظهر حتى اسرعت تقول :
– لا استطيع ان استقبله . لا استطيع مطلقا . فماذا ساقول له ؟ قلت لك انه سياتي حتما ، ويتشكى – واضافت بانزعاج وقلق – قلت لك . . .
ردّت كيريلوفنا بهدوء :
– ولماذا تستقبلينه . لا حاجة لذلك . ولماذا تزعجين نفسك ، من فضلك .
– ولكن ما العمل ؟
– اذا سمحت ، فساتحدث انا معه .
رفعت ليزافيتا بروخوروفنا راسها .
– اعملي معروفا ، كيريلوفنا . تكلمي معه . قولي له . . . هكذا ، وكيت . . . وجدت من الضروري . . طيب ، وساكافئه . . . على اية حال انت تعرفين . ارجوك ، كيريلوفنا .
– ارجو ان لا تقلقي ، يا مولاتي .
قالت كيريلوفنا ذلك ، وانصرفت ، وحذاؤها يصرف على ارضية الغرفة .
ولم يمض ربع ساعة حتى تردد صريف الحذاء مرة اخرى ، ودخلت كيريلوفنا الى غرفة المكتب ، بنفس الهدوء السابق على وجهها ، وبنفس النباهة الماكرة في عينيها .
سالتها السيدة :
– ها ، كيف اكيم ؟
– لا باس . يقول كل شيء رهن مشيئتك ومعروفك ، فقط ان تكوني بعافية وخير . له ما يكفيه لما تبقى من عمره .
– ولم يتشك ؟
– لا ، ابدا . ولِمَ يتشكى ؟
– ولماذا قصدنا ، اذن ؟
قالت ليزافيتا بروخوروفنا بشيء من حيرة .



– جاء يلتمس فضلك ، عسى ان تعفيه ، قبل ان تحين المكافأة ، عن بدل العام الذي نحن فيه ، يعني . . .

– بالطبع ، اعفوه ، اعفوه – اسرعت ليزافيتا بروخورفنا تقول بحيوية – بالطبع . بكل سرور . وعلى العموم قولي له انني ساكافئه . طيب ، شكرا لك ، كيريلوفنا . احسب انه فلاح طيب ، انتظري . اعطيه هذه مني – واخرجت من المكتب ورقة نقدية من فئة ثلاثة روبلات – هذه ، خذيها واعطيها له .

– سمعا ، يا مولاتي .

قالت كيريلوفنا ، عائدة بهدوء الى حجرتها ، وبهدوء ايضا وضعت الورقة النقدية في الصندوق الحديدي الموضوع عند رأس سريرها ، واغلقته ، وكانت تحتفظ فيه بكل ما تملك من نقود ، وهي ليست قليلة .

هدأت كيريلوفنا سيدتها ببلاغها ، ولكنها لم تنقل اليها تماما ما حدث بينها وبين اكيم في الواقع . وهو كالآتي : طلبت ان يُستدعى اليها في حجرة الخادمات . امتنع في بادئ الامر عن الذهاب اليها معلنا انه يود مقابلة ليزافيتا بروخوروفنا نفسها ، لا كيريلوفنا ، الا انه قبل اخيرا ، وذهب الى كيريلوفنا عبر الواجهة الخلفية . وجدها وحدها . دخل الحجرة ، وتوقف في الحال ، واتكأ على الحائط عند الباب ، يريد ان يبدأ بالكلام . . . ولم يستطع .

تفرست كيريلوفنا فيه وشرعت تقول :

– اكيم سيميونيتش ، تود مقابلة السيدة ؟

هزّ راسه ولم يقل شيئا .

– هذا لا يجوز ، يا اكيم سيميونيتش . ثم لماذا ؟ ما وقع لا يمكن تغييره ، مجرد انك ستزعجها . انها الآن لا تستطيع ان تستقبلك ، اكيم سيميونيتش .

– لا تستطيع – كرر هذه الكلمة وصمت قليلا ، ثم قال ببطء – وكيف هذا ، يعني سيضيع البيت ؟

– اسمع ، اكيم سيميونيتش . اعرف انك دائما كنت رجلا حصيفا . في هذا مشيئة السيدة ، ولا يمكن تبديله . ومن المستحيل على احد ان يبدله . دعنا لا نتناقش ، فان النقاش لن يؤدي الى شيء . اليس كذلك ؟

وضع اكيم يديه وراء ظهره . ومضت كيريلوفنا تقول :

– من الخير لك ان تفكر ربما ترجو السيدة ان تعفوك عن البدل . . .

فكرر اكيم بنفس الصوت السابق :

– يعني سيضيع البيت .

– اكيم سيميونيتش ، قلت لك : لا يمكن . وانت تعرف ذلك احسن مني .

– آها . على الاقل بكم اخذوا النزل ؟

– لا اعرف ذلك ، اكيم سيميونيتش . لا استطيع ان اقول لك – واضافت – ولكن لم انت واقف . . اجلس .

– واقفون ، نحن الفلاحين ، شغلنا ان نشكر ونطيع .

– واي فلاح انت ، يا اكيم سيميونيتش ؟ انت تاجر . وحتى لا يجوز ان تقارن نفسك بالخدم ، ما هذا منك ؟ لا تقتل نفسك بلا داع . الا تريد ان تشرب شايا ؟

– لا وشكرا . لا نتعاطى – واضاف وهو يبتعد عن الحائط – يعني البيت راح لكم . شكرا على هذا ايضا . نرجو المعذرة ، يا سيدة .

واستدار وخرج . عدّلت كيريلوفنا مئزرها ، وذهبت الى السيدة .

قال اكيم لنفسه ، وقد توقف مفكرا امام البوابة :

– يبدو انني صرت تاجرا من صحيح . يا لي من تاجر ! – وهزّ ذراعه وضحك باستهزاء – اذن ! اذهب الى البيت !

وانطلق ماشيا في طريقه الى نزل المسافرين ، وقد نسي تماما حصان ناعوم الذي جاء به . وما كاد يقطع فرسخا حتى سمع كركبة عجلة بالقرب منه . وسمع صوتا يناديه :

– اكيم ، اكيم سيميونيتش .

رفع بصره ، ورأى احد معارفه ، شماس الكنيسة المحلية يفريم ، الملقب بالخُلد ، وهو رجل صغير الجسم محدودب ذو انف صغير مدبب وعينين صغيرتين عمشاوين . كان يجلس على كومة من القش في عربة متداعية مائلا بصدره على مقعد الحوذي . سأل الشماس اكيم :

– اذاهب انت الى البيت ؟

توقف اكيم .

– الى البيت .
– أتريد ان اوصلك ؟
– حبذا لو توصلني .
تنحى يفريم ، وصعد اكيم الى العجلة قربه . كان يفريم يبدو ثملا قليلا ، فراح يسوط حصانه الهزيل باطراف حبال مستخدمة كاعنة ، وانطلق الحصان يعدو في خبب واهن محركا بوزه المتحرر من اللجام طوال الوقت .
قطعا زهاء فرسخ دون ان يتبادلا كلمة واحدة . كان اكيم يجلس منحني الراس ، ويفريم لا يفتأ يتمتم بشيء مع نفسه حاثا الحصان مرة ، كابحا اياه اخرى . وفجأة سأل اكيم :
– الى اين ذاهب بلا قبعة ، يا سيميونيتش ؟ – وقبل ان يتلقى الرد مضى يقول بصوت خفيض – اظنك تركتها في حانة . جليس خمرة انت . انا اعرفك ، واحبك لانك جليس خمرة . انت لا تحب العراك ولا المشاغبة ، ولا القيل والقال . انت صاحب الامر والنهي ولكنك تحب الخمرة حبا شديدا تستحق عليه ان يُمسك زمامك منذ زمان ، اي والله . لان ذلك عمل سيء . . هيه ! – صاح فجأة باعلى صوته – هيه ! هيه !
وصدر صوت نسائي على مقربة :
– قف ! قف !
التفت اكيم . فرأى عبر الحقل امرأة تركض نحو العجلة ، شاحبة شعثاء ، حتى انه في الوهلة الاولى لم يعرفها .
تأوهت المرأة مرة اخرى لاهثة الانفاس ملوحة بذراعيها .
– قف ، قف !
وارتعش اكيم . فقد كانت هذه المرأة زوجته .
وجذب العنان . فتمتم يفريم :
– لماذا تتوقف . من اجل امرأة نتوقف ؟ هوه !
الا ان اكيم اوقف الحصان بحدة .
في تلك اللحظة بلغت افدوتيا الطريق راكضة ، وانكبت بوجهها على الارض . وراحت تولول :
– يا عزيزي اكيم سيميونيتش ، طردني انا ايضا !
نظر اكيم اليها دون ان يتحرك ، الا انه احكم من سحب العنان .
صاح يفريم من جديد :

– هيه !
وقال اكيم :
– طردك ، إذن ؟
اجابت افدوتيا ناشجة :
– طردني ، يا عزيزي اكيم ، طردني . ويقول : ان البيت لي الآن ، فاخرجي من هنا ، الى حيث تشائين .
قال يفريم :
– روعة ، اوه ، كم لطيف . . . روعة !
وقال اكيم بمرارة ، وهو على جلسته في العجلة :
– وكنت تريدين البقاء ؟
– اي بقاء ! اوه ، يا عزيزي – بادرت افدوتيا تقول ، وقد نهضت على ركبتيها ، وتمرغت في الارض ثانية – انت لا تعرف اني . . . اقتلني ، اكيم سيميونيتش ، اقتلني حالا ، في هذا المكان . . .
قال اكيم في جزع :
– وعلى اي شيء اقتلك ، اريفينا ؟ انت جنيت على نفسك ! فما وجه القتل هنا ؟
– وما تظن انت ، اكيم سيميونيتش . . . الفلوس . . . فلوسك . . . لا وجود لفلوسك الآن . . اخذتها ، انا الملعونة ، من تحت لوحة الارضية ، واعطيتها كلها له ، لذلك الوغد ، اعطيتها لناعوم ، انا الملعونة . . . ولماذا اخبرتني بمكان تخبئة الفلوس ، انا الملعونة . . . بفلوسك اشترى النزل . . . هذا الوغد . . .
وكان النشيج يغطي على صوتها .
امسك اكيم رأسه بكلتا يديه . واخيرا صاح :
– كيف ! والفلوس راحت . . . الفلوس ، والنزل ، وانت التي . . آه ! اخذتها من تحت اللوحة ، اخذتها . . نعم ، ساقتلك ، ايتها الافعى اللئيمة . . .
وقفز من العجلة . . .
– سيميونيتش ، سيميونيتش ، لا تضربها ، لا تتعارك .
غمغم يفريم الذي بدأ السكر يزايله من مثل هذا الحادث الفاجع .
وصاحت افدوتيا وهي تتمرغ عند قدمي اكيم مرعوصة .

– بل اقتلني ، يا عزيزي ، اقتلني ، انا الملعونة . اضربني ، ولا تسمعه .

وقف اكيم ، ونظر اليها ، وابتعد بضع خطوات ، وقعد على العشب ، عند الطريق .

ساد صمت قصير . ادارت افدوتيا راسها الى ناحيته .

قال يفريم وقد رفع جسمه من العجلة :

– سيميونيتش ، يا سيميونيتش . كفاك . . . الآن لا مردّ للمقدور . تفو عليك ، حكاية عجيبة – تابع يقول وكأنما يخاطب نفسه – وانت يا مراة يا ملعونة ، – اضاف منحنيا على جانب العجلة – اذهبي اليه ، انظري اليه كيف جن !

نهضت افدوتيا ، ودنت من اكيم ، وركعت مرة اخرى عند قدميه . وقالت بصوت ضعيف :

– عزيزي .

نهض اكيم ، وسار عائدا الى العجلة . امسكت بذيل قفطانه .

– اغربي عني !

صرخ بضراوة ، ودفعها .

– الى اين ؟

سأل يفريم ، حين رآه يجلس في عجلته ثانية .

غمغم اكيم :

– اردت ان توصلني الى البيت فاوصلني الى بيتك الآن . . . ها انت ترى لم يعد لي بيت ، اشتروه مني .

– طيب ، تفضل ، لنذهب الى بيتي . وهي ؟

لم يجب اكيم بشيء .

– وانا ، انا – تابعت افدوتيا باكية – لمن تتركني . . . الى اين اذهب ؟

ردّ اكيم دون ان يلتفت :

– اذهبي اليه ، الى من اخذت فلوسي له . . . يفريم ، تحرك !

ساط يفريم حصانه ، وتحركت العجلة . وراحت افدوتيا تعول بكل صوتها . . .

كان يفريم يعيش على بعد فرسخ من نزل اكيم ، في بيت صغير في ارض للقس واقعة بالقرب من الكنيسة الوحيدة في المنطقة ،

وهي كنيسة لها خمس قباب بناها ، منذ وقت قصير ، ورثة تاجر ثري متوفى بناء على وصيته . طوال الطريق لم يتكلم يفريم مع اكيم ، ومن حين لآخر فقط كان يهز راسه ، ويتفوه بكلمات من مثل «آه ، انت !» و«ايه ، انت !» . وجلس اكيم بلا حراك مديرا جسمه قليلا عن يفريم . واخيرا وصلا . كان يفريم اول من قفز من العجلة . هرعت للقائه صبية في نحو السادسة من العمر في ثوب محزم بحزام واطئ . وهتفت :

– ابي ! ابي !

سألها يفريم :

– اين امك ؟

– تنام في الركن .

– دعيها تنام اذن . يا اكيم سيميونيتش هلاّ تفضلت الى حجرتي .

دخل اكيم كوخ الشماس ، ويفريم يقول له :

– هنا ، على المسطبة ، ارجوك . اخرجوا . اخرجوا ، يا عصافير – وجه جملته الاخيرة الى صبيان ثلاثة آخرين طلعوا فجاة من زوايا مختلفة من الحجرة ، ومعهم قطتان خاويتان مبقعتان بالرماد – اخرجوا من الحجرة ! بس ! هنا ، اكيم سيميونيتش ، هنا – تابع القول يشير الى مكان جلوس الضيف – الا تامر بشيء ؟

قال اكيم بعد وقفة :

– ماذا اقول لك ، يا يفريم . هل هناك شيء من النبيذ ؟

انتفض يفريم .

– نبيذ ؟ بلمح البصر . لا يوجد عندي نبيذ في البيت ، ولكن ساجري في هذه اللحظة الى الأب فيدور . عنده على طول . . . ساجري بلمح البصر . . .

واختطف قبعته الأذنينية . وصاح اكيم في اثره :

– واجلب كمية اكبر . سأدفع . عندي فلوس ما يكفي لهذا .

– بلمح البصر !

كرر يفريم ذلك مرة اخرى ، واختفى وراء الباب . وبالفعل عاد بعد وقت قصير جدا ، وتحت ابطه قنينتان لحق ان يفك سداد واحدة منهما ، ووضعهما على الطاولة ، واخرج قدحين اخضرين ، ورغيفا من الخبز وملحا .

وقال وهو يجلس امام اكيم :

– هذا ما احبه . وما الداعي الى الغم ؟ – وصب لاكيم وله . . . وانطلق يثرثر . . . جناية افدوتيا حيّرته ، قال – امر مذهل حقا . كيف حصل ذلك ، وباية طريقة ؟ يعني سحر لها . . . لتحبه ؟ يعني صحيح ما يقال يجب ان تراقب الزوجة جيدا . ينبغي ان تحفظها بصرامة . على كل حال لا بأس لو عرجت على البيت . فقد تبقى لديك الكثير من المتاع هناك ، على ما اظن – وظل يفريم ينسج الكثير من الاقوال على هذا المنوال . فقد كان لا يحب الصمت اذا شرب .

وهذا ما كان في بيت يفريم بعد ساعة من الوقت . كان اكيم فوق الموقد يغط في نوم عميق معذّب ، وقد احمرّ كله بعد ان ظل يشرب قدحا وراء قدح في جلسة الشراب تلك ، دون ان يرد بكلمة واحدة على اسئلة جليسة الثرثار وملاحظاته والاطفال ينظرون اليه ذاهلين ، ويفريم . . . اواه ! يفريم هذا كان نائما ايضا ، ولكن في حجرة للمؤنة ضيقة وباردة جدا ، وقد اغلقت بابها عليه زوجته ، وهي امراة ذات بنيان رجولي قوي . وكان قد ذهب اليها ، في ركنها ، وراح يتوعدها او يقص عليها شيئا ، ولكن بتعابير مفككة مبهمة حتى انها فطنت للأمر حالا ، وامسكته من ياقته ، وساقته الى حيث يجب . وعلى اية حال كان ينام في حجرة المؤنة نوما طيبا جدا ومريحا . عادة !

لم تنقل كيريلوفنا الى ليزافيتا بروخوروفنا حديثها مع اكيم بصدق تام . . . ومثل هذا يمكن ان يقال عن افدوتيا ايضا . اذ لم يطردها ناعوم ، رغم انها قالت لاكيم انه طردها . لم يكن له الحق في طردها . . . فقد كان ملزما على ان يعطي اصحاب النزل السابقين مهلة من الوقت للرحيل . كانت بينه وبين افدوتيا محادثة من نوع مختلف تماما .

عندما صاح اكيم انه ذاهب الى السيدة ، وطلع راكضا الى الخارج ، التفتت افدوتيا الى ناعوم ، وحدّقت فيه بكل عينيها ، وبسطت ذراعيها في حيرة . وراحت تقول :

– يا الهي! ما هذا يا ناعوم ايفانيتش ؟ هل اشتريت نزلنا ؟

ردّ هذا :

– ها ؟ نعم ، اشتريته .

صمتت افدوتيا قليلا ، ثم انفجرت فجاة :

– اذن لهذا السبب كنت بحاجة الى الفلوس ؟

– بالضبط ، لو سمحت . اها ، هذا رجلك ذهب بعربتي ، كما يظهر . – اضاف ذلك بعد ان سمع طرق العجلات . – ياله من شاطر !

زعقت افدوتيا :

– ولكن هذا نهب لا غير . هذه فلوسنا ، فلوس زوجي ، والنزل نزلنا . . .

قاطعها ناعوم :

– لا ، افدوتيا اريفيفنا . لم يكن النزل نزلكما ، فلا حاجة الى ان تقولي ذلك . النزل كان على ارض السيدة ويعني انه ملكها ، ولكن النقود كانت لكما حقا ، ويمكن القول انك على درجة من الطيبة ، بحيث وهبتها لي ، وانا ممتن لك على ذلك ، بل عند التوفيق ساعيدها لكما اذا جاءني هذا التوفيق ، ولكنه لا يجوز ان اظل في عوز ، ارجو ان تفهمي .

قال ناعوم كل ذلك بكثير من الهدوء ، بل وابتسامة صغيرة .

صاحت افدوتيا :

– يا احبائي ! ما هذا ؟ اي شيء ؟ كيف بعد كل هذا اواجه زوجي ؟ انت وغد ، – اضافت وهي تنظر بكره الى وجه ناعوم الفتي الغض – قتلت نفسي من اجلك ، وصرت لصة من اجلك . وانت تخربنا ، يا وغد يا سافل ! الآن لم يبق لي سوى ان اشنق نفسي من انشوطة ، يا وغد ، يا محتال ، يا قاتلي . . .

وانفجرت تبكي بدموع غزيرة . . . .

قال ناعوم :

– ارجو الا تقلقي ، يا افدوتيا اريفيفنا . اقول لك شيئا واحدا : قميصك اقرب الى جلدك . والكراكي في البحر ، يا افدوتيا اريفيفنا ، خلق لكي لا يغفو الشبوط .

قالت افدوتيا باكية :

– والى اين نذهب الآن ، اين نولي وجوهنا ؟

– وهذا ما لا اعرفه .

– ولكن ساذبحك ، يا وغد ، اذبحك ، اذبحك . . .

– لا ، يا افدوتيا اريفيفنا ، لن تفعلي ذلك . فلا حاجة الى

هذا الكلام . ارى فقط ان من الافضل ان ابتعد عن هنا قليلا ، فانت مضطربة جدا . . . ارجو المعذرة ، وغدا ساعود حتمـــا . . . واسمحوا لي ان ابعث بخدمي الى هنا ، هذا اليوم ذاته .

اضاف ذلك بينما كانت افدوتيا ماضية في التاكيد ، من خلال الدموع ، على انها ستذبحه وتذبح نفسها .

نظر ناعوم من النافذة ، وقال :

– ها هم قادمون ، بالمناسبة . والا ستحصل مصيبة ، الله الساتر . . . . هذا سيكون آمن . اعملي معروفـــا ، واجمعي حاجياتكما اليوم ، وسيحرسون البيت وسيساعدونك ، على مـــا اعتقد . ارجو المعذرة .

انحنى ، وخرج ، ونادى اليه خدمه . . .

انهدت افدوتيا على المسطبة ، ثم طرحت صدرها على المنضدة ، واخذت تلوي يديها تفجعا ، وبعد ذلك نهضت فجاة وركضت لتلحق بزوجها . . . ونحن روينا لقاءهما .

عندما غادرها اكيم مع يفريم ، وبقيت وحيدة في العراء ، بكت طويلا في اول الأمر ، دون ان تغادر مكانها . ولما شفت غليلها من البكاء يممت صوب ضيعة السيدة . احست بالمرارة عند دخول البيت ، وبمرارة اشد عند دخول حجرة الخادمات . هرعت جميع الفتيات للقائها في عطف واسى عليها . لم تستطع افدوتيا ان تكبح دموعها وهن يحطن بها ، فطفرت الدموع من عينيهـــا المنتفختين المحمرتين . جلست خائرة القوى على اول مقعد وقع عليه بصرها . ذهب مَنْ يستدعي كيريلوفنا . وجاءت هذه ، وقابلتها بحنان كثير ، الا انها ، مثلما فعلت مع اكيم ، لم تدعها تدخل على السيدة ، وافدوتيا نفسها لم تصر كثيرا على رؤية ليزافيتا بروخوروفنا . فقد جاءت الى بيت السيدة لسبب وحيد ، هو انها لم تجد ما تولي اليه وجهها .

امرت كيريلوفنا باعداد السماور . وظلت افدوتيا وقتا طويلا ترفض شرب الشاي ، الا انهـــا اذعنت اخيرا لرجاوات الفتيات وتوسلاتهن ، وبعد القدح الاول شربت اربعة اقداح اخرى . ولما رات كيريلوفنا ان ضيفتها هدات قليلا ، سوى بعض الارتعاش والنشيج الخفيف من حين لآخر ، سالتها الى اين ينويان الانتقال ، وماذا سيفعلان بامتعتهما . عادت افدوتيـــا الى البكاء بعد هذا

السؤال ، واخذت تؤكد انها بعد الآن لا ترغب الا في الموت ، الا ان كيريلوفنا امراة لها راس يفكر ، فاوقفتها على الفور ، ونصحتها بان لا تضيع الوقت ، وان تبدأ منذ اليوم بنقل الامتعة الى كوخ اكيم السابق في القرية التي كان يعيش فيها عمه ، وهو نفس العجوز الذي حثه على عدم الزواج ، واعلنت كيريلوفنا بانهما ، باذن من السيدة ، سيحصلان على اعانة مالية وعربات ورجال للمساعدة على الانتقال . واضافت كيريلوفنا وقد رسمت ابتسامـــة حامزة على شفتيها الشبيهتين بشفتي القطة : «اما من ناحيتنا ، يا فتاتي ، فانك ستجدين دائما مكانا تاوين اليه ، وسنسُر اذا اقمت عندنا حتى تتيسر امورك ، وتهيئي بيتك . والمهم الا تجزعي . الله اعطى ، والله اخذ ، وسيعطي من جديد ، وكل شيء بارادته . كان على ليزافيتا بروخوروفنا ، لاعتباراتها الخاصة ، ان تبيع نُزُلكما ، ولكنها لن تنساكما ، وستكافئكما ، وقد امرتني بان ابلغ اكيم سيميونيتش بذلك . . .اين هو الآن ؟»

اجابت افدوتيا بانه رحل الى بيت الشماس يفريم بعد ان اساء اليها كثيرا حين التقته .

ردَّت كيريلوفنا بلهجة ذات مغزى :

– رحل الى ذاك ! اها ، اتصور انه الآن في ضيق ، ولكن لا اظنك ستجدينـــه اليوم . كيف اذن ؟ يجب تدبير الامر . – ثم اضافت وهي تخاطب احدى الخادمات : – مالاشكا ، اطلبي ان يحضر نيكانور ايليتش الى هنا . سنتكلم معه .

وفي الحال حضر نيكانور ايليتش ، وهو رجل ضئيل الهيئة اشبه بوكيل ضيعة ، واصغى بخنوع الى كل ما قالته كيريلوفنا له ، وقال : «تؤمرين» وخرج ، واصدر اوامره . وخصص لافدوتيا ثلاث عربات مع ثلاثة فلاحين يسوقونها ، وانضم اليهم فلاح رابع ، بناء على رغبته ، معلنا انه سيكون «مجدا اكثر منهم» فتوجهت افدوتيا معهم الى نزل المسافرين ، حيث وجدت الخدم السابقين والخادمة فيتينيا في اضطراب شديد وفزع . . .

منذ ان جاء في الصباح خدم ناعوم الجدد ، وهم ثلاثة فتيان ضخام جدا لا زموا اماكنهم ، واقاموا ، حسب ما عاهدوا ناعوم ، حراسة مشددة جدا ، حتى ان عربة من العربات الجديدة وجُدت فجاة بلا عجلات . . .

وصعب على افدوتيا المسكينة ، صعب عليها جدا ان تلم اشياءها ، ورغم مساعدة الفلاح المُجدي ، ومساعدته ، بالمناسبة ، لم تتعد التمشي وفي يده عصـــا صغيرة ، والنظر الى الفلاحين الآخرين ، والبصق في ناحية ، لم تلحق افدوتيا ان تجمع اشياءها وتغادر في نفس اليوم ، فقضت ليلتها في النزُل ، بعد ان توسلت الى فيتينيا بان تلازم حجرتها . وبالمناسبة لم تغفُ الا في الفجر اغفاءة محمومة ، وكانت الدموع تنزل من عينيها حتى في النوم .

في غضون ذلك استيقظ يفريم في حجرة المؤنـــة قبل الوقت المعتاد ، واخذ يدق الباب ، ويتوسل ليخرج . في البداية لم ترد زوجته ان تطلق سراحه معلنة له ، من خلال الباب ، انه لم يأخذ كفايته من النوم ، الا انه اثار فضولها بأن وعدها ان يروي لها الحكاية الغريبة التي وقعت لاكيم . فسحبت المزلاج . وقص يفريم عليها كل ما كان يعرفه ، خاتمـــا قصته بالسؤال هل استيقظ صاحبنا ؟

اجابت زوجته :

– الله يعلم . اذهب واعرف بنفسك . لم ينزل من الموقد بعد . اوه ، كلاكما ملأ بطنه بالشراب ، البارحة . على الاقل لو نظرت الى وجهك ، هو لا يشبه الوجه ، بل كتلة من الطين . وشعرك مملوء بالقش !

– لا بأس بالقش .

قال يفريم ، ودخل الحجرة ، وهو يمرر يده على شعره . وجد اكيم مستيقظا ، يجلس مدليا ساقيه من الموقد . وكان وجهه ايضا غريبا جدا ومهروسا . والآثار التي تركها سكر البارحة على وجهه كانت اكثر قباحة ، لان اكيم لم يتعود الشرب الكثير .

قال يفريم :

– ايه ، اكيم سيميونيتش ، كيف كان نومك ؟

نظر اكيم اليه نظرة مربدة . وقال بصوت اجش :

– طيب ، يا. اخ يفريم . هل لديك المزيد من ذاك ؟

حدق يفريم في اكيم بسرعة . . . واحس في تلك اللحظة برجفة في داخله ، اشبه بتلك الرجفة التي يستشعرها صياد واقف عند حافة الغابة حين يسمع نباح كلبه الفجائي في اعماق الغابة ، بعد ان تصور ان الصيد كله قد افلت منه .

واخيرا سأل :

– كيف ، المزيد ؟

– نعم ، المزيد .

وفكر يفريم مع نفسه : «سترى زوجتي ، ولا اظن انهـــا ستسمح» .

وقال بصوت عال :

– طيب ، ممكن . اصبر قليلا .

وخرج ، واستطاع ، بفضل التدابير الحاذقة التي اتخذها ان يمرر زجاجة كبيرة الى الحجرة خلسة . . .

تناول اكيم هذه الزجاجة . . . ولكن يفريم لم يشرب معه شرب البارحة . كان يخشى زوجته . ابلغ اكيم بانه ذاهب ليعرف ما يحصل عنده ، وكيف تُشد امتعته ، ويتأكد من ان احدا لا يسرق منها ، وتوجه على الفور الى نزل المسافرين على ظهر حصانه دون ان يقدم له العلف ، رغم انه لم ينس نفسه ، على ما يبدو ، لان شيئا كان يبرز من تحت قميصه .

وبعد خروجه بوقت قصير كان اكيم كالميت يغط ثانية في نوم عميق على الموقد . . . لم يستيقظ ، او على الاقل تظاهر بانه لم يستيقظ حتى حين عاد يفريم بعد حوالي اربع ساعات ، واخذ يهزه ويوقظه ، ويهذر فوقه بكلمات مشوشة للغاية ، يقول بها ان كل شيء قد حُمِل ونقل ، والايقونات رفعت وحُملت ايضا ، وكل شيء قد تم ، وان الجميع يبحثون عنه ، الا انه ، يفريم ، تكفل بالامر ، ومنعهم . . . والى غير ذلك . وعلى العموم لم يهذر طويـــلا . فان زوجته ساقته مرة اخرى الى حجرة المؤنة ، ورقدت هي ايضا على التخت في الحجرة حانقة حنقا شديدا على زوجها ، وعلى الضيف الذي تسبب في «سكر» زوجها . . . ولكنها حين استيقظت على عادتها في الصباح الباكر ، نظرت الى سطح الموقد فلم تر اكيم . . . كان اكيم قد خرج من الباب الخارجي لبيت الشماس قبل ان تصيـــح الديكة الاولى صياح الفجر ، والليل ما يزال حالك الظلام حتى ان السماء نفسها كانت رمادية لا تكاد تبين ، وحوافيها غارقة تماما في الظلمة . كان وجه اكيم شاحبا ، ولكنه كان يحدق حاد البصر فيما حوله ، ولم تكن خطواته تنم عن سكر . . . كان يسير باتجاه

مسكنه السابق ، نزل المسافرين الذي كان الآن بكليته في حوزة صاحبه الجديد ، ناعوم .

وناعوم ايضا لم يكن نائما ، حين انسل اكيم خارجا من بيت يفريم خلسة . كان راقدا على المسطبة ، بملابسه ، وقد فرش تحته فروة ، ولكنه لم يكن نائما . ولم يكن ضميره يعذبه فيؤرقه ، لا ابدا ! منذ الصباح شهد ، ببرود اعصاب مذهل ، شدّ ونقل امتعة اكيم كلها ، بل وبادر افدوتيا بالكلام غير مرة ، فلم تعمد هذه الى تقريعه لشدة انهيار اعصابها . . . لقد كان ضميره مطمئنا ، ولكن كانت تشغله مختلف الهواجس والحسابات . كان لا يعرف هل سيسعده الحظ في هذا الميدان الجديد ، اذ لم يكن حتى هذا الحين قد ادار نزلا للمسافرين ، بل ولم يكن له منزله الخاص عموما . ولذلك كان مؤرقا . وكان يفكر : «بداية جميلة ، ولكن ماذا سيكون فيما بعد . . .» بعد ان فرغ ، قبيل المساء من ارسال آخر عربة من امتعة اكيم (سارت افدوتيا وراءها باكية) تفقد النزل كله ، كل الاركان ، والسراديب ، والسقائف ، وصعد الى العلية ، موعزا الى خدمه ، غير مرة ، ان يشددوا الحراسة جيدا ، وبقي بعد العشاء وحيدا ، ولم يراوده النوم . وصادف في ذلك اليوم ان اي واحد من المسافرين لم يرد قضاء ليلته في النزل . وقد سره ذلك كثيرا . قال لنفسه وهو ينقلب من جنب الى جنب : «يجب ان اشتري كلبا في الغد من كل بد ، كلب حراسة اشد ما يكون ضراوة ، من صاحب الطاحونة . فهم اخذوا كلبهم معهم» وفجأة رفع راسه بسرعة . . . خيل اليه ان احدا مرّ من تحت النافذة . . . ارهف سمعه . . . لا شيء . سوى جُدْجُد يصر من آونة الى اخرى وراء الموقد ، وفار يخربش في مكان ما ، وانفاسه تتردد في صدره . كان كل شيء ساكنا في الحجرة الخالية المضاءة بقنديل زجاجي صغير يرسل اشعته الصفراء الواهنة ، وكان قد استطاع ان يعلقه ويوقده امام الايقونة في الزاوية . . . انزل راسه وها هو مرة اخرى يسمع صوتا اشبه بصريف الباب الخارجي . . . ثم خشخشة خفيفة للسياج . . . لم يستطع صبرا ، فقفز من ضجعته ، وفتح باب حجرة اخرى ، وهتف مخفضا صوته : «فيدور ! فيدور !» ولم يرد عليه احد . . . خرج الى الرواق ، وكاد يسقط حين اصطدم

بفيدور المطروح على الارض . تململ الخادم محمحما من خلال النوم . لكزه ناعوم . تمتم فيدور :

— ها ، ماذا تريد ؟

همس ناعوم له :

— لا تزعق ، اصمت . ملعون ، انت نائم ! لم تسمع شيئا ؟

اجاب هذا :

— لا شيء . ماذا هناك ؟

— اين ينام الآخران ؟

— ينامان حيث أُمرا . . . يعني . . .

— اصمت . تعال ورائي .

فتح ناعوم باب الرواق المؤدي الى الفناء بهدوء . . . كان الفناء حالك الظلمة . . . والسقائف ذات الاعمدة كان يمكن تمييزها لمجرد انها اشد حلكة من الظلام المحيط بها . . .

غمغم فيدور بصوت مخفَّض :

— الا نشعل المصباح ؟

الا ان ناعوم هزّ ذراعه ، وحبس انفاسه . . . في البداية لم يسمع غير الاصوات الليلية المترددة دائما تقريبا في مكان مأهول : حصان يعلك الشعير ، وقباع ضعيف ارسله خنزير اثناء نومه ، وشخير انسان في مكان ما . وفجأة بلغت سمعه حركة مريبة صدرت في طرف الفناء ، قرب السياج . . .

بدا وكان شخصا يتحرك هناك ، وكانه يتنفس او ينفخ . . . نظر ناعوم الى فيدور عبر كتفه ، ونزل من الواجهة بحذر ، وتقدم نحو مصدر الصوت . . . توقف مرة او مرتين ، وتسمع ، وتابع تسلله من جديد . . . وفجأة ارتعش . . . في الظلمة الكثيفة على بعد عشر خطوات منه لمعت نقطة نار صغيرة كانت جمرة تتوهج ، وبالقرب من الجمرة ، لاح ، في لمحة عين ، الجزء الامامي من وجه ممطوط الشفتين . . . وكالقط حين يثب على فار ، بسرعة وصمت ، وثب ناعوم نحو النار . . . نهض جسم طويل من الارض بعجالة ، واندفع للقائه ، وكاد يطرحه ارضا ، ويفلت من يديه ، الا انه تشبث به بكل قوته . . . صاح باشد ما لديه من صوت : «فيدور ، اندريه ، بيتروشكا ! اسرعوا اليّ ، امسكت لصا ، حارق بيوت . . .» كان الشخص الذي امسكه يلبط ويصارع بقوة . . .

ولكن ناعوم لم يطلقه . . . وهبَّ فيدور الى مساعدته على الفور .
صاح ناعوم به :
– اسرع بالمصباح ! اجرِ لجلب المصباح ، وايقظ الاخرين ، اسرع ! وخلال ذلك ادبر امري معه لوحدي . انا جالس عليه . . . اسرع ، واخطف معك حبلا لشده .
ركض فيدور الى الكوخ . . . والرجل الذي كان ناعوم يمسكه كفَّ عن المقاومة فجأة . . .
– يعني لا تكفيك الزوجة والفلوس والنزل ، وتريد ان تهلكني ايضا .
قال الرجل بصوت كامد . . .
وعرف ناعوم صوت اكيم . غمغم :
– يعني هذا انت ، يا حلو . جميل ، انتظر اذن !
قال اكيم :
– اطلقني . ام انت لم تكتفِ ؟
– ساريك غدا كيف لم اكتفِ ، حين اقدمك للمحكمة . . .
واحتضن ناعوم اكيم بقوة اشد .
جاء الخدم متراكضين ، ومعهم مصباحان وحبال . . . امرهم ناعوم بحدة : «شدوه !» . . . امسك الخدم باكيم ، ولووا يديه وراء ظهره . . . بدأ احدهم يشتمه ، ولكنه صمت بعد ان عرف صاحب النزل القديم ، واكتفى بمبادلة النظرات مع الاخرين .
في هذا الحين راح ناعوم يؤكد ، وهو يرفـــع المصباح فوق الارض :
– انظروا ، انظروا . هذه جمرة في قدر . انظروا ، جمرة بكاملها في القدر . يجب ان نعرف من اين اخـــذ القدر هذا . . . انظروا كم كسَّر من الاغصان . – واخمد ناعوم النار بقدمه في عناية . واضاف – فتشه ، فيدور ! هل لديه شيء آخر ؟
تحسس فيدور وتلمَّس اكيم ، الذي كان واقفا بلا حراك ، وقد دلَّى راسه على صدره كالميت .
– نعم ، عنده سكين .
قال فيدور ، وقد اخرج من زيق اكيم سكين مطبخ قديما .
هتف ناعوم :
– هذا هو هدفك ، اذن . يا اولاد ، انتـــم شهود . . . كان

يريد ان يذبحني ، ويحرق النزُل . . . احبسوه حتى الصباح ، في السرداب ، لا يستطيع ان يخرج منه . . . وساحرسه بنفسي طوال الليل ، وفي الغد حالما يطر الفجر سنسوقه الى ضابط الشرطة . . . وانتم شهود . . اسمعوا !
دفعوا اكيم الى السرداب ، واغلقوا دونه الباب . . . واقام ناعوم على الباب حارسين من خدمه ، ولم يأو هو لينام .
وفي غضون ذلك ، ولمَّا ايقنت زوجة يفريم ان الضيف غير المدعو قد انقلع ، اخذت تنشغل في اعداد الطعام ، رغم ان الفجر قد طرَّ لتوه . . . واليوم يوم عيد . قعدت امام الموقد لتأخذ منـــه جمرة ، وفطنت الى ان احدا قبلها قد اخرج من هناك جمرا . وبعد ذلك احتاجت الى سكين فلم تجد السكين ، واخيرا عرفت ان قدرا مفقودا من قدورها الاربع . كانت زوجة يفريم تُعتبر امراة ذكية وليس بلا اساس . فقد وقفت تفكر وتفكر ثم ذهبت الى زوجها في حجرة المؤنة . لم يكن من السهل ايقاظه ، والاصعب من ذلك جعله يدرك لماذا فعلت ذلك . . . كان كل ما تقوله له لا يلقى الا ردا واحدا من يفريم :
– غادر . وليكن . فماذا يعنيني ؟ واخذ سكينـــا وقدرا . وليكن ، فماذا يعنيني ؟
الا انه نهض اخيرا ، واستمع الى زوجتـــه بانتباه ، واستقر رايه على ان في الامر شيئا غير محمود ، ولا يجوز ان يترك وشأنه .
قالت زوجة الشماس مؤكدة :
– نعم ، غير محمود . سيصنع المصائب من اليأس . . . منذ البارحة رايته راقدا على الموقد ، ولكن بلا نوم . لا باس ، يا يفريم الكسندروفيتش ، لو ذهبت ، عرفت ماذا جرى . . .
قال يفريم :
– طيب ، اوليانا فيدوروفنا . ساسرع في الذهاب بنفسي الى نزل المسافرين . ولكن كوني لطيفة ، يا عزيزتي ، واعطيني قدح نبيذ اكسر به خمار البارحة .
فكرت اوليانا مليا ، ثم قالت بعد برهة :
– طيب . ساعطيك نبيذا ، يا يفريم الكسندروفيتش . ولكن اياك ان تعبث .
– كوني على ثقة ، أوليانا فيدوروفنا .

واتجه يفريم الى نزل المسافرين بعد ان قوّى نفسه بقدح من النبيذ .

ووصل الى النزل والفجر ما يزال في اوائله ، الا ان عربة كانت تقف عند الباب الخارجي ، جاهزة ، وواحد رجال ناعوم يجلس على مقعد السائق ممسكا الاعنة بيديه .

ساله يفريم :

– الى اين ؟

اجابه الخادم دونما رغبة :

– الى المدينة .

– ولاي غرض ؟

اكتفى الخادم بهز كتفيه ، ولم يحر جوابا . نزل يفريم قافزا من حصانه ، ودخل النزل . التقاه ناعوم في الرواق بكامل ملابسه ، وقد ارتدى قبعته .

– تهانينا بقدوم المالك الجديد – قال يفريم ، وكان يعرفه شخصيا – الى اين في هذا الوقت المبكر ؟

قال ناعوم بجفاء :

– نعم ، عندي ما يهنأ عليه . هذا اول يوم ، وكدت احترق .

جفل يفريم .

– كيف هذا ؟

– هكذا ، كان هناك رجل طيب يريد احراق النزل . من حسن الحظ انني قبضت عليه وهو يهم ان يفعل . وانا الآن آخذه الى المدينة .

سال يفريم ببطء :

– العله اكيم ؟

– وكيف تعرف ؟ نعم ، اكيم . جاء ليلا ومعه قدر فيه جمرة . وقد تسلل الى الفناء ، واشعل النار . . . كل رجالي شهود . هل تريد ان تراه ؟ على كل حال ، آن لنا ان نأخذه .

قال يفريم :

– يا عزيزي ، ناعوم ايفانيتش . اطلقه لا تخرب العجوز الى الآخر . لا ترتكب لنفسك هذه الخطيئة ، ناعوم ايفانيتش . فكر في الامر . انسان يائس ، فاختل عليه الامر ، يعني . . .

قاطعه ناعوم :

– كفى هذرا . كيف هذا ! اطلقه ! سيحرقني في اليوم التالي مرة اخرى . . .

– لن يحرق ، يا ناعوم ايفانيتش . ثق . ثق ان ذلك اكثر طمانينة لك نفسك . سيكون هناك استجواب ، ومحكمة . وانت نفسك تعرف .

– وماذا في المحكمة ؟ لا اخاف من المحكمة في شيء .

– يا ناعوم ايفانيتش ، يا محترم . المحكمة تخيف الجميع . . .

– اوه ، كفاية . ارى انك سكران منذ الصباح ، واليوم عيد زيادة على ذلك .

وفجاة انفجر يفريم باكيا بمباغتة تامة .

تمتم :

– انا سكران ، ولكن اقول الحق . اصفح عنه من اجل عيد المسيح .

– طيب ، دعنا نذهب ، يا بكّاء .

وسار ناعوم نحو واجهة البيت .

قال يفريم وهو يتبعه :

– من اجل اقدوتيا اريفيفنا اصفح عنه .

سار ناعوم نحو الواجهة ، وفتح الباب على سعته . اشراب يفريم بعنقه من وراء ظهر ناعوم بفضول متهيب ، وتبيّن اكيم بصعوبة في ركن سرداب غير عميق . كان صاحب النزل القديم هذا ، الغني والمحترم في الضاحية يجلس على القش موثوق اليدين كالمجرم . . . رفع راسه حين سمع حركة . . . بدا اكيم وكانما نحف بشدة خلال هذين اليومين الاخيرين ، ولا سيما في هذه الليلة . عيناه الغائرتان لا تكادان تلوحان من تحت جبينه العالي المصفر كالشمع ، وشفتاه اليابستان مسودتان . . . وكل وجهه قد تغيّر ، واكتسى تعبيرا غريبا : قاسيا ومذعورا .

قال ناعوم :

– انهض ، واخرج .

نهض اكيم ، وعبر العتبة .

ولول يفريم :

– اكيم سيميونيتش ، جلبت المصيبة على راسك ، يا عزيزي ! . . .

نظر اكيم اليه صامتا .

– لو كنت اعرف لماذا طلبت النبيذ ، لما جلبته لك . حقا ما كنت اعطيه لك ، ولربما شربته كله بنفسي ! ايه ، ناعوم ايفانيتش ! – اضاف يفريم وامسك يد ناعوم – اطلق سراحه ، اتوسل اليك .

ردّ ناعوم بضحكة هازئة :

– ياله من منظر . طيب ، اخرج – اضاف وتوجه بكلامه الى اكيم ثانية . . . – ماذا تنتظر ؟

بدأ اكيم :

– ناعوم ايفانوف . . .

– ماذا ؟

كرر اكيم :

– ناعوم ايفانوف . اسمعني . انا المذنب ، كنت انا اريد محاكمتك . ولكن الله هو الحاكم بيننا . انت انتزعت مني كل شيء ، تعرف بنفسك ، كل شيء الى الآخر . والآن في مقدورك ان تهلكني ، ولكن اسمع ما اقوله لك : اطلقني الآن ، وليكن لك كل شيء ، فامتلكه ! انا موافق ، واتمنى لك كل توفيق . ها انا اقول لك امام الله : اذا اطلقتني لن تندم . الله معك !

اغمض اكيم عينيه وصمت .

عارض ناعوم :

– كيف ، كيف يمكن التصديق بك !

قال يفريم :

– ممكن ، والله . ممكن حقا . انا مستعد ان اكفله ، اكفل اكيم سيميونيتش براسي . صدقني ، حقا !

هتف ناعوم :

– هراء ! لنذهب !

نظر اكيم اليه .

– طيب ، حسب ما تريد ، ناعوم ايفانوف . سوى انك تجني على نفسك اكثر من اللازم . طيب ، لنذهب ، اذا كنت متلهفا بهذا القدر . . .

ونظر ناعوم بدوره الى اكيم نظرة ثاقبة . وفكر في سره : «ربما اطلقه بالفعل وليذهب الى الشيطان ! والا فان الناس سيأكلون

١١*

راسي بشتائمهم ، على ما اظن . وافدوتيا لن تتركني وشأني . . .»

لم يفه احد بكلمة بينما كان ناعوم يناقش نفسه . كان الخادم الجالس في العربة يرى كل شيء من خلال الباب الخارجي ، فكان لايفتأ يهز راسه ، ويضرب الحصان بالاعنة . ووقف الآخران على واجهة البيت ، ولزما الصمت ايضا .

بادر ناعوم :

– طيب ، اسمع ، يا عجوز . اذا اطلقت سراحك ، وامرت هذين الشابين (واشار براسه الى الخادمين) بالا يتفوها بشيء عما جرى بيننا ، فهل سنسوي حساباتنا ؟ هل نكون متصافين ؟

– قلت لك امتلك كل شيء .

– ولا تعتبرني مدينا لك ؟

– لا انت مدين لي ، ولا انا مدين لك .

صمت ناعوم ثانية .

– اقسم !

قال اكيم :

– قسما بالله .

قال ناعوم :

– انا اعرف مقدما انني سأندم على ذلك . ولكن لا يهم ! هات يديك .

ادار اكيم له ظهره ، فاخذ ناعوم يفك يديه .

– اياك ، يا عجوز – قال ناعوم ، وهو يخرج الحبل من يديه – تذكر انني رأفت بك . اياك !

وغمغم يفريم متأثرا :

– احسنت ، يا عزيزي ناعوم ايفانيتش . الله يرضى عليك !

ليَّن اكيم يديه المتورمتين الباردتين ، واتجه نحو الباب الخارجي . . .

وفجأة اغتاظ ناعوم ، والظاهر انه احس بالندم على اطلاقه سراح اكيم . . . وصاح في اثره :

– ليكن في بالك انك اقسمت !

التفت اكيم ، واجال بصره فيما حوله ، وجمجم في حزن :

– امتلك كل شيء ، والى الابد . . . وداعا .

وخرج الى الشارع بهدوء يصحبه يفريم . هزّ ناعوم ذراعه ، وامر بفك الحصان من العربة ، وعاد الى البيت .

راى يفريم ان اكيم يحيد عن الطريق العام يمينا ، فصاح به :

– اكيم سيميونيتش ، الى اين تتجه ان لم يكن نحو بيتي ؟

اجاب اكيم :

– لا ، يفريم ، شكرا . انا ذاهب لارى ماذا تفعل زوجتي .

– تراها فيما بعد . . . والآن للفرحة يجدر ان تتذوق . . .

– لا ، يفريم ، شكرا . . . اكتفيت به . . . وداعا .

وسار اكيم دون ان يلتفت .

جمجم الشماس مهموما :

– اها ! اكتفى ! بينما انا اقسمت بالله من اجله ! لم انتظر هذا منه – قال في اسى – بعد ان اقسمت عليه . تفو !

تذكر انه نسي ان ياخذ السكين والقدر ، فعاد الى النزل . . . امر ناعوم باعطائه اياهما ، ولكن حتى دون ان يخطر بباله ان يضيّفه . وعاد يفريم الى بيته في منتهى الغم ، وفي منتهى الصحو .

سالته زوجته :

– ها ، هل وجدت ؟

قال يفريم :

– ماذا وجدت ؟ اها ، بالطبع وجدت . وها هي اشياؤك .

سالته بتشديد ملحوظ :

– هل هو اكيم ؟

ناد يفريم براسه :

– اكيم . ولكن اي رجل غير مأمون هو ! اقسمت نيابة عنه ، ولولاي لهلك في السجن ، ولكن لم يسقني ولو قدحا واحدا . اوليانا فيدوروفنا ، احترميني على الاقل ، واعطيني قدحا .

الا ان اوليانا فيدوروفنا لم تحترمه ، وطردته ليغيب عن بصرها .

وخلال ذلك سار اكيم في الطريق بخطى هادئة صوب قرية ليزافيتا بروخوروفنا . لم يقدر بعد ان يفيق على نفسه تماما . كان كل ما في داخله يرتجف كما يرتجف داخل رجل تخلص لتوه من موت محقق . بدا وكانما لم يصدق بحريته . كان ينظر بذهول ساهٍ الى الحقول ، والى السماء ، والى القبّرات وهي ترفرف باجنحتها في الهواء

الدافئ . في عشية اليوم الفائت ، في بيت يفريم ، لم ينم منذ الغداء ، رغم انه كان مستلقيا على الموقد بلا حراك . في البداية اراد ان يخمد بالنبيذ الم المساءة المّوار في داخله ، وحشة الغم ، المخبولة والعاجزة . . . الا ان النبيذ لم يستطع ان يغلبه حتى النهاية . كان قلبه يضج ، فراح يفكر كيف سينتقم من الوغد . . . لم يفكر الا في ناعوم ، ولم تخطر ليزافيتا بروخوروفنا على باله ، اما افدوتيا فقد كان يطردها من ذهنه . وفي نحو المساء استبد به الظمأ الى الانتقام الى حد الهيجان ، فانتظر بلهفة محمومة ، وهو الرجل السليم الطوية الضعيف ، هبوط الليل ، ومثلما ينطلق ذئب ليلاحق فريسته انطلق والنار بيده ليحرق بيته السابق . . . ولكنهم قبضوا عليه . . . احتجزوه . . . وجاء الليل . وما اكثر ما فكر به في تلك الليلة القاسية ! من الصعب التعبير بالكلمات عن كل ما يجري في داخل الانسان في مثل هذه اللحظات ، كل العذابات التي يعانيها . ومما يزيد ذلك صعوبة ان هذه العذابات في داخل الانسان نفسه خرساء وغير مبلورة بكلمات . . . وفي نحو الصباح ، وقبيل مجيء ناعوم ومعه يفريم بدا وكان الشدة تخف عن اكيم . . . فكر مع نفسه : «ضاع كل شيء ! ذهب مع الريح !» وهزّ ذراعه عيوفا من كل شيء . . . ولو كان قد خلق ذا نفس غير كريمة لتحول الى وغد في تلك اللحظة . ولكن الشر ليس من طبيعة اكيم . لقد انساق لارتكاب الجرم تحت وطأة نكبة مباغتة لا يستحقها ، وفي حمى اليأس . وهزّه الجرم من الاساس ، وحين اخفق ، لم يترك فيه غير التعب العميق . . . وحين احس بذنبه ابتعد بكل قلبه عن كل ما هو دنيوي ، وراح يصلي بمرارة ولكن بحماس . في البداية صلّى همسا ، واخيرا ، ولعل ذلك مصادفة ، رفع صوته : «آلهي !» ، وطفرت الدموع عن عينيه . . . بكى طويلا ثم هدأ ، اخيرا . . . ولعلّ افكاره كانت ستتغير ، لو اضطر الى ان يدفع ثمن محاولته البارحة . . . الا انه حصل على حريته فجأة . . . وها هو الآن يسير للقاء زوجته نصف حي ، محطما بكليته ، ولكنه هادئ .

كان بيت ليزافيتا بروخوروفنا يقع على مسافة فرسخ ونصف من القرية التابعة لها ، الى يسار الطريق الجانبي الذي كان اكيم يسير فيه . توقف عند منعطف الطريق المؤدي الى ضيعة السيدة . . . واجتازه . عزم ان يذهب اولا الى كوخه القديم ، الى عمه العجوز ،

كان كوخ اكيم الصغير والمتداعي الآن بشكل كبير يقع في طرف القرية تقريبا . قطع اكيم الشارع كله دون ان يلتقي احدا . كان جميع الاهالي قد خرجوا الى الكنيسة لحضور القداس . الا عجوزا مريضة رفعت النافذة الصغيرة لتنظر في اثره ، وفتاة خرجت راكضة الى البئر تحمل جردلا فارغا ، ففتحت فمها على مرآه ، وشيعته ايضا بعينيها . والرجل الاول الذي التقاه هو بالذات عمه الذي كان يبحث عنه . كان العجوز قد اقتعد الدكة تحت النافذة منذ الصباح متشمما التبغ ، متدفئا بالشمس . كان منحرف الصحة ، فلم يذهب الى الكنيسة . وكان قد عزم لتوه على زيارة عجوز آخر ، هو جار مريض ايضا ، واذا به يرى اكيم . . . توقف ، وتركه يدنو منه ، ونظر في وجهه ، وقال :

– مرحبا ، اكيم !

– مرحبا .

ردّ اكيم ، ودخل باب كوخه الخارجي متجاوزا العجوز . . . كان في الفناء احصنته ، والبقرة ، والعربة ، وبينها تسرح دجاجاته . . . دخل الكوخ صامتا . تبعه العجوز . جلس اكيم على المسطبة ساندا قبضتيه عليها . وقف العجوز في الباب ينظر اليه مشفقا .

سال اكيم :

– اين الزوجة ؟

ردّ العجوز بسرعة :

– في بيت السيدة . هناك . جاءوا بدوابك وصناديقك هنا ، اما هي فهناك . هل اذهب لجلبها ؟

صمت اكيم برهة ثم قال :

– اذهب .

وغمغم متحسرا ، حين كان عمه يرفع قبعته من المسمار :

–آه ، يا عم ، يا عم ، هل تذكر ما قلت لي في عشية الزواج ؟

– في كل شيء ارادة الله ، يا اكيموشكا .

– هل تذكر قولك تزعم انني لست من صنفكم ، انتم الفلاحين . والآن حل زمن . . . صرت فيه عريانا كالصقر في السهوب .

اجاب العجوز :

– ما اكثر الناس الطالحين . لو كان هناك احد يستطيع ان

يؤدب معدوم الضمير هذا تأديبا قاسيا ، من الاسياد مثلا او من اصحاب الأمر الآخرين ، والا فما الذي يخشاه ؟ الذئب له نهشته .

ولبس العجوز القبعة ، وذهب .

كانت افدوتيا قد عادت لتوها من الكنيسة ، حين قالوا لها ان عم زوجها يسال عنها . وكانت قبل هذا الحين لم تره الا نادرا ، ولم يكن هو يتردد عليهم في نزل المسافرين ، وعلى العموم كان الناس يعتبرونه غريب الاطوار . كان شغوفا بشم التبغ ، ويلتزم الصمت اغلب الوقت .

خرجت اليه .

– ماذا تريد ، بتروفيتش ، هل حصل شيء ؟

– لم يحصل شيء ، افدوتيا اريفيفنا . زوجك يسأل عنك .

– هل عاد حقا ؟

– عاد .

– واين هو الآن ؟

– في كوخه ، في القرية .

تهيبت افدوتيا . سالته ناظرة في عينيه :

– قل لي ، بتروفيتش : هل هو غاضب ؟

– لا يظهر عليه الغضب .

غضّت افدوتيا بصرها .

– طيب ، لنذهب .

قالت وقد لبست منديلا كبيرا ، وسار الاثنان . سارا صامتين حتى القرية . وعندما صارا يقتربان من الكوخ استحوذ على افدوتيا خوف شديد ، حتى ان ركبتيها اخذتا ترتجفان . قالت :

– يا عم ، بتروفيتش . ادخل انت الاول . . . قل له انني جئت .

دخل بتروفيتش الكوخ ، وراى اكيم جالسا في نفس المكان الذي تركه فيه مستغرقا في تفكير عميق .

رفع اكيم راسه ، وقال :

– ما وراءك ، العلها لم تات ؟

ردّ العجوز :

– جاءت . . . تقف عند البوابة . . .

– طيب ، لتاتي الى هنا .

خرج العجوز ، ولوح بذراعه الى افدوتيا قائلا : «تعالي» ، وعاد هو الى جلسته على الدكة . فتحت افدوتيا الباب مذعورة ، وعبرت العتبة ، وتوقفت . . .

نظر اكيم اليها ، وابتدرها قائلا :

– كيف ، اريفيفنا ، ماذا سنفعل الآن ؟

همست :

– انا المذنبة .

– طيب ، اريفيفنا . كلنا خاطئون . ولا حاجة الى الكلام عن هذا !

– الوغد حطمنا نحن الاثنين – قالت افدوتيا بصوت رنان ، ونزلت الدموع على خديها . – لا تتركه هكذا ، يا اكيم سيميونيتش ، واسترجع الفلوس منه . لا تشفق عليّ . انا مستعدة ان اقسم على انني اعطيته الفلوس كدين . ليزافيتا بروخوروفنا حرة في بيع نزلنا ، اما هو فلماذا ينهبنا . . . خذ منه الفلوس .

ردّ اكيم متجهما :

– لا يجوز ان آخذ الفلوس منه . لقد سوينا حساباتنا .

دُهِشت افدوتيا :

– كيف هذا ؟

– هكذا . هل تعرفين – مضى اكيم يقول ، وتوهجت عيناه – هل تعرفين اين قضيت الليل ؟ لا تعرفين ؟ في سرداب ناعوم ، مشدود اليدين والرجلين كالخروف . هناك قضيت الليل . اردت ان احرق له النُزُل ، ولكنه قبض عليّ . ناعوم هذا حاذق بما فيه الكفاية ! اراد اليوم ان يسوقني الى المدينة . ولكنه عفا عني . اذن ، لا يجوز لي استرجاع الفلوس منه . وكيف استطيع ان استرجعها ؟ . . . سيقول متى استدنت منك نقودا ؟ هل سأقول له ان زوجتي اخذتها من تحت الارضية ، وجلبتها اليك ؟ سيقول ان زوجتك تكذب . ام الاقاويل قليلة عليك ، يا اريفيفنا ؟ دعيني اقول لك : اسكتي احسن .

همست ، وقد تملكها الفزع من جديد :

– انا مذنبة ، سيميونيتش ، مذنبة .

صمت اكيم برهة ، ثم قال :

– ليس هذا هو المهم . ولكن ماذا سنفعل انا وانت ؟ لم يعد لنا بيت الآن . . ولا نقود ايضا . . .

– سندبر امورنا بطريقة ما . نسأل ليزافيتا بروخوروفنا ، وستساعدنا . وعدتني كيريلوفنا بذلك .

– لا ، اريفيفنا . اطلبي سيدتك بنفسك مع صاحبتك كيريلوفنا هذه . انتما نبتتا حقل واحد . ولكن اقول لك : ابقي هنا في رعاية الله ، اما انا فلا ابقى هنا ، ومن حسن الحظ اننا لم نوهب اطفالا . وربما وحدي لا اضيع . الراس الوحيد لا يعرف المصيبة .

– يعني ، هل ستعود الى التنقل في العربات ؟

ضحك اكيم ضحكة مريرة .

– هذا ما اصلح له حقا ! وجدتِ شابا اهلا لذلك . لا ، اريفيفنا . ليس هذا بأمر سهل كالزواج مثلا . العجوز لا يصلح لهذا العمل . ولكن لا اريد البقاء هنا ، لا غير . لا اريد ان يشير الناس اليّ باصابعهم . . . اتفهمين ؟ انا ذاهب للتكفير عن خطاياي ، اريفيفنا . هذا ما انوي عليه .

قالت افدوتيا بتهيب :

– اي خطايا لك ، سيميونيتش ؟

– انا اعرفها بنفسي ، يا زوجة .

– ولمن تتركني ، سيميونيتش ؟ كيف سأعيش بدون زوج ؟

– لمن اتركك ؟ آه ، اريفيفنا ، كيف تستطيعين ان تقولي هذا ، حقا ! وكأنك بحاجة الى زوج مثلي ، عجوز ومخرّب ايضا . كيف ! كنت تدبرين امورك بدوني ، وستدبرين امورك بدوني . وكل ما تبقى لنا من اشياء خذيها لك . لا اهمية لها عندي ! . . .

انشأت افدوتيا تقول بأسى :

– انت تعرف احسن ، سيميونيتش .

– احسنت . فقط الا تظني انني قد غضبت عليك ، اريفيفنا . فيم الغضب ، اذا كان . . . من قبل كان يجب ان انتبه . انا الملوم ، وقد عوقبت على ذلك . (وتحسر اكيم) . والجزاء مِنْ جنس العمل ، على حد المثل . والعمر تقدم بي ، وحان لي ان افكر في روحي . الرب نفسه هداني الى الرشاد . اردت ، وانا الابله العجوز ، ان اقتني

زوجة شابة لاتمتع بالعيش معها . . . لا ، يا عجوز ، يجب ان تصلي اولا ، وتضرب الارض بجبينـك ، وتصبّر وصُـمْ . . . والآن ، اذهبي ، يا عزيزتي . انا متعب جدا ، واريد ان انال غفوة .

وتمطى اكيم على المسطبة متنحنحا .

ارادت افدوتيا ان تقول شيئا . وقفت ، ونظرت ، ثم استدارت وانصرفت . . . لم تكن تتوقع ان تُعفى بهذا الرخص .

سألها بتروفيتش ، وهو جالس على المسطبة مقوّس الظهـر حين دنت منه :

– ها ، هل ضربك ؟

مرت افدوتيا به صامتة . واضاف العجوز مخاطبا نفسه :

– اذن ، لم يضربها . – وهمّ بضحكة ، وراح يمشط لحيته ، ويشم التبغ .

و نفّذ اكيم ما نوى عليه . سوّى أموره بسرعة ، وبعد بضعة ايام من الحديث الذي اوردناه ذهب بملابس السفر ليودّع زوجتـه التي سكنت مؤقتا في جناح بيت السيدة . لم يطل وداعهمـا . . . وصادف ان كانت كيريلوفنا هناك ، فنصحته ان يُمثل امام السيدة ، ومثل اكيم امامها . استقبلته ليزافيتا بروخوروفنا بشيء مـن الارتباك ، الا انها تلطفت ، وتركته يقبل يدها ، وسألته الى ايـن ينوي الذهاب ؟ اجاب انه سيذهب الى كييف اولا ، ومِنْ بَعْد الى حيث يقدر الله . اثنت عليه ، وتركته يذهب . ومنذ ذلك الحين لم يظهر في موطنه الا نادرا ، رغم انه لم ينس ابدا ان يجلب معه للسيدة خبز القدّاس الرّباني المشمول بالدعاء الى الصحة . . . وبالاضافة الى ذلك اينما اجتمع الروس الاتقياء كان من الممكن ان يُرى وجهه الضامر المعذّب الشائخ والمحتفظ في الوقت ذاته بحلو تقاطيعه وتناسق قسماته . سواء اكان ذلك في مزار القديس سيرغي ، او في بيليه بيريغا او في دير اوبتوي ، او في جزيرة فالآم (٢٩) النائية ، كان في كل مكان . . .

ولربما قد مرّبكم هذا العام مع صفوف الناس الامحدودي العدد السائرين في موكب وراء ايقونة العذراء الى دير كورينايا (٣٠) . وفي العام التالي وجدتموه والصرة وراء كتفه جالسا مع الحجاج الآخرين على مدخـل كنيسـة القديس نيقولاي صانـع المعجزات في

متسينسك (٣١) . . . وكان يجيء الى موسكو كل ربيع تقريبا . . .

كان يجوب الاقاليم بمشيته المطمئنة غير المتعجّلة والدؤوب ، ويقال انه زار القدس نفسها . . . كان يبدو هادئا تماما وسعيدا ، وكان الناس الذين اسعدهم الحظ بالتحدث اليه يقولون الكثير عن تقواه وحكمته الكريمة .

وخلال ذلك سارت امور ناعوم على احسن ما يُرتجى . انكـب على عمله بحيوية واقتدار ، وصعد نجمه بسرعة ، كما يقال . كان الناس جميعهم في الضاحية يعرفون باية وسائل غنم لنفسه نُزُل المسافرين ، ويعرفون ايضا ان افدوتيا اعطته نقود زوجها . فلـم يحبه احد منهم لما جُبِل عليه من طبـع بارد صارم . . . وكانوا يروون عنه باستهجان زاعمين انه ردّ على اكيم نفسه بـ«اللـه يعطيك» ، حين استجدى هذا منه صدقة من تحت النافذة ، ولـم يعطه شيئا . الا ان الجميع كانوا متفقين على انه كان اسعد حظا من الآخرين قاطبة . غلتُه من القمح احسن من غلة جاره ، ونحلـه اوفر ، ودجاجاته اكثر بيضا ، وماشيته لم تمرض قط ، وخيوله لم تصب بعَرَج . . . ظلت افدوتيا لا تطيق سماع اسمه زمنا طويلا (وكانت قد قبلت عرض ليزافيتا بروخوروفنا ، وعادت الى خدمتها من جديد كرئيسة الخياطات) ولكن نفورها قلّ في آخـر الأمر . ويقال ان الحاجة اضطرتها الى الالتجاء اليه ، فاعطاها زهـاء مائة روبل . . . ولن نتشدد في ادانتها ، فالفقر يعجز اي انسان . والتحول المفاجئ في حياتها اشاخها كثيرا وذلل عريكتها . ومن الصعب التصديق كيف زايلتها ملاحتها بسرعة ، وكيف تطامنـت وفترت عزيمتها . . .

وقد يسأل القارئ :

– بم انتهى كل شيء ؟

انتهى بهذا : بعد ان ادار ناعوم نزله بنجاح حوالى خمسـة عشر عاما ، باعه الى رجل من اهل المدينة رابحا فيه . . . ومـا كان سيتخلى عن نزله لو لم يحدث الظرف التالي الذي يلوح قليل الاهمية : في صباحين متتاليين نبحت كلبته نباحا ممدودا شاكيـا وهي جالسة تحت النافذة . وفي المرة الثانية خرج ، ونظر بامعان الى الكلبة النابحة ، وهزّ رأسه ، وقصد المدينة ، وفي نفس اليوم

اتفق على سعر مع المشتري الذي كان يماكسه على النزل زمنا طويلا . . . وبعد اسبوع رحل بعيدا عن حدود الولاية . وانتقل المالك الجديد الى مكانه . وماذا ؟ في ذلك المساء ذاته احترق النزل برمته ، فلم يبق منه شيء . وامسى خليفة ناعوم معدما . والقارئ يسهل عليه ان يتصوّر اية اقاويل دارت في الجوار عن هذا الحريق . . . كان الجميع يؤكدون : الظاهر انه اخذ «يُمنه» معه . . . ويشاع عنه انه اشتغل بتجارة الحبوب ، واثرى ثراء فاحشا . ولكن هل سيطيل العهد بثرائه ؟ ان الاعمدة مهما استطالت لا تبقى قائمة الى الابد . وللشر عاقبته الوبيلة ان عاجلا او آجلا . وليس هناك شيء كثير يقال عن ليزافيتا بروخوروفنا . انها ما تزال حية ترزق ، وكما هي الحال مع الذين على شاكلتها لم تتغير في شيء ، ولم تشخ كثيرا جدا سوى انها تبدو أيبس عودا ، بينما ازداد بخلها الى حد كبير ، رغم انه يصعب على المرء ان يدرك لمن تقتر فهي لم ترزق اولادا ، ولم تتعلق باحد . وفي حديثها كثيرا ما تتذكر اكيم ، ولا تفتا تؤكد انها منذ ان عرفت كل خصاله صارت تحترم الرجل الروسي كثيرا . وكيريلوفنا اعتقت نفسها منها بنقود معتبرة ، وتزوجت ، عن حب ، نادلا شابا كتاني الشعر تتجرع منه العذاب المر . وافدوتيا ما تزال تعيش في القسم النسائي من بيت ليزافيتا بروخوروفنا ، ولكنها انحدرت بعض الدركات ، فهي ترتدي ثيابا بائسة ، بل وقذرة ، ولم يبق فيها اثر من آداب السلوك لخادمة عصرية تعلمت في العاصمة ، ولا من عادات زوجة مالك نزل ميسور . . . ولا احد يلتفت اليها ، وهي مسرورة لان احدا لا يلتفت اليها . والعجوز بتروفيتش توفي . اما اكيم فظل يجوب المناسك ، والله وحده يعلم كم سيظل يجوب المناسك !

روايات قصيرة

فاوست (٣٣)

قصة في تسع رسائل

Entbehren sollst du, sollst entbehren.*

«فاوست» (الجزء الاول) (٣٤)

الرسالة الاولى

من بافل الكسندروفيتش ب . . . الى سيميون نيقولايفيتش ف . . .

قرية «م» ٦ حزيران ١٨٥٠

وصلت الى هنا قبل اربعة ايام ، ايها الصديق الكريم ، وها انا اشرع القلم واكتب لك وفاء بوعدي . يسح مطر خفيف منذ الصباح . والخروج غير ممكن ، كما انني اود ان اثرثر معك قليلا . ها انا مرة اخرى ، في عشي القديم ، الذي لم اكن فيه – وهذا يصعب عليّ قوله – تسعة اعوام كاملة . حقا ، يبدو وكانني قد صرت انسانا آخر تماما . اجل ، انسانا آخر في واقع الامر . انت تذكر المرآة الصغيرة المعتمة التي خلفتها ام جدتي ، والموجودة في غرفة الجلوس ، بخطوطها الحلزونية الغريبة في الزوايا – كنتَ دائما تتصور ما كانت تعكسه قبل مائة عام خلت . لقد اقتربت من هذه المرآة حالما وصلت ، ووجدت نفسي أذهل رغما عني . اذ فوجئت بأنني قد شخت وتغيرت كثيرا في الاونة الاخيرة . وعلى العموم لم اشخ انا وحدي ، بل وبيتي الصغير المتداعي منذ زمان ، فهو الآن لا يكاد يمسك نفسه ، متطامنا نحو الارض . ومدبِّرة بيتي الطيبة فاسيليفنا (اظن انك لم تنسها ، فقد كانت تستضيفك على مربى رائعة) قد ضمرت تماما ، واحدودبت . وحين رأتني لم تستطع ان تهتف باسمي ، ولم تبك ، بل راحت تئن وتسعل وتداعت على مقعد عاجزة تلوّح بيدها . وترينتي العجوز ما يزال بادي الحيوية ، منتصب الجذع كالسابق واذا مشى دفع جانبا ساقيه المسربلتين بنفس البنطال الاصفر من نسيج القطن المنزلي ،

* احرم نفسك ، اكبح رغباتك (بالالمانية في الاصل) .

والمنتعلتين بنفس الحذاء الصارف من جلد المعز ، المرتفع عند علوة القدم ، والمزيّن بعقصات كنت تستلطفها سابقا . . . ولكن يا الهي ! كيف يسترخي ذلك البنطال الآن على ساقيه العجفاوين ! وكم ابيض شعر رأسه ! ووجهه قد انكمش تماما وتكور . وحين اخذ يتكلم معي ، ويتعهّد ، ويصدر اوامره في الغرفة المجاورة ضحكت في نفسي واشفقت عليه ايضا . تساقطت كل اسنانه ، فهو يتمطق بشفتيه هاسا صافرا . والى جانب ذلك زهت الحديقة حُسنا . والاجمات المتواضعة من الليلق والاقاسيا وصريمة الجدي (انت تذكرها ، فقد شتلناها سوية) نمت الى اجمات كثيفة رائعة . واشجار البتولا والقيقب ارتفعت ونشرت اغصانها . ومماشي الزيزفون ازدهت بشكل خاص ، وانا احب هذه المماشي ، احب لونها الرمادي الاخضر ، ورائحة الهواء الناعمة تحت تعريشاتها ، احب الشبكة الزاهية من الحلقات الفاتحة على الارض الداكنة . انت تعرف ان حديقتي ليس فيها رمل . وشجيرة البلوط المحببة اليّ فيها اضحت شجرة فتية يانعة . نهار امس قضيت اكثر من ساعة جالسا على مسطبة في ظلها . وشعرت بمتعة كبيرة . العشب حولي قد اخضر خضرة تبعث على المرح ، والضوء الذهبي يرتمي في كل مكان قويا وناعما ، وينفذ حتى الى الظل . . . واصوات الطيور تداعب الاذن ! آمل انك لم تنس هوايتي في الطيور . كانت القماري تزقو بلا انقطاع ، وصفارية تصفر بين الحين والحين ، وحسون يترنم بزقزقته العذبة ، والشحارير تشدو بغضب ، وفي البعيد وقواق يوقوق متجاوبا .وفجأة زعق نقار خشب زعقة نافذة كالمجنون . ظللت استمع الى كل هذا الهديل الرقيق المتواصل ، ولم اشعر برغبة في الحركة ، ينازع قلبي شيء ما بين الكسل والافتتان . لم تكبر الحديقة وحدها ، فقد كان بصري يقع طوال الوقت على فتيان اشداء معافين لا استطيع ابدا ان اتعرف فيهم على صبيان كنت اعرفهم من قبل . اما صاحبك المحبوب تيموشا ، فقد صار اليوم تيموفي * ولا يمكن ان تتصوره . كنت آنذاك تخشى على صحته ، وتتنبأ له بالاصابة بالسل . ليتك تنظر الآن الى يديه الضخمتين الحمراوين وهما تبرزان من كمي السترة القطنية الضيقتين ، وترى اي عضلات

* دلالة على انه كبر لأن تيموشا اسم مصغر من تيموفي . المعرب .

مدورة سميكة تتراقص تحت جلده اينما وجهت بصرك ! وعلباؤه علباء ثور ، وشعر رأسه كله يتلوى خصلات كتانية . هرقل الفرنيزي (٣٥) تماما ! وعلى العموم لم يتغير وجهه بقدر ما تغيرت وجوه الآخرين ، بل ولم يتضخم كثيرا ، كما ان الابتسامة «المتثائبة» على حد وصفك لها بقيت كما هي . وقد اتخذته خادما خصوصيا لي ، اذ كنت قد تركت خادمي البطرسبورغي في موسكو . كان هذا يهوى اخجالي كثيرا ، ويجعلني اشعر بتفوقه بآداب السلوك في مجتمع العاصمة . لم اجد اي كلب من كلابي للصيد . انقرضت جميعها . والكلب نفكا من بينها عاش اكثرها جميعا ، ولكنه لم ينتظر اوبتي كما انتظر ارغوس عودة يوليس (٣٦) . لم يقدر له ان يرى بعينيه الكابيتين صاحبه السابق ورفيقه في الصيد . اما الكلبة شافكا فما زالت على قيد الحياة ، تنبح نباحها الاجش ، والشق ما يزال في اذنها ، والاشواك ملء ذيلها ، كما يقتضي الحال . سكنت حجرتك السابقة . صحيح ، ان الشمس تسطع فيها ، والذباب كثير ، ولكن رائحة البيت الشائخ اقل فيها من الحجرات الأخرَ . انه لامر عجيب ! ان هذه الرائحة العفنة ، الحامزة قليلا ، الرخوة تؤثر في مخيلتي عظيم التأثير . ولا اقول انها مقززة لي ، بل على العكس ، ولكنها تثير في نفسي الحزن ، وفي آخر الأمر ، القنوط . وانا مثلك احب الاصونة المنتفخة القديمة ذات الادراج والزينات النحاسية ، والكراسي البيضاء ذات الظهور البيضوية ، والقوائم المقوسة ، والثريات الزجاجية المبقعة بالذباب ، تتوسطها بيضة كبيرة من الرقاق الليلكي ، وباختصار احب اي اثاث من اثاث الاجداد ، ولكنني لا اطيق ان يحيطني على الدوام . فان وحشة هالعة (وهذا بالضبط !) تستحوذ عليّ . في الحجرة التي سكنتها اثاث بسيط للغاية ، من صنع بيتي . ومع ذلك ابقيت في الركن الدولاب الطويل الضيق برفوفه المثقلة بمختلف الاواني المنفوخة القديمة الطراز من الزجاج الاخضر والازرق لا تكاد تبين مما تراكم عليها من الغبار . وطلبت ان يعلق على الحائط صورة المراة باطارها الاسود ، انت تذكرها ، فقد كنت تسميها صورة مانون ليسكو (٣٧) . وقد اسودت قليلا خلال هذه السنوات التسع ، الا ان العينين ما تزالان تنظران تلك النظرة الساهمة المبطنة الرقيقة ، والشفتين ما تزالان تبتسمان بتهاون واسى ، والوردة نصف المصوحة ما تزال مسترخية من الاصابع

الدقيقة . والستائر في حجرتي تضحكني كثيرا . كانت ، في يوم ما ، خضراء ، ولكنها الآن مصفرة من اثر الشمس ، رسمت عليها باللون الاسود مشاهد من «الناسك» لدارلنكور (٣٨) . ويصور احد المشاهد هذا الناسك بلحيته الهائلة ، وعينيه الجاحظتين ، والصندل في رجليه يجر فتاة شعثاء الى جبل ، ويصور الآخر قتالا فظا بين اربعة فرسان ببرانيط والشراشيب على الاكتاف . احدهم مطروح en raccourci* ، مقتولا . وباختصار كل الفظائع ممثلة ، بينما السكون يخيم فيما حولي ، والستائر ذاتها تلقي لألآتها الوديعة على السقف . . . ومنذ ان سكنت هنا شملتني سكينة روحية فلا اريد ان ارى شيئا ، ولا احلم بشيء واكسل عن التأمل ، ولكن لا اكسل عن التفكير . وهذان شيئان مختلفان ، كما انت تعرف جيدا . في البداية تدفقت عليّ ذكريات الطفولة . . . كانت تنثال انثيالا اينما ذهبت ، وفي اي شيء تمعنت ، واضحة والى اصغر التفاصيل واضحة ، تبدو كالمستقرة في تبلورها الجلي . . . ثم اخذت هذه الذكريات تتوارد بعضها يعقب بعضا ، وبعد ذلك . . . بعد ذلك تحوّلت عن الماضي شيئا فشيئا ، ولم يبق في صدري الا ثقل كثقل النعاس . فتصور ! وجدت نفسي ، وانا جالس على سدة تحت صفصافة ، انخرط في البكاء فجاة ، وكنت سابكي وقتا طويلا ، رغم تقدم سني ، لو لم اخجل من امراة ريفية مرت بي ، ونظرت اليّ بفضول ، وبعد ذلك انحنت لي انحناءة كبيرة دون ان تدير وجهها اليّ ، ومضت في حال سبيلها . كنت اود كثيرا لو ابقى على هذه الحال النفسية (لا اعود الى البكاء ، بالطبع) حتى رحيلي من هنا ، اي حتى شهر ايلول ، وكنت ساصاب بغم شديد لو عمد احد الجيران الى زيارتي . وعلى العموم لاحاجة الى الخوف من ذلك ، على ما يبدو ، اذ لم يكن لي جيران مقرّبون . انا واثق من انك تفهمني ، فانت تعرف من تجربتك الخاصة ما تجلب الوحدة من رحمة في احيان كثيرة . . . وهي ضرورية لي الآن بعد كل ما قمت به من جولات .

لن يداخلني الضجر . فقد جلبت معي بعض الكتب ، ولي هنا مكتبة معتبرة . يوم امس فتحت كل خزاناتها ، ونبشت طويلا في كتبها المعثوثة ، ووقعت على اشياء ممتعة كنت لم الحظها من قبل :

* وراءه الخلفية (بالفرنسية في الاصل) .

«كانديد» (٣٩) في ترجمة مخطوطة تعود الى السبعينات ، وجرائد ومجلات تلك الفترة ، و«حامليون المنتصر» (٤٠) (اي ميرابو) و «Le Paysan perverti»* (٤١) وغير ذلك . ووقعت في يدي كتب اطفال ايضا عائدة لي ، ولابي ، ولجدتي ، وحتى لجدة امي ، فتصور ، وعلى كتاب لقواعد اللغة الفرنسية متهلهل ومجلد تجليدا ملونا كتب بحروف كبيرة : Ce livre appartient à m-lle Eudoxie de Lavrine** ومؤرخ بعام ١٧٤١ . ورأيت كتبا كنت قد جلبتها في حينها من الخارج ، ومنها «فاوست» غوته بالمناسبة . ولعلك لا تعرف انني ، في وقت من الاوقات ، كنت احفظ «فاوست» عن ظهر قلب (الجزء الاول منه ، بالطبع) كلمة كلمة ، ولم اكن اروي غليلي من قراءته . . . ولكن لكل ايام احلامها . وخلال الاعوام التسعة ما كدت آخذ غوته في يدي . ولا استطيع ان اصف شعوري ، حين رأيت ذلك الكتاب الصغير الاليف اليّ الى حد كبير (طبعة ١٨٢٨ البائسة) . اخذته معي ، واستلقيت على الفراش ، واخذت اقرأ . وما اعظم الاثر الذي تركه فيّ المشهد الاول الرائع ! ظهور جن الارض ، وكلماته — انت تذكرها : «على امواج الحياة ، وفي زوبعة الخلق» اثارت فيّ رعشة وبرودة من الغبطة لم اعرفهما منذ زمان . فتذكرت كل شيء : برلين ، وسنوات الجامعة ، وفراولاين *** كلارا شتيخ ، وزيديلمان (٤٢) في دور مفيستوفل ، وموسيقى رادزيفيل (٤٣) ، وغير هذا وذاك ، وكل شيء . . . وارقت وقتا طويلا . انبعث شبابي ، وشخص امامي ، كالشبح ، وسرى في عروقي كالسم الحار ، وانبسط قلبي ، ولم يشأ ان يتقلص ، تمزق شيء من نياطه ، واخذت الرغائب تفور في داخلي . . .

استسلم صديقك في سنه الموشكة على الاربعين الى هذه الرؤى ، وهو جالس وحيدا في بيته المنعزل ! فماذا لو اطل شخص عليّ ؟ طيب ، وما في ذلك ؟ عندئذ لن اخجل البتة . الخجل هو ايضا علامة من علائم الصبا . وهل تعرف لماذا صرت الحظ انني آخذ بالكبر ؟ لانني احاول الآن ان اضخّم امام نفسي احساساتي المرحة ، واكبت الحزين منها ، بينما في ايام صباي كنت على العكس من ذلك

* والفلاح المفسد» (بالفرنسية في الاصل) .
** هذا الكتاب عائد الى الآنسة يفدوكيا لافرينا (بالفرنسية في الاصل) .
*** الآنسة (بالالمانية لفظا) . **المعرب** .

تماما . كنت انغمر في حزني ، وكأنــه كنز ، واخجل من فورة المرح . . .

وعلى كل حال يبدو لي ، رغم كل تجربتي في الحياة ان في الدنيا شيئا آخر ، يا صديقي هوراتسيو (٤٤) ، لم يدخل في تجربتي هذه ، وان هذا «الشيء الآخر» يكاد يكون اهم شيء .

اوه ، كم استرسلت في الكتابة ! وداعا ، والى المرة القادمة .
ماذا تفعل في بطرسبورغ ؟ بالمناسبة ، طلب مني سافيلي طباخي في القرية ان انقل لك تحياته . هو الآخر شاخ ، ولكن ليس كثيرا جدا . سَمُن وترهل بعض الشيء . وهو لا يزال يجيد تحضير حساء الدجاج مع البصل المسلوق جيدا ، وفطائر الجبنة ذات الحواف المزخرفة ، وطبق السهوب الشهير «بيغوس» الذي ابيض لسانك منه ، وتخشب طوال يوم كامل . ومقابل ذلك ما يزال يحمّص لحما الى حد اليبوسة ، فلا ينكسر بين يديك حتى ولو دققته بالصحن . كارتون تماما . على كل حال ، مع السلامة !

صديقك ب . ب .

الرسالة الثانية

من نفس المرسل والى نفس المرسل اليه

قرية «م» ١٢ حزيران ١٨٥٠

عندي خبر مهم جدا اريد ان ابلغك به ، يا صديقي الكريم .
فاسمع ! يوم امس ، قبيل الغداء تاقت نفسي الى شيء من النزهة ، ولكن ليس في الحديقة ، بل تمشيت في الطريق الى المدينة . من الممتع جدا ان تسير بخطوات سريعة في طريق مستقيم طويل وبدون غاية تقصدها . كأنك تعمل وتحث خطاك لتبلغ مكانا ما . وارفع بصري وارى عربة تسير من الاتجاه المقابل . فكرت مع نفسي في ذعر : «اهي قادمة اليّ» . . . ولكن ، لا . كانت العربة تقل سيدا ذا شارب غريبا عليّ ، وهدأ بالي . ولكن هذا السيــد ما ان حاذاني ، حتى امر الحوذي فجأة بايقاف الحصانين ، واذا به يرفع قبعته باحترام ، ويسألني باحترام اكثر : ألست انا ؟ ويذكرني بالاسم . توقفت بدوري ، وبخفة متهم يساق الى استجواب ، فارد

عليه : «انا هو» ، وانظر ، كالابله ، الى السيد المشورب ، وافكر في سري : «يبدو لي انني رأيته في مكان ما !»
ويقول وهو ينزل من العربة :
— الا تعرفني ؟
— لا ، ابدا .
— بينما عرفتك على الفور .
ومن كلمة الى اخرى يتبين انه برييمكوف ، زميلنا السابق في الجامعة ، لعلك تذكره . ربما تتساءل في هذه اللحظة يا عزيزي سيميون نيقولايفتش : «اي خبر هام يزف لي ؟ برييمكوف ، على ما اتذكر ، كان فتى فارغا ، رغم انه ليس خبيثا ولا ابله» . وهذا صحيح ، ولكنك يا عزيزي ، اسمع بقية الحديث . قال :
— سررت كثيرا حين سمعت بقدومك الى قريتك ، والى جوارنا . وعلى العموم لست وحدي في هذا السرور .
سألته :
— اسمح لي ان اعرف مَنْ المتكرّم بهذا ايضا ؟ . .
— زوجتي .
— زوجتك ؟
— نعم ، زوجتي . انها من معارفك القدامى .
— لو تفضلت فاعلمتني ما اسم عقيلتك ؟
— فيرا نيقولايفنا . من اهالي يلتسوفا في الاصل . . .
فوجدتني اهتف لاارادیا :
— فيرا نيقولايفنا !
وهذا هو الخبر المهم الذي اشرت لك به في مستهل الرسالة .
ولكن ربما لا تجد فيه ايضا اية اهمية . . . فانا مضطر الى ان اروي لك شيئا عن حياتي الماضية . . . الموغلة في الماضي .
عندما تخرجت معك من الجامعة عام . . . ١٨٣ ، كنت في الثالثة والعشرين . فدخلتَ انت الوظيفة ، وعزمتُ انا السفر الى برلين ، كما هو معروف لك . ولكن لا شيء اقوم به في برلين قبل شهر تشرين الاول . فرغبت في قضاء الصيف في روسيا ، في الريف ، ولاسترخي جيدا للمرة الاخيرة ، ومن بعد ذلك انصرف الى العمل بجد . ولا حاجة الآن الى الاضافة في الحديث عن مقدار نجاحي فيما ارتأيته . كنت اسأل نفسي : «ولكن اين عليّ ان اقضي الصيف ؟» . لم ارغب

في الذهاب الى قريتي . ابي توفي قبل وقت قصير ، وليس لي اقارب اقربون فخفت من الوحدة والضجر . . . ولهذا قبلت بفرح عرض احد اقاربي الابعدين ، وهو ابن خال بعيد ، حين دعاني الى ضيعته في ولاية «ت» وهو رجل ميسور وطيب وبسيط يعيش عيشة سيد ، وحجراته حجرات سادة . نزلت عنده . كانت له عائلة عديدة الافراد : ابنان وخمس بنات . وبالاضافة الى ذلك كان يعيش في بيته عدد كبير من الناس . كان الضيوف يفدون عليه بلا انقطاع . ومع ذلك لا بهجة في مثل تلك الحياة . كانت الايام تمر ضاجة ، والخلوة مع النفس لم تكن ممكنة . الجميع يشتركون في كل شيء ، والجميع يسعون الى ان يتسلوا بشيء ، وان يختلقوا شيئا . وفي آخر النهار كانوا يتعبون تعبا شديدا . كانت مبتذلة تلك الحياة . وقد شرعت احلم بالرحيل ، وانتظرت فقط حلول عيد الشفيع لخالي ، ولكنني في يوم العيد بالذات رأيت فيرا نيقولايفنا يلتسوفا ، فبقيت .

كانت في السادسة عشرة آنئذ . وكانت تعيش مع امها في ضيعة صغيرة على بعد زهاء خمسة فراسخ من ضيعة خالي . وابوها ، كما يقال ، انسان رائع بلغ رتبة العقيد بسرعة ، وكان من الممكن ان يرتقي اكثر ، ولكنه مات في سن الشباب مقتولا برصاصة طائشة من رفيق له اثناء الصيد . وخلّف فيرا نيقولايفنا طفلة . وامها ايضا كانت امراة غير اعتيادية ، كانت تتحدث بعدة لغات ، وتعرف الكثير . وكانت اكبر من زوجها الذي تزوجته عن حب بسبعة او ثمانية اعوام . وقد اخرجها من بيت ابويها سرا . وكاد فقدانه يطيح بها ، وظلت تلبس اثواب الحداد حتى مماتها (ماتت ، حسب اقوال بريمكوف بعد وقت قصير من زواج ابنتها) . لا يزال يحيا في ذاكرتي وجهها المعبّر الاسمر ذو الشعر الاسود المشوب بشعرات بيض ، والعينين الصارمتين الواسعتين الكامدتين قليلا ، والانف الدقيق المستقيم . كان ابوهـا ، ويدعى لادانوف ، قد عاش في ايطاليا زهاء خمسة عشر عاما . وأم فيرا نيقولايفنا ابنة فلاحة بسيطة من البانو اختطفها لادانوف من خطيبها . فقتلها هذا الخطيب بعد يوم من ولادتها ابنتها . . . وهذه القصة احدثت في حينها لغطا كثيرا . وحين عاد لادانوف الى روسيا صار لا يخرج من بيته ، بل ولا يخرج من مكتبه ، وكان ينشغـل بالكيمياء والتشريح

والقبلانية * ، ويريد اطالة حياة الانسان ، ويرى في الامكان الاتصال بالارواح ، واستدعاء الاموات . . . وكان جيرانه يعتبرونه ساحرا . وكان يحب ابنته حبا جما ، وقد علمها بنفسه كل شيء ، ولكنه لم يغفر لها هروبها مع يلتسوف ، ولم يرد ان تقع عيناه عليها ، ولا على زوجها ، وتنبأ لهما كليهما بحياة فاجعة ، ومات وحيدا . وحين اصبحت السيدة يلتسوفا ارملة ، كرست كل اوقات فراغها لتربية ابنتها ، ولم تكن تستقبل احدا تقريبا . وحين تعرفت على فيرا نيقولايفنا ، لم تكن قد زارت اية مدينة ، بل ولم تخرج حتى الى مركز القضاء ، فتصور !

لم تكن فيرا نيقولايفنا تشبه الآنسات الروسيات المألوفات . كانت لها سمتها الخاصة بها . ومنذ الوهلة الاولى بهرني فيها الهدوء المدهش لكل حركاتها وتعابيرها . كانت لا تسعى الى شيء ، ولا تهلع من شيء ، وتجيب عن كل شيء ببساطـة وذكاء وتصغي الى الآخرين باهتمام . وكان تعبير وجهها ينم عن صفاء وصدق ، مثل وجه الطفل ، ولكن بشيء من البرود والرتابة ، وان كان بلا استغراق في داخلها . وكانت قلما تبتهج ، وليس كبهجة الاخريات ، كان صفاء النفس البريئة ، الاحلى من البهجة يشع من كل كيانها . كانت معتدلة القامة ، حسنة البنيان ، في شيء من النحافة ،وتقاطيعها متناسقة ورقيقة :جبهة ملساء بديعة ، وشعر كتاني ذهبي ، وانف مستقيم ، مثل انف أمها ، وشفتان ممتلئتان بما فيه الكفاية ، والعينان الرماديتان على سواد تنظران باستقامة شديدة ، من تحت رموش غزيرة مرفوعة الى فوق . كانت يداها صغيرتين ، ولكنهما غير جميلتين ، وبمثل هاتين اليدين لا يتسم الموهوبون من الناس . . .وبالفعل لم تكن لفيرا نيقولايفنا اية مواهب بارزة . كان صوتها يرن كصوت صبية في السابعة من العمر . قدمت الى أمها اثناء حفلة راقصة اقيمت في دار خالي ، وبعد عدة ايام ذهبت الى ضيعتهم لاول مرة .

كانت السيدة يلتسوفا امراة غريبة الاطوار جدا ، قوية الشخصية ، متشبثة ودؤوبة . تركت في نفسي اثرا قويا ، فكنت احترمها واخشاها في الوقت ذاته . كان كل شيء عندها يخضع

* فلسفة دينية سرية . **المعرب** .

لنظام ، وقد ربت ابنتها على هذا النظام ، ولكن لم تكن تضيق على حريتها . وكانت ابنتها تحبها ، وتثق بها ثقة عمياء . اذا اعطتها أمها كتابا ، وقالت لها لا تقرئي هذه الصفحة منه ، كانت على الاكثر تغفل الصفحة التي قبلها ، ولا تلقي نظرة على الصفحة المحظورة . لكن السيدة يلتسوفا كانت لها *idées fixes ، غواياتها . فهي ، مثلا ، تخاف ، كما تخاف النار ، كل ما يمكن ان يثير الخيال ، ولهذا فان ابنتها ، حتى السابعة عشرة من عمرها ، لم تقرا اية رواية او اية قصيدة ، بينما كانت كثيرا ما تغلبني على امري في الجغرافية والتاريخ وحتى في التاريخ الطبيعي ، انا الحائز على لقب علمي ، وبدرجة معتبرة ، ولعلك تذكر . حاولت مرة ان انزل السيدة يلتسوفا عن بغلتها ، رغم صعوبة جرها الى الحديث . فقد كانت صموتا جدا . هزّت راسها فقط . ثم قالت اخيرا :

— تقول قراءة الاعمال الشعرية مفيدة وممتعة في آن واحد . . . يجب على المرء ، كما اظن ، ان يختار في الحياة مقدما **اما** ما هو مفيد ، **واما** ما هو ممتع . ويثبت على ذلك مدى العمر . وانا في وقت من الاوقات اردت ان اجمع هذا وذاك . . . ذلك مستحيل ويؤدي الى الهلاك او الى الابتذال .

اجل ، كانت مخلوقا مدهشا تلك المراة ، مخلوقا نقيا وانوفا وبمسحة من تعصب وخرافة على طرازها . ذات مرة قالت لي «انا اخاف الحياة» . وبالفعل كانت تخافها . تخاف تلك القوى الخفية التي اقيمت عليها الحياة ، والتي تبرز نادرا ، ولكن بشكل مفاجئ . والويل لمن تداهمه ! وقد تبدّت هذه القوى ليلتسوفا بشكل رهيب . لنتذكر موت امها ، وزوجها ، وابيها . . . ومثل هذه المصائب ترعب اي انسان . لم ارها تبتسم قط . وكانما اغلقت على نفسها بالقفل ، والقت المفتاح في النهر . لا بد انها عانت محنا كثيرة في حياتها ، ولكنها لم تفض بها الى اي انسان . كانت تخفي كل شيء داخل نفسها . تعلّمت كيف تكتم مشاعرها حتى انها كانت تخجل من اظهار تعلقها بابنتها . لم تقبلها بحضوري قط ، ولم تخاطبها بصيغة التحبب ، بل تناديها فيرا وحسب . وما ازال اتذكر قولها : ذات مرة قلت لها : نحن ، اهل العصر جميعا ، معطوبون . . .

* افكار ثابتة (بالفرنسية في الاصل) .

فقالت : «لا داعي لعطب النفس . فمن الضروري ان تحطم نفسك تماما ، او لا تمسها قط . . .»

قليلون من الناس كانوا يزورون يلتسوفا ، ولكنني كنت كثيرا ما ازورها . وكنت اعي في سري بأنها تكن لي الاحترام الشديد . اما فيرا نيقولايفنا فقد اعجبتني كثيرا . كنا نتبادل الاحاديث ، ونتمشى سوية . . . ولم تكن الأم تعيق صحبتنا ، بل الابنة نفسها كانت لا تحب فراق امها ، وانا من جانبي لم اشعر بحاجة الى ان اتحدث معها في خلوة . كانت لفيرا نيقولايفنا عادة غريبة ، هي التفكير بصوت مسموع . وفي الليل ، اثناء حلمها ، كانت تتحدث بصوت عال وواضح عما ابهرها خلال النهار . ذات مرة حدّقت فيّ بعناية ، وقالت ، وهي تستند على يدها على جريان عادتها : «يبدو لي ان ب رجل طيب ، ولكن لا يمكن الاعتماد عليه» . وكانت علاقاتنا ودية للغاية وندا لند . وفي مرة واحدة فقط بدا لي انني قد التقطت عميقا في قرارة عينيها الوضاءتين شيئا غريبا ، ارتياحا عميقا ورقة . . . ولكن ربما كنت على خطأ .

وخلال ذلك انقضى الوقت ، وحان موعد استعدادي الى العودة . ولكنني تباطأت . وكنت احس بالرهبة حالما افكر ، او اتذكر انني عن قريب سافارق هذه الفتاة العزيزة التي الفتها . . . اخذت برلين تفقد قوتها الجاذبة . ولم اجرأ ان اعترف لنفسي بما كان يحصل في داخلي ، كما انني لم اكن افهم ما كان يحصل ، وكان ضبابا يلف روحي . وذات صباح وضح لي كل شيء فجاة . فكرت مع نفسي : «عم تبحث اكثر مما بين يديك ؟ والى اين تسعى ؟ فالحقيقة ، على اية حال ، لا تقع في يديك . اليس من الافضل لك ان تبقى هنا ، وتتزوج ؟» تصور ان فكرة الزواج هذه لم ترعبني آنذاك . بل على العكس سرّتني . وبالاضافة الى ذلك اعلنت عن نيتي في نفس اليوم لا الى فيرا نيقولايفنا ، كما كان ينبغي ان يتوقع المرء ، بل والى يلتسوفا الأم ذاتها . نظرت العجوز اليّ ، وقالت :

— لا ، يا عزيزي ، سافر الى برلين ، واعطب نفسك اكثر . انت رجل طيب ، ولكنك لست زوجا يصلح لفيرا .

اطرقت ، وصعد الدم الى وجهي ، ولعل ما سيدهشك اكثر هو انني في داخلي وافقت يلتسوفا على قولها ، وبعد اسبوع رحلت ، ومنذ ذلك الحين لم ارها ، ولم ار فيرا نيقولايفنا .

لقد وصفت لك مغامراتي باقتضاب لانني اعرف انك لا تحب «الاطناب» . وسرعان ما نسيت فيرا نيقولايفنا بعد ان وصلت الى برلين . . . ولكنني اعترف بان ذكرها المفاجيء* اثارني . اذهلتني فكرة قربها الشديد مني ، مجاورتها لي ، وانني بعد ايام سأراها . وظهر الماضي امامي فجاة ، وكأنه نبع من الارض ، وراح يتقدم نحوي . واعلن لي بريمكوف انه جاء لزيارتي لهذا الغرض بالذات ، اي تجديد تعارفنا القديم ، وانه يامل ان يراني في بيتهم في اقرب وقت ممكن . وابلغني انه خدم في سلاح الفرسان ، وتقاعد برتبة ملازم ، واشترى ضيعة على بعد ثمانية فراسخ عني ، وهو ينوي الاشتغال بالزراعة ، وقد رزق ثلاثة اولاد ، الا ان اثنين منهم توفيا ، وبقيت ابنة في الخامسة من العمر .

سألته : وزوجتك تتذكرني ؟

قال بلجلجة قليلة :

– نعم ، تتذكرك . بالطبع ، يمكن ان يقال انها في ذلك الحين كانت طفلة ، ولكن امها كانت دائما تثني عليك كثيرا . وانت تعرف كيف تعتز فيرا بكل كلمة قالتها الراحلة .

وخطر في بالي قول يلتسوفا بانني لا اصلح لفيرا زوجا ، وفكرت مع نفسي وانا احدج بريمكوف بنظرة جانبية «يعني ، انت تصلح» . مكث عندي بضع ساعات ، انه رجل طيب جدا ولطيف ، كلامه متواضع ونظرته سمحاء ، لا يمكن الا يُحب . . . ولكن قابلياته الذهنية لم تتطور منذ ان عرفناه . سازوره بالتاكيد ، ولربما غدا . يتملكني فضول بالغ لارى الى اي شيء صارت فيرا نيقولايفنا ؟

ايها الشيطان ، اغلب الظن انك تضحك مني الآن ، وانت جالس وراء مكتبك ، مكتب المدير ، ورغم ذلك ساكتب لك عن الوقع الذي ستتركه فيّ . مع السلامة ! والى الرسالة القادمة .

صديقك ب . ب .

الرسالة الثالثة

من نفس المرسل والى نفس المرسل اليه

قرية «م» ١٦ حزيران ١٨٥٠

طيب ، يا اخ ، كنت عندها ، رايتها . عليّ ، قبل كل شيء ، ان اخبرك بشيء مذهل ، وانت حر في ان تصدق او لا تصدق ، وهذا الشيء هو انها لم تتغير تقريبا ، لا في الوجه ولا في القوام . عندما خرجت للقائي كادت تندّ مني آهة تعجب . فتاة في السابعة عشرة ولا اكثر ! عيناها فقط لم تكونا عيني فتاة صغيرة ، وفي صباها ايضا لم تكن عيناها طفوليتين ، بل فاتحتين . ولكن نفس ذاك الهدوء ، نفس ذاك الصفاء ، ونفس ذاك الصوت ، ولا اي غضن في جبينها ، وكأنها ظلت طوال تلك السنين محفوظة في الثلج . بينما هي الآن في الثامنة والعشرين ، وقد وضعت ثلاثة اطفال . . . امر غير مفهوم ! ارجوك ، لا تظن انني ابالغ تحيّزا ، بل على العكس لم يعجبني فيها «عدم التبدل» هذا ، على الاطلاق .

لا ينبغي لامراة في الثامنة والعشرين ، زوجة واما ، ان تبدو كفتاة صغيرة ، وكأنها لم تقطع شوطا في الحياة . استقبلتني بحفاوة كبيرة ، ولكن قدومي قد سر بريمكوف سرورا عظيما ، كان هذا الطيب القلب يبحث دوما عمن يتعلق به . بيتهم مريح جدا ونظيف . وكانت فيرا نيقولايفنا تلبس كما تلبس الاوانس الصغيرات : بياضا في بياض ، والحزام ازرق سماوي ، وفي العنق سلسلة ذهبية رقيقة . وابنتها عذبة جدا ، ولا تشبهها ، بل تشبه جدتها . وفي غرفة الجلوس ، فوق الاريكة تتدلى صورة لهذه المراة الغريبة على شبه مذهل بها . لفتت الصورة نظري حالما دخلت . وخيل اليّ ان المراة التي تصورها تنظر اليّ بصرامة وامعان . جلسنا ، واسترجعنا الماضي ، ونشط حديثنا تدريجيا . ووجدت نفسي دون ان ادري اتطلع الى صورة يلتسوفا الكئيبة بين الحين والآخر . كانت فيرا نيقولايفنا تجلس تحتها تماما ، فقد كان ذلك مكانها المفضل . ولك ان تصور مبلغ دهشتي . ان فيرا نيقولايفنا لم تقرا حتى الآن اية رواية واية قصيدة ، وباختصار ولا اي مؤلف متخيَّل ، على حد تعبيرها ! واغضبتني هذه الاستهانة المطلقة باسمى متَع العقل .

فمثل هذا لا يغتفر ابدا من امراة ذكية ، ورفيعة الاحساس ، على قدر ما استطيع ان احكم .

سألتها :

— اذن ، وضعت لنفسك قاعدة في الامتناع عن قراءة مثل هذه الكتب ؟

— هكذا جرى . لم تكن لدي فسحة قليلة من الوقت .

— قليلـــة ! انـــا مندهش ! — مضيت اقول وتوجهت الى بريبمكوف : — على الاقل لو حببت القراءة الى زوجتك .

— انا بكل سرور . . .

انبرى يقول ، الا ان فيرا نيقولايفنا قاطعته قائلة :

— لا تتظاهر ، انت نفسك لست هاويا كبيرا في قراءة الشعر .

قال :

— لست هاويا في الشعر ، بالطبع ، ولكن للروايات مثلا . . .

سالت :

— اذن ، ماذا تفعلان ؟ بـــم تنشغلان في الاماسي ؟ تلعبان الورق ؟

اجابت هي :

— تلعب احيانا . وكم من اشياء يمكن ان ينشغل بها الانسان ؟ ونحن نقرا ايضا . هناك مؤلفات جيدة الى جانب الشعر .

— لماذا تهاجمين الشعر بهذا الشكل ؟

— انا لا اهاجم الشعر . مجرد انني تصورت ، منذ الطفولة ، انْ لا اقرا مثل هذه التآليف المتخيّلة . هذا ما ارادته أمي ، وكلما تقدم بي العمر ازددت اقتناعا بأن كل ما فعلته أمي ، وكل ما كانت تقوله كان صدقا ، وحقيقة مقدسة .

— كما تشائين ، ولكنني لا استطيع الاتفاق معك . انا واثق من انك تحرمين نفسك بدون طائل من انقى متعة واكثر اللذائذ شرعية . انت لا ترفضين الموسيقى والرسم فلماذا ترفضين الشعر ؟

— انا لا ارفض الشعر ، ولكن لم اطلع عليه حتى الآن . وهذا كل ما في الامر .

— ساءتني بذلك بنفسي ! هل حرّمت عليك أمك الاطلاع على مؤلفات الادب الرفيع لطول العمر ؟

— لا ، حالما تزوجت رفعت عني امي كل محظور ، ولكن لم يطرا على بالي قراءة . . . كيف قلت ؟ . . طيب ، باختصار ، قراءة الروايات .

استمعت الى فيرا نيقولايفنا بحيرة ، انني لم اتوقع ذلك .

نظرت اليّ نظرتها الرصينة ، كما تنظر الطيور حين يطمئن روعها .

هتفت :

— ساجلب لك كتابا (لمع في ذهني «فاوست» الذي قراته قبل وقت قصير) .

تنهدت فيرا نيقولايفنا خفيفا . وسألت وليس بدون رهبة :

— هل . . . هل هو لجورج ساند (٤٥) ؟

— آه ! يعني سمعت بها ؟ وليكن لها ، فهل في ذلك ضرر ؟ . . لا ، ساجلب لك كتابا لمؤلف آخر . انت لم تنسي الالمانية ؟

— لا ، لم انسها .

فقال بريبمكوف يمتدحها :

— هي تتكلم كالمانية .

— هذا رائع ! . . ساجلبه لك . . . وسترين اي شيء مذهل ساجلب لك .

— حسنا ، سأرى . والآن لنخرج الى الحديقة . ناتاشا متضايقة من الجلوس في مكان واحد .

ولبست قبعة قش مستديرة ، قبعة اطفال ، كتلك التي البستها لابنتها بالضبط ، سوى انها اكبر قليلا ، واتجهنا صوب الحديقة . سرت الى جانبها . وبدا لي وجهها في الهواء الطلق ، في ظل اشجار الزيزفون الباسقة اكثر ملاحة ، لا سيما حين كانت تستدير قليلا ، وتدفع راسها الى الخلف ، لتنظر اليّ من تحت حافة القبعة . ولولا بريبمكوف السائر وراءنا ، والصبية القافزة امامنا ، لكان مـــن الممكن حقا ان افكر بانني ما زلت في الثالثة والعشرين ، وليس في الخامسة والثلاثين ، وانني اتهيأ لتوي للسفر الى برلين ، خاصة وان الحديقة التي كنا فيها تشبه ، الى حد كبير ، الحديقة في ضيعـــة يلتسوفا . ولم اصطبر ، فافضيت بانطباعي هذا الى فيرا نيقولايفنا .

اجابت :

– الجميع يقولون انني لم اتغير في الظاهر الا قليلا . وعلى العموم حتى في الداخل بقيت كما انا .

دنونا من بيت صيني صغير . قالت :

– مثل هذا البيت لم يكن لنا في اسينوفكا . ولكن لا تلق بالا الى مظهره المتداعي وتقشر جدرانه . فهو من الداخل لطيف جدا ، وفيه ، طراوة .

دخلنا الى البيت . اجلت بصري ، وقلت :

– حبذا ، يا فيرا نيقولايفنا ، لو امرت ، حين اجيء ، بجلب منضدة وبعض الكراسي الى هنا . الجو رائع هنا حقا . . . ساقرا لك هنا . . . «فاوست» غوته . . . هذا ما ساقرأه لك .

فقالت ملاحظة ببساطة نفس :

– نعم ، هنا لا يوجد ذباب . متى ستأتي ؟

– بعد غد .

ردت قائلة :

– طيب ، سآمر .

كانت ناتاشا قد دخلت البيت الصيغر سوية معنا ، فاذا بها تصيح ، وتنط ممتقعة بكليتها . سالت فيرا نيقولايفنا :

– ما هذا ؟

– آه ، ماما – قالت البنت ، وهي تشير باصبعها الى زاوية ، – انظري ، اي عنكبوت مخيف ! . .

نظرت فيرا نيقولايفنا في الزاوية . كان عنكبوت كبير مبرقش يدب على الحائط بهدوء . قالت :

– وماذا يخيف فيه ؟ انه لا يعض . انظري .

وقبل ان الحق لاوقفها ، اخذت هذه الحشرة القبيحة بيدها ، وجعلتها تركض على كفها ، وقذفت بها . صحت :

– اوه ، اية امرأة جسورة انت !

– وما وجه الجسارة هنا ؟ هذا العنبكوت ليس من العناكب السامة .

– الظاهر ما تزالين قوية في التاريخ الطبيعي . اما انا فما كنت سامسكه بيدي .

كررت فيرا نيقولايفنا قولها :

– لا شيء يخيف فيه .

نظرت ناتاشا الينا كلينا في صمت ، وابتسمت في غير رضى .

قلت ملاحظا :

– ما اشبهها بامك !

ردت فيرا نيقولايفنا بابتسامة رضى :

– نعم . هذا يسرني جدا . عسى الله ان يجعلها تشبهها لا في الوجه فقط !

اعلنوا لنا ان الغداء جاهز . وبعد الغداء غادرت . ملحوظة مهمة – كان الغداء جيدا ولذيذا ، وانا اسجل ذلك لك عمدا ، ايها الشره ! غدا سآخذ «فاوست» اليهم . اخشى ان نسقط الشيخ غوته وانا . ساصف كل شيء لك بتفصيل .

والآن ما رايك في كل «هذه الماجرَيات» ؟ لعلك تظن . . . انها تركت في نفسي وقعا شديدا ، وانني متهيأ للسقوط في الحب وما الى ذلك ؟ هراء ، يا اخ ! كفاني تجربة . تحامقت ما فيه الكفاية ، وانتهى ! ومَنْ في مثل عمري يبدأ الحياة من جديد . وعلى العموم في الماضي ايضا لم ترق لي مثلها من النساء . وللمناسبة ، اية نساء على هواي ! !

ارتعد ، ويتوجع قلبي
واخجل من مثلي (٤٦)

ومهما يكن فانا مسرور جدا من هذا الجوار ، مسرور من فرصة الالتقاء بمخلوق ذكي بسيط مشرق ، اما ما سيحصل فيما بعد ، فستعرفه في حينه .

صديقك ب . ب .

الرسالة الرابعة

من نفس المرسل والى نفس المرسل اليه

قرية «م» ٢٠ حزيران ١٨٥٠

يوم امس جرت القراءة ، يا صديقي العزيز . اما كيف كان ذلك فساخبرك به نقطة بعد نقطة . قبل كل شيء اسرع لاقول ان النجاح فاق التوقعات . . . و«النجاح» كلمة لا تفي بالغرض . . . فاسمع .

وصلت عند الغداء . كنا ستة على مائدة الغداء . : هي ، وبريبيمكوف والابنة ، ومربيتها (مخلوق ابيض ضئيل) وانا ، والماني عجوز في سترة فراك بنية قصيرة ، نظيف ، حليق ، مبتذل ، ذو وجه غاية في الوداعة والاشراق ، وابتسامة عارية من الاسنان تفوح منه رائحة القهوة الرخيصة . . . وشيوخ الالمان جميعا تفوح منهم هذه الرائحة . وعرفوني به . اسمه شيميل ، وهو مدرس اللغة الالمانية عند عائلة الامير «خ» جيران بريبيمكوف . ويظهر ان فيرا نيقولايفنا توده ، فدعته ليحضر القراءة . جلسنا الى مائدة الغداء في وقت متاخر ، ولم نتركها الا بعد وقت طويل ، وخرجنا لنتنزه . كان الطقس رائعا . في الصباح نزل مطر ، وهبت ريح صاخبة ، ولكن كل شيء هدأ عند المساء . خرجت وفيرا نيقولايفنا الى فرجة مكشوفة ، تطل عليها تماما غيمة وردية كبيرة ، خفيفة وعلى ارتفاع عال ، وكانت الخطوط الرمادية تسري فيها كالدخان ، وفي حافتها كانت نجمة صغيرة ترتعش متوامضة تارة ، مختفية اخرى ، والى ابعد من ذلك قليلا لاح الهلال كمنجل ابيض على السماء اللازوردية الضاربة الى حمرة . اشرت لفيرا نيقولايفنا الى تلك الغيمة .

— نعم ، رائعة ، ولكن انظر الى هنا .

حوّلت بصري ، فرايت سحابة هائلة داكنة الزرقة ، تحجب الشمس الآفلة ، وتبدو بشكلها مثل جبل يزفر شواظا ، وقمتها تنتشر في السماء كالمروحة ، وقد احاطت بها حمرة مشؤومة مثل حافة وهاجة ، تسربت من خلال كتلتها الهائلة الى مكان ما في وسطها تماما ، وكانما افلتت من فوّهة بركان ملتهب . . .

قال بريبيمكوف :

— ستنفجر زوبعة رعدية .

ولكنني ابتعدت عن الرئيسي . في الرسالة الاخيرة نسيت ان اقول لك انني ندمت على تسميتي «فاوست» عندما وصلت الى بيتي قادما من عائلة بريبيمكوف . للمرة الاولى سيكون شيللر اكثر نفعا ، اذا كان مرادنا كاتبا المانيا . افزعتني بشكل خاص المشاهد الاولى قبل التعرف بـ«غريتخين» . كما لم اكن مطمئنا بخصوص مفيستوفيل ايضا . ولكنني كنت واقعا تحت تاثير «فاوست» فلم تكن لي رغبة في قراءة شيء غيره . يممنا صوب البيت الصيني حين هبط الظلام تماما . كان هذا البيت قد رتب

في العشية . وضعت امام الاريكة الصغيرة ومقابل الباب تماما منضدة صغيرة مغطاة ببساط ، تحف بها كراس وثيرة ومقاعد ، وعليها مصباح . جلستُ على الاريكة ، واخرجت الكتاب . وجلستْ فيرا نيقولايفنا على كرسي بعيدا قليلا ، وقرب الباب . ومن الظلمة وراء الباب التقط المصباح غصن اقاسيا اخضر يتمايل قليلا ، ومن حين لآخر كانت هبة من هواء الليل تنفذ الى الغرفة . جلس بريبيمكوف الى المنضدة بالقرب مني ، والالماني الى جانبه . وبقيت المربية في البيت مع ناتاشا . القيت كلمة تمهيدية قصيرة ، فتحدثت قليلا عن اسطورة دكتور فاوست القديمة ، وعن اهمية مفيستوفيل ، وعن غوته نفسه ، وطلبت ان يعترضوني ، اذا وجدوا شيئا غير مفهوم . وبعد ذلك تنحنحت . . . سالني بريبيمكوف عما اذا كنت محتاجا الى شيء من الماء مع السكر ، وكان ، على ما يبدو من كل شيء ، راضيا جدا من توجيه هذا السؤال . رفضت . وساد صمت عميق . بدات اقرا دون ان ارفع بصري . كنت احس بالحرج وقلبي يدق ، وصوتي يرتجف . واول صيحة من المشاركة العاطفية ندّت من الالماني ، وخلال القراءة كان وحده يحطم الصمت ، تكرارا «مدهش ! رفيع !» مضيفا من حين لآخر «اوه ، هذا عميق !» وكان بريبيمكوف ضجرا ، على قدر ما لاحظت . فقد كان على مستوى واطئ في الالمانية ، كما انه كان يعترف بعدم ميله الى الشعر ! . . ولكن هذا ما اراده لنفسه ! هممت ان المّح ، خلال الغداء ، الى ان القراءة يمكن ان تمضي بدونه ، ولكنني خجلت ان افعل ذلك . لم تبد فيرا نيقولايفنا اية حركة ، اختلست النظر اليها مرة او مرتين . كانت عيناها مصوبتين نحوي مباشرة وبامعان ، ووجهها بدا لي ممتقعا . بعد لقاء فاوست الاول مع غريتخين انفصلت عن ظهر الكرسي ، وطوت ذراعيها ، وظلت جامدة على هذا الوضع حتى نهاية القراءة . احسست ان بريبيمكوف متضايق مختنق ، وذلك ثبّط من عزيمتي في بادئ الامر ، ولكنني نسيته شيئا فشيئا ، وصعدت الحرارة فيّ ، وقرات بحماس وانجذاب . . . كنت اقرا لفيرا نيقولايفنا وحدها ، وفي داخلي صوت يقول لي ان «فاوست» يؤثر فيها . وعندما فرغت من القراءة (اهملت الفاصل ، فهو يعود باسلوبه الى الجزء الثاني ، واقتضبت شيئا من «ليلة على بروكين» (٤٧)) . . . عندما فرغت ونطقت بالكلمة الاخيرة «هنريخ !» هتف الالماني : «يا الهي !




ما اروعه !» ، وثب بريمكوف مسرورا (المسكين !) كما يبدو وتنهد ، وشرع يشكرني على المتعة التي وفرتها . . . ولكنني لم ارد عليه ، ونظرت الى فيرا نيقولايفنا . . . اردت ان اسمع ما ستقوله . نهضت ، ومشت نحو الباب بخطى متخلخلة ، ووقفت عند العتبة ، وانسلت الى الحديقة بهدوء . انطلقت في إثرها . كانت قد ابتعدت بضع خطوات ، وثوبها الابيض لا يكاد يلوح في الظل الكثيف .

هتفت :

– ماذا ؟ لم تعجبك ؟

توقفت ، وسمعت صوتها :

– ربما تترك هذا الكتاب لي ؟

– ساهديه لك ، فيرا نيقولايفنا ، اذا رغبت في الاحتفاظ به .

– مع الشكر !

اجابت واختفت .

تقدم بريمكوف والالماني مني . وقال بريمكوف :

– دفء مدهش ! بل وفي الجو وغرة . ولكن اين ذهبت زوجتي ؟

اجبته :

– الى البيت ، على ما يبدو .

قال :

– اظن موعد العشاء سيحل قريبا ، – وبعد دقيقة اضاف : – قراءتك ممتازة .

قلت :

– يبدو ان «فاوست» راق لفيرا نيقولايفنا .

هتف بريمكوف :

– بدون شك !

وثنّى شيميل :

– اوه ، بالطبع .

ذهبنا الى البيت . وسأل بريمكوف خادمة التقيناها :

– اين السيدة ؟

– ذهبت الى مخدعها .

وتوجه بريمكوف الى المخدع .

خرجت الى الشرفة مع شيميل . رفـع هذا العجـوز بصره الى السماء ، ونطق ببطء ، وهو يتشمم التبغ :

– ما اكثر النجوم ! وكلها عوالم .

وتشمم التبغ مرة اخرى .

لم ار من اللازم ان ارد عليه ، فاكتفيت برفع بصري الى فوق . كانت حيرة مبهمة تثقل على روحي . . . وبدت لي النجوم تنظر الينا بجدية . ظهر برييمكوف بعد حوالي خمس دقائق ، ودعانا الى غرفة الطعام . وبعد قليل جاءت فيرا نيقولايفنا ، فجلسنا .

قال برييمكوف لي :

– انظر الى فيروتشكا * .

نظرت اليها .

– ها ؟ الا تلاحظ شيئا ؟

وبالفعل لاحظت تغيرا في وجهها ، ولكن لا ادري لماذا رحـت اجيبه :

– لا ، لم الاحظ .

تابع برييمكوف يقول :

– عيناها حمراوان .

لزمت الصمت .

– تصوَّر . صعدت الى حجرتها ، فرايتها تبكي . هذا لـم يحدث لها منذ زمان . واستطيع ان احدد لك آخر مرة بكت فيها . كان ذلك حين توفيت ابنتنا ساشا . – ثم اضاف مبتسما : – انظر ماذا فعلت وصاحبك «فاوست» !

قلت :

– اذن ، فيرا نيقولايفنا ، ها انت ترين الآن ، انني كنـت على حق ، حين . . .

قاطعتني قائلة :

– ما كنت اتوقع ذلك ، ولكن لحد الآن الله وحده يعلم هـل انت على حق ام لا . ربما إن أمي حين منعتني من قراءة مثل هذه الكتب ، كانت تعلم . . .

وتوقفت فيرا نيقولايفنا . فاعدتُ قولها :

– ماذا كانت تعلم ؟ تكلمي .

* صيغة التحبب من فيرا . **المعرب** .

– وما الداعي ؟ يكفيني خجلا على اي شيء بكيت ؟ على العموم سنواصل الحديث فيما بعد . اشياء كثيرة لم افهمها .

– ولماذا لم تقاطعيني ؟

– الكلمات فهمتها كلها ، ومعانيها ايضا ، ولكن . . .

لم تكمل جملتها ، واستغرقت في تفكير . وفي تلك اللحظة تردد من الحديقة ضجيج اوراق هزتها هبة ريح فجاة . جفلت فيرا نيقولايفنا ، وادارت وجهها الى النافذة المفتوحة .

هتف برييمكوف :

– قلت لكم ستهب عاصفة رعدية ! ولكن ، فيروتشكا ، لماذا جفلت هذه الجفلة ؟

حدجته بنظرة صامتة . وانعكس وميض البرق الواهن والبعيد على وجهها الجامد انعكاسا ساحرا .

ومضى برييمكوف يقول :

– كل ذلك من جراء «فاوست» . بعد العشاء يجب ان نأوي الى مضاجعنا في الحال . . . اليس صحيحا ، يا سيد شيميل ؟

ردّ الالماني الطيب :

– الراحة الجسدية ، بعد المتعة الروحية ، صالحة ومفيدة على سواء .

وشرب قدح فودكا .

وتفرقنا بعد العشاء مباشرة . صافحت فيرا نيقولايفنا مودعا . كانت يدها باردة . دخلت الحجرة المخصصة لي ، وبقيت واقفا امام النافذة وقتا طويلا ، قبل ان اخلع ملابسي ، وارقد في فراشي . تكهن برييمكوف تحقق . اقتربت زوبعة رعدية وانفجرت . اصغيت الى ضجيج الريح ، والى ضربات المطر ودقاته ، ولمحت الكنيسة المطلة على البحيرة ، على مقربة ، تظهر عند كل ومضة برق سوداء على خلفية بيضاء تارة ، وبيضاء على خلفية سوداء تارة اخرى ، ويبتلعها الظلام تارة ثالثة . . . غير ان افكاري كانت بعيدة عنها . كنت افكر في فيرا نيقولايفنا ، افكر في ما ستقوله لي ، حين تقرأ «فاوست» بنفسها ، افكر في دموعها ، واتذكر كيف كانت تصغي . . .

سكنت العاصفة الرعدية منذ وقت طويل ، وتالقت النجوم ولفّ السكون كل شيء فيما حولي . وراح طائر لا اعرفه يشدو

بمختلف الاصوات ، مرددا مرات متتالية نفس النغمة . وسرى صوته الرنان الوحيد بغرابة في الصمت العميق ، وما زلت خارج فراشي . . .

في صباح اليوم التالي دخلت غرفة الجلوس ابكر من الجميع ، وتوقفت امام صورة يلتسوفا . وفكرت بشعور خفي من الانتصار الساخر : «ها ، خسرتِ . لقد قرات لابنتك كتابا محرما !» وفجأة خيّل اليّ . . . اغلب الظن انك قد لاحظت ان العينين en face* تبدوان دائما مصوبتين الى الرائي . . . ولكنني في هذه المرة خيل اليّ عن صدق ان العجوز كانت توجههما اليّ بتقريع .

استدرت ، وتقدمت من النافذة ، ورأيت فيرا نيقولايفنا في الحديقة وعلى كتفها مظلة ، ورأسها ملتف بمنديل ابيض خفيف . خرجت من البيت فورا ، واقرأتها تحية الصباح . قالت لي :

– لم انم طوال الليل . عندي صداع فخرجتُ الى الهواء الطلق . لعله يزول .

سالتها :

– هل معقول ان ذلك من قراءة البارحة ؟

– بالطبع . لم اتعود ذلك . في كتابك هذا اشياء لا استطيع ان اتخلص منها . ويخيل اليّ انها تلذع رأسي .

اضافتْ ، وقد وضعتْ يدها على جبينها .

قلت :

– جميل ، ولكن السيء في الأمر ، وهذا ما اخشاه ، ان يعمل هذا الارق والصداع على تبديد رغبتك في قراءة مثل هذه الاشياء .

– هل تظن ذلك ؟ – ردت بذلك ، وقطعت اثناء سيرها غصنا من الياسمين البري . – الله يعلم ! يبدو لي ان مَنْ يسير في هذا الطريق لا ينكص عنه .

وفجأة القت الغصن جانبا . ومضت تقول :

– تعال نجلس في ظليلة الحديقة . وارجوك قبل ان ابدأ الحديث معك لا تذكرني . . . بذلك الكتاب (كأنما خافت ان تنطق باسم «فاوست») .

دخلنا الظليلة ، وجلسنا . ابتدرتها قائلا :

* مواجهة (بالفرنسية في الاصل) .

– لن اتكلم لك عن «فاوست» . ولكن اسمحي لي بأن اهنئك ، واقول لك انني اغبطك .

– انت تغبطني ؟

– نعم ، فانت بروحك ، كما اعرف الآن ، ستحظين بمتع ما اكثرها ! هناك شعراء عظام الى جانب غوته : شكسبير ، شيللر . . وكذلك شاعرنا بوشكين . . . يجب ان تتعرفي عليه ايضا .

صمتت ، وراحت تخط على الرمل بطرف مظلتها .

آه ، يا صديقي سيميون نيقولايتش ! ليتك رأيت كم كانت عذبة في تلك اللحظة . شاحبة الى حد الشفافية ، ومنحنية قليلا ، ومتعبة ، ومضطربة داخليا ، ومع ذلك فهي صافية كالسماء ! تكلمتُ ، وتكلمتُ طويلا ، ثم سكتُّ ، وبقيتُ ساكتا احدق فيها . . .

لم ترفع عينيها ، وظلتْ تخط في الرمل بمظلتها ، ثم تمسح ما خطته . وفجأة ترددتْ خطوات طفل سريعة ، ودخلت تاتاشا الظليلة راكضة . رفعتْ فيرا نيقولايفنا جذعها ، ونهضت ، وعانقت ابنتها ، ويا لدهشتي ، بحنان عصبي . . . لم يكن هذا من عادتها . وبعد ذلك جاء بريميكوف . اما شيميل ، الاشيب ، والفتيُّ الانيق رغم ذلك ، فقد رحل قبل ان يطرّ النور ، حتى لا يفوّت الدرس . ذهبنا لنشرب الشاي .

على اية حال تعبتُ ، وآن الاوان لختام هذه الرسالة . لا بد انك ستعتبرها خرقاء مبلبلة . وانا نفسي احس بالبلبلة . خرجت عن اطواري . لا ادري ماذا بي . ومن حين لآخر تتراءى لي الحجرة الصغيرة بجدرانها العارية ، والمصباح ، والباب المفتوح ، والرائحة ، وطراوة الليل ، وهناك ، قرب الباب وجه فتي منتبه ، وثياب بيض خفيفة . . . انا افهم الآن ، لماذا اردتُ زواجها ، فانا ، على ما يبدو ، لم اكن قبيل سفري الى برلين ابله كما كنت اظن حتى هذه اللحظة . اجل ، سيميون نيقولايتش ، ان صديقك في حالة نفسية غريبة . وانا اعرف ان كل ذلك سيزول . . . واذا لا يزول ، فماذا في ذلك ؟ دعه لا يزول . ولكنني ، مع ذلك ، راض عن نفسي ، اولا لانني قضيت امسية مدهشة ، وثانيا اذا كنت قد ايقظت تلك النفس ، فمن يستطيع ان يتهمني ؟ العجوز يلتسوفا مسمّرة على الحائط ، وستصمت حتما . العجوز ! . . ليست كل تفاصيل حياتها

معروفة لي ، ولكنني اعرف انها هربت من بيت ابيها . ولا عجب في ذلك على ما يبدو ، فان والدتها ايطالية . انها رغبت ان تؤمن على ابنتها . . . سنرى .

ها انا اضع القلم ، وانت ، ايها الساخر ، لك ان تظن بي ما شئت ان تظن ، فتفضّل ، ولكن لا تتهكم بي في رسالتك . انا وانت صديقان قديمان ، ويجب ان يرأف احدنا بالآخر . والى الملتقى !

صديقك ب . ب .

الرسالة الخامسة

من نفس المرسل ، والى نفس المرسل اليه

قرية «م» ٢٦ تموز ١٨٥٠

منذ زمان لم اكتب اليك ، يا عزيزي سيميون نيقولايتش ، اكثر من شهر ، على ما يبدو لي . وقد كان لديّ ما اكتب لك عنه ، ولكن الكسل اعاقني . واقول لك الحق انك لم تخطر في بالي طوال ذاك الوقت . ولكنني استطيع ان استخلص من رسالتك الاخيرة انك تظن بي ظنونا غير منصفة ، اي غير منصفة تماما . تظن انني فتنت بفيرا (تسميتها باسمها الكامل فيرا نيقولايفنا لا تطيب لي كثيرا) . انت مخطئٌ . انا كثيرا ما اراها بالطبع ، وهي تروق لي الى ابعد الحدود . . . ولكن مَنْ لا تروق له ؟ وددت لو اراك وانت في مكاني . مخلوقة مذهلة ! نفاذ ذهن خاطف ، الى جانبه بساطة طفل لا تجربة له ، وعقل نير سليم ، واحساس فطري بالجمال ، وطموح دائم الى الحقيقة ، الى السمو وفهم كل شيء ، حتى الطالح ، حتى المضحك ، وفتنة انثوية هادئة تحلق فوق ذلك كجناحي ملك ابيضين . . . حقا ، وماذا اقول بعد ! قرأنا كثيرا وتحدثنا كثيرا خلال هذا الشهر . والمطالعة معها متعة لم اذق مثلها قط ، كأنها اكتشاف اقطار جديدة . لا يجعلها تستغرق في نشوة الجذل اي شيء ، وكل ما هو صاخب غريب عليها ، وحين يعجبها شيء

تتالق بكليتها تالقا ناعما ، ويكتسي وجهها تعبيرا نبيلا طيبا . . . بالضبط ، تعبيرا طيبا . وفيرا منذ طفولتها لم تعرف ما هو الكذب ، فقد تعودت الصدق ، وهي تستنشقه ، ولهذا فالصدق وحده في الشعر يبدو لها طبيعيا . فتعرفه على الفور وبدون جهد او عناء ، مثلما تعرف وجها مالوفا لها . . . وتلك ميزة عظيمة وسعادة ! ولا يجوز نكران فضل امها في ذلك . وكم من مرة فكرت ، وانا انظر الى فيرا في صواب غوته حين قال : «الانسان الطيب في سعيه الملتبس يحس دائما اين طريق الصواب» (٤٨) . شيء واحد مزعج ، وهو ان زوجها يحوم اينما نكون . (ارجوك ، لا ترسل ضحكة حمقاء ، ولا تلوّث صداقتنا الصافية ، بل ولا تدع ذلك يخطر على بالك) انه مقتدر في فهم الشعر ، مثل اقتداري في النفخ في الفليوت ، ولكنه لا يريد ان يتاخر عن زوجته ، ويرغب ايضا في تنوير نفسه . واحيانا تفقدني ، هي الاخرى ، صبري . يتغير مزاجها فجاة ، فلا تريد ان تقرا ، ام تتحدث . فتنكب على التطريز ، وتنشغل مع ناتاشا ، مع مديرة البيت او تركض الى المطبخ ، او تقعد فقط ، طاوية الذراعين ، وتتطلع من النافذة ، او تلعب الورق مع المربية . . . وفي مثل هذه الاحوال ، كما لاحظت ، لا تجوز مضايقتها ، ومن الافضل الانتظار الى ان تقترب منك نفسها ، وتبدا الحديث او تاخذ كتابا . ان لها الكثير من استقلال الشخصية ، وانا مسرور بذلك . احيانا ، في صبانا ، وربما تتذكر ، كانت هذه الفتاة او تلك تقلدك ، وتجيد تكرار كلماتك ، فياخذك الاعجاب بهذا الصدى منك ، ولربما يفتنك فتونا كبيرا ، حتى تدرك ما هو في حقيقته . اما هذه . . . فلا ، هذه قائمة بذاتها . لا تؤمن بشيء ايمانا عفويا ، ولا تستطيع ان تخيفها بمنزلة احد ، وهي لا تجادل ولكنها لا تستسلم . تناقشنا في «فاوست» غير مرة ، ولكن العجيب في الامر ان غريتخين لا ترد على لسانها ابدا ، بل تصغي فقط الى ما اقول لها . ومفيستوفيل لا يفزعها كشيطان ، بل بـ«ما قد يكون في داخل كل انسان» . . . وهذه كلماتها بالذات . اخذت اقول لها ان «ما قد» هذه نسميها استبطانا ، ولكنها لم تفهم كلمة استبطان بمعناها في الالمانية ، فهي لا تعرف الا الكلمة الفرنسية «reflexions» *، وتعودت اعتباره مفيدا . ان علاقاتنا مدهشة !

* تعني بالفرنسية تاملية . **المعرب** .

واستطيع ان اقول من بعض النواحي ان تاثيري فيها كبير ، وانني كمن يثقفها ، ولكنها ، وهي نفسها لا تلحظ ذلك ، تدفعني ، في اشياء كثيرة ، نحو الافضل . فبفضلها مثلا ، اكتشفت مؤخرا فقط اية كمية هائلة من الشائع والمنمق في الكثير من الاعمال الشعرية الشهيرة الرائعة . واي شيء تظل باردة ازاءه يصير مشكوكا به في نظري . نعم ، صرت افضل ، واصفى . فمن المستحيل ان تظل كما كنت وانت بالقرب منها ، تتلاقى معها .

قد تسال : وماذا ينجم عن هذا كله ؟ لاشيء ، حقا ، على ما اظن . ساقضي وقتا ممتعا جدا حتى ايلول ، وبعد ذلك اغادر . ستبدو لي الحياة في الشهور الاولى قاتمة موحشة . . . ساتعود . انا اعرف مقدار الخطر في اتصال رجل بامراة شابة ، مهما يكن هذا الاتصال ، واعرف ان شعورا قد يحل محله شعور آخر . . . دون ان يلحظ . وكنت ساقدر ان افلت ، لو لم اكن اعي بان كلينا مطمئن تماما . حقا لقد حدث بيننا شيء غريب ذات مرة . لا اعرف كيف وعقب اي شيء ، ولكن اذكر اننا كنا نقرا «اونيغين» (٤٩) فقبلت يدها . تنحت قليلا ، وتفرّست فيّ بنظرتها (لم ار هذه النظرة عند احد غيرها . فيها استغراق وامعان وصرامة) . . . واحمرت فجاة ، ونهضت ، وانصرفت . في ذلك اليوم لم استطع ان انفرد بها . تحاشتني ، وانصرفت تلعب الورق مع زوجها والمربية اربع ساعات كاملة ! وفي الصباح التالي عرضت عليّ التمشي في الحديقة . قطعناها كلها حتى البحيرة . وفجاة همست بخفوت ، دون ان تستدير نحوي : «ارجوك ، لا تفعل ذلك في المستقبل !» وفي الحال بدات تحدثني عن شيء ما . . . فخجلت من نفسي كثيرا .

عليّ ان اعترف بان صورتها لا تبارح ذهني ، وقد اخذت اكتب لك هذه الرسالة يحدوني نفس القصد تقريبا ، وهو ان تتاح لي الفرصة لافكر واتحدث عنها . اسمع الآن صهيل حصان ووقع حوافره . هذه عربتي قدموها لي . انا ذاهب اليهم . سائق عربتي ما عاد يسالني الآن ، عندما اركب العربة ، الى اين ساذهب ، بل ياخذني الى بيت بريمكوف راسا . ومن بعد فرسخين عن قريتهم ، عند منعطف الطريق الشديد الانحدار ، تطلع ضيعتهم فجاة من وراء حرش البتولا . . . ويغمر الفرح قلبي كلما لاحت نوافذها من بعيد . فلا غرابة في ان شيميل (هذا العجوز غير المؤذي لا يزورهم الا من

حين لآخر ، وآل الامير «خ» لـم يظهروا الا مرة واحدة والحمد لله) . . . لا غرابة في ان شيميل يقول بالمهابة المتواضعة المجبول عليها وهو يشير الى بيت فيرا : «هنا مأوى السلام !» في هذا البيت حل ملك السلام حقا . . .

غطيني بجناحك
وسرّي عن قلبي المضطرب
اجد فيه ظلا مباركا
لروحي المفتونة . . . (٥٠)

طيب هذا يكفي ، على اية حال . والا فالله يعلم الى اين ستسرح بك الظنون . فالى المرة القادمة . . . واي شيء ساكتب في المرة القادمة ؟ وداعا ! بالمناسبة ، انها لا تقول وداعا ابدا ، بل تقترنها دائما بـ«طيب ، وداعا» . فيعجبني هذا منها جدا .

صديقك ب . ب .

* P.S. : انا لا اتذكر هل ذكرت لك انها تعرف انني طلبت يدها ذات مرة .

الرسالة السادسة

من نفس المرسل والى نفس المرسل اليه

قرية «م» ١٠ آب ١٨٥٠

اعترفْ بانك تتوقع مني رسالة يأس او رسالة ابتهاج . . . لا هذه ولا تلك . رسالتي لا تختلف عن سائر الرسائل الاخرى . لم يحدث شيء جديد ، ولا يمكن ان يحدث ، على ما يبدو . قبل ايام قمنا بنزهة في القارب على البحيرة . وها انا اصف لك هذه النزهة . كنا ثلاثة : هي ، وشيميل ، وانا . لا افهم سر رغبتها في دعوة هذا العجوز كثيرا . عائلة «خ» تتبرم به ، وتقول انـه يهمل دروسه . وعلى العموم كان مسليا هذه المرة . لم يذهب بريبمكوف معنا ، فقد كان يشكو صداعا . كان الجو رائعا بهيجا . السحب

* P.S. — post scriptum (باللاتينية) يعني : بعد مكتوب . المعرب .

البيضاء الكبيرة الممزقة على ما تبدو ، في السماء الزرقاء ، والالق في كل ما حولنا وحفيف الاشجار ، وطرطشة الماء وزمزمته على الشاطئ ، والانعكاسات الضوئية الرجراجة تسري على الامواج ، والطراوة والشمس ! في البداية جذفت مع الالماني ، وبعد ذلك رفعنا الشراع ، وانطلق بنا القارب . فكانت مقدمته المدببة تغوص وتطلع ، ووراء مؤخرته ينشق الماء ويزبد . جلست هي الى الدفة ، واخذت توجه القارب ، وقد ربطت راسها بمنديل ، فالقبعة كانت ستجرفها الريح ، وافلتت الخصلات الجعداء من تحت المنديل ، ورفرفت في الهواء بنعومة . كانت تمسك الدفة في قوة بيدها الملوّحة ، وتبتسم للرشاش الذي كان يتطاير الى وجهها من حين لآخر . وانزويتُ انا في قاع القارب غير بعيد عن قدميها . اخرج الالماني غليونه ، واشعل تبغه القوي ، وراح – تصوّرْ – يغني بصوته الباص اللطيف . في البداية غنى اغنية قديمة «Freu't euch des Lebens»* ثم اغنية من الاوبرا «الفليوت السحري» (٥١) ثم اغنية عاطفية «ابجدية الحب» – «Das A.B.C. der Liebe» تردد فيه كل حروف الابجدية ابتداء من ا . ب . تس . د . (فن ايخ ديخ زه) ** وانتهاء بـ او ، فو ، ايكس (ماخ اينن كنيكس) *** ، وكلها بتلاعبات مزاحية . وغنى جميع الابيات بشعور دافق ، ولكن ليتك رأيته كيف غمز بعينه اليسرى بمكر حين نطق بكلمة «كنيكس» **** . ضحكت فيرا ، وتوعدته باصبعها . ولاحظت ، على قدر ما تراءى لي ، ان السيد شيميل ، في زمانه ، كان صاحب غزوات . «اوه ، نعم ، كنت استطيع ان ادافع عن نفسي» – قال بعظمة ، وضرب الغليون بكفه ليخرج الرماد منه ، وادخل اصابعه في كيس التبغ ، ووضع الغليون بجانب فمه ، وعضّ عليه بنزق ، واضاف قائلا : «عندما كنت طالبا . . اوهو – هوه !» ولم يضف على ذلك شيئا . ولكن اي معنى تحمل «اوهو – هوه !» هذه ! رجته فيرا ان يغني اغنية

* تهلل للحياة (بالالمانية في الاصل) . **الناشر** .
** عندما اراك (بالالمانية لفظا) . **الناشر** .
*** اثني ركبتيك بالتحية (بالالمانية لفظا) . **الناشر** .
**** كلمة Knix تعني بالالمانية التحية التي تؤدى بثني الركبتين . **المعرب** .

طلابية ، فغنّى * «Knaster, den gelben» ولكنه غنّى النغمة الاخيرة خاطئا . استخفه الطرب كثيرا . وخلال ذلك اشتدت الريح ، وتماوجت البحيرة كثيرا ، ومال القارب قليلا ، وراحت الخطاطيف تنقض حولنا . غيّرنا وضع الشراع . اخذنا نناور ضد حركة الريح ، واذا بالريح تغير اتجاهها فجاة ، ولم نلحق ان نواجهها ، فانزلقت موجة عبر الحاجز ، وصعدت كمية كبيرة من الماء الى القارب . وهنا اظهر الالماني شطارته ، انتزع مني الحبل وادار الشراع الى الجهة المطلوبة ، متمتما خلال ذلك «هكذا يفعلون في كوكسهافين !» — «So macht man's in Cuxhafen!» .

ارتعبت فيرا على ما يبدو ، لان وجهها امتقع ، ودون ان تنطق ببنت شفة ، على عادتها ، لملمت فستانها ، ووضعت قدميها على عارضة القارب . وفجاة قفزت الى ذهني ابيات غوته (منذ بعض الاوقات كنت مفتونا به) . . . انت تذكرها : «على الامواج تلتمع آلاف النجوم الرجراجة» (٥٢) فقرأت الابيات بصوت عال ، وعندما وصلت الى البيت : «عينيّ ، لماذا تخفضان ؟» رفعت عينيها قليلا (كنت اوطأ منها مكانا ، فكانت تنظر اليّ من فوق) وراحت تحدق في البعيد طويلا ، مقلصة عينيها من خفق الريح . . . سقط مطر خفيف لحظة خاطفة ، وتناثر فقاعات على الماء . عرضت عليها معطفي ، فالقته على كتفيها . رسونا على الشاطئ ، ليس على الرصيف ، فسرنا ماشين الى البيت . كنت اقودها من يدها . راودتني رغبة في ان اقول لها شيئا ، ولكن . . . آثرت الصمت . غير انني اذكر انني سالتها لماذا حين تكون في البيت تجلس دائما تحت صورة السيدة يلتسوفا ، كالطائر الصغير تحت جنح امه ؟ قالت : «تشبيهك صحيح جدا ، ما كنت سارغب قط في الخروج من تحت جنحها» . فعدت اسالها : «ما كنت سترغبين في الخروج الى الحرية ؟» لم تجب بشيء .

لا اعرف لماذا رويت لك هذه النزهة ، — ربما لسبب واحد هو انها بقيت في ذاكرتي كابهج حادث في الايام الماضية ، ولكن اي حادث هو في جوهره ؟ كنت من البهجة والحبور الصامت ما جعل عينيّ تترقرقان بدموع الانشراح والسعادة .

* تبغ الغليون الاصفر (بالالمانية في الاصل) .

نعم ! فتصور . في اليوم التالي ، اثناء مروري بالظليلة الصيفية سمعت صوتا نسائيا عذبا رنانا يغني فجاة «Freu't euch des Lebens. . .» تطلعت الى الظليلة ، فاذا هي فيرا . هتفت : «احسنتِ ! لم اكن اعرف ان لك مثل هذا الصوت الرخيم !» لاح الخجل عليها ، وصمتت . حقا ، ان لها سوبرانو * قويا . واظن انها لم تكن تخمن في ان لها صوتا جميلا . وكم لها من الفضائل الكامنة الاخرى ! انها نفسها لا تعرف ذلك . ولكن اليس صحيحا ان مثل هذه المراة ندرة في زماننا ؟

١٢ آب

يوم امس جرى بيننا حديث غريب . جرى في البداية عن الاشباح . تصور انها تؤمن بها ، وتقول بأن لها في هذا الايمان اسبابها الخاصة . كان بريمكوف جالسا معنا ، فاطرق ببصره وراح يهز راسه ، وكأنه يؤكد كلماتها . اخذتُ استفسر منها ، ولكن سرعان ما لاحظت ان هذا الحديث لا يطيب لها . فصرنا نتحدث عن المخيِّلة ، وعن قوة المخيِّلة . قلت : في شبابي كثيرا ما حلمت بالسعادة (وذلك في العادة شغل الذين لم يوفقوا في الحياة او لا يحالفهم الحظ) ومن بين ما كنت احلم به ان اسعد بقضاء بعض الاسابيع في البندقية مع امراة اهواها . وكنت غالبا ما افكر في ذلك ، لا سيما في الليالي ، حتى تكونت في ذهني ، مع الزمن ، صورة كاملة كان يمكنني ان استحضرها امامي ، ساعة اريد ، حالما اغمض عينيّ وهذا ما كنت اتخيله : ليل ، وقمر ، وضوؤه الابيض ، ورائحة رقيقة . . . اتظنها رائحة الليمون ؟ لا ، بل الونيلة والصبّار ، ومنبسط مائي عريض ، وجزيرة مسطحة نمت فيها اشجار الزيتون ، وعلى شاطئها بيت مرمري صغير ذو نوافذ مفتوحة ، وتترامى موسيقى ، والله يعلم من اين ؛ وفي البيت اشجار ذات اوراق داكنة ، وضوء مصباح مغطى الى نصفه ، ومن احدى النوافذ انطرحت عباءة ثقيلة من القطيفة لها حاشية مذهبية ، وتهدل احد اطرافها في الماء ، وجنبا الى جنب يجلس الرجل والمراة مرتفقين على العباءة ، فينظران الى الامام ، حيث تلوح البندقية .

* من اصوات النساء الغنائية . **المعرب** .

وكل ذلك كان يتراءى لي بوضوح شديد ، وكانني رايته بعيني . اصغت فيرا الى احلام يقظتي ، وقالت انها هي ايضا كثيرا ما تحلم ، ولكن احلامها من نوع آخر . فهي اما تتخيل نفسها في براري افريقيا مع رحالة ، او تبحث عن آثار فرانكلين في المحيط المتجمد (٥٣) ، وتتصور ، على نحو حي ، كل الحرمانات التي لا بد ان تتعرض لها ، وكل المصاعب التي تضطر الى مصارعتها . . .

قال زوجها :

– انت قرات الكثير من الرحلات .

قالت :

– ربما ، ولكن اذا كان على المرء ان يحلم ، فلماذا يحلم بالمستحيل ؟

بادرتها قائلا :

– ولم لا ؟ وما ذنب المستحيل المسكين هنا ؟

قالت :

– لم احسن التعبير تماما . كنت اريد ان اقول لماذا يحلم المرء بنفسه ، بسعادته ؟ لا حاجة للتفكير عن السعادة ، فالسعادة لن تاتي على اية حال . فلماذا يعذب نفسه بملاحقتها ؟ انها كالعافية ، اذا كنت لا تلحظها ، فهي اذن موجودة .

ادهشني هذا الكلام . ان لهذه المراة نفسا عظيمة ، صدقني . . . وانتقلنا من حديث حول البندقية ، الى ايطاليا والايطاليين . خرج بريمكوف وبقيت وفيرا وحدنا . قلت :

– في عروقك يجري دم ايطالي .

قالت :

– نعم . هل تريد ان اريك صورة جدتي ؟

– اعملي معروفا .

ذهبتْ الى غرفة مكتبها ، وجلبتْ منها ميدالية ذهبية كبيرة . فتحت الميدالية فرايت فيها صورتَيْ ابي يلتسوفا ، وزوجته ، تلك الفلاحة الايطالية من البانو مرسومتين بشكل ممتاز . ادهشني شبه جد فيرا بابنته . سوى ان ملامحه المغشّاة بالبودرة البيضاء كانت تبدو اكثر صرامة وبروزا وحدة ، وفي عينيه الصغيرتين يطل عناد جهم . ولكن ايّ وجه كان للايطالية ! شهواني ، مشكوف مثل وردة متفتحة ، ذو عينين واسعتين نديتين في جحوظ وشفتين

مبتسمتين في رضى عن النفس ! وبدا وكأن فتحتي الانف الرقيقتين المرهفتين ترتجفان وتتسعان ، وكانما غبّ قبلات تبودلت لتوها . وكان الخدان الاسمران يشعان لظىً وعافية ، وترَف شباب وقوةَ انوثةٍ . . . وذلك الجبين لم يقطبه تفكير ، والحمد لله على ذلك ! كانت الفلاحة مرسومة بلباس البانو . والرسام (الحاذق !) غرز غصن عنب في شعرها الفاحم ، كالقطران ، مع لَمْع رمادية ساطعة ، وهذه التحلية الباخوسية تنسجم مع تعبير وجهها تمام الانسجام . وهل تدري بم ذكرني ذلك الوجه ؟ بصورة مانون ليسكو في اطارها الاسود عندي . واكثر ما اذهلني هو انني تذكرت وانا انظر الى هذه الصورة ، ان لفيرا في بعض الاحيان ما يشبه تلك الابتسامة ، وتلك النظرة ، رغم الاختلاف الكلي في الملامح . . .

اجل ، ها انا اكرر ثانية : ما من احد في الدنيا ، ولا حتى هي نفسها ، تعرف ما يكمن فيها من اشياء اخرى . . .

بالمناسبة ! قصت يلتسوفا على ابنتها قبل زواجها كل تاريخ حياتها ، ووفاة أمها ، وغير ذلك ، ولغرض تهذيبي ، في اغلب الظن . وقد اثر في فيرا ، بشكل خاص ، ما سمعتْه عن جدها ، عن لادانوف الغامض . فهل هي ، لهذا السبب ، تؤمن بالاشباح ؟ غريب ! انها ، وهي النقية المشرقة تخاف كل ما هو موحش غامض ، وتصدق به . . .

ولكن كفى . لِمَ اكتب كل هذا ؟ على اية حال ما دمت قد كتبته ، فليرسل اليك .

صديقك ب . ب .

الرسالة السابعة

من نفس المرسل والى نفس المرسل اليه

قرية «م» ٢٢ آب

اكتب لك بعد عشرة ايام من رسالتي الاخيرة . . . آه ، يا صديقي ، لا استطيع ان اكتم اكثر . . . يا لشقائي ! كم احبها ! يمكنك ان تتصور باي تشنج مرير اكتب لك هذه الكلمة القاتلة .

لست صبيا ، بل ولا فتى في مقتبل الشباب ، وقد تخطيت العمر الذي يستحيل فيه تقريبا خداع المقابل ، وخداع النفس ايسر من اي شيء . اعرف واري كل شيء بوضوح . انا اعرف انني دنوت من الاربعين ، وانها زوجة رجل آخر ، وانها تحب زوجها ، واعرف حق المعرفة ان العاطفة البائسة التي تملكتني لا يُنتظر منهـا غير العذابات الداخلية ، وغير تبديد تام لقوى العمر . انا اعرف كل ذلك ، ولا اتأمل شيئا ، ولا ابغي شيئا ، ولكن ذلك لا يخفف عني مصابي . منذ شهر اخذت الحظ ان انجذابي اليها صار يشتـد ويشتد . وقد اربكني هذا من جانب ، وسرّني من جانب آخر . . . ولكن هل كان في مقدوري توقع انني ساعود من جديد ، فاكرر كل ما لا عودة له كما الشباب ؟ ولكن ما هذا الذي اقوله ؟ انا لم احب قط مثل هذا الحب ، لا قطعا ! مانون ليسكو وفريتليون (٥٤) كانتا كل ما اعبد من اصنام . وتحطيم مثل هذه الاصنام سهل . اما الآن . . . الآن فقد ادركت ما يعني حب امراة . وانا خجلان حتى من التنويه بذلك . ولكن هذا هو الواقع . انا خجلان . . . الحب ، على اية حال ، انانية ، ولا يُغتَفر لمن في مثل عمري ان يكون انانيا ، لا يجوز ان تعيش لنفسك وانت في السابعة والثلاثين . يجب ان تعيش حياة نافعة ، حياة لها هدف على الارض ، وان تؤدي واجبك ، عملك . وهكذا بدات اعمل . . . ولكن كل شيء تبدد من جديد ، وكأنما بفعل زوبعة ! الآن انا افهم ما كتبته لك في رسالتي الاولى . وانا افهم ما كان يعوزني من امتحان . واذا بهذه الضربة المفاجئة تنقض على رأسي ! فاقف ، وانظر امامي ببلاهة فأرى ستارا اسود ينسدل امام عيني ، وفي روحي وقر ورعب ! انـا استطيع ان اضبط نفسي ولا الزم مظهرا هادئا امام الآخرين فقط ، بل وحين اخلو الى نفسي . هل من المعقول ان اضطرب كما يضطرب صبي ! ولكن الدودة تسللت الى قلبي ، وهي تمتصه ليل نهار . بم سينتهي كل هذا ؟ حتى هذا الحين كنت استوحش في غيابهـا واضطرب ، واذا حضرت هدأت على الفور . . . اما الآن ، وهذا يفزعني ، فاضطرب في حضورها . آه ، يا صديقي ، يشقيني ان اخجل من دموعي ، وان اخفيها ! . . الشباب وحده يباح له ان يبكي ، والدموع تليق به وحده . . .

لا استطيع ان اعيد قراءة هذه الرسالة . فقد افلتت منـي

١٥*

كالآلة دون ان ادري . ولا استطيع ان اضيف شيئا ، او اقص شيئا . . . امهلني ، وسأعود الى نفسي ، واسيطر على مشاعري ، وسأتحدث اليك كرجل ، اما الآن فاود لو اسند رأسي الى صدرك و . . .

اوه ، يا مفيستوفيل ! حتى انت لا تساعدني . توقفت عن قصد ، وعن قصد هززت عصب السخرية في داخلي ، ورحت اذكر نفسي بأن هذه التوجعات وفيض المشاعر كم تبدو لي مضحكة ومفرطة الحلاوة بعد عام ، بعد نصف عام . . . اجل ، ان مفيستوفيل عاجز ، وسنه كليلة . . . وداعا .

صديقك ب . ب .

الرسالة الثامنة

من نفس المرسل والى نفس المرسل اليه

قرية «م» ٨ ايلول ١٨٥٠

صديقي الفاضل سيميون نيقولايتش !

اراك قد تأثرت من رسالتي الاخيرة اكثر من اللازم . انت تعرف ميلي الدائم الى تضخيـم مشاعري . وهذا يجري خارج ارادتي . طبيعة نسائية ! وسيزول هذا بالطبع مع مرور السنين ، ولكنني اعترف في حسرة بانني حتى الآن لم اسر نحو الاحسن . ولهذا يمكنك ان تطمئن . لا اريد ان انكر الاثر الذي تركته فيرا في نفسي ، ولكنني اقول لك ، على اية حال ، لا يوجد في كل هذا شيء غير اعتيادي . مجيئك الى هنا ، كما تكتب لي ، لا ضرورة له . فمن العبث ان تقطع الف فرسخ للاشيء ، بل سيكون ذلك طيشا ! ولكنني كثير الشكر لك على هذا الدليل الجديد لصداقتك ، ولن انساه ، صدقني . ثم ان سفرك الى هنا في غير اوانه ، اذ انا نفسي انوي السفر الى بطرسبورغ عن قريب . وساقص عليك الكثير ، وانا جالس على اريكتك ، اما الآن فلا ارغب في ذلك . اذ لا خير في ان اعود واثرثر من جديد ، واشوشك . ساكتب لك مرة اخرى قبيل سفري . فالى لقاء قريب اذن . اعتن بصحتك ، وامرح ، ولا تفجع كثيرا على مصير صديقك الوفي لك : ب . ب .

الرسالة التاسعة

من نفس المرسل والى نفس المرسل اليه

قرية «م» ١٠ آذار ١٨٥٣

تلقيت رسالتك منذ زمان ، ولم ارد عليها . طوال تلك الايام كنت افكر فيها . احسست انها مشبعة بالعطف الودي الصادق لا بالفضول الباطل . ومع ذلك فقد ترددت سائلا نفسي هل عليّ ان آخذ بنصيحتك وانفذ رغبتك ؟ واخيرا استقر رأيي ، وساقص عليك كل شيء . لا ادري هل سيخفف عني اعترافي ، كما تظن انت ، ولكن يخيل اليّ انني لا املك الحق في ان اخفي عنك ما غيّر حياتي الى الابد . بل ويبدو لي انني كنت سأبقى مذنبا . . . اواه ! واكثر ذنبا ازاء ذلك الطيف الحبيب الذي لا يُنسى ، اذا لم ابح بسرنا المؤسي الى القلب الوحيد الذي ما ازال اعتز به . ربما انت وحدك في الدنيا تتذكر فيرا ، وتحكم عليها دون اهتمام وبصورة خاطئة ، وهذا ما لا استطيع ان احتمله . فاعرفْ كلّ شيء ، اذن . اواه ، ان كل ذلك يمكن ان يعبر عنه بكلمتين . كل ما كان بيننا ، مرق خطفا كالبرق ، وكالبرق جلب الموت والدمار . . .

مر اكثر من عامين منذ ان فارقت الحياة ، منذ ان سكنتُ هذه البقعة النائية التي لن اغادرها ، حتى نهاية عمري ، ومع ذلك فان كل شيء ما يزال واضحا في ذاكرتي ، كل جراحي ما تزال حية ، كل مصابي ما يزال على مرارته . . . لا اريد ان اشكو . فالشكوى ، اذ توجج النفس ، تطفئُ الاسى . ولكن ليس اساي . ساقص عليك اذن .

هل تذكر رسالتي الاخيرة ، نفس الرسالة التي ظننت انني سابدد مخاوفك بها ، ولم انصحك بمغادرة بطرسبورغ ؟ لقد تشككت بطلاقتها المفتعلة ، ولم تصدق بموعدنا في المستقبل القريب . وكنت محقا في ذلك . في عشية اليوم الذي كتبت فيه لك ادركت انها تعشقني .

بعد ان خططت هذه الكلمات ادركت مبلغ الصعوبة التي ساواجهها في الاستمرار برواية قصتي حتى نهايتها . فان فكرة موتها الملحاحة ستعذبني بقوة مضاعفة ، وستحرقني هذه الذكريات . .

ولكنني ساحاول السيطرة على نفسي ، واما ساتوقف عن الكتابة ، واما ساتحفظ عن قول كلمة لا ضرورة لها .

كيف عرفت ان فيرا تحبني ؟ قبل كل شيء يجب ان اقول لك (وعليك ان تصدقني) انني حتى ذلك اليوم ، لم اخمن بشيء قطعا . حقا كانت في بعض الاحيان تستغرق في تفكير ، وهو شيء لم يكن لها من قبل ، ولكنني لم اكن افهم سبب هذا الاستغراق . واخيرا في احد الايام ، اليوم السابع من ايلول — وهو يوم مشهود بالنسبة لي — حدث ما يلي . انت تعرف كم كنت احبها ، وكم قاسيت من ذلك . همت على وجهي كالخيال ، لا استقر في مكان . واردت البقاء في البيت ، ولكنني لم اصطبر ، وذهبت اليها . وجدتها وحدها في غرفة المكتب . ولم يكن برييمكوف في البيت . خرج الى الصيد . وعندما دخلت عليها تفرست فيّ ، ولم تجب على تحيتي . كانت جالسة عند النافذة ، وعلى ركبتيها كتاب عرفته على الفور . كان كتابي «فاوست» . كان التعب مرتسما على وجهها . جلست قبالتها . طلبت ان اقرأ لها جهارا مشهد فاوست وغريتخين ، حيث تسأله هذه هل يؤمن بالله . تناولت الكتاب ، واخذت اقرا . وعندما فرغت تطلعت اليها . كانت تسند راسها على ظهر الكرسي ، وتصالب ذراعيها على صدرها ، وهي ما تزال تتفرس فيّ .

ولا اعرف لماذا خفق قلبي فجاة .

قالت بصوت بطيء :

— ماذا فعلت بي ؟

قلت بارتباك :

— كيف ؟

كررت :

— نعم ، ماذا فعلت بي ؟

شرعت اقول :

— هل تريدين ان تقولي : لماذا اقنعتك بقراءة مثل هذه الكتب ؟

نهضت صامتة ، وخرجت من الحجرة . نظرت في اثرها . توقفت على عتبة الباب ، والتفتت نحوي . وقالت :

— انا احبك . هذا ما فعلته بي .

اندفع الدم الى راسي . . .

رددت فيرا :

– انا احبك ، اعشقك .

وخرجت ، واغلقت الباب وراءها . لا اريد ان اصف لك ما حدث لي عندئذ . اتذكر انني خرجت الى الحديقة ، وتوغلت في اعماقها ، واتكأت على شجرة ، ولا ادري كم من الوقت ظللت على هذه الحال ، وكانني قد تجمدت . كان شعور الهناءة يغمر قلبي كالموجة من حين لآخر . . . لا ، لا اريد ان اتحدث عن هذا . اخرجني صوت برييمكوف من انصعاقي . كانوا قد ارسلوا مَنْ ينبؤه بقدومي ، فعاد من الصيد ، وراح يبحث عني . وقد اندهش ان يراني وحيدا في الحديقة ، حاسر الراس ، ورافقني الى البيت . وقال : «زوجتي في غرفة الجلوس . فلنذهب اليها» . ويمكنك ان تتصور اية مشاعر خامرتني ، وانا اتخطى عتبة غرفة الجلوس . كانت فيرا جالسة في ركن تطرز . رمقتها بنظرة مختلسة ، وبعدها بقيت وقتا طويلا لا ارفع عينيّ . ولدهشتي كانت هادئة ، لم اسمع نبرة هلع في صوتها حين اخذت تتحـدث . واخيرا عزمت ان انظر اليهـا . التقت نظراتنا . . . احمرت هي قليلا ، وانحنت على طرة التطريز . ورحتُ اراقبها . بدت كالحائرة ، ومن حين لآخر كانت ابتسامة ساخرة حزينة تمس شفتيها .

خرج برييمكوف . فرفعت رأسها فجأة ، وسألتني بصوت عال الى حد كاف :

– ماذا تنوي ان تفعل الآن ؟

ارتبكت ، واسرعت اجيب بصوت كامد انني انوي اداء واجب رجل نزيه ، واغادر . واضفت قائـلا : «لانني احبـك ، فيرا نيقولايفنا ، ولعلك لاحظت ذلك منذ زمن بعيد» . انكبت على طرة التطريز ثانية ، وغرقت في افكارها . ثم قالت :

– عليّ ان اتحدث معك . تعال الى بيتنا الصغير مساء اليوم بعد الشاي . . . انت تعرفه ، قد قرات فيه «فاوست» .

قالت ذلك بوضوح شديد ، حتى انني ، لحد الآن ، لا افهم كيف ان برييمكوف الذي دخل الغرفة في تلك اللحظة ذاتها لم يسمع شيئا . وسار ذلك اليوم ببطء ، وببطء معذّب . كانت نظرات فيرا احيانا تبدو كالمتسائلة : أصاحبتها في حلم ام يقظة ؟ وفي نفس الوقت كان الحزم يرتسم على وجهها . اما انا . . . انا لم

استطع ان افيق على نفسي . فيرا تحبني ! كانت هاتان الكلمتان تدوران في ذهني بلا انقطاع ، ولكنني لم اكن افهمهما ، مثلما لم اكن افهم نفسي ولا افهمها هي . لم اصدق بهذه السعادة المباغتة ، بهذه السعادة الصاعقة . ورحت استرجع الماضي بجهد ، وكنت اتطلع ايضا ، واتحدث وكانني في حلم . . .

وبعد الشاي ، حين اخذت افكر في الطريقة التي انسل بها من البيت غير ملحوظ ، اعلنت هي فجأة بأنها تود ان تتمشى ، وعرضتْ عليّ ان ارافقها . نهضتُ ، وتناولتُ قبعتي وانسللتُ وراءها . لم اجرأ على مبادرتها بالحديث ، وما كدت التقط انفاسي ، منتظرا كلمتها الاولى ، منتظرا ايضاحات ، ولكنها صمتت . ووصلنا الى البيت الصيني صامتين ، ودخلناه صامتين ، وعند ذاك – انا لحد الآن لا ادري ، ولا استطيع ان افهم كيف حصل ذلك – عند ذاك وجدنا انفسنا واحدنا يعانق الآخر . ان قوة غير مرئية القتني اليها ، والقتها اليّ . في ضوء النهار المتضائل ، اضاءت فورا وجهها ذا الخصائل المرسلة الى الخلف ابتسامة تجلٍ وهناءة ، وانطبقت شفاهنا بقبلة . . .

كانت القبلة الاولى والاخيرة .

فجأة انتزعت فيرا نفسها من بين يديّ ، وارتدت الى الخلف والفزع باد في عينيها المتسعتين . . .

قالت بصوت راعش :

– انظر الى الخلف . الا ترى شيئا ؟

التفت بسرعة .

– لا شيء ، وهل رايت شيئا حقا ؟

– الآن لا ارى . ولكن رايت .

كانت تتنفس انفاسا عميقة متباعدة .

– مَنْ ؟ ما ؟

– امي .

تفوهت ببطء ، وراحت ترتعش بكل كيانها .

وارتعدت انا ايضا ، وكان برودة غمرتني . تملكني الرعب فجأة ، وكانني مجرم . ولكن احقا انني لم اكن مجرما في تلـك اللحظة ؟

قلت :

– كفاك ! ماذا بك ؟ الافضل ان تقولي لي . . .
قاطعتني :
– لا ، من اجل الرب ، لا ! – وامسكت راسها . – هذا جنون . . . انا اجن . . . لا يجوز المزاح في هذا . هذا موت . . . وداعا . . .
مددّت لها ذراعيّ .
– قفي ، من اجل الرب ، قفي لحظة ، – هتفت بنوبة لاارادية . ولم اعرف ما كنت اقوله . ما كدت اقف على قدمي . – من اجل الرب . . . هذه قسوة .
رمقتني بنظرة ، وقالت :
– غدا ، غدا مساء . ليس اليوم ، ارجوك . . . سافر اليوم . . . وغدا مساء تعال الى بوابة الحديقة ، عند البحيرة . ساكون هناك ، سآتي . . . اقسم لك انني سآتي . – اضافت ذلك بهيام ، ولمعت عيناها . – لن يوقفني احد ، اقسم لك ! سابوح لك بكل شيء . فقط ان تتركني اليوم .
واختفت قبل ان استطيع التفوه بكلمة .
وقفت في مكاني مصعوقا الى الاعماق . وكان راسي يدور ، وشعور الوحشة يتسلل اليّ من خلال الفرحة الطاغية التي افعمت كياني كله . . . تلفت فيما حولي . بدت رهيبة لي الحجرة الخاوية الرطبة التي تحتويني بسقفها المعقود الواطئ ، وجدرانها الداكنة .
خرجت ، وسرت نحو البيت بخطى متثاقلة . كانت فيرا بانتظاري في الشرفة العريضة . دخلت البيت حالما اخذت اقترب ، ولاذت الى مخدعها على الفور .
غادرت .
لا استطيع ان اصور كيف قضيت الليل ، والنهار التالي الى المساء . اتذكر فقط انني استلقيت منكفئا ، مخفيا وجهي بين يديّ ، ورحت استرجع ابتسامتها قبيل القبلة ، واهمس : «ها هي اخيرا . . .»
كما تذكرت كلمات يلتسوفا التي ذكرتها فيرا لي ! فقد قالت لها ذات مرة : «انت كالجليد . ما دام لا يذوب ، فهو صلب كالحجارة ، وحين يذوب ، لا يبقى منه اثر» .

وشيء آخر خطر في ذاكرتي . ذات مرة تحدثنا ، فيرا وانا ، عن معنى القابلية ، الموهبة . قالت :
– لا املك الا قابلية واحدة ، وهي ان اصمت الى آخر لحظة .
آنذاك لم افهم شيئا .
سالت نفسي : «ما معنى ذعرها هذا ؟ . . معقول انها رات يلتسوفا حقا ؟ تخيل !» فكرت بذلك ، واستسلمت الى احاسيس الانتظار من جديد .
في ذلك اليوم كتبت لك تلك الرسالة المتحايلة . ويرهبني ان اتذكر اية افكار ضمنتها .
في المساء ، وقبل ان تافل الشمس ، كنت على بعد حوالي خمسين خطوة من بوابة الحديقة ، في اجمة الصفصاف العالية الكثيفة على شاطئ البحيرة . جئت من بيتي ماشيا . واعترف خجلا ان رعبا خوارا الى اقصى حد ، يملأ صدري ، فكنت ارتعد باستمرار . . . ولكنني لم اشعر بندم . اختفيت بين الاغصان ، وسمّرت بصري على البوابة . ولم تنفتح . ها هي الشمس قد غربت ، وانسل المساء ، وطلعت النجوم ، واظلمت السماء . ولم يظهر احد . اعترتني حمى . هبط الليل ، ولم اعد اصطبر اكثر ، فخرجت من الاجمة بحذر ، وانسللت نحو البوابة . كان كل شيء هادئا في الحديقة . ناديت «فيرا» بهمس ، وناديت مرة ثانية ، وثالثة . . . ولم يلبني صوت . انقضى نصف ساعة ايضا ، انقضت ساعة . واحلولك الظلام تماما . واضناني الانتظار ، فسحبت البوابة نحوي وفتحتها دفعة واحدة ، واتجهت نحو البيت ، على اطراف اصابعي ، كاللص . وتوقفت في ظل اشجار الزيزفون .
كانت نوافذ البيت مضاءة كلها تقريبا . وكان الناس يروحون ويجيئون في الحجرات . ادهشني هذا . نظرت الى ساعتي . كانت ، بقدر ما اسعفني ضوء النجوم الخافت ، تشير الى الحادية عشرة والنصف . وفجأة صدرت كركبة من وراء البيت ، وطلعت عربة من الفناء .
فكرت مع نفسي : «ضيوف ، على ما يبدو» . وبعد ان فقدت كل امل في رؤية فيرا ، خرجت من الحديقة ، وسرت الى البيت بخطى سريعة . كان الليل حالكا من ليالي ايلول ، ولكنه دافئ ساكن الريح . والشعور الذي انتابني ، الشعور بالاسى اكثر من الشعور

بالضيق ، زايلني شيئا فشيئا ، فعدت الى البيت متعبا قليلا من المشي السريع ، ولكنني مطمئن من سكون الليل ، وسعيد ومرح تقريبا . دخلت الى غرفة النوم ، وصرفت تيموفي ، وارتميت على السرير ، بملابسي ، وغرقت في التفكير .

كانت احلامي في البداية بهيجة ، ولكن سرعان ما لاحظت على تغيرا غريبا . اخذت احس بوحشة خفية قارصة ، وقلق عميق في داخل نفسي . ولم استطع ان افهم سبب ذلك ، ولكنني احسست بالرهبة والكمد ، وكان مصابا وشيكا كان يتهددني ، كان شخصا حبيبا اليّ كان يتعذب في هذه اللحظة ، ويدعوني الى نجدته . كانت الشمعة على المنضدة تحترق بلهب صغير ساكن ، وبندول الساعة يدق ثقيلا موزونا . اسندت رأسي على يدي ، ورحت احدق في الظلام الخاوي لغرفتي المنعزلة . فكرت في فيرا ، فتوجعت روحي ، وبدا لي كل شيء سررت به كثيرا من قبل فاجعة ، وفقدا لا محيص منه ، كما كان فعلا . وصار شعور الوحشة يتنامى في داخل نفسي ويتنامى ، حتى لم اعد قادرا على مواصلة الاستلقاء على السرير ، وخيل اليّ مرة اخرى ان احدا يدعوني بصوت ضارع . . . رفعت رأسي ، وسَرت رعدة في اوصالي . لم تكن حواسي تخدعني . ان صيحة شاكية انطلقت من بعيد ، وارتطمت بزجاج النوافذ المعتم مرسلة هزيزا خفيفا فيه . احسست بالفزع ، وقفزت من السرير ، وفتحت النافذة . نفذ الانين الواضح في الغرفة ، وبدا وكأنه يدور فوقي . تجمد كياني كله من الهلـــع . ورحت اتشرب دفقاتـــه الاخيرة المتلاشية . لاح وكأن احدا ينحر في البعيد ، وهذا البائس يتضرع طلبا للرأفة . وفي حينها لم استطع ان اتبين مصدر هذا الصوت ، اهي بومة في الحرش ام مخلوق آخر ، ولكنني رددت على الصوت المشؤوم بصيحة ، مثلما مازيبا على صيحة كوتشوبيــه (٥٥) . ناديت :

– فيرا ، فيرا ! اهذه انت تدعينني ؟

ظهر تيموفي امامي ناعسا مذهولا .

تمالكت مشاعري ، وشربت قدح ماء ، وانتقلت الى حجرة اخرى ، ولكن النوم جفاني . كان قلبي يخفق خفقانا مؤلما ، وان كان غير متسارع . لم اعد استطيع الاستسلام لاحلام السعادة ، ولم اعد اجرؤ على التصديق بها .

في اليوم التالي قبيل الغداء، توجهت الى بريبمكوف . استقبلني بوجه مهموم . وبادرني قائلا :

– زوجتي مريضة ، طريحة الفراش ، وقد استقدمت طبيبا .

– ماذا بها ؟

– انا لا افهم . مساء البارحة خرجت الى الحديقة ، وفجأة عادت منها مذعورة مأخوذة . هرعت الخادم تستدعيني . فاهرع واسأل زوجتي ما بها ؟ ولا ترد هي بشيء ، وأوت الى فراشها حالا ، وفي الليل اخذت تهذي . والله يعلم ماذا قالت في هذياناتها . ذكرتك . وابلغتني الخادم بشيء عجيب ، زاعمة ان فيرا تراءت لها في الحديقة امها الراحلة ، ورأتها تتقدم نحوها مبسوطة الذراعين .

وتستطيع ان تتصور ما شعرت به ، وانا اسمع هذه الكلمات .

تابع بريبمكوف قوله :

– هذا هراء ، بالطبع ، ولكن يجب ان اعترف ان اشياء غريبة من هذا القبيل كانت تحصل لزوجتي .

– ولكن قل لي ، هل صحة فيرا نيقولايفنا متردية جدا ؟

– نعم ، متردية . في الليل كانت حالتها سيئة ، وهي الآن في غيبوبة .

– وماذا قال الطبيب ؟

– قال الطبيب : مرضها لم يتحدد بعد .

١٢ آذار

لا استطيع المضي بالطريقة التي بدأتها ، ايها الصديق الكريم . فان ذلك يكلفني جهودا جد كبيرة ، وينكأ جروحي بالـــم شديد . المرض قد تحدد ، على حد تعبير الطبيب ، وماتت فيرا من ذلك المرض . لم تقوَ على العيش اسبوعين بعد لقائنا الخاطف في ذلك اليوم المنحوس . رأيتها مرة اخرى قبل وفاتها وطلعت منها بذكرى هي اقسى ما لدي من ذكريات . عرفت مـــن الطبيب ألاّ امل في شفائها . وحين أوى جميع مَن في البيت الى اسرتهم ، وفي ساعة متأخرة من الليل انسللت الى باب مخدعها ، ونظرت فيه . كانت فيرا راقدة على السرير مغمضة العينين ، نحيفة صغيرة ، يتوهج خدّاها بوهج الحمى . نظرت اليها كالمتحجر ، وفجأة فتحت فيرا عينيها ، وسددتهما نحوي ، متفرسة فيّ ، مادة ذراعا ناحلة :

نطقت بصوت رهيب جدا جعلني الوذ بالفرار . كانت طيلة مرضها تقريبا تهذي بـ«فاوست» وامها التي كانت تسميها مارتا تارة وام غريتخين تارة اخرى .

ماتت فيرا . وحضرت جنازتها . ومنذ ذلك الحين تخليت عن كل شيء ، وسكنت هنا الى الابد .

فكّر الآن فيما حكيته لك ، فكر فيها ، في ذلك المخلوق الذي مات مبكرا جدا . انا لا اعرف ابدا كيف حدث هذا ، وكيف يفسَّر هذا التدخل غير المفهوم من جانب ميت في شؤون الاحياء ، ولكن يجب ان توافق على ان ما جعلني ابتعد عن المجتمع ليس هو نوبة من السوداوية النزقة ، على حد تعبيرك . لم استطع ان اظل كما عرفتني . فانا الآن اؤمن باشياء كثيرة لم اكن اؤمن بها من قبل . وطوال هذا الوقت كم فكرت في هذه المرأة (وكدت ان اقول : الفتاة) التعيسة ، وفي اصالتها ، وفي لعبة القدر الخفية ، ذلك القدر الذي نسميه ، نحن العميان ، بالمصادفة العمياء . ومن يدري كم يترك كل مخلوق يعيش على الارض ، من بذور مكتوب لها الا تنبت الا بعد وفاته ؟ ومَنْ يقول لنا اية سلسلة خفية تربط مصير الانسان بمصائر ابنائه ، خلَفه ، وكيف تنعكس عليهم مطامحه ، وكيف يؤخذ منهم ثمن اخطائه ؟ يجب علينا جميعا ان نتطامن ونحني رؤوسنا امام المجهول .

اجل . هلكت فيرا . وسلمت انا . اتذكر ، حين كنت صغيرا ، كانت في بيتنا مزهرية جميلة من الرخام الشفاف . لم تشب بياضها العذري اية شائبة . وذات مرة ، وقد بقيت وحيدا ، اخذت اهزّ القاعدة التي كانت تقف عليها . . . واذا بالمزهرية تسقط فجأة ، وتتهشم قطعا صغيرة . جمدت من الذعر ، ووقفت جامدا امام الحطام . ودخل ابي ، ورآني ، وقال : «انظر ماذا فعلت . لم تعد لنا مزهريتنا الجميلة ، ولا مجال لعودتها الينا» . فانفجرت باكيا . فقد خيل اليّ انني ارتكبت جريمة .

وها انا قد كبرت ، واذا بي احطم باستهانة اناء اثمن بالف مرة . . .

من العبث ان اقول لنفسي : ما كان في مقدوري ان اتوقع خاتمة خاطفة كهذه ، وقد ذهلت انا نفسي من وقوعها الفجائي . لم اكن افهم ان فيرا مخلوق بهذه الصورة . لقد كانت بالضبط تحسن الصمت الى آخر لحظة . كان ينبغي عليّ ان اهرب ، حالما شعرت بانني احبها ، احب امرأة متزوجة . ولكنني بقيت ، وحوّلت تحفة جميلة الى حطام ، وانا الآن انظر بيأس ابكم الى ما فعلته يداي .

نعم ، لقد كانت يلتسوفا تحرس ابنتها بغيرة . وقد صانتها حتى النهاية ، وعندما خطت اول خطوة غير حاذرة ، اخذتها معها الى القبر .

حان الوقت لانهي الموضوع . . . وانا لم اقص لك واحدا بالمائة مما كان ينبغي ان اقصه عليك . ولكن كفاني هذا . فليعد الى قرارة نفسي كل ما طفح على السطح . . . وفي الختام اقول لك : لقد خرجت من تجربة السنين الاخيرة بقناعة واحدة ، وهي ان الحياة ليست مزاحا ولا لهوا ، بل ولا متعة . . . الحياة كدح شاق . والزهد ، الزهد الدائم هو سرها الخفي ، حل لغزها . والانسان ينبغي ان لا ينشغل بتحقيق الافكار والاحلام الحبيبة الى نفسه مهما تكن رفيعة ، وان يؤدي واجبه . ولن يستطيع الوصول الى نهاية شوطه ، دون ان يسقط ، الا اذا شد نفسه بالسلاسل ، بسلاسل الواجب الحديدية . ونحن في سن الشباب نفكر : كلما تحررنا اكثر كان ذلك افضل ، وابعد مرمى . والشباب مباح له ان يفكر هذا التفكير . ولكن من العيب تسرية النفس بالخداع ، حين يتكشف وجه الحقيقة الصارم اخيرا ، ويجابهك عينا بعين .

وداعا ! ومن قبل كنت اضيف : اتمنى لك السعادة . اما الآن فاقول لك : جاهد ان تعيش ، وليس هذا بالامر السهل كما يبدو . وتذكرني لا في ساعات الاسى ، بل في ساعات التأمل ، واحتفظ في قلبك بصورة فيرا بكل طهارتها النقية . . . ووداعا مرة اخرى !

عام ١٨٥٦ — صديقك ب . ب .

---

* Was will er an dem heiligen Ort,
Der da... der dort...

المشهد الاخير من الجزء الاول من «فاوست» **(الملاحظة للمؤلف)** .

آسية (٥٦)

١

بدا ن . ن . حديثه فقال : كنت وقتئذ في الخامسة والعشرين من عمري ، فانت ترى أن كان قد عفى عليه الزمان . كنت قد تحررت من قيود الوصاية واعتزمت السفر الى الخارج ، لا من أجل انهاء التحصيل كما كان يقال في ذلك الحين ، وانما بدافع الرغبة في الفرجة على أرض الله الواسعة ، كنت موفور الصحة والشباب ، كثير المال ، خليّ البال ، أعيش ليومي ، واحقق ما أشتهي ، مجمل القول : كنت أتفتح ولم يخطر لي آنئذ أن الانسان ليس نباتاً وان ازدهاره لن يدوم طويلا ، فان الشباب يأكل الكعك المذهب ويرى ان هذا خبز حياته اليومية ، ثم يأتي وقت ، فاذا به يتمنى ولو كسرة من الخبز . ولكن ليس هنا بيت القصيد .

كان ترحّلي غير مقيد بهدف او خطة ، فكنت أتريث في المكان الذي يطيب لي ، واغادره الى مكان آخر حينما أستشعر الرغبة في رؤية وجوه جديدة ، فما كان ليجتذبني الا الوجوه بالذات ، فأن اهتمامي كله قد انصرف الى الناس . كانت نفسي تنبو عن الاماكن التاريخية التي تثير الفضول ، وتجفو الاوابد الباهرة ، حتى ان سحنة الدليل كانت تثير في نفسي شعوراً بالضيق والنفور ، وقد قز عصبي وانا في «الغريونه – غيفولبه» (٥٧) بمدينة درسدن . كانت الطبيعة تترك في نفسي اعمق اثر ، ولكني لم أعلق بما يسمى محاسن الطبيعة ، كالجبال الشاهقة والصخور الهائلة والشلالات الفريدة ، فقد كرهت أن تفرض الطبيعة نفسها عليّ وتتحكم في امري ، أما الوجوه الحية ، الوجوه البشرية ، أحاديث الناس وحركاتهم وضحكاتهم ، فان هذا ما كان يستعصى عليّ أن استغني عنه . كنت اشعر وانا في غمار الناس بأني مستخفّ بالنشوة ، مغتبط في

ان اسير حيث يسيرون واصرخ حين يصرخون ، كان يشوقني في الوقت نفسه ان ارى اليهم وهم يصرخون ، واعظم ما يمتعني ان اراقب الناس . . . لم اكن اراقبهم ، بل كنت اتفحصهم بشيء من الفضول المنهوم الممراح . ولكن ها انذا اجنح عن الموضوع من جديد .

واذن فقد كنت أعيش قبل عشرين سنة في مدينة «ز» ، وهي مدينة المانية صغيرة تقوم على الضفة اليسرى من نهر الراين . كنت التمس العزلة بعد اصابة في القلب احدثتها ارملة شابة التقيتها عند الينابيع ، كانت رائعة الجمال ذكية مغناجة تغازل كل من هب ودب ، ذهبت تشجعني – انا المارق – أول الامر ، فلما علقتها طعنت قلبي بقسوة ، فهجرتني وذهبت وراء ضابط بافاري احمر الخدين ، واعترف بأن الجرح لم يكن عميقاً في قلبي ، ولكن رايتني مضطرا الى الاستسلام للأسى والعزلة بعض الوقت – وهل من شيء لا يتسلى به الشباب ؟ – فنزلت على مدينة «ز» .

اعجبتني هذه المدينة بموقعها القائم على السفح بين هضبتين مرتفعتين ، وبأسوارها وقبابها المتداعية ، وزيزفونها العتيق ، وجسرها المتقنطر على النهر الوضّاء الذي يرفد نهر الراين . أسغت على الخصوص نبيذها الطيّب . عند غروب الشمس في الأمسيات (كنا وقتئذ في شهر حزيران) كانت الالمانيات الشقراوات الجميلات ، يتنزهن في شوارع المدينة الضيقة ، ويحيين الأجانب بصوت رقيق ودود قائلات : «Guten Abend!» * كان البعض منهن يمضي في النزهة الى ما بعد طلوع القمر وارتفاعه من وراء السطوح الحادة التي تظل البيوت العتيقة ، وانعكاس ضوئه في مايبرز من دقائق الحجر المنتثر على ارض الشارع . عندئذ كان يطيب لي ان اطوف على انحاء المدينة ، والقمر يبدو كانه يتاملها من سمائه الصافية ، والمدينة تشعر بهذه النظرة فتتصدى لها في هدوء ، وتغرق في ضوئه الذي يأخذها من كل جانب ، ذلك الضوء الرقيق الذي تهدأ له النفس وتضطرب في آن . والديك الذهبي فوق الابراج القوطية القديمة المستدقة في أعلى يتألق بلونه المذهب الشاحب ، ومثل هذا اللون المذهب ينتشر على صفحة النهر السوداء ، والشموع النحيلة (فإن الالمان معروفون بالحرص) تتوقد بتواضع في النوافذ

* بالالمانية : مساء الخير ! **(المعرب)** .

الضيقة تحت السقوف القرميدية ، وتبرز من وراء الاسوار الحجرية بطريقة مستخفية فروع الكرمة بذوائبها الملتوية ، وطيف غامض يمرق في الظل قرب البئر القديمة القائمة في الساحة المثلثة الاطراف ، وتقطع السكون على حين غرة صفرة ناعسة من حارس ليل ، ونبحة خافتة من كلب مسالم ، والهواء يجمّش الوجوه ، واشجار الزيزفون يضوع منها اريج عذب يغري الصدور بان تعبّ منه حتى الامتلاء ، وكلمة «غريتهين» تتردد على الشفاه في الأخذ والرد بين البادئين بالتحية وبين من يردونها .

تقع مدينة «ز» على مسافة فرسخين من نهر الراين ، كنت في اكثر الاحيان امشي للتمتع بمراى هذا النهر الجليل وانا متوفز الخاطر افكر في الارملة الغادرة ، فاقضي الساعات الطويلة جالساً على مسطبة حجرية في ظل سنديانة ضخمة منعزلة ، من خلال اغصانها كان تمثال صغير للعذراء لها وجه طفولي يرنو في اسى وعلى صدرها قلب في لون الدم غرزت فيه سيوف . وعلى الضفة المقابلة تقع مدينة «ل» ، وهي اكبر قليلا من المدينة التي نزلت فيها . كنت اجلس في احدى الامسيات على مسطبتي الاثيرة أسرح بصري في ابعاد النهر ومراقي السماء او في حقول الكرمة ، وامامي كان صبيان شقر يتسلقون جوانب زورق مسحوب على الشاطئ مقلوب على جوفه المطلي بالزفت . والمراكب الصغيرة تنساب في هدوء وقد نشرت اشرعة مسترخية ، والامواج الخضر تتدافع وتتواثب قليلا وهي تضوضي في خفوت ؛ وفجاة بلغت سمعي انغام موسيقية . اصغيت ، فتبينت انها موسيقى فالس تعزف في مدينة «ل» ، كان البوق الجهير يزفر في ايقاع متقطع ، والكمان يئن بنغمات غامضة ، والناي يصفر في مرح ، فسالت شيخاً كان مقبلا علي ، في صدار من المخمل ، وجوربين طويلين ازرقين ، وخفين مزينين بقفل :

— ماذا هناك ؟

فاجاب وهو ينقل غليونه من زاوية فمه الى اخرى :

— انهم الطلبة اقبلوا من مدينة «ب» ليقيموا احتفال «الكوميرش» .

فقلت في نفسي : «أريد ان أرى هذه الحفلة ، ثم اني لم ازر مدينة «ل» من قبل» . وذهبت ابحث ، حتى صادفت صاحب زورق حملني الى الضفة المقابلة .

٢

قد يكون هناك من لا يعرف شيئاً عن هذا الاحتفال . انه نوع خاص من الاعياد المهيبة ، يجتمع فيها طلبة مقاطعة واحدة او رابطة واحدة (Landsmannschaft) ، ويرتدي اكثر المشتركين في الاحتفال زي الطلبة الالمان التقليدي ، وهو سترة على الطرز المجري ، وحذاء عال ، وقبعة صغيرة مزينة بشريط له لون خاص . ويجتمعون كالعادة على مائدة غداء يرعاها اكبرهم سنا ويسمونه «السينيور» ، ويمضون حتى الصباح في اكل وشرب وتدخين وفي انشاد اغاني الطلبة (Landesvater, Gaudeamus) وإلقاء الخطب الهجائية التي يسخرون فيها من المتزمتين ، وقد يستأجرون فرقة موسيقية لهذه المناسبة .

كان احتفال «الكوميرش» يجري على هذه الصورة نفسها في مدينة «ل» . فقد اقيم في حديقة تطل على الشارع امام فندق صغير يسمى «فندق الشمس» . فارتفعت الاعلام فوق الفندق وفي الحديقة ، وتحلّق الطلبة حول موائد صفت تحت زيزفونات مشذبة الاغصان ، واقعى كلب ضخم تحت احدى هذه الموائد ، واخذ افراد الفرقة الموسيقية مكانهم تحت عريشة لبلاب قائمة في طرف الحديقة ، وراحوا يعزفون بالآلات الموسيقية في اجتهاد ويجددون القوة بين الحين والآخر بجرعات من البيرة . واحتشد في الشارع قرب سياج الحديقة الواطئ جمع غفير من الناس . فقد شاء سكان مدينة «ل» الاطياب الاّ تفوتهم هذه الفرصة السانحة فجاءوا يمتعون النظر بمراى ضيفان بلدتهم . فانضممت ايضاً الى جمهور المتفرجين . وكان الطرب يستخفني وانا ارى الى وجوه هؤلاء الطلبة ، فأن ما يتبادلونه من العناق ، وما يطلقونه من الصيحات ، وما يتظاهرون به من الزهو البرئ الذي ينتفخ به عود الشباب ، وما اراه من نظراتهم المتوقدة وضحكهم الذي يرسلونه دون سبب — وهو امتع ضحك في الحياة — وهذا الغليان الممراح في حياة الشباب الطري ، وهذا الاندفاع ابداً الى امام — في اي سبيل على ان يتجه الى الامام فقط — وهذه الآفاق المفعمة بالطيبة ، كل ذلك اثر في نفسي والهبني حتى لقد ساءلت نفسي : «ألا من سبيل الى مشاركتهم بما هم فيه ؟» . . .

وفجأة سمعت صوت رجل يقول من ورائي بالروسية :

– اما اكتفيت من المشاهدة يا آسية ؟

فاجاب صوت فتاة باللغة نفسها :

– لنتريث قليلا .

فاستدرت براسي في سرعة . . . فوقع بصري على شاب حسن الوجه ، في سترة عريضة ، على راسه كاسكيت ، يتأبط ذراع فتاة ربعة القامة يختفي الجزء الاعلى من وجهها بقبعتها المصنوعة من القش .

– اانتم روس ؟

انزلق هذا السؤال من لساني على الرغم مني ، فابتسم الشاب وقال :

– أجل ، نحن روس .

فقلت لآخذ باطراف الحديث :

– ما كنت لأتوقع . . . في هذا المكان النائي .

فقاطعني قائلا :

– ونحن ايضاً لم نتوقع . لا بأس ، فانها فرصة طيبة . اسمح لي بان أقدم اليك نفسي : اسمي غاغين ، وهذه . . . . – وتوقف لحظة ثم قال : – انها اختي ، فما اسمك اذا سمحت ؟

ذكرت له اسمي ، ثم ولجنا باب الحديث . فعرفت أن غاغين مثلي يلتمس المتعة في الترحال ، وأنه حل بمدينة «ل» منذ اسبوع فعلقها . ولم اكن – والحق يقال – لأستشعر رغبة في التعرف الى مواطنيّ الروس في المغترب . كنت أستطيع ان أميزهم حتى من بعيد ، بمشيتهم وهندامهم وبتعبير وجوههم على الخصوص ، وهو ينطق بالاعتداد والكبرياء ، وبالسلطان في الاغلب . ولكن هذا يتحول فجأة فيفصح التعبير عن الحذر والتهيب . . . فاذا المرء منهم نهب للقلق ، تتلفت عيناه بحركات المستريب . . . فكأن نظرته السريعة تقول : «آه يا رب ! لعلني استغفلت ، هل كانوا يضحكون مني ؟» . . . ولا تمر لحظة حتى تكون الملامح قد عادت الى وقارها ، غير دهشة جوفاء تشوبها بين حين وآخر . اجل ، كنت اتجنب صحبة الروس ، ولكن غاغين اعجبني في الحال ، فهناك وجوه محظوظة يحب كل امرئ ان يطيل النظر فيها ، فكأنها تدفئك وتلاطفك ، وكان وجه غاغين منها ، فهو مليح ودود ، بعينين واسعتين وديعتين ،

١٥٠

وشعر ناعم متموج . فاذا تكلم شعرت من نبرات صوته ، دون ان ترى وجهه ، بانه يبتسم .

اما الفتاة التي قال إنها اخته ، فقد بدت لي منذ النظرة الاولى رائعة الجمال ، كان في قسماتها تفرّد فذ ، وبخاصة في وجهها المستدير المشرب بسمرة خفيفة ، وفي أنفها الصغير الدقيق ، وخديها الشبيهين بخدود الاطفال ، وعينيها السوداوين المتالقتين ، وقوامها الفارع المتناسق ، ولكنها رغم هذا لم تكن تبدو مكتملة النضج ، ولم تكن لتشبه اخاها في شيء .

وقال غاغين يخاطبني :

– هل ترغب في أن تزورنا ؟ يخيل الي اننا تمتعنا حتى شبعنا من النظر الى الالمان . انهم اكثر تواضعاً مما ينبغي ، ولو كانت جماعتنا في مكانهم لكسروا الزجاج وحطموا الكراسي . ما رايك يا آسية ، أما آن لنا أن نمشي الى البيت ؟

فوافقت الفتاة بايماءة من راسها ، فاضاف غاغين :

– اننا نقيم في بيت منعزل وراء المدينة ينهض فوق مرتفع تحيط به أشجار الكرمة ، كل ما حولنا خلاب ، وقد وعدت ربة البيت بان تهيئ لنا بعض اللبن الرائب ، ثم ان الظلام سيخيم بعد قليل ، فالأحسن لك ان تنتظر حتى يطلع القمر لتعبر النهر في ضوئه .

واخذنا طريقنا حتى خرجنا الى الحقول عبر بوابات المدينة الواطئة (كانت المدينة محاطة من كل جهاتها بسور قديم من الصخر ولا تزال تحتفظ ببعض الكوى الحربية) بعد أن سرنا مئة خطوة على طول السور الحجري ، توقفنا امام باب ضيق ، ففتحه غاغين ومشى بنا في درب مصعّدة حادة تقود الى الجبل . كانت أشجار الكرمة قائمة على الجانبين ، والشمس قد غربت في تلك اللحظة ، وتركت وراءها خيطاً قانئاً رقيقاً من نور الشمس انسكب على عناقيد العنب وتيجان الازهار العالية وعلى الارض الجافة التي انتثرت عليها حجارة من الكلس متفاوتة في الحجم وعلى الجدار الابيض من بيت صغير ذي عوارض سوداء مائلة واربع نوافذ مضيئة كان يقوم في أعلى الجبل الذي نصعد فيه .

وصاح غاغين حينما اقتربنا من البيت الصغير :

– هذا هو منزلنا ! وتلك ربة البيت تحمل اللبن .

• Guten Abend, Madame! سنتناول الطعام الآن ، ولكن متع البصر فيما حولك اولا – اضاف غاغين – فهل رأيت أمتع واروع ؟

كان المنظر رائعاً في الواقع ، فان نهر الراين يمتد تحت ابصارنا شريطاً من الفضة بين شاطئين أخضرين ، ويتوهج في ناحية منه بحمرة قانئة ؛ كشفت المدينة التي ركنت الى احضان الشاطئ عن بيوتها وشوارعها جميعاً ، وامتدت التلال والحقول على مدى بعيد . كان المنظر من تحتنا بديعاً ، ولكنه في أعلى ابدع ، واشد ما استاسر اعجابي صفاء السماء وعمقها ، وهذا الشفف المضيء في الجو . كان الهواء النقي اللطيف يرتعش في وداعة وينساب في موجات هادئة فكأنه وجد منطلقه الرحيب في هذا المرتفع .

وهمست قائلا :

– لقد أحسنت اختيار موقع سكنك .

فاجاب غاغين :

– انها آسية التي اختارته .

واضاف :

– هلمّي يا آسية اصدري امرك بأن يحمل الطعام الى هنا فنتناول العشاء في الهواء الطلق وتسمع الموسيقى من مكاننا على نحو اوضح . . .

واستطرد يوجه الحديث اليّ :

– هل لحظت ان الفالس يبدو لك تافهاً مبتذل النغمات وأنت تسمعه من قريب ، ولكنه يغدو رائعاً وهو يترامى من بعيد ، ويهز في أعماقك أوتار العاطفة .

توجهت آسية الى البيت (اسمها الحقيقي آنّا ولكن غاغين كان يناديها آسية ، واستاذنكم في ان أدعوها بهذا الاسم) وما لبثت ان عادت ومعها ربة الدار ، وبينهما طبق كبير تعاونتا على حمله ، فوقه وعاء لبن وخبز وفاكهة وسكر وصحون وملاعق . جلسنا الى العشاء ، وخلعت آسية قبعتها ، كان شعرها الاسود مشذبا ممشطاً كشعر صبي ، فاذا به يتهدل في جدائل كثيفة على عنقها واذنيها . كانت تتهيبني أول الامر ، ولكن غاغين قال لها :

– كفاك انطواء يا آسية فانه لا يعض .

* مساء الخير يا سيدتي ! (بالالمانية في الاصل) .

16—

فابتسمت الفتاة ، وما لبثت بعد وقت قصير حتى بدأتني هي بالحديث . لا اذكر انني رأيت مخلوقاً يشبهها في كثرة الحركة ، فما كانت تستقر في مجلس ولو لحظة واحدة ، فهي قائمة قاعدة مسرعة الى البيت او عائدة منه . وقد تغني بصوت خفيض او تضحك على نحو غريب ، فكأنها تضحك لما يخطر لها من الافكار لا لما تسمعه من الحديث . كانت عيناها الواسعتان ترسلان نظرات مستقيمة فيها صراحة وجراة ، ولكن جفونها كانت تنضم بين الحين والآخر فتصبح نظراتها عميقة وديعة .

استمر الحديث بيننا ساعتين . كان ضوء النهار قد انطفأ منذ وقت بعيد ، وذاب المساء في حنايا الليل ، زحف في اوّله متوهجاً كاللهب ، ثم صار الى حمرة قانئة صافية ، وما لبث حتى شحب واعتكر . ومضى حديثنا سمحاً هادئاً كالجو المحيط بنا . طلب لنا غاغين زجاجة من نبيذ «الراين» ترشّفنا خمرتها في تمهل ، ولم ينقطع صوت الموسيقى خلال ذلك ، ولكنه على ما خيل الينا أصبح ارق واعذب ، وتلألأت الانوار في المدينة وفوق النهر . أطرقت آسية فجاة براسها فسقطت خصلات من شعرها على عينيها ، وامسكت عن الحديث وتنهدت ، ثم قالت انها راغبة في النوم ، وقامت تسعى نحو البيت ، ولكني رأيتها تقف وراء نافذتها المغلقة دون ان توقد الشموع ، وبقيت في وقفتها وقتاً طويلا . ثم طلع القمر ، واخذ ضوؤه يداعب وجه الراين ، فضاءت أشياء وتعتمت أشياء ، وطرأ عليها التبدل ، حتى ان ثمالة كؤوسنا كانت تتألق بوميض خفي . وسكنت حركة الانسام ، فكأنها الطير قد طوت اجنحتها وتجمدت ، وانبعث من الارض دفء مسائي عاطر . فهتفت قائلا :

– حان وقت العودة الى البيت ، وقد لا اجد نوتياً ينقلني .

فردد غاغين :

– حان الوقت .

وسلكنا درباً ضيقاً في هبوطنا . وفجاة تدحرجت الحجارة من ورائنا . كانت آسية تجري في إثرنا .

سالها اخوها :

– اما كنت نائمة ؟

ولكنها جاوزتنا دون ان تجيب بكلمة . كانت بقايا شاحبة

من النار التي أوقدها الطلبة في حديقة الفندق تضيء أوراق الاشجار من أسفل وتضفي عليها رونقاً وسحراً . وجدنا آسية على الشاطئ ، كانت تتحدث الى نوتي ، فقفزت الى الزورق وانا أودع صديقيّ الجديدين ، ووعدني غاغين بان يزورني في الغد ، فشددت على يده ، ثم مددت يدي الى آسية ، فرفضت بايماءة من رأسها وهي تنظر اليّ . واندفع القارب في مجرى النهر السريع ، وضرب النوتي – وهو شيخ نشيط الحركة – مجذافيه في الماء الداكن بقوة .

وصرخت آسية :

– انك صدمت عمود القمر ، فجعلته حطاماً .

تحول بصري الى اللجة . كانت الامواج تتدافع حول القارب مربدة سوداء .

وعاد صوت آسية يدوي :

– وداعاً .

فصاح غاغين في أثرها :

– الى الغد .

توقف القارب فقفزت منه الى الارض وانا انظر الى الوراء ، كان الشاطئ المقابل خالياً ، وعاد عمود القمر يمد جسراً من الذهب عبر النهر كله . وبلغت سمعي نغمات فالس قديم من وضع لانير (٥٨) فكأنها تودعني . كان غاغين على حق فان اوتار قلبي جميعاً قد ارتعشت تجاوباً مع تلك النغمات المبتهلة المسترحمة .

اتخذت سبيلي الى البيت عبر الحقول المظلمة وانا أترشف الهواء المشبع بعبير الازهار ، ثم بلغت غرفتي وملء نفسي احساس شفاف بهذا الارهاق العذب التي عانيته من الحاح أمنيات لا نهاية لها ولا هدف . شعرت بانني سعيد . . . ولكن ممّ هذه السعادة ؟ لم اكن راغباً في شيء ولا مفكراً في شيء . . . كنت سعيداً .

استلقيت على السرير وانا اكاد استغرق في الضحك طرباً لهذا الفيض من الاحاسيس اللذيذة المرحة الذي يملأ نفسي ، وتذكرت حين اخذ النعاس يثقل اجفاني ان ذكرى الارملة الحسناء القاسية لم تخطر على بالي ولو مرة واحدة طوال هذا المساء . . . فسألت نفسي : «ما معنى هذا يا ترى ؟ هل فرغت من حبها ؟» ويبدو انني غرقت في النوم بعد هذا السؤال ، فرقدت كأنني طفل في مهد .

٣

في الصباح (كنت قد استيقظت ولكني لم أبرح فراشي) سمعت دقات عصا قرب نافذتي ، وصوتاً عرفت في الحال أنه صوت غاغين ، وكان ينشد هذه الاغنية :

أأنت نائم ؟
اذن ساوقظك بقيثارتي . . . (٥٩)

اسرعت أفتح له الباب . فحياني غاغين وهو يدخل وقال :

– ازعجتك في هذا الوقت الباكر ، ولكن انظر فما أجمل هذا الصباح . فهو طراوة ونداوة وتغريد طير . . .

كان غاغين يبدو طرياً كالصباح بشعره المتموج اللامع وعنقه العاري وخديه الورديين .

ارتديت ملابسي وخرجنا الى الحديقة حيث جلسنا في مقعد هناك ، طلبنا قهوة ، وأخذنا في الحديث ، فاخبرني عما أعده من الخطط للمستقبل : انه يملك من الثراء ما يكفيه ، ولا يلزمه أحد بشيء ، فاعتزم وهو في هذا الوضع المؤاتي ان يرصد حياته لفن الرسم ، انه لا يأسف الا على الوقت الطويل الذي أضاعه هباء قبل أن يستقر على هذا العزم . افضيت اليه بما كنت اترسّم لحياتي ، وكشفت له بالمناسبة سرّ غرامي البائر ، فكان ينصت اليّ في اشفاق ، ولكني لحظت بقدر ما استطيع ان الحظ ، ان لواعجي لم تثر فيه عطفاً فعلياً ، فبعد ان تأوه في إثري مرتين من باب المجاملة ، اقترح ان اذهب معه الى بيته لأشاهد رسومه التمهيدية ، فقبلت دعوته في الحال .

لم تكن آسية في البيت ، أنبأتنا ربة الدار بانها ذهبت الى «الاطلال» ، وهي بقايا قصر من عصر الاقطاع تبعد فرسخين عن مدينة «ل» . عرض غاغين عليّ كل لوحاته ، وكان في رسومه التمهيدية كثير من الحياة والحقيقة ، لم تكن تخلو من الانطلاق وسعة الافق ، ولكنه لم يستتم أي لوحة منها ، وتبينت ان صنعته الفنية خالية من الاعتناء والاصول ، وقد اعلنته رأيي في صراحة ، فأجاب وهو يتنهد :

— نعم نعم ، انك على حق ، فكل هذا خربشة غير ناضجة ، ولكن ما العمل ، فاني لم أتلق دراسة جدية ، ثم ان هذه الفوضى اللعينة التي تطبع «السلاف» قد اخذتني باخذها ، فانك تحلق كالصقر حينما تتصور ما ستقوم به من عمل ، وتشعر بانك قادر على ان تزحزح الارض من مدارها ، ولكنك تتحول عند التنفيذ الى امرئ موهون العزيمة بارد الهمة .

هممت بان احدثه بما يبعث الشجاعة والثقة في نفسه ولكنه صدّني باشارة من يده ، وجمع لوحاته بين يديه والقى بها على الاريكة ، وهمهم من خلال اسنانه :

— لئن كفاني ما عندي من الصبر والمثابرة فسأصل الى شيء يذكر في حياتي ، واذا كان دون الكفاية فسأبقى عرقاً جاهلا بين النبلاء . هلمّ بنا نذهب ، فخير لنا ان نبحث عن آسية .

وغادرنا المنزل .

٤

يمتد الطريق المؤدي الى «الاطلال» على منحدر واد ضيق ظليل ، في قاعه نهير صغير يجري متوثباً صاخباً بين الصخور ، فكأنه يتعجل موعد امتزاجه بالنهر الكبير الذي يتلألأ في هدوء، وراء حاجز قاتم من صخور جبلية حادة الانحدار . كان غاغين يلفت نظري الى بعض الاماكن التي ضاءت بالنور على نحو باهر . لم يكن في صوته حديث رسام بل روح فنان أصيل . ثم ظهرت لنا «الاطلال» وهي برج اسود ، مربع الاطراف ، يقوم على راس صخرة هائلة جرداء ، مصدوع بشق في الطول ، كأنما قُطع قطعاً عمودياً ، ولكنه بقي ثابت الاركان . كانت الجدران المتصلة بالبرج يغطيها الطحلب ويتسلقها اللبلاب في بعض نواحيها ، والاشجار تميل بجذوعها وتطل الى أسفل من خلال الكوى القديمة الشيباء والقبب المتهافتة . وهناك درب ضيق مرصوف بالحجر يقود الى بوابة البرج ، وقد بقي لهذه البوابة مظهرها فلم يؤثر فيه مرور الزمن . كنا قد اقتربنا منها حين مرق امامنا قوام امراة ، جعلت تتنقل بين حطام الحجارة في سرعة ، ثم توقفت على طنف ناتئ في السور عند موضع يشرف على الهاوية ، فهتف غاغين :

— انها آسية ، يالها من مجنونة !

اجتزنا البوابة وصرنا الى ساحة غير واسعة تغطي جزءاً منها اشجار التفاح البري والقراص . كانت آسية هناك فعلا تجلس على الطنف ، التفتت الينا بوجهها وضحكت دون ان تتحرك من مكانها ، فلوّح لها غاغين باصبعه مؤنبا على حين صرخت بها أرميها بالطيش ، فهمس اليّ غاغين قائلا :

— احذر أن تغيظها فانت لا تعرف طبعها . انها قد لا تتردد في ان تتسلق البرج ايضاً ، خير لك أن تراقب دهاء الناس هنا وتطريه .

فادرت بصري فيما حولي . فاذا بعجوز تجلس في ركن كشك صغير تحوك الجوارب وتخالسنا النظر من زاوية نظارتها ، كانت تبيع من السائحين البيرة والكعك المحليّ والماء المعدني . جلسنا في مقعد واخذنا نشرب البيرة ، وكانت باردة قليلا ، في اكواب ثقيلة من القصدير . اما آسية فقد بقيت في مكانها جالسة القرفصاء دون حركة وعلى راسها عصابة رقيقة ؛ كان هيكلها الرشيق يرتسم واضحاً جميلا في السماء الصافية ؛ ولكني كنت أرمقها بين العين والآخر بعين النفور . فقد لحظت من قبل ان فيها شيئاً من التوتر والجموح ، ولم يكن طبيعياً هذا الشيء ، وقلت لنفسي : «انها تريد ان تثير فينا الدهشة ، فعلام ذلك ؟ وفيم هذا العبث الطفولي ؟» وكأنما حزرت ما كنت افكر فيه فارسلت نحوي نظرة سريعة نفاذة ، وعادت تضحك ثم قفزت من السور قفزتين ، واقتربت من العجوز تطلب منها كأساً من الماء ، وقالت تخاطب اخاها :

— أتظن اني راغبة في الشرب ؟ لا ، فهناك ازهار على الجدران ، ولا بد ان أرويها بالماء .

لم يجب غاغين بكلمة ، وعادت ترتقي الاطلال وفي يدها كأس الماء ، فكانت تتوقف هنا وهناك ، وتنحني باهتمام طريف لتسكب بضع قطرات من الماء، تتألق في ضوء الشمس . كانت حركاتها لطيفة جذابة ، ولكن حنقي عليها لم يتبدد ، غير اني لم استطع ان أصرف بصري عن النظر باعجاب الى رشاقتها ومهارتها . في منزلق خطر اطلقت صيحة اصطنعت فيها الخوف ، ثم استغرقت في الضحك . . . فزاد حنقي منها .

تمتمت العجوز من انفها وهي ترفع نظرها عن الجورب الذي تحوكه :

– انها تتسلق كالعنزة .

وعادت الينا اخيراً بعد ان افرغت كاسها وهي تتمايل في دلع ، وابتسامة غريبة ساخرة تترقص في حاجبيها وانفها وشفتيها ؛ وقفت تخزرنا بعينيها الغامقتين في شيء من التحدي والمرح ، وكان قسمات وجهها تقول لي : «انك تعدّ سلوكي فجاً بعيداً عن التهذيب ، ولكني اعرف انك تطيل النظر اليّ في اعجاب» .

وخاطبها اخوها بصوت خفيض :

– مرحى لك يا آسية ، مرحى .

ويبدو انها شعرت بالخجل ، فقد استرخت اهدابها الطويلة ، وجلست الينا في استكانة المذنب . فاستطعت هنا اول مرة ان امعن النظر في وجهها الذي لم ار له شبيهاً في سرعة التقلب . ففي لحظات قصار كان الشحوب يغطيه جميعاً ، ثم يكتسي بتعبير من التفكير يميل الى الأسى ، اوتبدو قسماتها ذاتها اكبر وابسط واحزم . ولم تلبث ان ركنت الى الهدوء والرزانة . قمنا نطوف بالاطلال (وفي إثرنا تسير آسية) وتمتعنا بما حولنا من منظر . كان موعد الغداء يقترب ، فطلب غاغين كوباً آخر من البيرة وهو يدفع الحساب للمراة العجوز ، والتفت يقول لي بلهجة احتفالية ماكرة :

– في صحة سيدة قلبك وسالبة لبّك !

ففاجأتنا آسية بسؤالها :

– ولكن هل عنده ؟ . . هل عندك سيدة من هذا الطرز ؟

فقاطعها غاغين :

– منذا الذي يخلو امره من مثل هذا ؟

اطرقت آسية لحظة ، وقد تغيرت اساريرها ، وعادت ترتسم في وجهها ابتسامة جريئة تنطق بالتحدي والسخرية .

زادت آسية في صخبها ودلعها ونحن في طريق العودة ، قطعت من احدى الاشجار غصناً طويلا وضعته على كتفها كما توضع البندقية وشدت العصابة التي تعصب بها راسها . واذكر اننا التقينا وقتئذ اسرة كثيرة العدد من الانكليز الشقر المحافظين ، فكانوا يشيعونها كلّ بدوره – كانهم ينفذون امراً صدر اليهم – بدهشة باردة ترتسم فى عيونهم الزجاجية ، فما كان منها الا ان رفعت عقيرتها

بالغناء نكاية لهم عن هذا التزمت . حينما وصلنا الى البيت احتجبت آسية في غرفتها ولم تظهر الا وقت الغداء ، فاقبلت في أجمل ثوب واحسن زينة ، ممشطة الشعر ، مشدودة الخصر ، في كفّيها قفازان . اخذت اثناء الأكل بآداب المائدة ، فتناولت الطعام بما لا يزيد عن اللمس ، ومست الماء في طرف الكاس . كان واضحاً انها ارادت ان تلعب امامي دوراً جديداً وهو دور الست المؤدبة المهذبة . لم يزجرها غاغين . فما خفي عني انه اعتاد ان يغض النظر عن نزواتها جميعاً ، كان يكتفي كلما التقت نظراتنا بأن يرفع احدى كتفيه كانه يريد ان يقول : «خذها بحلمك فانها لا تزال طفلة» . عقب الانتهاء من الغداء ، نهضت آسية ، وحيت بالانحناء ، واستاذنت غاغين وهي تتناول قبعتها في زيارة السيدة لويزة .

فاجاب غاغين :

– ومتى كنت تستاذنين في مثل هذا ؟

اضاف وقد شاع في ابتسامته الدائمة شيء من الارتباك :

– اتشعرين بالسأم في مجلسنا ؟

– لا ، ولكني وعدت السيدة لويزة بزيارة . واحسب ان من الافضل لكما ان تكونا اثنين لا ثالث بينكما ، وقد يستطيع السيد «ن» عندئذ (واشارت اليّ) ان يحدثك بشيء .

وذهبت في سبيلها .

بدا غاغين حديثه وهو يتحاشى نظراتي فقال :

– السيدة لويزة ارملة رئيس بلدية سابق في هذه المنطقة ، وهي عجوز طيبة ولكنها فارغة ، احبت آسية حباً جماً ، وآسية تميل الى التعارف باناس أدنى منها منزلة ؛ ويتاتى هذا عن الزهو على ما لحظت ، ولعلك رايت انها مدللة كثيراً .

واضاف بعد لحظة من الصمت :

– لا حيلة لي في هذا ، فاني لا اعرف كيف اؤاخذ الناس ولا سيما آسية ، واراني ملزماً بان اتسامح معها .

لزمت الصمت ، ووجه غاغين الحديث في مجرى آخر ، كنت ازداد اعتلاقاً به كلما تعمقت في امره . وما أسرع ما فهمت طبعه . فقد كان له ذلك الطبع الروسي الاصيل المجبول على الصدق والنبل والبساطة ، ولكنه للأسف على شيء من فتور الهمة ، مع افتقار الى العزيمة والحماسة ، لم تكن روح الشباب تنبثق منه كالينبوع بل

كان يشع بضوء هادئ . كان غاغين موفور الذكاء والدماثة ، ولكني لا استطيع ان اتصور ما سيكون من امره حين تنضج به السن . اما ان يصبح رساماً . . . فان تحقيق هذه الامنية يحتاج الى عمل مرّ وداب متصل . ومن دون هذا لن يصبح رساماً . . . واما عن العمل ، فكرت وانا اتامل في قسماته الرقيقة واستمع الى حديثه الرتيب : فلا ، انك لن تبادر الى عمل ، لن تقدر على الارتباط به والانضباط فيه ، ومع هذا لم املك الاّ أن أحب غاغين : فقد مال قلبي اليه ، فقضينا اربع ساعات مع بعضنا البعض جالسين على الاريكة او سائرين امام الدار في بطء ، وامتزج الود بيننا في خلال هذه الساعات .

غربت الشمس وحان وقت عودتي الى البيت ، ولم تكن آسية قد عادت بعد ، فقال غاغين :

– يا لها من سائبة عنيدة ! أتريد ان أمضي معك ، وسنعدل في طريقنا الى بيت السيدة لويزة فلعل آسية لا تزال هناك ، ان بيتها ليس بعيداً .

انحدرنا نحو المدينة ، وبعد ان مررنا بزقاق ضيق متعرج ، وقفنا امام بناية يبلغ عرضها نافذتين وارتفاعها اربعة طوابق ، وقد برز طابقها الثاني الى الشارع بما يزيد عن الاول ، وتجاوزه الطابقان الثالث والرابع ؛ فكانت البناية على العموم بتخاريمها الخشبية البالية ، وبالعمودين الضخمين اللذين يسندانها من أسفل ، وسقفها القرميدي الحاد ، ومرقاع بترها الناتئ من تحت السقف كالمنقار – تشبه طائراً ضخماً احدب .

صاح غاغين ينادي :

– آسية ! اانت هنا ؟

سمعنا صرير نافذة مضاءة فى الطابق الثالث ، وانفتحت النافذة فراينا راس آسية يطل علينا بشعره القاتم ويمتد من ورائه راس الالمانية العجوز بفمها الأهتم وعينيها العشواوين .

قالت آسية وهي تسند يدها بغنج على حافة النافذة :

– هانذا ، واني لمغتبطة هنا .

واضافت وهي ترمي الى غاغين بغصن من أزهار الغيرانيوم :

– هاك ، خذ ، وتوهم أنني سيدة قلبك .

فضحكت السيدة لويزة ، وقال غاغين يقاطع آسية :

– ان السيد «ن» في طريقه الى بيته ويريد ان يودعك .

– اهو كذلك ؟ إذن أعطه غصن الزهر ، وساهبط اليكما في الحال .

اغلقت النافذة ، ولا بد انها قبلت السيدة لويزة ، ناولني غاغين عود الغرانيوم صامتاً ، فوضعته في جيبي وانا صامت ايضاً ، وتوجهت الى معبر النهر حيث ركبت قارباً نقلني الى الشاطئ الآخر .

اذكر أنني سرت الى البيت غير مفكر في شيء ، ولكن قلبي كان يرزح تحت ثقل غريب ، وافات لنفسي حينما تنسمت رائحة نفاذة مالوفة ولكنها نادرة في المانيا ، توقفت استقصي امرها فرأيت على كتف الطريق حوضاً صغيراً فيه أعواد من نبات القنب ، فذكرتني رائحته ببراري الوطن ، واثارت في نفسي حنيناً طاغياً اليه . وهفا القلب الى استنشاق هواء روسيا ، والانطلاق في ارضها . وهتفت : «اكان لي ما اعمله هنا ؟ علام أتسكع في جهة غريبة بين غرباء ؟» وفجاة تحول ما كان يبهظ قلبي من ثقل ماحق الى اضطراب مرير حارق . بلغت المنزل وانا على حال تختلف عن الحال التي كنت عليها امس . شعرت بأنني مغيظ ، واخفقت في رد السكينة الى نفسي ، واشتملني غضب لم اعرف له سبباً ؛ ثم جلست افكر في الارملة الغادرة (كان من الطقوس اليومية ان اختتم اليوم بالتفكير في هذه السيدة) ، سحبت احدى رسائلها ، ولكني عزفت حتى عن فتحها ، فقد سلكت خواطري فجاة سبيلا آخر ، اخذت افكر في . . . آسية ، ومما تذكرته ان غاغين اشار في بعض ما القى عليّ من حديث الى عقبة تحول دون عودته الى روسيا . . . ورايتني اقول بصوت عال : «اتكون اخته كما زعم ؟»

خلعت ملابسي وانضجعت ، حاولت ان اغفو ولكني استويت جالساً في السرير بعد مرور ساعة ، اتكات بكوعي على الوسادة وانا افكر في هذه «الصبية المدلعة ذات الضحكة المصطنعة . . .» انها مصبوبة في قالب «غالاتيا» الصغيرة لروفائيل في فارنيزين (٦٠) ، وهمست لنفسي : «أجل ، وانها ليست أخته . . .»

اما رسالة الارملة فقد رقدت في سكون على الارضية وهي تلمع في ضوء القمر .

٥

عدت في الصباح الى «ل» وانا ازعم لنفسي انني اسعى الى لقاء غاغين ، ولكني في السر كنت مدفوعاً الى رؤية ما سيكون عليه مسلك آسية معي ، اتراها ستعود الى مثل تلعّبها امس ؟ رايت الاثنين يجلسان في غرفة الاستقبال ، كان من العجيب – ولعل سبب هذا انني اطلت التفكير في روسيا اثناء الليل وفي الصباح – ان آسية بدت نموذجاً للفتاة الروسية ، بل مجرد فتاة بسيطة ، ولعلها اشبهت قليلا وصيفة . كانت في فستان عتيق ، شعرها مسرّح الى ما وراء اذنيها ، وقد جلست ساكنة قرب النافذة تطرز بأبرتها نسيجة مشدودة الى طارة ، كانت في هدوئها وتواضعها كأنها لم تزاول في حياتها الا هذا العمل ، بقيت صامتة لا تنطق الا بما قلّ ، لا ترفع بصرها عن شغلها ، وقد شاع في ملامحها تعبير عادي ساذج ذكرت به دون قصد فتياتنا البسيطات من كاتيا الى ماشا ، وكأنها ارادت لهذا الشبه ان يبلغ التمام ، فاخذت تغني بصوت خفيض اغنية «ماتوشكا غالو بوشكا» (٦١) . تاملت في وجهها الصغير الشاحب الهامد ، فتذكرت احلام امس ، وامتلأت نفسي بالحسرة على شيء . كان الجو رائعاً ، واعلننا غاغين بانه سيخرج لرسم منظر حي ، فسالته ان يسمح لي بان ارافقه اذا لم يكن في هذا ما يضايقه ، فقاطعني بقوله :

– بل على العكس فانك قادر على أن تنفعني بنصحك .

لبس صداره ، ووضع على راسه قبعة مستديرة «à la Van Dyck» * وخرج متابطاً ادوات الرسم ، فسرت في إثره . بقيت آسية في البيت ، اوصاها قبل ان يخرج بان تكون الشوربة ثقيلة المرق ، فوعدته بان تمر بالمطبخ وتشرف على الطبيخ . حينما وصل غاغين الى الوادي الذي عرفته من قبل ، جلس فوق صخرة وبدا يرسم شجرة بلوط عتيقة حفر الدهر في جذوعها ومدّ في فروعها . انضجعت انا على العشب ، واخرجت كتاباً ولكني لم اقرا منه الا اقل من صفحتين ، كان هو يوسخ الورق ليس غير ، امضينا اكثر الوقت في محادثة ، وناقشنا بتبصّر ودقة على ما اعتقد :

* بالفرنسية ، والمقصود انها من طرز فان ديك . **المعرب** .

الطريقة الصحيحة في العمل . ما ينبغي ان يطرح جانباً ، وما يحسن ان يتّبع ، اهمية الفنان في هذا العصر . ارتاى غاغين اخيراً انه في مزاج لا يسيغ العمل اليوم ، وتمدد الى جانبي ، عندئذ اخذنا في حديث متدفق متطلق من احاديث الشباب ، كان يحتدم بالحرارة حيناً وبالتامل حيناً آخر ، او يصخب بالحماسة ، ولكن احاديثنا كان اغلبها مشوباً بالغموض وهي الطريقة التي يحبها الروسي بكل قلبه . ثم عدنا الى البيت بعد ان شبعنا من النظر والحديث ، كنا نستشعر الرضى كاننا قمنا بعمل واصبنا نجاحا في هذا العمل . رايت آسية على ما تركتها ، ترصدت حركاتها فلم تنبئ ولو بظل خفيف من الغنج ولا بعلامة على انها تتعمد تمثيل اي دور من الادوار ، وسقطت في هذه المرة ذرائع اتهامها بالتصنع .

قال غاغين :

– واه لها ، لقد فرضت على نفسها الصيام والندم .

في المساء ، تثاءبت عدة مرات تثاؤباً حقيقياً ، وذهبت الى النوم في وقت مبكر . لم أتلبث طويلا فقمت أودع غاغين ، وسرت الى منزلي غير سابح في الاحلام : فقد كان اليوم يوم الاحاسيس الحية ، ولكني اذكر انني لما تمددت للنوم سمعتني اقول بصوت مسموع :

– اي حرباء هذه الفتاة !

واضفت بعد لحظة من تفكير :

– ومع ذلك فانها ليست اخته .

٦

مضى اسبوعان كنت فيهما ازور آل غاغين كل يوم ، واظن ان آسية كانت تتهرب من الالتقاء بي ، ولكنها تركت ذلك التلعّب الذي اثار دهشتي في اليومين الاولين من ايام تعارفنا . كانت تبدو محزونة او خجلى في السر ، وندر ضحكها ، كنت اراقبها بعين مستطلع .

كانت تتكلم باللغتين الفرنسية والالمانية في طلاقة ، ولكن الواضح من امرها انها لم تستأنس منذ طفولتها بتربية انثوية تاخذ بيدها ، حصلت على تعليم غريب شاذ يختلف عما حصل عليه

غاغين نفسه . فانه على الرغم من قبعته الـ «à la Van Dyck» وسترته القصيرة ، كانت قسماته ولفتاته تفوح بطراوة النعمة التي يتسم بها النبلاء الروس . لم تكن هي تشبه السيدة النبيلة ؛ بل كان في حركاتها جميعاً مسحة من قلق : فهي غرسة لم تطعَم في اوانها وخمرة لم تختمر في دنانها . كان في طبيعتها حياء وتهيب ، فاذا ضاقت بخجلها اجهدت نفسها في التظاهر بأنها طليقة العنان جريئة القلب فلا يحالفها التوفيق في هذا الا قليلا . وما اكثر ما استدرجتها الى الحديث عن حياتها في روسيا ، عن ماضي ايامها ، فكانت تجيب في غير اقبال على اسئلتي ، ولكني علمت انها عاشت وقتاً طويلا في الريف قبل ان تسافر الى الخارج . التقيتها ذات يوم وهي تجلس وحيدة في يدها كتاب ، كانت تلتهم السطور بعينيها وقد اسندت راسها بيديها وغرزت اصابعها في شعرها . فقلت لها وانا اقترب منها :

— مرحى ، فكم انت مثابرة !

فرفعت راسها وارسلت نحوي نظرات جادة حادة :

— انت تظن اني لا احسن شيئاً غير الضحك .

قالت ذلك وهمت بالذهاب . . .

نظرت في عنوان الكتاب فوجدت انه قصة فرنسية ، فقلت :

— ولكني لا استطيع ان اهنئك على حسن اختيارك .

فصاحت :

— ماذا عليّ ان اقرا اذن ؟ !

واضافت وهي تلقي بالكتاب على المائدة :

— لعل الأولى ان اذهب لأمزح وامرح .

وانطلقت ركضاً الى الحديقة .

جلست في ذلك المساء اقرا على غاغين قصة «هيرمان ودوروتييه» (٦٣) ، كانت آسية تمرّ بنا اول الامر مروراً ، ثم توقفت فجأة والقت الينا بسمعها ، وجلست الى جانبي هادئة مصغية حتى اتيت على آخر القصة . في اليوم التالي رايتها فاستغلق عليّ امرها من جديد ، ثم اهتديت الى انها استقرت على فكرة وهي ان تشبه «دوروتييه» في اهتمامها بشؤون البيت وشدة رزانتها . مجمل القول انها كانت تبدو لي اشبه باللغز . كانت هذه المتيمة بحب ذاتها تستهويني حتى وانا حانق عليها . والامر الذي كنت ازداد به

اقتناعاً هو ان آسية وغاغين ليسا باخوين . كان يعاملها بغير المعاملة بين الاخ والاخت ، فيسرف في الحنو عليها والتسامح معها ولكن في شيء من التكلف .

ثم وقع حادث غريب جاء مؤكداً لما تداخلني من الشك .

ففي احدى الامسيات جئت غاغين زائراً فوجدت باب الكرمة مقفلا ، لم اقض وقتاً طويلا في التفكير بل نفذت الى الكرمة قفزاً فوق جزء متهدم في سياجها كنت لاحظته من قبل ، اقتربت من عريش يظلله الطلح غير بعيد عن الممر ، واوشكت ان اجتازه . . . لولا ان جمدت فجأة على صوت آسية وهي تقول في انفعال وتبكي :

— لا ، فانا لا اريد ان أحب احداً غيرك . انت وحدك والى الأبد .

فقال غاغين :

— كفى يا آسية ، اهدئي ، فانت تعرفين اني واثق بصدق ما تقولين .

كان صوتهما ينبعث من العريش ، رايتهما من فرجة غير كثيفة بين الاغصان المعرشة من دون ان يشعرا بوجودي .

وعادت آسية تقول :

— انت ، انت وحدك .

وارتمت عليه تعانقه وتقبله وتلوذ بصدره وهي تشهق وترتجف ، اما هو فكان يمسح شعرها بيده مسحاً رقيقاً ويؤكد قوله :

— كفاية ، كفاية .

وقفت بضع لحظات جامداً في مكاني . . . ثم اندفعت فجأة وقد ومضت في راسي هذه الفكرة : «هل ادخل عليهما ؟ . . لا !» فعدت مسرعاً الى السياج ، ونفذت من فوقه الى الطريق ، كدت اعدو في طريقي الى البيت . وكنت افرك كفا بكفّ وانا ابتسم واستغرب هذا الحادث الذي اثبت حدسي من حيث لا اتوقع (لم يخالطني ولو مثقال ذرة من الشك في صدق هذا الحدس) كان قلبي يمض مضيضاً من شعور مرّ ؛ وقلت في نفسي : انهما لقادران على التظاهر ! ولكن فيم هذا ؟ علام تلك الرغبة في التمويه عليّ ؟ . . ما كنت اتوقع منه ذلك . . . ثم ما معنى هذه المناجاة القلبية المؤثرة ؟

٧

قضيت الليلة في نوم مضطرب وابكرت صباحاً في النهوض ، فوضعت كيس السفر على ظهري ، واعلنت صاحبة الدار بأن لا تنتظر اوبتي في الليل ، وذهبت على قدميّ الى الجبل ، حيث المجرى الاعلى للنهر الذي ترقد على شاطئه بلدة «ز» . وهو من قفار سلسلة جبال تسمى ظهر الكلب (Hundsrück) ما زالت تجتذب اهتمام الجيولوجيين ، وتستأثرهم على الخصوص بجودة طبقاتها البازلتية ونقائها من الشوائب ، ولكن الابحاث الجيولوجية لم تكن مما احفل به ؛ لم اكن قد استجليت رصيد ما يجري في داخلي ، غير شعور واحد كان واضحاً في نفسي ، وهو : عدم الرغبة في رؤية آل غاغين . كنت اوحي لنفسي بان المبرر الوحيد لنفوري منهما كان الأسف لما انكشف من خداعهما ، فمن ارغمهما على التظاهر بانهما شقيقان حميمان ؟ وبذلت ما وسعني من الجهد في ابعادهما عن بالي ، فذهبت اطوف بالجبل والوادي متمهلا ، ومكثت وقتا طويلا في المطاعم الريفية فكنت اجاذب اصحابها ونزلاءها أطراف الحديث ، ثم افترشت صخرة مستوية دافئة أراقب منها السحائب وهي تجري سابحة في رحاب الفضاء ، ومن حسن الحظ ان الطقس كان رائعاً . وعلى هذا النحو قضيت ثلاثة ايام لم تخل من اسباب المتعة ، ولكن الضيق كان يعتصر قلبي في بعض الاحيان ، وتمازجت خواطري بما خيم على تلك الناحية من الهدوء .

استسلمت كل الاستسلام لعبث الاقدار الهادئ ، وللمشاعر العابرة تتعاقب في أناة وتسري في نفسي ثم تنصبّ اخيراً في احساس شامل واحد اجتمع فيه كل ما رايته وما سمعته وما شعرت به في هذه الايام الثلاثة ، وجملته : هذا الاريج الخفيف الذي يضوع من صمغ الصنوبر في الغابات ، والصيحات الصاخبة التي تطلقها طيور النقار ، وثرثرة السواقي الشفافة التي لا تصمت ، والاسماك الملونة قرب قاعها الرملي ، وخطوط الجبال الغامضة والصخور القاتمة ، والقرى النظيفة بكنائسها القديمة الوقور واشجارها ، وطيور اللقلق البري في المروج ، والطواحين الهوائية البديعة بمراوحها التي تدور بانتظام ودأب ، ووجوه السكان المضيافة وهم في صداراتهم الزرقاء، وجواربهم الرمادية وعرباتهم التي

١٥*

تصر وهي تجري في بطء تجرها خيولهم الشحيمة او تجرها الابقار في بعض الاحيان ، والرحالون الشباب ذوو الشعور الطويلة يعبرون الطرق النظيفة المزروعة في جوانبها بأشجار التفاح والكمثرى . . .

ولا زلت حتى اليوم أجد الرضى في استعادة هذه الانطباعات ، فسلام عليك ايتها البقعة المتواضعة من ارض المانيا ، ايتها البقعة الراضية بنعمتها البسيطة ، المطرزة في كل جزء منها باثر الايدي الصناع وباثر العمل الصابر المتاني . . . لك التحية وعليك السلام !

عدت الى البيت في نهاية اليوم الثالث . وفاتني ان اقول ان غضبي على آل غاغين حداني على محاولة ابتعاث طيف الارملة الغادرة ، ولكن جهودي كانت هباء . واذكر انني حينما اخذت احلم بها ، رايت امامي طفلة فلاحة في الخامسة من عمرها ، يرتسم الفضول في وجهها الصغير المستدير ، والسذاجة في عينيها المتشوّفتين ، وهي تنظر اليّ ببراءتها الطفولية . . . فاعتراني الخجل من طهر نظراتها ، وعزفت عن الكذب بحضورها ، ومنذئذ امسكت عن بعث موضوع حبي الماضي ولم اعد اليه ابداً .

عثرت في البيت على كلمة من غاغين يقول فيها : انه في دهشة من بادرتي المفاجئة ، عاتب على انني لم استصحبه معي ، راغب في ان اذهب اليه من فوري حين اعود . قرأت هذه الرسالة متأففاً ، ولكني في اليوم التالي كنت في بلدة «ل» .

٨

استقبلني غاغين بالترحيب ، وامطرني بسيل من عتابه الرقيق ، ولكن ما إن رأتني آسية حتى انطلقت تقهقه عامدة من دون سبب ، وغادرتنا من فورها على عادتها ، فارتبك غاغين ، وتمتم في اثرها قائلا بانها مجنونة ، ورجاني ان اصفح عنها . واعترف بانني شعرت بالسأم الشديد من آسية ؛ فمن دون هذا كنت معتكر النفس ، فاذا هنا ايضاً هذا الضحك المصطنع وهذه الالاعيب الغريبة . ولكنيّ تظاهرت باني لم الحظ شيئاً على الاطلاق ، واقبلت على غاغين احدثه عن تفاصيل رحلتي القصيرة ، وروى عليّ كيف

قضى وقته في اثناء غيابي ؛ ولكن حديثنا لم يكن مؤاتياً . كانت آسية تدخل علينا الغرفة ، دون ان تتلبث بل تدخل وتخرج ، واعلنت اخيراً ان لديّ عملا عاجلا ، وقـــد آن لي ان أعود الى البيت . حاول غاغين اول الامر ان يستبقيني ، ثم تأملني بامعان ، وقال بانه سيرافقني . في المدخل رايت آسية تقبل عليَّ فجاة وتعطيني يدها ، فلمست اصابعها لمسة خفيفة وانحنيت لها . ذهبت مع غاغين ، فعبرنا الراين ، وعندما مررنا في طريقنا بسنديانتـــي الحبيبة حيث يقوم تمثال العذراء ، جلسنا على دكة هناك ، نتامل في المنظر الخلاب الذي نطل عليه ، وهنا جرى بيننا حديث رائع .

تبادلنا كلمات متفرقة قليلة في البداية ثم خيم الصمت بيننا ، وانصرفنا الى مشاهدة النهر المضيء ، وفجاة قال غاغين وهو يبتسم ابتسامته المالوفة :

– قل لي ، ما رايك في آسية ، الا ترى انها كشفت عن كثير من الغرائب ؟

فاجبت بشيء من الحيرة لما بدهني من حديثه عنها :

– نعم .

فاضاف :

– يجب ان تعرفها على حقيقتها قبل ان تقضي في أمرها . ان لها قلباً موفور الطيبة ، ولكن راسها حار ، ومعشرها صعب ، ومهما يكن فلا يجوز ان تدان بحكم ، حين تعرف حكايتها . . .

فقاطعته قائلا :

– حكايتها ؟ اظن انك قلت انها . . .

فقال غاغين وهو يحدق في وجهي :

– هل ظننت انها ليست اختي ؟ . .

واضاف من دون ان يعبأ بحيرتي :

– الواقع انها اختي ، بنت ابي ، فاصغ اليّ ، اني أشعر لك بالثقة وسأحدثك بكل شيء .

كان ابي في جملته رجلا طيباً ذكياً مثقفاً ، ولكنه سيء الحظ ، لم تكن قسمته اسوأ من كثيرين غيره ، ولكنه فقد القدرة على الصمود امام اول ضربة رماه بها القدر . فقد تزوج عن حب ، وكان في غرارة الصبا ، لم تعش زوجته ، وهي امي ، الا قليلا ، فعاجلها الموت وانا في شهري السادس ، فحملني ابي معه الى القرية ، ولم

تغادرها طوال اثنتي عشرة سنة . اشرف هو بالذات على تربيتي ، وما كان لينفصل عني لو لم يأت عمي اخو ابي الى زيارتنا في تلك القرية . كان عمي يسكن مقيماً في بطرسبورغ وله فيها منصب رفيع ، وقد ألحّ على ابي في امر نقلي الى رعايته ما دام ابي لا يريد ان يهجر القرية ابداً ؛ كان رايه : ان صبياً بلغ ما بلغت من العمر يجب ان يصان من العزلة والانفراد ، وانني سأتخلف عن اترابي اذا عشت ونشات في هذا الجو الموحش الصامت الذي يعيش فيه ابي ، ولا يبعد ان تسوء طباعي انا ايضاً . وقد عارض ابي طويلا فيما اقترحه اخوه ، ولكنه وافق في النهاية . فبكيت عندما افترقت عن ابي ؛ فقد كنت احبه على الرغم من اني لم أر ابتسامة عـــلى وجهه . . . لم البث بعد ان وصلت الى بطرسبورغ حتى نسيت وكرنا المظلم الكئيب . دخلت مدرسة عسكرية ، والتحقت بعدها باحدى كتائب الحرس . كنت أقضي في القرية بضعة اسابيع من كل سنة ، في كل سنة كان أبي يزداد حزناً وانطواء على نفســـه واستغراقاً في التفكير وامعاناً في التهيب . كان يذهب الى الكنيسة في كل يوم ، وتعيّاه ان ينطق ولا يتكلم الا قليلا . وفي احدى زياراتي (كنت قد تجاوزت العشرين من عمري) وقع بصري اول مرة في منزلنا على فتاة نحيلة الجسم سوداء العينين في العاشرة من عمرها ، وكانت آسية . قال ابي انها يتيمة الابوين وانه آواها اليه ليطعمها من جوع – هذه كلماته بالحرف – لم الق اليها اي انتباه ، وكانت هي شديدة النفار ، سريعة الحركة ، مغرقة في الصمت كالوحيشة ، فاذا راتني أدخل غرفة ابي المفضلة ، وهي غرفة كبيرة مظلمة لفظت فيها امي انفاسها الاخيرة ، حيث كانت تتوقد شمعات حتى في النهار ، اسرعت الى الاختباء وراء مقعده الفولتيري او وراء خزانة الكتب . وحدث بعد تلك الزيارة ان شغلتني اعباء الخدمة فعاقتني عن المجيء الى القرية طوال ثلاث او اربع سنين ؛ كنت خلالها اتلقى من ابي رسالة قصيرة في كل شهر ، يندر فيها الحديث عن آسية ، او يأتي الحديث عرضاً . كان قد تجاوز الخمسين من عمره ، الاّ انه بقي شاب المظهر ، ولك ان تتصور مقدار فزعي حينما فوجئت على غير توقع برسالة من وكيلنا ينبئني فيها بأن ابي يعاني مرضاً خطراً مميتاً ، ويتوسل اليّ ان اسرع في المجيء بكل ما املك من القوة اذا اردت ان اودع ابي الوداع الاخير . فسافرت من فوري بأسرع ما

استطيع ، ووجدت ابي لا يزال حياً ولكنه في انفاسه الاخيرة . تلقاني راضياً مغتبطاً قرير العين ، واحتواني بذراعيه الناحلتين ، وهو يطيل النظر في عينيّ كانه يتفحصني بنظرته ويستشف دخيلتي او يتوسل اليّ ؛ فلما قطعت له وعداً بان انفذ رجاءه الاخير ، امر وصيفه العجوز بأن ياتي بآسية ، فجاء بها العجوز وهي تكاد لا تستقيم على قدميها ، فقد كانت ترتعد بكل بدنها . قال ابي وهو يبذل غاية جهده :

— اوصيك بابنتي ، فهي اختك ، وستعرف كل شيء من ياكوف .

قال ذلك وهو يومئ الى الوصيف .

فانفجرت آسية بالبكاء ، وارتمت بوجهها على السرير . . . بعد نصف ساعة كان ابي قد فارق الحياة .

كان ما علمته ان آسية بنت ابي من تاتيانا وصيفة امي في الماضي . ولا ازال اذكر تاتيانا هذه ، واتذكر قوامها ، الممشوق الاهيف ، وقسماتها اللطيفة ، ووجهها الذكي ، وعينيها الغامقتين الواسعتين . كان المسموع عنها انها فتاة حاصنة عزيزة النفس . كل ما استطعت ان افهمه من الحديث المهذب المتحفظ الذي ادلى به ياكوف ، ان ابي عاشرها بضع سنين بعد وفاة امي ، ولم تكن تاتيانا تعيش اثناء ذلك في منزل سيدها ، بل كانت تقيم في بيت ريفي عند اخت لها متزوجة ترعى الماشية . كان ابي شديد التعلق بها ، اراد بعد رحيلي عن القرية ان يتزوج بها ولكنها لم توافق على الرغم من الحاحه .

وحدثني ياكوف وهو واقف الى قرب الباب بيدين مضمومتين الى وراء :

— كانت المرحومة تاتيانا فاسلييفنا امراة عاقلة شاءت الاّ تسيء الى ابيك ، فكانت تقول : «اي عقيلة لك انا ؟ واي ست بيت ستكون مني ؟» سمعتها تقول ذلك في وجودي .

كذلك رفضت تاتيانا ان تنتقل الى منزلنا ، وآثرت ان تعيش مع آسية عند اختها . في طفولتي كنت ارى تاتيانا في الاعياد فقط ، اثناء الصلاة في الكنيسة ؛ كانت تعصب راسها بعصابة غامقة ، على كتفيها شال أصفر ، وهي واقفة في الحشد الى قرب النافذة — وجانب وجهها المتناسق الدقيق يرتسم واضحاً على شفيف الزجاج —

كانت تصلي بتواضع ووقار ، وتنحني في صلاتها الى أدنى على العادة القديمة ؛ لما أخذني عمي اليه ، كانت آسية في الثانية من عمرها ، فلما بلغت التاسعة كانت محرومة من الام .

بعد وفاة تاتيانا مباشرة بادر أبي الى نقل آسية الى بيته ، كان يتمناها الى جانبه من قبل ، ولكن تاتيانا تابت عليه في هذا ايضاً . وتصوروا ما طرا على شعور آسية حينما جيء بها الى السيد . انها لم تنس حتى الآن تلك الدقيقة التي لبست فيها اول مرة الفستان الحرير وانحنت الرؤوس تلثم يدها ؛ لقد اخذتها امها بالشدة وهي في قيد الحياة ، فلما انتقلت الى ابيها أصبحت حرة طليقة من كل إسار . كان أبوها معلمها فلم يقع بصرها على غيره ، لم يدللها او يدلعها ، ولكنه أحبها بكل قلبه ولم يمنعها عن كل ما تريد : ولعله كان يشعر في أعماق نفسه بانه مذنب تجاهها . ولسرعان ما ادركت آسية انها الوجه الرئيسي في البيت ، وان سيد البيت أبوها ، ولكنها ادركت بسرعة ايضاً زيف وضعها ، فاشتد في نفسها حب الذات ، وانعدمت ثقتها بالناس ، واستجذرت فيها الخصال السيئة ، وفارقتها البساطة . لقد ارادت (وهذا ما اعترفت به اليّ ذات مرة) ان تحمل العالم كله على نسيان منشئها ، كانت تخجل من ناحية امها ، وتخجل من خجلها فتباهي بتلك الام . الحاصل انها عرفت ، وهي تعرف ، ما لا ينبغي لمن في سنها ان يعرفه . . . ولكن هل كانت هي المذنبة ؟ ان جذوة الشباب كانت تتوقد فيها ، ودمها يغلي ، وليس الى جنبها يد واحدة تاخذ بيدها وترشدها الى سواء السبيل . كان لها استقلالها الكامل في كل امر ! فهل من السهل ان تنهض بهذا العبء ؟ لقد اعتزمت الاّ تتخلف عن غيرها من بنات النبلاء ، فانكبّت على المطالعة في الكتب ، ولكن اين وجه الفائدة من هذا ؟ ان حياتها تكوّنت على نحو غير صحيح لأن بدايتها لم تكن صحيحة ؛ بيد ان قلبها لم يتصدع وذكاءها لم يتزعزع .

وهكذا وجدتني وانا في العشرين من عمري مسؤولا عن رعاية فتاة في ربيعها الثالث عشر . في الايام الاولى بعد وفاة ابي كانت نبرة صوتي المجردة تبعث فيها الرعدة ، وملاطفاتي تشيع فيها التبرم ، ثم اخذت تالفني قليلا قليلا في الخفاء ، والحقيقة انها اقبلت عليّ بكل قلبها حينما أيقنت انني اعتبرها اختاً واحبها حب الاخ للاخت ، وهي في كل عواطفها لا تعرف الحال الوسط .

نقلتها معي الى بطرسبورغ . ولئن كان الافتراق عنها شديداً عليّ ، فاني لم اقدر على السكنى معها ، فادخلتها مدرسة من احسن المدارس الداخلية . وقد ادركت آسية ضرورة افتراقنا ولكنها مرضت في بداية الأمر حتى اشرفت على الموت ، وما لبث ان اخذت نفسها بالصبر فقضت في المدرسة أربع سنين ، فاذا هي على غير ما توقعت ، تخرج منها كما دخلتها من قبل ، وكثيراً ما كانت رئيسة المدرسة تشكوها اليّ قائلة : «يمتنع علينا ان نزجرها بالمعاقبة ، ولا تعبأ اذا عاملناها باللين» . كانت آسية لامعة الذكاء ، سارت في دراستها على نحو ممتاز تفوقت به على زميلاتها جميعاً . غير انها رفضت ان تكون مثل الآخرين ، وبقيت عنيدة متمردة ترمق من حولها بالنظر الشزر . . . وقد صعب عليّ ان أقسو في الحكم عليها ، ففي وضعها كانت امام طريقين ، فاما ان تذعن ، واما ان تتمرد . ولم تجد بين زميلاتها من تستريح الى صحبته الا فتاة منبوذة رقيقة الحال عاطلة من الجمال ، اما باقي رفيقاتها في الدراسة واكثرهن بنات أسر كريمة ، فقد كن ينفرن من صحبتها ، ويسعين الى ايلامها بقوارص السخرية كلما وجدن الى ذلك سبيلا ، ولكن آسية لم تكن تسكت لهن في واحدة . وفي ذات يوم كان مدرس اللاهوت يتحدث عن السيئات ، فصاحت آسية بصوت ثاقب : «النفاق والجبن أسوأ السيئات جميعها» . مجمل القول انها مضت في سبيلها لا تحيد عنه ، لم يتحسن الا سلوكها فقط ، ولعل هذا التحسن كان طفيفا ايضا .

وما لبثت ان جاوزت السابعة عشرة من عمرها ، وتعذّر عليها ان تبقى في المدرسة بعد هذه السن ، كنت في حرج من الامر ، ثم خطرت ببالي فكرة طيبة مفاجئة ، وهي : الاستقالة والسفر الى الخارج مع آسية لمدة سنة او سنتين . وقد انجزت ما فكرت فيه ، وها نحن اولاء على ضفاف الراين ، احاول انا ان انصرف الى الرسم ، على حين تمضي هي في عبثها والاعيبها كما كانت من قبل ؛ وآمل الاّ تكون شديدا في حكمك عليها ، فانها تهتم بكل رأي ، ولا سيما رايك ، على الرغم مما تتظاهر به من عدم الاكتراث .

وعاد غاغين يبتسم ابتسامته الوديعة ، فاخذت يده وشددت عليها ، بينما استطرد يقول :

— هذا ما كان ، ولكن مصيبتي معها ، انها كتلة من البارود ؛ انها لم تعجب باحد حتى الآن ، وسيكون البلاء الاعظم حينما تحب !

فلا ادري احياناً كيف ينبغي ان اتصرف معها . واليك ما اقدمت عليه منذ ايام : لقد فاجأتني بالقول اني اصبحت لا اعني بها الا قليلا ، وجعلت تؤكد لي انها تحبني من دون الناس كلهم أجمعين ، وستبقى على هذا الحب أبداً . . . ولشد ما بكت وقتذاك . . .

— واذن كان الامر كذلك . . . — تمتمت وانا اهم بالكلام ، ولكني كبحت لساني فقلت بعد ان سلك الحديث بيننا طريق الصراحة :

— أيعقل حقيقة انها لم تعجب باحد حتى الآن ؟ فاين فتيان بطرسبورغ ، اذن ؟

— لا ، فليس يعجبها هؤلاء بالذات . ان آسية تطمح الى بطل ، الى انسان غير عادي ، او الى راع جميل يضرب في وديان الجبال . ولكن ما لي أستأخرك بمثل هذا الكلام الطويل ، — قال ذلك وهو يهم بالقيام — فقلت :

— اسمع ، ساعود معك ، فاني لا أرغب في الذهاب الى بيتي .

— وعملك العاجل ؟

لم اجب بكلمة ، فضحك غاغين في سماحة ، وعدنا معاً الى «ل» . حينما رايت الكرمة المألوفة والبيت الابيض الذي يطل من قمة الجبل ، شعرت بالنشوة تسري في قلبي ، فكان الشهد المصفى ينسكب فيه قطرات ، وغمرتني راحة شاملة بعد هذا الحديث الذي القاه غاغين في سمعي .

٩

استقبلتنا آسية على عتبة الباب ، كنت انتظر ان تاخذ بالضحك على عادتها ، ولكنها طلعت علينا شاحبة الوجه مطبقة الفم خفيضة العينين . وقال غاغين :

— ها هو ذا ، انتبهي الى انه شاء ان يعود من تلقاء نفسه .

نظرت آسية اليّ نظرة تساؤل ، فاخذت بيدها الممدودة ، وشددت بقوة في هذه المرة على اصابعها الباردة . كنت أشعر بالاشفاق عليها منذ ان ازددت ادراكاً لما يجري في نفسها ، ووضح لي ما كان يحيرني من امر : قلقها المقيم وعجزها عن ضبط النفس وجنوحها الى التصنع . لقد تعمقت دخائل هذه النفس ، فقد كان

يسحقها ظلم خفي لا يريم ، وتمزق ترتطم فيه الكبرياء الساذجة بالقلق ، بيد ان وجودها كله كان يسعى الى الحقيقة . لقد ادركت لماذا ملكت علي نفسي هذه الفتاة الغريبة الاطوار : فلم تكن ملاحتها الآبدة التي انسكبت في جسدها النحيل كله هي التي تجتذبني اليها فقط ، بل كانت روحها تجتذبني ايضاً .

بدأ غاغين في تقليب رسومه فعرضت على آسية ان نقوم بنزهة في الكرمة فوافقتني من فورها بغبطة تشبه الاذعان . هبطنا المنحدر حتى بلغنا منتصفه حيث جلسنا هناك على صخرة مستوية عريضة . وبدات آسية الحديث فقالت :

– الم تشعر بالضجر وانت بعيد عنا ؟

فسالتها :

– وانت الم تشعري بالضجر من دوني ؟

فرمقتنى آسية بطرف عينيها وقالت :

– أجل .

واضافت من فورها :

– هل قضيت وقتاً طيباً في الجبال ؟ هل هي عالية ؟ أعلى من الغيوم ؟ حدثني عما شاهدته هناك . كنت تحدث اخي ، اما انا فلم اسمع شيئاً .

– هل كان من الضروري ان تنسحبي من مجلسنا ؟

– لقد انسحبت لأن . . . لن انسحب بعد الآن ، – واضافت بصوت حنون وديع : – كنت غاضباً اليوم .

– انا ؟

– نعم ، انت .

– عفواً ، وممَّ ؟

– لا ادري ، ولكنك كنت غاضباً ، وغادرتنا غاضباً ، فكان اسفي شديداً لأنك ذهبت على تلك الحال ، وانا مغتبطة بعودتك .

فاجبت قائلا :

– وانا ايضاً مغتبط بعودتي .

فقوست آسية كتفيها كما يفعل الأطفال حينما يكونون راضين ، وتابعت قائلة :

– أوه ، اني لقادرة على التنبؤ بما تخفى الصدور ! كنت اعرف من سعال ابي في الغرفة المجاورة اغاضب هو مني أم راض .

لم تكن آسية قد تحدثت اليَّ عن أبيها حتى ذلك اليوم ، فادهشني ذلك منها .

– هل كنت تحبين بابا ؟

قلت ذلك وقد حز في نفسي هذا الاحمرار الذي شاع فجأة في وجهي . لم تجب آسية بل تضرج وجهها ايضاً بالاحمرار ، وخيم الصمت بيننا ونحن نرى الى سفينة كانت تمخر الراين من بعيد وتنفث الدخان .

وهمست آسية :

– ما لك لا تتحدث ؟

فسالتها :

– لماذا استغرقت في الضحك اول ما وقع بصرك عليَّ اليوم ؟

– انني بالذات لا اعرف لماذا ، فقد اشعر احياناً برغبة في البكاء فاضحك . ينبغي الاّ تحكم عليَّ . . . بما تراه من فعالي . وبالمناسبة ، ما القصد الذي رمت اليه تلك الاسطورة التي تتحدث عن لوريلاي (٦٣) ؟ هل هذه التي تتراءى للعين صخرتها ؟ قيل انها كانت تغرق كل انسان ، فلما احبت اغرقت نفسها . تعجبني هذه الاسطورة . ان فراو لويزة تروي عليَّ اساطير شتى وفي بيت فراو لويزة قط اسود ذو عينين صفراوين . . .

رفعت آسية راسها وهزت خصلاتها ، وقالت :

– آه ، كم اشعر بالغبطة .

في تلك اللحظة بلغت سمعنا اصوات متقطعة رتيبة النغمة ، مئات من الاصوات كانت ترتل الصلوات في آن واحد ، وتقطع النشيد بالصمت بين الحين والآخر ، وظهر على امتداد الطريق في نهاية المنحدر جماعة من الحجاج يحملون الصلبان وصور القديسين . . . قالت آسية وهي ترهف السمع لانفجارات الاصوات وهي تبتعد قليلا قليلا :

– ليتنا نذهب معهم .

– هل وصل بك التدين الى هذا الحد ؟

– أتمنى أن أذهب الى مكان بعيد ، لأصلي او لأقوم بمأثرة في عمل . – واضافت : – ان الايام تمضي ، والحياة ستزول ، فما العمل الذي قمنا به حتى اليوم ؟

فقلت معلقا :

– انك طماحة ، تابين ان تعيشي سدى ، وتطمحين الى ترك اثر في الحياة . . .

– أهذا مستحيل يا ترى ؟

كادت لفظة «مستحيل» تفلت مني ، ولكني حدقت في عينيها اللامعتين وقلت :

– عليك ان تحاولي .

قالت آسية بعد صمت قصير سرت في اثنائه بعض الظلال على وجهها الذي اعتراه الشحوب :

– خبرني ، اكانت تعجبك تلك السيدة . . . الا تذكر ، لقد شرب اخي على صحتها ونحن في الاطلال ، في اليوم الثاني من تعارفنا ؟

فضحكت :

– كان اخوك يمزح ، فاني لم اعجب باي سيدة ، على اي حال ليس من سيدة اعجب بها الآن .

فسالت وهي تتلع راسها بفضول بريء :

– وماذا يعجبك في النساء ؟

فهتفت قائلا :

– يا له من سؤال غريب !

فاضطربت آسية قليلا :

– لم يكن يليق ان اطرح هذا السؤال . اليس كذلك ؟ لا تؤاخذني ، فقد تعودت ان انطق بما يخطر في بالي ، ولهذا اتهيب من الكلام .

– قولي ما شئت ، بالله عليك ، لا تخشي شيئاً ، فقد اسعدني انك خرجت اخيراً من انطوائك .

غضت آسية طرفها ، وارسلت ضحكة هادئة رقيقة لم اكن اعرف ان لها نظيرها ؛ ثم اضافت وهي تسوي اطراف فستانها وترتبها على ساقيها كانها تستعد لجلسة طويلة :

– هيا حدثني بشيء او اقرأ عليّ شيئاً . اتذكر ، انك قرات لنا من «اونيغين» . . .

واستغرقت فجاة في التفكير ثم اخذت تقرأ في همس :

حيث الصليب وظلال الاغصان
على جدث امي المسكينة الآن ! (٦٤)

فلاحظت قائلا :

– لم يأت البيت عند بوشكين على هذه الصورة .

فتابعت وهي لا تزال مستغرقة في التفكير :

– وددت لو انني كنت تاتيانا (٦٥) .

واضافت بانفعال :

– هيا حدثني بشيء .

ولكني لم أجد رغبة في الحديث . كنت انظر اليها . كانت هادئة مطمئنة تغمرها اشعة الشمس المتالقة ، وكل ما حولنا وتحتنا وفوقنا يشرق بالمرح ، وخيل الى ان السماء والارض والماء ، بل الهواء ذاته قد فاضت جميعاً بالاشراق . فقلت بصوت خفيض من دون وعي :

– انظري ، فما اجمل هذا كله !

فاجابت بهدوء من دون ان ترفع بصرها اليّ :

– نعم ، انه لجميل ! لو اننا من الطير لارتفعنا وحلقنا في الاعالي وغرقنا في هذا المدى الازرق . . . ولكننا لسنا من الطير .

فقلت معترضاً :

– ولكن قد تنبت لنا اجنحة .

– وكيف ذلك ؟

– من يعش ير ، فهناك مشاعر تسمو بنا الى ما فوق الارض ، وستنبت لك اجنحة فلا تقلقي .

– هل كنت بأجنحة ؟

– ماذا اقول . . . يخيل الى اني لم احلّق بعد .

وعادت آسية الى تفكيرها ، فانحنيت عليها قليلا . وسالتني فجاة :

– اتحسن رقصة «الفالس» ؟

فقلت وقد شعرت بشيء من الارتباك :

– نعم .

– هيا بنا نعود إذن ، هيا . . . وساطلب من اخي ان يعزف لنا مقطوعة فالس لكيما نتصور اننا نحلق باجنحتنا في اجواز الفضاء .

قامت تركض الى البيت فركضت في اثرها ، وبعد لحظات كنا ندور في الغرفة الضيقة على انغام لانير العذبة . ورقصت آسية الفالس ببراعة وحماسة ، وقد شاعت فجاة في مظهر الفتاة الصارم

رقة انثوية . لقد احتفظت يدي وقتاً طويلا بملمس خصرها الرقيق ، وبقيت وقتاً طويلا اسمع انفاسها السريعة القريبة ، وارى عينيها الغامقتين الساكنتين وهما في شبه اغماض على وجهها الشاحب على الرغم من انتعاشه ، وقد تهدلت عليه خصلات من شعرها الغزير .

١٠

انقضى ذلك اليوم على أحسن حال . سرحنا ومرحنا كالاطفال ؛ كانت آسية في غاية العذوبة والبساطة ، وغاغين سعيد بما يراه من غبطتها . ثم غادرتهما في وقت متأخر ، فلما صرت في وسط الراين طلبت من النوتي ان يترك القارب على رسلته ، فرفع الشيخ المجذافين ، وانطلقنا نتهادى على غوارب هذا النهر العظيم . كنت انظر فيما حولي مرهفاً سمعي مستعيداً ذكرياتي حينما شعرت فجاة بقلق خفيّ يمس شغاف قلبي . . . رفعت بصري الى السماء فما وجدت هدوءا حتى في السماء : كانت موشومة بالنجوم وكلها يتململ ويتحرك ويرتعش . انحنيت على النهر ، فاذا النجوم هنا ايضاً في هذه الاعماق المظلمة الباردة ، ترتجف وتتموج . خيل اليّ ان في هذا الانتعاش قلقاً ماثلا في كل مكان ، فسرى القلق الى نفسي ايضاً . ارتميت على حافة القارب . . . فكان يزعجني اصطفاق الماء على جوانبه وعزيف الريح في اذني ، ولم يروح عني ما كانت ترسله الأمواج من نفحات طرية ؛ وصدح بلبل على الشاطئ فملأني بما سكب في صداحه من السم العذب . فاضت عيناي بالدموع ، لم تكن دموع انفعال لا سبب له ، فان ما شعرت به لم يكن ذلك الاحساس الغامض الذي اختبرته مؤخراً ، وهو الاحساس بالرغبة الشاملة التي تتفتح فيها النفس وتغني ويخيل اليها انها تحيط بكل شيء وتحب كل شيء . . . لا ! فقد توقد في نفسي ظمأ الى السعادة ، ولكن خذلتني القدرة عن النطق بهذه الكلمة ، فان السعادة ، والسعادة حتى الارتواء والامتلاء ، هي ما كنت أريده وأهفو اليه . . . وخلال ذلك كان القارب ينطلق والنوتي الشيخ يجلس منحنياً على المجذافين وهو يغالب النعاس .

١١

لم اسأل نفسي وانا اتوجه في اليوم التالي الى بيت غاغين : هل تراني احب آسية ؛ ولكني لم أنقطع عن التفكير فيها والانشغال بمصيرها ، كنت مغتبطاً بتقاربنا الذي حدث على غير توقع ، شاعراً باني لم اعرفها الا امس ، فهي قبل ذلك كانت تدير اليّ ظهرها ؛ اما وانها قد كشفت اخيراً عن سريرتها ، فاي نور آسر اشرق في وجودها ، واي جدّة رايت في هذا كله ، واي جاذبية خفية كانت ترف في استحياء وخفر على هذا الوجود . . .

سرت في الطريق المألوف بخطوات نشيطة ، وبصري معلق بالدار الصغيرة البيضاء التي تبدو من بعيد . كنت في غاية الغبطة ، لا يشغلني التفكير في المستقبل ، ولا في الغد القريب نفسه .

شاع الاحمرار في وجه آسية حينما دخلتُ عليها الغرفة ، ولاحظت انها عادت من جديد الى التانق في لباسها ، ولكن ملامح وجهها لم تكن منسجمة مع هندامها ، فقد كانت كئيبة . على حين اقبلت انا مشرق الأسارير ! وخيل اليّ انها جمعت امرها على الفرار مني بحكم العادة ، ولكنها اكرهت نفسها على البقاء . وكان غاغين في تلك الحالة من الحماسة والاستغراق التي تنتاب هواة الفن فجاة فيتوهمون انهم افلحوا على حد قولهم في «القبض على الطبيعة من ذيلها» . كان يقف اشعث الشعر ملطخاً بالاصباغ امام قطعة مشدودة من القماش ، يطوف بريشته عليها في حركات واسعة ، فلما رآني اوما اليّ بحركة من راسه فيها شيء من الجفوة ، وتحرك الى جانب وهو يوصوص عينيه ، ثم هجم مكرّاً على اللوحة كما ابتعد عنها . حاذرت ان ازعجه فجلست الى جانب آسية ، فتحولت اليّ بعينيها الغامقتين في بطء . قلت لها بعد ان اخفق جهدي في حملها على الابتسام :

— انك اليوم على غير ما كنت عليه امس .

فاجابت بصوت بطيء هامد النبرة :

— هذا صحيح ولكنه غير مهم . لقد نمت نوماً قلقاً وقضيت الليل مؤرقة افكر . . .

— فيم ؟

– اوه ، في كثير من الاشياء ، فتلك عادتي منذ عهد الطفولة ، منذ ان كنت أعيش مع امي . . .

نطقت آسية هذه الكلمة في جهد ، ولكنها عادت تكررها :

– منذ ان كنت أعيش مع امي . . . كم تساءلت : لماذا لا يعرف احد ما يخبئه له الغد ؟ ولماذا يرى المرء هجوم الكارثة في بعض الاحيان ثم يقف عاجزاً عن التماس النجاة منها ؟ ولماذا يتعذر الافضاء بالحقيقة الكاملة في كل الاحوال ؟ . . وعندئذ اقر في نفسي انني اجهل كل شيء ، وعليّ ان اتعلم ، واعيد تربيتي من أولها . ان ثقافتي سيئة جداً ، فانا لا اعرف العزف على البيانو ، ولا الرسم ، ولا أجيد حتى صنعة الخياطة ، وليس لي اي موهبة ، وقد تكون مجالستي مما يبعث على الضجر .

فاعترضت قائلا :

– انك تظلمين نفسك بما تقولين ، فانت واسعة الاطلاع ، مثقفة العقل ، بذكائك هذا . . .

فسالت باهتمام ساذج اضحكني على الرغم مني ولكنها لـم تستجب لضحكي حتى بابتسامة :

– اتراني ذكية ؟

والتفتت تسال غاغين :

– هل انا ذكية يا اخي ؟

لم يجب غاغين بل استمر في عمله وهو لا يتوقف عن استبدال ريشة باخرى ورفع يده الى أعلى .

تابعت آسية قولها وهي مستغرقة في افكارها :

– لا ادري احياناً ما يدور في بالي ، اخاف احياناً نفسي ، قسماً بالله ؛ آه كم اردت . . . الا ترى ان كثرة المطالعة لا تلائم النساء ؟ . .

– كثيرها غير ضروري ، ولكن . . .

– بماذا تنصح لي ان أقرأ ؟

ثم اضافت بثقة ساذجة :

– اشر عليّ بما ينبغي ان اقرأ واعمل ولن اخالفك في شيء .

لم اجد جواباً اقوله من فوري فقالت :

– هل تراك ستشعر معي بالضجر ؟

– عفوا . . – بدأت الكلام ، فقاطعتني قائلة :

– لك الشكر إذن ! لقد توهمت أنك ستشعر بالضجر .

وشدت بيدها الصغيرة الدافئة على يدي . وهتف غاغين في اللحظة نفسها :

– «ن» ! الا تبدو ارضية الصورة مظلمة ؟

قمت مقترباً منه ، وقامت آسية تغادرنا .

١٢

عادت بعد ساعة فدعتني باشارة من يدها وهي لا تزال واقفة عند وصيد الباب ، وقالت :

– خبرني ، لئن دهمني الموت فهل تحزن عليّ ؟

فصحت قائلا :

– ما هذه الخواطر التي تدور في رأسك اليوم ؟

– يخيل اليّ انني سأموت عما قريب ، ويتراءى لي في بعض الاحيان أن كل ما حولي يودعني ، فان الموت خير من الحياة على هذا النحو . . . اني لا القى الكلام على عواهنه ، فلا ترمقني بهذه النظرة والا عاودني الخوف منك .

– وهل كنت تخافينني ؟

فقاطعتني قائلة :

– لئن كنت على ما رايت من غرابة الاطوار ، فليس هذا ذنبي في الحقيقة . الا ترى انني لم اعد قادرة حتى على الضحك . . .

وبقيت مهمومة حزينة طوال النهار ، فكان شيئاً تعذر عليّ ادراكه يجري في داخل نفسها . كانت ترسل اليّ نظرات طويلة فينقبض قلبي تحت هذه النظرات الغامضة ، وانظر اليها فاشعر على الرغم من مظهرها المطمئن برغبة في أن اقول لها : دعي عنك هذا القلق . كم وجدت وانا اتفحصها من الروعة المؤثرة في قسماتها الشاحبة وحركاتها المترددة البطيئة ، ولكنها تصورت من دون ان ادري أنني على غير حالتي ؛ وقبيل انصرافي قالت لي :

– اسمع ، اني لم اعد اطيق ان تحسبني طائشة . . . ارجو ان تصدق كل ما ساقوله لك في المستقبل ، ولتكن انت ايضاً صريحاً معي ؛ لن أحدثك الا بالصدق ، اقسم لك . . .

وحملتني هذه الـ«اقسم لك» على الضحك من جديد ، فقالت في حماسة :

– آه ، لا تضحك والا سألتك مثلما سألتني امس : «لماذا تضحكين ؟»

واضافت بعد قليل من الصمت :

– هل تذكر ما قلته لي أمس عن الاجنحة ؟ . . لقد نبت لي جناحان ، ولكن لا مجال للتحليق .

فقلت :

– ولكن اسمحي لي ، ان امامك السبل مفتوحة كلها . . .

فحدقت آسية في عيني مباشرة ، ثم قطبت حاجبيها وقالت :

– انك تطوي فكرة سيئة عني اليوم .

– انا ؟ اطوي فكرة سيئة ؟ عنك ! . .

وقاطعني غاغين قائلا :

– ما لكما اليوم مثل الماء المعتكر ؟ اترغبان في ان اعزف لكما مقطوعة فالس كالامس ؟

فاعترضت آسية وهي تشد يديها :

– لا ، لا ، ليس اليوم ولا بحال !

– هدئي روعك فانا لا افرض الامر عليك فرضاً . . .

فعادت تكرر قولها وقد شاع الشحوب في وجهها :

. . . .

«اتراها تحبني ؟» – فكرت بهذا وانا اقترب من الراين ، وكانت امواجه القاتمة تتدفق مسرعة .

١٣

حينما استيقظت في صباح اليوم التالي كان السؤال الذي خطر ببالي : «اتراها تحبني ؟» . لم أشعر بالنزوع الى سبر اغوار نفسي . كانت طلعتها ، طلعة «الفتاة ذات الضحك المصطنع» قد ملأت روحي ، ولم يبد انني قادر على التخلص منها في وقت قريب . ثم مضيت الى بلدة «ل» فبقيت فيها طوال اليوم ، ولكنني لم ار آسية الا خلال لحظات ، فقد كانت متوعكة الصحة تشكو من الصداع .

اقبلت علينا ولم تتريث . كانت معصوبة الجبين ، شاحبة ، هزيلة ، مسترخية الجفون ، ابتسمت ابتسامة وانية وقالت :

– طارئٌ سيزول ، وكل شيء الى زوال ، اليس كذلك ؟ – وذهبت .

شعرت بالضيق ، وبشيء من الأسى والفراغ ، ولكنني شعرت بالرغبة في ان استأخر ذهابي ، فعدت في وقت متأخر من دون ان اراها مرة ثانية .

مرّ الصباح التالي وانا في يقظة تشبه الحلم ، أردت ان اشغل نفسي بعمل فما استطعت . كنت لا ارغب في العمل ولا في التفكير . . . ولكنني عجزت . فقمت أطوف في ارجاء البلدة ، ثم اعود الى البيت لأغادره من جديد .

وسمعت من ورائي صوتاً طفولياً يقول :

– هل أنت السيد «ن» ؟

التفت فرأيت صبياً . اضاف وهو يناولني رسالة :

– هذه لك من فراولين Annette .

فتحتها – فعرفت خط آسية المتعرج السريع ، وقد كتبت فيها تقول : «لا بد ان أراك . تعال اليوم في الساعة الرابعة الى المعبد الحجري القائم على الدرب الى جانب الاطلال . كنتُ شديدة التهور اليوم . . . سألتك بالله ان تاتي وستعرف كل شيء . . . قلْ لحامل الرسالة : نعم» .

وسأل الصبي :

– هل من جواب ؟

فاجبت :

– قل لها ، إن الجواب نعم .

فانطلق الصبي راكضاً .

١٤

عدت الى غرفتي ، فجلست وغرقت في التفكير . كان قلبي يخفق خفقاً عنيفاً . . . أعدت قراءة رسالة آسية مرات ، ثم نظرت في الساعة : لم تكن بلغت الثانية عشرة .

فتح الباب ودخل غاغين .

كان وجهه عابساً . اطبق على يدي وشدّ عليها بقوة ، وكان يبدو في غاية الاضطراب .

سالته :

— ماذا حدث لك ؟

اخذ غاغين كرسياً وجلس قدّامي ، ثم بدأ حديثه متلعثماً يرسم ابتسامة متكلفة :

— لقد أذهلتك بما رويته عليك منذ اربعة ايام ، ولسوف ازيدك ذهولا اليوم . لو كان امامي شخص آخر سواك لما جرؤت . . . بهذه الصراحة . . . ولكنك انسان نبيل ، ثم انك صديقي ، اليس كذلك ؟ اسمع ، ان أختي آسية تحبك .

انتفضت بكل جسمي ، ونهضت قليلا . . .

— أتقول أختك ؟ . .

فقاطعني غاغين :

— نعم ، نعم ، اقول لك انها مخبولة ، وستدفع بي الى الجنون . من حسن الحظ انها لا تستطيع ان تكذب ، وهي تثق بي . آه ، يا لروح هذه الفتاة ، انها ستورد نفسها موارد الهلاك لا محالة .

فقلت :

— لا بدّ انك على خطأ .

— ابدا ، فما انا على خطأ . لقد لزمت فراشها أمس ، اكثر النهار ، وانت تعلم ذلك ، فلم تذق طعاماً ، ولا نبرت عنها شكاة . . . فهي لا تشكو ابداً . لم يداخلني القلق على الرغم من الحمى الخفيفة التي ظهرت عليها في المساء . في الساعة الثانية من هذه الليلة ، ايقظتني صاحبة البيت وقالت : «اذهب الى اختك فان حالتها تبدو سيئة» . اسرعت الى آسية فاذا هي لا تزال في ملابسها ، كانت محمومة ، دامعة العينين ، يتلهب راسها ، وتصطك اسنانها . سالتها : «ماذا بك ؟ هل انت مريضة ؟» فارتمت على عنقي وهي تتوسل الى ان ارحل بها من هنا باقصى ما يستطاع من السرعة اذا كنت راغباً في الحفاظ على حياتها . . . لم افهم شيئاً مما بها ، حاولت ان اهدئ من روعها . . . فزاد نشيجها . . . وفجأة سمعت من خلال زفراتها . . . مختصر الكلام ، سمعت انها تحبك . اؤكد لك اننا على ما نحن عليه من رجاحة العقل ، قاصرون ولو بالتصور عن

ان ندرك ما عندها من عمق في الشعور وبأي قوة يبرز لديها هذا الشعور ، فهو يفاجئها بشكل عاصف كأنه الصاعقة . — وتابع غاغين الكلام فقال — : انك انسان في غاية الظرف ، ولكن لماذا احبتك هكذا ؟ اعترف باني لا أدري لماذا . قالت انها اعتلقت بك من أول نظرة ، وهذا ما اهاجها على البكاء قبل ايام حينما كانت تؤكد لي انها لا تريد ان تحب احداً آخر غيري . تصورت انك تزدريها ، ورجحت انك على علم بحقيقة امرها ، وكان من الطبيعي ان اجيب : لا ، حينما سالتني : هل اطلعتك على حكايتها ، ولكن حدسها مخيف . انها لا تتمنى الا امراً واحداً وهو الرحيل ، ان ترحل من فورها . بقيت ساهراً معها حتى انبلج الصباح ، لم تغف عيناها الا بعد ان وعدتها بأن نرحل في الغد ، ثم اني مضيت افكر وافكر حتى انتهيت الى قرار بان احدثك بالامر . في اعتقادي ان آسية على حق ، فمن الخير لنا نحن الاثنين ان نرحل من هنا ؛ كنت بسبيلي الى الرحيل معها اليوم لولا ان استوقفتني فكرة خطرت ببالي ، فقلت : من يدري ؟ قد تكون اختي اعجبتك ، فاذا كانت الحال كذلك فهل يحق لي ان ارحّلها . على ذلك صممت على نبذ الخجل . . . ثم اني لاحظت امراً . . . فاعتزمت . . . ان اعرف منك . . . — واضطرب غاغين المسكين وهو يضيف : — ارجوك ان تعذرني فاني لم اتعود مثل هذه المواقف الحرجة .

فامسكته من يده وقلت بصوت حازم :

— اتريد ان تعرف هل تعجبني اختك ؟ نعم انها تعجبني . . .

فحدق غاغين في وجهي وقال متلعثماً :

— ولكنك لن تتزوجها ؟

— كيف تريدني ان اجيبك على هذا السؤال في الحال ؟ لك ان تحكم انت ، هل تراني استطيع في الوقت الحاضر ؟ . .

فقاطعني غاغين :

— اعرف هذا ، اعرفه ، فاني لا املك ولو ذرة من الحق في مطالبتك بجواب ، بل ان سؤالي هذا بعيد عن اللياقة . . . ولكن بماذا تامرني ان افعل ؟ لا يجوز المزاح مع النار ، فانت لا تعرف آسية . انها قمينة بأن تمرض ، بان تهرب ، بان تضرب لك موعد لقاء . . . يستطيع غيرها من الفتيات ان يتكتم وينتظر ، ولكنها

ليست كذلك . ان هذا يحدث لها أول مرة ، وهنا المصيبة ! لو رايتها وهي تنتحب عند قدمي اليوم لفهمت مخاوفي .

اطرقت مفكراً . كانت كلمات غاغين : «تضرب لك موعد لقاء» ، تخز في قلبي ، ورايت ان من المخجل الاّ اقابل صراحته الشريفة بصراحة مثلها ، فقلت بعد تردد :

– نعم ، انك على حق ، فقد استلمت من اختك رسالة منذ ساعة ، وها هي ذي .

اخذ غاغين الورقة ومسحها بنظرة سريعة سقطت بعدها يداه على ركبتيه . كانت الدهشة التي ارتسمت في وجهه مضحكة ولكنها لم تحملني على الضحك . وقال غاغين :

– اعيد القول بانك امرؤ نبيل ، ولكن ما العمل الآن ؟ كيف ؟ انها بالذات ترغب في الرحيل ، ثم تكتب اليك ، وتلوم نفسها على تسرعها . . . متى تسنى لها ان تكتب اليك ؟ ماذا تريد منك ؟

هدات من روعه ، واخذنا نتداول الراي بما قدرنا عليه من الهدوء عما ينبغي ان نعمله .

وهذا ما اتفقنا عليه في النهاية : من أجل استدفاع المصيبة ينبغي ان اذهب الى لقاء آسية ، وان اصارحها بشرف ؛ على ان يبقى غاغين في البيت من دون ان يبدي ما يدل على انه يعرف بأمر رسالتها ، ثم نلتقي مرة ثانية في المساء . وقال غاغين وهو يشد على يدي :

– ان املي بك وطيد . كن رحيما بي وبها ، فاننا راحلون غدا على كل حال .

ثم اضاف وهو ينهض واقفاً :

– ذلك لانك على ما يبدو لن تتزوج بآسية .

فاعترضت قائلا :

– اعطني مهلة حتى المساء .

– طيب ، ولكنك لن تتزوجها .

ما إن ذهب غاغين حتى ارتميت على الاريكة واغمضت عيني . كان راسي يدور ، فان الاحاسيس التي اقتحمته دفعة واحدة كانت كثيرة . لقد ضاقت نفسي بصراحة غاغين ، ومن آسية ، فان حبها اسعدني واقلقني في آن واحد . ولم استطع ان اهتدي الى السبب

الذي دعاها الى البوح لاخيها بكل شيء ، كان يمزقني أن لا مناص من اتخاذ قرار سريع يشبه ان يكون وليد اللحظة . . .

قلت وانا اهب واقفاً : «الزواج بفتاة في السابعة عشرة من عمرها لها مثل ذلك المزاج ، فهل هذا معقول ؟ !»

١٥

عبرت الراين في الموعد المحدد ، كان أول وجه صادفته على الشاطئ الآخر ذلك الصبي الذي جاءني في الصباح ، وكان ينتظرني فيما يبدو ، فقد همس اليّ وهو يضع في يدي رسالة اخرى :

– هذه من فراولين Annette .

انباتني آسية انها غيرت زمان اللقاء ومكانه ، فان عليّ ان اجيء بعد ساعة ونصف الساعة من الموعد الاول ، لا الى المعبد بل الى بيت فراو لويزة ، وان اقرع باب البناية ثم اصعد الى الطابق الثالث .

وسالني الصبي :

– هل الجواب : نعم ايضاً ؟

– نعم .

وذهبت اتمشى على ضفاف الراين . لم يكن الوقت يسمح لي بان اعود الى البيت ، ولا كنت راغباً في ان اطوف بالشوارع . كان وراء سور المدينة حديقة صغيرة مسقوفة فيها مكان لهواة «الكرة الخشبية» وموائد لعشاق البيرة ، فدخلتها ؛ ثمة نفر من الالمان الكهول يلعبون بهذه اللعبة ، والكرات الخشبية تتدحرج في ضوضاء لا تتخللها صيحات الاستحسان الا في القليل النادر . حملت اليّ نادلة مليحة الوجه باكية العينين كوباً من البيرة ، فلما نظرت في وجهها استدارت بتعجل وتولت عني .

– اي نعم – قال رجل سمين احمر الخدين من ابناء البلد كان يجلس هناك – ان غانهيننا في اضطراب شديد اليوم فقد ذهب خطيبها الى الخدمة العسكرية .

نظرت اليها حيث انتبذت ركناً قصياً وجلست مسندة رأسها الى يدها والدموع تنفر قطرات من خلال اصابعها . طلب أحد الجالسين شيئاً من البيرة فحملت اليه الكوب وعادت الى ركنها . لقد تأثرت بمصيبتها فاخذت افكر في الموعد الذي ينتظرني ، كانت خواطري كئيبة خالية من المرح ، فاني ذاهب بقلب غير هادئ الى لقاء لا ينتظرني فيه الاستسلام الى افراح حب متبادل ، بل الوفاء بعهد قطعته لغاغين وتنفيذ هذا الواجب العسير . كانت كلمات غاغين : «لا يجوز الهزل معها» تنفذ في روحي كالسهام . ولكن الم احترق ظما الى السعادة قبل أربعة ايام فقط وانا في هذا القارب المحمول على الأمواج ؟ لقد أصبحت السعادة قريبة المنال ، وها أنا ذا اقف دونها متردداً ، أهمّ بدفعها ، بل اني مضطر الى دفعها بعيداً عني . . . ان مفاجاتها لي قد أشاعت الحيرة والارتباك في نفسي . واما آسية نفسها ، فانها على الرغم من رأسها الحامي وماضيها وتربيتها ، فان هذه المخلوقة الجذابة بل الغريبة بعض الشيء ، أقول ، لقد أخافتني . بقيت المشاعر تصطرع في داخلي وقتاً طويلا . ثم اقترب الموعد المضروب ، فقررت في آخر الامر : «انني لا استطيع ان اتزوجها ، ولن تعرف أيضاً انني احببتها» .

نهضت فوضعت في يد غانهين المسكينة تاليرة (لم تنطق ولو بكلمة شكر) ثم توجهت الى بيت فراو لويزة . كانت ظلال المساء قد بدات تسيل في رحاب الفضاء ، وفوق الشارع المعتم كانت فرجة ضيقة من السماء تبدو لامعة ببقايا الشفق القاني التي تركها الغروب . طرقت الباب طرقاً خفيفاً فانفتح في الحال ، فلما تجاوزت وصيده وجدتني في ظلام دامس . وسمعت صوت عجوز تقول :

— هنا ، انها تنتظرك .

بعد خطوة او خطوتين متلمستين ، شعرت بيد هزيلة تطبق على يدي ، فسالت :

— هل أنت فراو لويزة ؟

فاجابني ذلك الصوت نفسه :

— هي انا يا زينة الشباب .

قادتني العجوز الى اعلى في سلم شديد الانحدار حتى بلغنا باحة

الطابق الثالث ، عندئذ رايت على خيط ضعيف من النور يسقط من كوة صغيرة ، وجه أرملة العمدة المتغضن وابتسامتها المداهنة التي وسّعت فمها الأهتم وضيقت عينيها الحائلتي اللون . واشارت نحو باب صغير ، ففتحته بيد مترددة ثم أغلقته ورائي .

١٦

كانت الغرفة الصغيرة التي دخلتها شبه مظلمة حتى اني لم اتبين آسية في الحال ، ثم رايتها جالسة الى قرب النافذة ، يلفها شال طويل ، وقد أدارت رأسها ، واخفت وجهها او كادت ، فكأنها الفرخ المروّع . كانت أنفاسها تتلاحق ، واوصالها ترتعد ، فاعتصرني اشفاق عليها يفوق الوصف ، واقبلت عليها فاشاحت عني برأسها . . . فقلت :

— آنا نيقولاييفنا .

فاعتدلت بكل جسمها فجاة ، ولكنها لم تقو على النظر اليّ ، فامسكت بيدها ، كانت كفها باردة تسترخي كالميتة في يدي .

— كنت أتمنى — بدأت آسية الكلام وهي تحاول ان تبتسم فلم تطاوعها شفتاها الشاحبتان : — كنت أريد . . . لا ، فاني لا أستطيع — قالت ذلك وصمتت ، فصوتها في الواقع كان ينقطع عن النطق عند كل كلمة .

جلست الى قربها .

— آنا نيقولاييفنا . — اعدت ندائي ولكني شعرت أيضاً بالعجز فلم أضف شيئاً .

وخيّم الصمت . كنت لا ازال أمسك بيدها وارنو اليها . اما هي فبقيت على حالها ، منكمشة على نفسها ، تتنفس بصعوبة ، وتعض على شفتها السفلى في هدوء لتستدفع الانتحاب وتحتبس مسال الدموع . . . نظرت اليها : كان في سكونها المتهيب شيء من العجز يثير الرحمة ، فكأنها في جلستها قد سقطت على هذا النحو بعد ان

ارهقها الجهد في الوصول الى مقعد ، وشعرت بقلبي يذوب بين جوانحي .

– آسية ، – قلت بصوت يكاد لا يسمع . . .

فرفعت اليّ عينيها في بطء . . . ويالنظرة المراة العاشقة ، اين من يقدر على وصفها ؟ كانت هاتان العينان تفيضان بالثقة ، بالتساؤل ، بالاستسلام . . . غلبني سحــر هاتين العينين ، واستشعرت في جسدي ناراً رفيعة تنفذ فيه كالابر المحمّاة ، فملت عليها ، وضممت كفها الى شفتي . . .

التقطت اذني همساً مرتجفاً يشبه الزفرة المتقطعة ، واحسست على شعري يلمس رقيق من يدها المرتعشة كورقة الشجر . رفعت راسي فرايت وجهها ، ولشد ما تغير هذا الوجه فجأة ! لقد تبددت منه صورة الخوف ، وانطلقت نظرتها في الابعاد القصيّة وهي تشدني اليها وتتجاذبني ، وانفرجت شفتاها قليلا ، وشحب جبينها شحوب المرمر ، وانسابت خصلات شعرها الى وراء كانها تواجه الريح . لقد نسيت كل شيء . جذبتها اليّ فاستسلمت يدها واستجاب جسدها كله ليدها ، انزلق الشال عن كتفيها ، واستراح راسها في هدوء على صدري ، ثم رقد تحت شفتيّ الملتهبتين . . .

– إني لك . . . – همست بصوت خافت .

انزلقت يداي حول خصرها . . . ولكن ذكرى غاغين لمعت في خاطري فجأة كالبرق ، فصحت وانا اتراجع الى وراء :

– ماذا نحن فاعلون ؟ . . إن اخاك . . . إنــه يعرف كل شيء . . . ويعرف انني معك على لقاء .

انهارت آسية على الكرسي .

تابعت كلامي وانا انهض وابتعد الى زاوية في اقصى الغرفة :

– نعم ، إن اخاك يعرف كل شيء . . . لقد وجب عليّ ان افضي اليه بكل شيء .

– وجب ؟ – تمتمت آسية بصوت ضائع ، كان واضحاً انها لم تستعد زمام نفسها ، ولم تفهم من قولي الا قليلا .

– نعم ، نعم ، – قلت مكرراً في شيء من الحدة : – في هذا انت وحدك المذنبة ، انت وحدك . فعلام افشيت سرك ؟ ماذا حداك على الافضاء الى اخيك بكل شيء ؟ كان اخوك بالذات عندي اليوم ، وهو الذي نقل اليّ ما تحدثت به اليه . – بذلت جهدي كي اتحاشى

النظر الى آسية ، كنت اذرع الغرفة بخطوات واسعة . – لقد ضاع كل شيء الآن ، كل شيء ، كل شيء .

همت آسية أن تنهض عن الكرسي ، فصحت بها :

– تمهّلي ، ارجوك . انك تتعاملين مع انسان شريف ، نعم ، مع انسان شريف . ولكن خبريني اكراماً لله ماذا حداك الى القلق ؟ هل لاحظت عليّ شيئاً من التغير ؟ اما انا فما كنت قادراً عــلى التكتم حينما جاءني اخوك اليوم .

وفكرت : «ما هذا الذي اقوله ؟» كانت تجلجل في راسي هذه الفكرة ، وهي انني كاذب عديم الاخلاق ، وان غاغين يعرف امــر موعدنا ، وان كل شيء اصبح شانها مفتضحاً .

وسمعت آسية تقول في همس خائف :

– اني لم ادع اخي بل جاء من تلقاء نفسه .

فتابعت قولي :

– لقد فعلت ما فعلت ، فانظري ، وها انت بعد هذا تريدين الرحيل . . .

فهمست بصوت خفيض هادئ :

– نعم ، ينبغي ان ارحل ، وما رجوتك ان تاتي الى هنا الا لاودعك .

فقاطعتها :

– هل تظنين ان فراقك سيكون سهلا عليّ ؟

فكررت آسية في حيرة :

– واذن لماذا اخبرت اخي ؟

– افهميني ، لم يكن لي من سبيل آخر . ويا ليتك انت لم تبوحي بسر قلبك . . .

فاعترضت ببساطة :

– لقد حبست نفسي في غرفتي ولم اعرف ان صاحبة المنزل عندها مفتاح آخر . . .

كاد هذا الاعتراف البريء الذي نطقت به في تلك الدقيقة ان يثير غضبي وقتذاك . . . اما الآن فلا استطيع ان اذكره من دون حسرة على الطفلة المسكينة الطاهرة الصادقة !

– وها هو كل شيء ينتهي الآن ! – بدات الكلام من جديد . –



كل شيء ، وينبغي علينا ان نفترق . — ونظرت خفية الى آسية . . . فاذا وجهها يحمرّ فجاة ، وشعرت بانها تعاني احساساً غامراً بالخجل والخوف ، كنت انا ايضاً اذرع الغرفة واهذي كالمحموم . — انك لم تتركي مجالا تنمو فيه العاطفة التي اخذت في النضج ، قطعت ما بيننا من الاواصر ، لم تثقي بي ، شككت في امري . . .

في اثناء مضيي بهذا الكلام كانت آسية تنحني شيئاً فشيئاً الى الامام ، وفجاة سقطت على ركبتيها ، ورمت راسها بين كفيها وهي تشهق من البكاء . اسرعت اليها وحاولت ان اعينها على النهوض فكانت تتعصى عليّ وتستدفعني . لم يكن لي طاقة على احتمال دموع النساء ، فاني لا اكاد اراها حتى افقد صوابي في الحال :

— انا نيقولاييفنا ، آسية ، — قلت في الحاح : — ارجوك ، اتوسل اليك ، كفاية اكراماً لله . . . — واخذت بيدها من جديد . . . لكنها ويا لدهشتي ، هبت فجاة ، واندفعت كومضة البرق نحو الباب ، واختفت .

حينما دخلت فراو لويزة عليّ الغرفة بعد بضع دقائق ، كنت لا ازال واقفاً في وسطها كالمصعوق : لم افهم كيف انتهى هذا اللقاء على مثل ما انتهى اليه من السرعة والحماقة . انتهى قبل ان اقول ولو جزءاً صغيراً مما أردت ان اقول ، ومما يجب عليّ ان اقوله ، بل قبل ان اعرف ما هو الحل الذي ينبغي ان يختتم به هذا اللقاء . . .

سالتني فراو لويزة وهي ترفع حاجبيها الاصفرين الى شعرها المستعار :

— هل ذهبت الفراولين ؟

فنظرت اليها كالملتاث وخرجت .

١٧

تركت المدينة ، وانطلقت في الحقول ، يمزقني الغيظ ، وكان غيظاً مسعوراً . . . جعلت انحي على نفسي باللوائم : كيف فاتني ان ادرك السبب الذي حمل آسية على تغيير مكان اللقاء ، واي ثمن استاداها اللجوء الى هذه الحيزبون ، ولماذا لم امسكها عن

الذهاب ! ففي تلك الغرفة الصماء الغبشاء التي انفردت فيها بآسية ، وجدت القوة والجرأة على صدها عني ، بل حتى على تأنيبها . . . اما الآن فان صورتها تلاحقني ، وانا اسألها الغفران ، وتحرقني منها الذكريات ، عن وجهها الشاحب ، عن عينيها المبللتين الحائرتين ، عن شعرها المسترسل على عنقها المائل ، عن رأسها وهو يلتمس الاطمئنان على صدري . كنت اسمع همستها : «أنا لك» . . . فاؤكد لنفسي : «انني استجبت لنداء الضمير» . . . ولم يكن ذلك حقيقة ! فهل اردت مثل هذا الحل بالذات ؟ هل كنت قادراً على الافتراق عنها ؟ هل أصبر على الحرمان من قربها ؟ «مجنون ، مجنون !» – كنت اردد ذلك بغضب . . .

وبين هذا وذاك اقبل الليل ، فتوجهت بخطوات واسعة الى البيت الذي تقيم فيه آسية .

١٨

خرج غاغين للقائي ، وصاح قبل ان يصل اليّ :

– هل رأيت اختي ؟

فسألته :

– اليست في البيت ؟

– لا .

– اما عادت بعد ؟

– لا . – واضاف غاغين قائلا – : اعذرني ، فقد غلبني فراغ الصبر ، فذهبت الى المعبد على خلاف ما اتفقنا ، لم تكن هناك ، فهل اخلفت الميعاد ؟

– انها لم تكن عند المعبد .

– الم تقابلها ؟

فاضطررت الى الاعتراف بأني قابلتها .

– اين ؟

– في بيت فراو لويزة ، ثم افترقنا منذ ساعة .

واضفت :

– كنت في يقين من انها عادت الى البيت .

فقال غاغين :

– سننتظر .

دخلنا البيت ، وجلسنا بجنب بعضنا البعض صامتين . كنا في غاية الضيق ، لا ننقطع عن التلفت نحو الباب ، واصاخة السمع ، ثم نهض غاغين وهو يصيح :

– هذا شيء ما له شبيه ابداً ! اصبح قلبي على شعرة ، وستقصف عمري اقسم بالله . . . هيا نخرج للبحث عنها .

خرجنا . وكان الظلام مطبقاً في الخارج .

سالني غاغين وهو يشد قبعته على عينيه :

– وفيم جرى حديثك معها ؟

فاجبت :

– لم يستغرق لقائي بها سوى خمس دقائق ليس غير ، حدثتها بما جرى عليه الاتفاق .

فقاطعني قائلا :

– اتعرف ؟ من الخير لنا ان نفترق ، فهذا اجدى علينا في البحث عنها ؛ ولتعد الى هنا بعد ساعة على كل حال .

١٩

انحدرت مسرعاً من الكرمة ، وانطلقت في المدينة امسح شوارعها جميعها بنظرة عجلى . نظرت في كل ناحية حتى في نوافذ فراو لويزة ، ثم عدت الى الراين فقطعت شاطئه ركضاً . . . صادفت قليلا من النساء ، ولكني افتقدت آسية في كل مكان . لم يعد ياكلني الغيظ بل انه الرعب الخفي الذي يمزق الاوصال . . . ولكن لا ، فقد كنت اشعر بالندم ، بحرقة الأسف ، بالحب ، بأرق ما يكون الحب ! كنت اعتصر كفي وانادي آسية في ظلمة الليل الزاحفة ، ناديتها بصوت خفيض ، ثم ارتفع صوتي شيئاً مكرراً مئة مرة انني احبها . اقسمت الاّ افارقها ابداً ، كنت قميناً بان اهب كل ما في الوجود تلقاء تجدد عهدي بلمس يدها الباردة ، والاستماع لنبرتها الخافتة ، ورؤيتها امامي . . . لشد ما كانت قريبة مني ، وقد جاءت اليّ بملء عزمها ،

بملء قلبها البريء واحساسها النقي ، وحملت اليّ شبابها الذي لم يمسسه بشر . . . فلم أضمها الى صدري ، حرمت نفسي هناءة النظر الى وجهها الحبيب وهو يشرق بالغبطة والابتهاج الهادئ . . . كانت هذه الخاطرة تدفع بي الى الجنون .

صرخت من قرارة ياسي العاجز : – «اين امكنها ان تذهب ، وماذا تراها صنعت بنفسها ؟» تراءى لي في تلك اللحظة ، طيف ابيض على الضفة ذاتها من الراين ، في موضع كنت اعرفه من قبل ، فهناك يقوم صليب من الحجر غاص نصفه في الارض ، حيث يثوي رجل مات غرقاً قبل سبعين سنة او اكثر ، وعلى الصليب نقوش قديمة . فجمد قلبي في صدري . . . ثم انطلقت أجري نحو الضريح ، وكان الطيف قد اختفى ، صرخت منادياً : «آسية !» ، فارعبني صوتي الرهيب ، ولم يرد عليّ احد .

اعتزمت أن أعود لأتبين هل وجدها غاغين .

٢٠

كنت اصعد في الدرب خلال الكرمة حينما رأيت النور يضيء في غرفة آسية . . . فهدأ روعي قليلا .

واقتربت من الدار ، كان الباب الامامي مغلقاً . طرقته ففتحت كوة غير مضيئة في الطابق الاسفل بيد محاذرة ، وظهر راس غاغين . فسالته :

– هل وجدتها ؟

اجاب في همس :

– بل عادت ، وهي في غرفتها تستبدل ثوبها ، وكل شيء في مجراه .

فهتفت مندفعاً بفرح يفوق الوصف :

– الحمد لله ! الحمد لله ! كل شيء في مجراه الآن ، ولكن لا بدّ ان نستانف المحادثة .

– في وقت آخر – اعترض غاغين وهو يجذب اليه اطار الكوّة : – في وقت آخر ، اما الآن فوداعاً .

فقلت :

– الى الغد ؛ كل امر سيكون مقضياً في الغد .

فكرر غاغين قوله : «وداعاً» ، وانغلقت النافذة .

اوشكت اطرق على النافذة ، فقد اردت ان اقول لغاغين آنئذ انني اطلب يد اخته . ولكن ما هذه الخطبة في مثل هذا الوقت . . . فقلت في نفسي : – «الى الغد ، فانني ساكون سعيداً في الغد . . .»

غداً اكون سعيداً ! ان السعادة ليس لها غد ، وليس لها امس ، فهي لا تتذكر الماضي ولا تفكر في المستقبل ، فانها بنت الحاضر ، وليس هذا الحاضر يوماً ، وانما هو لحظة .

لست اذكر كيف وصلت الى «ز» ، فلم تحملني قدمان ، ولا نقلني قارب ، وانما ارتفعت على اجنحة عريضة قوية . وقد مررت قرب شجيرة فيها بلبل يغرد ، فوقفت اصغي ، وخيل اليّ انه يغرد بحبي وسعادتي .

٢١

حينما كنت اقترب من البيت المالوف في صباح اليوم التالي ، اذهلني ان ارى النوافذ جميعاً مفتوحة على مصاريعها ، وكذلك الباب ؛ وعلى وصيده ينتثر بعض الاوراق ، واليه خادمة في يدها مكنسة .

اقتربت منها . . .

وقبل ان اسالها : «هل غاغين في البيت ؟» بدهتني قائلة :

– رحلوا !

– رحلوا ؟ . . – كررت قولها . – كيف رحلوا ؟ الى اين ؟

– رحلوا اليوم صباحاً في الساعة السادسة ولم يقولوا الى اين . ولكن لحظة ، الا يبدو انك السيد «ن» ؟

– نعم ، انا السيد «ن» .

– لك رسالة مودعة عند صاحبة البيت .

وصعدت الخادمة الى فوق ثم عادت بالرسالة :

– هذه هي ، تفضل .

قلت :

– ولكن هذا غير ممكن . . . كيف حدث ذلك ؟ . .

فحدقت الخادمة اليّ في غباء واخذت في الكنس .

فتحت الرسالة التي كتبها غاغين اليّ ، لم يكن فيها سطر واحد من آسية ، وقد استهلها بالرجاء ، الاّ اغضب من رحيله المفاجئ ، وبالثقة من انني ساستحسن قراره بعد امعان النظر في الامر ، فانه لم يجد من هذا الضيق مخرجاً آخر بعد ان تعقد الموقف وانذر بالخطر . وكتب غاغين يقول : «لقد اقتنعت بأن الفراق ضربة لازب اثناء صمتنا ونحن نجلس معاً منتظرين آسية ، فهناك تقاليد بالية اشعر لها بالاحترام ؛ فلا يفوتني ان افهم انه لا يجوز عليك ان تتزوج آسية . لقد حدثتني بكل شيء ، واضطرني توفير الاستقرار لها الى الاذعان لما طلبته هي في الحاح وشدة» . ثم أعرب في خاتمة الخطاب عن أسفه على السرعة التي اقتضبت هذا التعارف بيننا ، وتمنى لي السعادة ، وشدّ على يدي في ود ، وتوسل اليّ الاّ اجدّ في البحث عنهما .

صرخت وكأنه يسمعني :

– اين موضع التقاليد هنا ؟ ما هذا العلك ؟ ومن أين لك الحق في خطفها مني ؟ . . – وامسكت راسي بيدي . . .

انفلتت الخادمة تنادي صاحبة المنزل بصوت ثاقب ، فأعادني فزعها الى رشدي ، وتأججت في باطني فكرة واحدة ، وهي ان اجدهما ، ان اجدهما مهما كلف الامر . كان تقبل الصدمة والاستسلام لمثل هذه القطيعة مما يفوق الطاقة . علمت من صاحبة البيت انهما ركبا في الساعة السادسة صباحاً سفينة اقلعت بهما متوجهة مع تيّار الراين . قصدت ادارة الميناء فانبئت هناك بانهما اخذا بطاقتي سفر الى كولونيا . مضيت الى البيت لاعفش متاعي واركب النهر في اثرهما . كان لا معدى لي عن المرور بقرب بيت فراو لويزة . . . وهناك طرق سمعي صوت يناديني . رفعت راسي فرايت ارملة العمدة تطل من نافذة الغرفة التي قابلت فيها آسية امس ، كانت تدعوني بابتسامتها المكروهة ، فادبرت عنها وتابعت طريقي ، ولكنها صاحت ورائي تقول ان عندها شيئاً لي . استوقفتني هذه الكلمات فدخلت بيتها . وكيف يحيط الوصف بالمشاعر التي انتابتني وانا ارى هذه الغرفة مرة ثانية . . .

قالت العجوز وهي تعرض عليّ رسالة صغيرة :

– كان المفروض ان أسلمك هذه الرسالة اذا مررت بي من تلقاء نفسك ، ولكنك شاب رائع فاليك بها .

اخذت الرسالة .

كانت رقعة صغيرة من الورق تحمل هذه الكلمات مسطورة في تعجّل بالقلم الرصاص :

«الوداع ، لن يرى احدنا الآخر بعد اليوم . اني لم أرحل بدافع من الكبرياء ، – لا ، فما كان لي من سبيل آخر . لقد بكيت امامك امس ، ولو انك قلت لي كلمة واحدة ، كلمة ليس غير – لآثرت ان أبقى ، ولكنك لم تقلها ، ويبدو ان هذا هو الاحسن . . . فوداعاً الى الأبد !»

كلمة واحدة . . . آه ، اني لمجنون ! فقد قلت هذه الكلمة من قبل . . . رددتها بين الدموع . . . اطلقتها مع الريح . . . اكدتها في رحاب الحقول . . . ولكني لم اقلها لمن ينبغي أن تقال له ، لم اقل لها انني أحبها . . . نعم، لم استطع وقتذاك ان انطق بهذه الكلمة . فعندما قابلتها في تلك الغرفة النحس ، لم اكن قد تبينت عاطفتي بجلاء ، لم يتفتح هذا الادراك حتى وانا جالس مع اخيها يخيم علينا ذلك الصمت الثقيل الاجوف . . . ولكنه اندلع بقوة طاغية بعد لحظات فقط ، حينما كنت ابحث عنها واناديها بقلب مفزوع من ان يكون فى الامر كارثة . . . ولكن ذلك جاء بعد فوات الاوان . قد يقال : «ان هذا مستحيل !» ، ولا ادري أتكون الحال كذلك ام لا – ولكن ما اعرفه ان هذا حقيقة : ان آسية ما كانت لترحل لو انها على مسحة من التغنج ، او كان وضعها خالياً من الزيف . انها لم تكن تطيق ما يمكن ان تطيقه اي فتاة غيرها ، وهذا ما فاتني ان ادركه ! لقد احتبست المعيتي المشؤومة اعترافاً كان على فمي اثناء لقائي الاخير بغاغين امام النافذة المظلمة ، وبذلك افلت من يدي الخيط الاخير الذي بقي مما اتعلق به .

عدت الى مدينة «ل» في ذلك اليوم نفسه ومعي حقيبة عيابي ثم ركبت قاصداً كولونيا . واذكر ان السفينة اقلعت وانا على ظهرها اودع بالفكر هذه الشوارع بكل ما فيها من الاماكن التي قدر عليّ ان لا انساها ما حييت . وهنا رأيت غانهين . كانت تجلس على مصطبة تشرف على النهر ، شاحبة الوجه ولكن في غير حزن ، والى جنبها فتى جميل الطلعة يحدثها ويضحك . وعلى الضفة الاخرى من

الراين ، كانت عذرائي الصغيرة لا تزال ترنو بنظرتها الأسوانة ، وقد تراءى لي تمثالها من خلال الخضرة القاتمة التي تنشرها شجرة السنديان العتيقة .

٢٢

في كولونيا وقعت على أثر لآل غاغين . عرفت أن الاخوين سافرا الى لندن ، فتتبعتهما ، ولكن البحث عنهما في لندن انتهى الى اخفاق . بقيت وقتاً طويلا أدافع عوامل الاستسلام واقاوم ، ثم اضطررت في نهاية المطاف الى التسليم بانني فقدت كل أمل في العثور عليهما .

لم أرهما فيما بعد – لم أر آسية . بلغتني شائعات مظلمة عنه ، اما هي فقد اختفت ، واختفى عنها كل اثر وخبر ، بل اني لا اعرف أهي باقية على قيد الحياة ام لا . وفي ذات يوم ، بعد مرور بضع سنين ، وكنت خارج حدود البلاد ، لمحت امرأة في عربة القطار ، فذكرني وجهها في وضوح بتلك القسمات التي لا تنسى . . . ولكن المرجح انني خدعت بهذا الشبه الذي جاء بالمصادفة ؛ وبقيت آسية في خاطري هذه الفتاة التي عرفتها في أزهى مراحل العمر ، ورأيتها آخر مرة وهي تميل على مسند كرسي خفيض من خشب .

ولكن لا بد من الاعتراف بأن حزني عليها لم يستمر وقتاً طويلا ، وزدت على هذا فوجدت أن القدر أحسن صنعاً حين ابى أن يجمع بيني وبين آسية ؛ وعزّيت نفسي بالاعتقاد ان زوجة على هذه الشاكلة لن تهيئ لي أسباب السعادة . كنت شاباً وقتذاك ، وكان المستقبل ، هذا المستقبل القصير السريع ، يبدو لي رحيباً بغير نهاية ، وفكرت : ألا يمكن ان يتكرر ما كان ، على وجه أبدع وأروع ؟ . . ثم عرفت من عرفت من النساء ، ولكن العاطفة التي اثارتها آسية في نفسي ، بما في هذه العاطفة من التوقد والرقة والعمق ، لم تتكرر فيما بعد . كلاّ ! فما كان بين العيون بديل يعوضني من هاتين العينين اللتين رأيتهما ذات حين ترنوان اليّ في حب ، ولم يستجب قلبي بمثل هذا الخشوع وهذا الفرح العذب لأي قلب آخر خفق على صدري ! وفي هذه الوحدة التي يحكم بها عليّ ، على اعزب محروم من الاسرة ، فاني أعيش سنواتي الاخيرة

الموحشة ، ولكني احتفظ بمثل ما يكون الحفاظ على المقدسات بالرسالتين الصغيرتين ، وبزهرة الغيرانيوم التي رمتني بها من نافذتها . انها جافة الآن ، ضعيفة العبير ، اما اليد التي أعطتني اياها ، هذه اليد التي لم ارفعها الى شفتي الا مرة واحدة ، فقد تكون ثاوية في قبرها منذ زمن بعيد . . . وانا نفسي ، الى أي مصير صرت ، ما الذي بقي مني ، ومن تلك الايام السعيدة المضطرمة بالانفعالات ، ومن تلك الاحلام والمطامح المجنحة ؟ . . واذن ، فان نفحة خفيفة من عشبة تافهة ، أقدر على البقاء من أفراح الانسان وأحزانه كلها ، بل هي أقدر على البقاء من الانسان نفسه .

عام ١٨٥٨

الحب الاول (٦٦)

اهداء الى ب . ف . انينكوف

. . . كان الضيوف قد انصرفوا منذ وقت طويل ودقت الساعة مؤذنة بانتصاف الواحدة ، ولم يبق في الغرفة الا صاحب الدار وسيرغي نيقولايتش وفلاديمير بتروفيتش .

قرع صاحب الدار جرسا يدعو الخادم الى لملمة آثار العشاء عن المائدة ، ثم قال وهو يسترخي في مقعده وبيده سيجار :

– واذن فقد اتفقنا على أن يقص كلّ منا قصة حبه الأول ، وهذا دورك يا سيرغي نيقولايتش .

فالتفت سيرغي نيقولايتش ، وهو رجل جسيم لحيم منتفخ الوجه ، أبيض البشرة ، اشقر الشعر ، ونظر الى صاحب الدار ، ثم رفع بصره الى أعلى ، وقال بعد لأي :

– لم يكن لي حب أول ، وانما بدأت بحبي الثاني .

– وكيف كان ذلك ؟

– لا أبسط . كنت في الثامنة عشرة من عمري حينما تصبيّت ، أول مرة ، فتاة جميلة ، ولكني تصرفت كأنما ليس في الأمر جديد ، وكما تصبيّت غيرهـــا فيما بعد . والواقع ، ان غرامي الأول والأخير ، كان بمربيتي ، وأنا في السادسة من عمري ، ولكن هذا أصبح ذكرى بعيدة ، دارسة المعالم . ولو أني وقفت الى ابتعاثها فمنذا الذي يلقي اليها ببال ؟

فقال صاحب الدار :

– ما العمل اذن ؟ لم يكن في غرامي الأول مستطرف يغري بالاستماع ، فما صبوت الى امرأة حتى التقيت زوجتي ، ولا تزال ،

اننا ايفانوفنا . وقد سار كلّ شيء في لين ويسر ، فدبّر والدانا امورنا ، وما أسرع ما تبادلنا الحب ، فابتدرنا الزواج . لا تزيد قصتي على كلمتين . لست اكتمكم ايها السادة ، انني كنت موصول الأمل بكما حينما اثرت موضوع الحب الاول ، فانكما وان لم تطعنا في السن ، فما انتما من العازبين الشباب ، فهل لك يا فلاديمير بتروفيتش ان تمتعنا بما يحضرك ؟

فقال فلاديمير بتروفيتش في تردد ، وهو رجل في الاربعين من عمره ، وخط المشيب شعره الاسود :

– ان حبي الاول ، يتجاوز في الواقع حدود المالوف .

– آ ! – صاح صاحب الدار وسيرغي نيقولايتش في آن واحد . – ذلك خير فار'و علينا حديثك .

– لا مانع ، ولكن أستسمحكما بالاّ افعل فما انا ممن يجيدون الرواية ، فقد تاتي جافة بايجازها ، او زائفة باطنابها ، ولو اذنتما في ان اكتب ما تسعفني به الذاكرة ، واتلوه عليكما فيما بعد .

رفض رفيقاه هذا العرض اول الامر ، ولكنهما انتهيا الى ما ارتآه فلاديمير بتروفيتش ، وقد وفى بما وعد حين اجتمعوا بعد اسبوعين . وها هو ذا ما جاء في اوراقه :

١

كنت في السادسة عشرة من عمري ، وقد حدث ما سأرويه في صيف عام ١٨٣٣ .

كنت اعيش في موسكو مع ابويّ ، وكانا قد استأجرا دارة * قرب بوابة كالوجسكايا ، تجاه حديقة «نيسكوتشني ساد» . وكنت استعد لدخول الجامعة ، فادارس ولكن في ريث وتمهّل .

كانت حريتي مدى مفتوحاً ، لي فيه ان افعل ما اشاء ، وبخاصة بعد ان حلّ عني معلمي الاخير ، وهو رجل فرنسي لم يكن لينسى انه سقط على روسيا كالقنبلة (comme une bombe) ، فكان يتمدد في سريره طوال النهار ، وعلى وجهه سمة الغضب . كان ابي يأخذني باللطف من دون اكتراث ، واما امي ، فانها تكاد لا تشعر بأمري على الرغم من اني وحيدها ، لأنها في شغل شاغل بهموم قلبها . كان

* ما يقابل معنى الفيلا ، او الداتشا عند الروس . المعرب .

ابي شاباً جميلا ، وقد تزوجها لثرائها ، وهي تكبره بعشر سنين . فكانت حياتها تتصرم أسوانة حزينة ، فما تقيم الا على قلق ، وغيرة ، وغضب ، ولكنها تتكتم ذلك كله في حضرته ، اذ كانت تتهيبه وتخشاه ، وكان هو في سلوكه ، بارداً صارماً عديم الاكتراث . . . لم يقع بصري على من يضارع أبي في رزانته واعتداده بنفسه وقوة تأثيره .

لن أنسى الأسابيع الاولى التي قضيتها في تلك الدارة ، كان الجو رائعاً حينما غادرنا المدينة في التاسع من شهر نوار (مايو) ، وهو يوم القديس نيقولاي ، وكنت تارة أتجول في حديقة دارتنا ، او في حديقة «نيسكوتشني ساد» ، او اتخطّى حدود البلدة . وكنت أتأبط ما يقرأ ، مثل كتاب كايدانوف (٦٧) ، او مما على هذه الشاكلة ، ولكني أكاد لا أفتحه الا في النادر ، بل كنت اقضي اكثر الوقت في انشاد الشعر الذي أجيد حفظ الكثير منه وانشده بصوت عال . كان دمي يفور ، وقلبي يخالطه الم لذيذ غريب ، كنت في حال من الترقب لأمر ، والخوف من هذا الامر ، اراني مدهوشاً من كل شيء ، مترقباً كل شيء ، كان خيالي يلعب ، ويحوم مسرعا حول عدد من الآراء ، يبدئ فيها ويعيد ، كما يحوم طير الخطاف حول برج الناقوس عند انشقاق الفجر . كنت استغرق في التفكير او اغرق في الأسى ، وقد يستبدّ بي البكاء ، ولكن خلل الدمع والشجى ، يبتعثهما شعر عذب او مساء جميل ، كان ينبثق هذا الشعور من المراح الذي تصطبغ به حياة الشباب ، كما يبرض العشب من الثرى في الربيع .

كان لي جواد ، فكنت اسرجه بيدي ، وانطلق به وحيداً ، بعيداً ، وانا اتصور انني فارس في حلبة (ويا للغبطة حينما كانت الريح تصفر في أذني) ، او ارفع وجهي الى السماء ، لأنهل بملء روحي من اشراقها وزرقتها .

اذكر انني حتى ذلك الحين ، لم اكن قد تمثلت صورة المرأة ، ولا الأثارة من حب المرأة ، على نحو واضح ، ولكن كل ما افكر فيه ، وكل ما اشعر به ، كان ينطوي على شبه احساس مسبق خفيّ حييّ بشيء لذيذ انثوي .

كانت هذه الخواطر ، وهذا الترقب ، تخالط كياني جميعاً ، فأتنفس بها ، وأستشعرها نبضاً في عروقي ، وفي كل قطرة من دمي . . . وما أسرع ما تهيأ لها أن تتحقق .

كانت دارتنا تتألف من بيت كبير مزين بأعمدة ، ومن جناحين منخفضي السقف ، كان في أحدهما الواقع في الجانب الأيسر ، مشغلة صغيرة لصنع ورق الجدران الرخيص . فكنت أتردد عليها كثيراً لأرى الى نفر من صبيان نحاف عجاف ، شعث غبر ، في أسمال قذرة ، ووجوه شاحبة ، وهم يتوثبون على أمخال من الخشب ، حملت على اطار المطبعة المستطيل ، ضاغطين بثقل اجسادهم الضامرة ، لطبع الزخارف الملونة على الورق . وكان الجناح الأيمن خالياً معروضاً للاستئجار .

في ذات يوم ، بعد مضي ثلاثة اسابيع على التاسع من شهر نوار (مايو) ، انفتحت النوافذ في هذا الجناح ، وظهرت فيها وجوه نسائية ، ذلك ان احدى الأسر قد انتقلت اليه . اذكر ان امي سألت الوصيف في أثناء الغداء : من يكونون جيراننا الجدد ؟ فلما سمعت اسم الأميرة زاسيكينا ، قالت في شيء من التهيب : «آه . . . اميرة» ، ثم اضافت قائلة : «لعلها ان تكون في عسر» .

وقال الوصيف وهو يضع في احترام طبقاً على المائدة :

— لقد اقبلوا في ثلاث عربات ، ولكنهم لا يملكون عربة خاصة ، وكان المتاع رخيصاً .

فقالت امي :

— نعم ، ولكني مسرورة على كل حال .

وعندئذ رماها ابي بنظرة باردة فسكتت .

وما كان للأميرة زاسيكينا ، ان تكون في الواقع ، امرأة من اهل الثراء ، ذلك ان الجناح الذي استأجرته ، كان على حال من التهافت والضيق والوطاء ، تتأبّى فيها اي اسرة ان تسكنه . اذا كانت على شيء من اسباب اليسر . ولكني ما كنت لأبالي بهذا الحديث وتذاك ، ولم يؤثر فيّ لقب الأمارة ، لأن عهدي بمطالعة مسرحية «اللصوص» لشيللر (٦٨) لم يكن بعيداً .

٢

درجت على عادة التطواف كل مساء في حديقة الدارة ، ومعي بندقية ، هناك كنت اتربص للغربان ، مدفوعا بشعور قديم من الكراهية لهذا الطائر المستريب الماكر المفترس . وتوجهت الى

الحديقة في ذلك اليوم الذي اتحدث عنه ، وبعد ان سلكت مساربها جميعا على غير طائل (كانت الغربان قد عرفتني فاخذت تنعب من بعيد بصرخات قصيرة) رأيتني فجأة قرب السياج الخفيض الذي يفصل بين ارضنا ، وبين حديقة ضيقة ، واقعة وراء الجناح من الناحية اليمنى وتابعة له . فذهبت اسير مطرقا براسي ، فاذا اصوات تطرق سمعي ، فنظرت عبر السياج ، فجمدت حتى لكانني اصبحت حجراً ، ذلك انني ابصرت مشهداً ولا اغرب منه .

فهناك على بعدة خطوات من موقفي ، عند منفسح بين شجيرات توت خضر ، كانت تقف فتاة سامقة القد رشيقة اللفتة ، في فستان ورديّ مخطط ، ومنديل أبيض على رأسها ، وحولها اربعة شبان ، وهي تجبهُهم بتلك الأزهار الرمادية الصغيرة التي لا اعرف اسمها ، على حين يعرفها الاطفال جميعا ، وتكون نواويرها حقاقاً صغيرة ، تنفجر وتطق اذا اصطدمت بجامد . كان الشبان يعرضون جباههم مغتبطين . وكانت لفتات الفتاة وايماءاتها — وكنت ارى اليها من جانب — تنطوي على قدر من الجلال والحنو والجاذبية وعلى شيء من السلطان والسخرية ، أكاد فيه أصرخ من الاعجاب والرضى ؛ كنت على استعداد لأن أعطيها العالم ، تلقاء لمسة تجبهني بها هذه الأصابع الرقيقة . انزلق سلاحي على العشب ، وانا ذاهل عن كل شيء ، سوى النظر الى هذا القوام الاهيف ، وهذا الخصر الهضيم ، وهذا العنق المستقيم ، وهاتين الذراعين الجميلتين ، وهذا الشعر الاشقر تطل ذوائبه من ثنيّات منديلها الابيض ، وهاتين العينين الذكيتين الناعستين تظلّلهما رموشها الوطف ، وهذا الخد الأسيل تحت تلك الرموش الوطفاء . . .

— ايها الشاب ، — ارتفع صوت على قربي — امن المباح ان تحملق على هذا النحو في فتيات لم تتعرف اليهن ؟

فانتفضت بالمفاجأة ، ولم احر جوابا . . . كان ثمة رجل ذو شعر اسود قصير يقف قريباً مني وراء السياج ، ويرمقني بنظرة ساخرة ، وتلفتت الفتاة في اللحظة ذاتها نحوي . . . فرأيت العينين الرماديتين الكبيرتين في وجهها الطلق المراح ، وترتعش قسمات هذا الوجه فجأة بالضحك ، فتتلألأ اسنانها البيضاء ، ويشيل حاجباها . . . فاحمررت واخذت سلاحي من الارض ، وانطلقت الى غرفتي ، تصخب ورائي ضحكات مرنان ، ولكنها بريئة من السوء .

ارتميت على السرير مخفيا وجهي بكفيّ ، وقلبي يتوثب في صدري ، وشعور بالخجل والمرح في آن يملأ نفسي ، وانفعالات ما عهدت مثلها من قبل تضطرب في اعماقي .

وبعد ان استرحت قليلا ، قمت أمشط شعري ، وأصلح من امري ، ثم نزلت لتناول الشاي ، كانت صورة الفتاة الشابة تتلامع امامي ، وحار قلبي الى السكينة بعد توثبه ، ولزبته خفقة لذيذة .

سألني ابي فجأة :

– ما بك ؟ هل قتلت غراباً ؟

فوددت ان اروي عليه ما حدث ، ولكني امسكت ، وانا أبتسم في داخلي ، ولا ادري لِمَ درت على كعب واحد ثلاث مرات قبل ان استلقي في الفراش ، ثم تطيّبت ، ونمت طوال الليل كالقتيل ، ولم استيقظ الاّ لحظات عند الفجر ، حيث رفعت راسي ، ونظرت فيما حولي في غبطة ، وعدت استغرق في النوم .

٣

كان اول ما خطر لي حينما استيقظت في الصباح : «كيف السبيل الى التعرف بهم ؟» ، وقبل ان اتناول الشاي ، ذهبت أسعى الى الحديقة ، دون ان امضي قريباً من السياج ، ولم ار احداً هناك ، ثم خرجت بعد الفطور اقطع الشارع الممتد امام الدارة ، ذهاباً وجيئة ، وانا ارامق النوافذ من بعيد . . . وخيل اليّ انني لمحت وجهها من شفوف الستائر ، فابتعدت في خوف ولَهْوَجة ، ولكني فكرت : «بل ، يجب ان اتعرف إليها» ، كنت اتبطّأ في السير حول بقعة الارض الرملية امام حديقة «نيسكوتشني ساد» : «ولكن كيف ؟ هذا هو السؤال» . وتذكرت ادق التفصيلات من صورة لقاء الأمس ، فكانت ضحكتها مني ابرز ما بقي في الذاكرة . . . وعلى حين كنت اجهد نفسي في تدبّر الخطط ، كان القدر يشد أزري .

ففي أثناء غيابي عن المنزل ، تلقت أمي من جارتها الجديدة رسالة ، في ورق رمادي ، كان مختوما عليها بالشمع الذي يختم به على مغلفات البريد وزجاجات الخمر الرخيص . وجاء في هذه الرسالة التي كتبت بخط رديء وملئت بالغلط ، ما يفيد بان الأميرة تطلب

من امي ان تظلّها بحمايتها ، لان امي ، على حدّ ما ورد في الرسالة ، وثيقة الصلة بجماعة من اهل الحل والربط ، في يدهم مصيرها ومصير ابنائها ، بخصوص عدد من القضايا الخطيرة . وقد كتبت : «اني استقصدكم كامرأة نبيلة الى امراة نبيلة ، وانا مسرورة بتسنّح * هذه الفرصة» . وختمت رسالتها بأن التمست من امي ان تسمح باستقبالها . ورأيت امي في حرج من امرها ، فما كان ابي في البيت ، ولم يكن هناك من تشاوره في الموضوع ، ولا يُعقَل ان يُمسك الجواب عن «امراة نبيلة» ، بله أميرة . ولكن ما سبيلها الى الاجابة ؟ فما كانت لتستطيع ان تجيب باللغة الفرنسية ، وهذا ما يناسب المقام ، وكان علمها بقواعد اللغة الروسية دون المستوى الملائم للكتابة ، وانها لتعرف ذلك ، وتابى عليها الكرامة ان تكشف هذا الضعف ، ولهذا فرحت بعودتي ، وامرتني بان اذهب فوراً الى الأميرة ، وانبئها مشافهة بان امي على استعداد دائماً لأن تبذل ما تستطيع من اجل سموّها ، وانها حاضرة لاستقبالها في الساعة الواحدة تقريباً . انّ تحقق أمنيتي الخافية على هذا النحو المباغت قد ملأني بالفرح والخوف في آن . ولكني طويت ما كنت استشعره من الاضطراب ، ومضيت الى غرفتي كي اضع رباط عنق جديداً ، وارتدي سترة ، وكان عليّ ان اكون في البيت بالصدار والياقة المفتوحة وهذا مما يضايقني .

٤

بشعور من الخوف العفوي عبرت مدخل الجناح ، وكان ضيقاً مهملا ، قابلني خادم عجوز ، اشيب الشعر ، ذو وجه نحاسي قاتم ، وعينين كئيبتين كعيون الخنازير ، وتجاعيد في جبهته وصدغيه لم يقع بصري على مثلها من قبل ؛ كان يحمل صحناً فيه بقايا من سمكة رنكة ، دفع برجله باب الحجرة يغلقه ، وسألني بجفوة :

– ماذا تريد ؟

---

* واضح ان الغلط الوارد هنا يصور الغلط الوارد في رسالة الاميرة ، كقولها استقصدكم بدلا من اقصدكم ، وتسنّح بدلا من سنوح . **المعرب** .

فسألت :

– هل الاميرة زاسيكينا في البيت ؟

فصاح صوت نسائي أجش من وراء البــــاب : «فونيفاتي !» فاستدبرني الخادم صامتاً . كان البلى قد لحس ظهر سترته ولم يترك فيه سوى زر يتيم عليه شعار رسمي . وابتعد بعد ان وضع الصحن على الارض .

وعاد الصوت النسائي نفسه الى السؤال : «هل ذهبت الى مركز الشرطة ؟» فتمتم الخادم شيئاً لم اتبينه ، وسمعت الصوت مرة ثانية يسال : «هل جاء أحد ؟ نجل السيد من الدارة المجاورة ؟ ليتفضل» . عاد الخادم يقول وهو يرفع الصحن من الارض :

– تفضل في غرفة الاستقبال .

فاصلحت من شاني ، ودخلت «غرفة الاستقبال» .

رايتني في غرفة صغيرة ، قليلة الترتيب ، فقيرة الاثاث ، نثرت فيها الاشياء على عجل ، وهناك امراة تجلس قرب النافذة في مقعد كسير الذراع تناهز الخمسين من عمرها عاطلة من الجمال ، كانت عارية الراس ، في ثوب اخضر عتيق ، وشال من الصوف ذي الوان ، حول عنقهـــا . كانت تحـــدق فيّ بعينين سوداوين صغيرتين .

اقتربت منها وحييت بالانحناء :

– ايكون لي شرف الحديث الى الاميرة زاسيكينا ؟

– انني الاميرة زاسيكينا ، افانت نجل السيد ف . ؟

– اجل يا سيدتي ، واني قادم بتكليف من أمي .

– الا تفضلت بالجلوس ؟ فونيفاتـــي ، اين مفاتيحي ، الم ترها ؟

ابلغت السيدة زاسيكينا جواب امي على رسالتهـــا ، فكانت تصغي اليّ وهي تنقر باصابعها الغليظة الحمراء على طرف النافذة ، وعادت تحدق فيّ بعد ختام حديثي . واخيراً قالت :

– حسن جداً ، اكيد سآتي . آه ، انك شاب ، اسمح لي ان اسالك ، كم لك من العمر ؟

فلعثمت قائلا :

– ست عشرة سنة .

فاخرجت الاميرة من جيبها أوراقاً قذرة مخربشة ، وقربتها من

انفها ، لتستعرض ما فيها ، ثم قالت فجاة «سن طيبة» ، واخذت تلوب وتتململ في مقعدها ، واضافت :

– ارفع الكلفة من فضلك ، فنحن في غاية البساطة .

فقلت في نفسي : «بساطة زائدة» ، وانا القي ، دون ارادة مني ، نظرة اشمئزاز على قالبها القبيح .

في اللحظة نفسها ، انفتح بسرعة باب آخر لغرفة الاستقبال ، وظهرت عند وصيده تلك الفتاة التي رايتها في الحديقة امس ، وقد رفعت يدها ، وتالقت في وجهها ابتسامة .

قالت الاميرة وهي تشير اليها بمرفقها :

– انها ابنتي . يا زينايبيدا ، هذا ابن جارنا السيد ف . ما اسمك ؟ اسمح بأن نتعارف .

فوقفت أجيبها وانا أرتجف من الانفعال ، وقلت :

– فلاديمير .

– ولقبك ؟

– بتروفيتش .

– نعم ، عرفت رئيس شرطـــة بهذا الاسم ، فلاديميـــر بتروفيتش . يا فونيفاتي ، لا تبحث عن المفاتيح فهي في جيبي .

كانت الفتاة لا تزال تنثر النظر اليّ بعينيها المضمومتين قليلا وابتسامتها الساخرة نفسها ، وقد مالت براسها قليلا الى جانب ، ثم قالت :

– لقد رايت السيد فولديمار * من قبل (فسرى جرس صوتها الفضي في نفسي كالرعشة اللذيذة) لو سمحت بان اناديك من دون لقب !

قلت :

– ليكن .

وسالت الاميرة :

– اين كان ذلك ؟

ولكن الاميرة الشابة لم تجب امها ، بل قالت دون أن تحسر نظرتها عني :

– اانت مشغول ؟

فقلت :

* اسم فلاديمير على النمط الفرنسي . **المعرب** .

— لا !

— اتريد اذن ان تساعدني في لف شلة صوف ؟ تعال معي . ـ واومات اليّ برأسها ، وغادرت غرفة الاستقبال ، فتبعتها .

دخلنا غرفة احسن اثاثاً ، واجمل ترتيباً ، ولكنني لم اكن في الواقع على حال تسمح لي بان الحظ شيئاً ، فقد كنت أتحرك وكأني في حلم ، وشعور عارم بالغبطة يشيع في أطرافي .

جلست الاميرة الشابة ، وتناولت شلة صوف أحمر ، واومات الى كرسي تجاهها . أخذت تحل الصوف ، وتلفه حول يديّ ، وكانت تفعل ذلك كله في صمت ، وبطء لطيف ، وعلى وجهها ابتسامة معابثة مشرقة ، وشفتاها منفرجتان . ثم بدأت تلف الصوف حول ورقة متثنية ، وفجاة القت اليّ بنظرة مختطفة صريحة ، فاطرقت الى الارض من دون ارادة . حينما كانت تفتح عينيها على آخرهما ، وهما مضمومتان ، كان وجهها يتبدل جملة ، فكأن قسماتها تتلألأ بالضوء . وسألت :

— ترى ، ايّ فكرة خطرت لك عني امس ايها السيد فولديمار ؟ — واضافت بعد ريث : — يخيل اليّ انك استنكرت امري ؟

فاجبت في ارتباك :

— انا . . . يا اميرة . . . لم يخطر لي شيء . . . كيف استطيع . . . .

فقالت :

— انك لا تعرفني بعد ، فانا غريبة الطبع ، أريد ان يصدقني الجميع القول . لقد سمعتك تقول انك في السادسة عشرة ، اما انا ففي الحادية والعشرين ، ارايت اذن اني اكبر منك سناً بكثير ، ولهذا ينبغي عليك ان تصدُقني القول ، وأن تكون لي سميعاً مطيعاً . — ثم اضافت قائلة : — انظر الي . علام لا تنظر اليّ ؟

فزاد ما كنت فيه من الحرج ، ولكني رفعت بصري اليها ، فابتسمت ، وكانت ابتسامتها مختلفة عن ذي قبل ، فهي ابتسامة يشيع فيها الاستحسان ثم قالت بصوت خفيض حنون :

— انظر اليّ ، ان هذا يسرني ، ان وجهك يعجبني ، واشعر باننا سنكون صديقين ، فهل اعجبك ؟

— ايتها الأميرة . . . — استهللت كلامي . فقالت :

— اولاً ، عليك أن تدعوني زينايبدا الكسندروفنا . ثم ، ما هذه العادة عند الاطفال (واستدركت قائلة) عند الشباب ، فانهم لا يُفضون مباشرة بما يشعرون به . هذا حسن للكبار . الست معجباً بي ؟

فاستغضبتني صراحتها على الرغم من غبطتي بانها تحدثت اليّ على هذا النحو ، ووددت أن أعالنها انها ليست مع غلام غرير ، فاصطنعت على قدر ما أستطيع ، مظهراً متحرراً من الكلفة ، وقلت :

— لا شك أني معجب بك أشد الاعجاب يا زينايبدا الكسندروفنا ، ولست راغباً في اخفاء ذلك .

فاخذت تهز راسها في بطء يمنة ويسرة ، وسالتني فجاة :

— ألك مربّ خاص ؟

— ليس لي مربّ منذ وقت بعيد .

كنت كاذباً في هذا ، فلم يكن قد مضى شهر على رحيل المربّي الفرنسي .

— آه ، أرى انك ايفعت .

ونقرت أصابعي في لمسة خفيفة ، وقالت : — اجعل ذراعيك مستقيمتين ! — وبدأت تلف شلة الصوف في اجتهاد .

افترصت فرصة كانت اثناءها مشغولة بما في يدها من عمل ، واخذت أنظر اليها ، مخالساً في البداية ، ثم في جراءة اكثر . فظهر أن وجهها اجمل مما كان امس ، كان كل ما في قسماتها دقيقاً ذكياً لطيفاً . كانت تجلس وظهرها الى النافذة ، حيث كانت ستارة بيضاء ، ينفذ منها شعاع من نور الشمس ، فينسكب في دَعَة على شعرها الذهبي الوثير ، وجيدها البريء ، وكتفها المنحدرة ، ونهدها الغض الوديع . كنت انظر اليها ، فما اعزّ ما أصبحت عندي ، ما اشد قربها مني . شعرت باني أعرفها منذ زمان بعيد ، واني لم اعرف قبلها شيئاً ، ولم اعش شيئاً . . . كانت تلبس ثوباً غامقاً عتيقاً عليه صدار ، فتاقت نفسي الى ملامسة كل ثنية من اثناء هذا الثوب وهذا الصدار ، وكان طرف حذائها يبرز من تحت ثوبها ، فكنت على استعداد لأن أسجد هياماً بهذين الحذائين . . . كنت افكر : «ها انذا أجلس اليها . . ونحن متعارفان ، فما أعظم هذه السعادة يا رب !» واوشكت انطّ عن مقعدي فرحاً ، ولكنـــي

امسكت ، واخذت في تحريك ساقي كالطفل يستمرئ مضاغة لذيذة .

كنت في أحسن حال ، كالسمكة في الماء ، وما رغبت في ان ابارح هذه الغرفة وهذا المقعد ولو مكثت أبد الدهر .

ارتفع جفناها في هدوء ، ورنت الي بعينين يتألق فيهما الحنو ، ثم عادت تبتسم ابتسامتها المعابثة .

وقالت في تمهل وهي تحذرني باصبعها :

— لشد ما تحدق الي النظر .

فتضرج وجهي بالاحمرار ، وقلت في نفسي : «لا تفوتها شاردة ولا واردة ، وهل كان في مقدورها الا ترى وتدرك ؟»

وفجاة ند صوت في الغرفة المجاورة — صليل سيف . وندهت الاميرة من غرفة الاستقبال :

— يا زينابيدا ، انه بيلوفزوروف يحمل اليك قطة .

— قطة ! — صاحت زينابيدا وهبت من مقعدها فقذفت بشلة الصوف الى حجري ، وانطلقت خارجة .

قمت أنا كذلك ، فوضعت شلة الصوف على طرف النافذة ، وخرجت اقصد غرفة الاستقبال ، هناك توقفت حائراً مرتبكاً . كان في وسط الغرفة قطة مخططة تضطجع باسطة قوائمها ، وزينابيدا تجثو الى قربها وهي ترفع وجهها في ترفق ، وكان شاب من الفرسان ذو شعر متموج أشقر ، ووجه قرمزي ، وعينين جاحظتين ، يقف الى قرب الاميرة ، ويوشك ان يغطى بالواحه العريضة جزء الجدار القائم بين النافذتين . وسمعت زينابيدا تقول :

— انها تثير الضحك ، وما عيناها رماديتان بل خضراوان ، واذناها طويلتان . ما اطيبك يا فيكتور ايغوريتش ! فالشكر لك !

فابتسم الفارس ، وتبينت انه احد الشبان الذين رأيتهم امس ، ودق مهمازيه ، فجلجلت حمائل سيفه .

— وددت امس ان يكون لك قطة مخططة كبيرة الاذنين ، فها هي ذي . ان كلمتك قانون . — قال ذلك وعاد الى الانحناء .

اخذت القطة تموء في وداعة وهي تتشمم الارض . فصاحت زينابيدا :

— فونيفاتي ، سونيا ، انها جائعة ، هاتوا الحليب .

دخلت الخادمة وهي تحمل صحناً مملوءاً بالحليب ، وكانت

ترتدي ثوباً أصفر رثاً ، وحول عنقها منديل حائل اللون ، وقد انتفضت القطة حينما وُضع الصحن امامها ، وحشّفت عينيها ، ثم اقبلت تلعق الحليب .

— ما أشد حمرة لسانها ! — صاحت زينابيدا . وكانت جاثية يكاد رأسها يمس الارض ، وهي تحاول أن ترى الى القطة من أدنى .

شبعت القطة ، فاخذت تهر ، وتبسط يديها راضية مستأنسة ، فقامت زينابيدا ، وأشارت الى الخادمة بعدم اكتراث أن تأخذ القطة .

— يدك تلقاء القطة ، — قال الفارس وهو يبتسم وينثني بجماع جسمه الضخم الذي يزكب ثوبه العسكري الجديد .

— بل اليك بيدي كلتيهما ، — اجابت زينابيدا ، وبينما كان يقبل يديها ، أرسلت بصرها الي عبر كتفه .

لم أكن أدري وأنا واقف في مكاني لا أبرحه ، اكان علي أن اضحك ، او أن أقول شيئاً ، أو ألتزم الصمت ، وفجاة لمحت من فرجة الباب خادمنا فيودور ، وكان يومئ الي ، فذهبت اليه بصورة آلية اسأله :

— ما شأنك ؟

فهمس قائلا :

— أرسلتني والدتك في طلبك ، وانها غاضبة لأنك لم تعد اليها بجواب .

— هل قضيت هنا وقتاً طويلا ؟

— اكثر من ساعة .

— اكثر من ساعة ! — رددت قوله ذاهلا ، وعدت الى غرفة الاستقبال فاستأذنت مودعاً بتحية احتفالية * .

فسألتني الاميرة الشابة وهي تنظر الي عبر كتف الفارس :

— الى أين ؟

— ينبغي أن أعود الى البيت !

اضفت وانا التفت نحو العجوز :

* التلويح باليد اليمنى ، والانحناء ، مع وضع اليد اليسرى على الصدر ، ودفع القدم الى الامام ، طريقة في التحية معروفة في الزمن القديم بالغرب .

– سانبئ امي بانك ستتفضلين بزيارتنا في نحو الساعة الثانية .

– أجل يا عزيزي ، قل لها هكذا .

تناولت علبة سعوطها على عجل ، وتنشقت بصوت مرتفع أشاع الرجفة في اوصالي ، وكررت قولها وهي تطرف بعينيها الدامعتين ، وتتمخّط : «قل لها هكذا» .

فانحنيت مرة ثانيـــة ، واستدرت خارجاً ، وانا أشعر بهذا الحرج الذي يستشعره كل شاب يعرف انه هدف للانظار مـــن خلفه .

وصاحت زينايبدا وهي تطلق ضحكة :

– لا تنس أن تعود الى زيارتنا أيها السيد فولديمار .

فتساءلت في سرّي وانا ارافق فيدور عائداً الى البيت : «علام تكثر من الضحك على هذا النحو ؟» ، وبقي فيدور يتحرك صامتاً ، ولكن من الواضح انه لم يكن راضياً عني . وواجهتني امي بعتابها متسائلة عما كنت أفعل عند تلك الاميرة في هذه المدة الطويلة ، فلم انبس بكلمة ، بل مضيت الى غرفتـــي ، وانا أشعر بحزن مفاجئ ، وبذلت جهدي لكي لا أبكي . . . فقد امتلأت بالغَيْرة من الفارس !

٥

جاءت الاميرة لزيارة امي كما وعدت ، فلم تستلفت اهتمامها . لم احضر لقاءهما ، ولكني سمعت امي تقول لأبي أثناء الغداء : ان الاميرة زاسيكينـــا * une femme très vulgaire لجوج ، ما فتئت تبهظها بمطالب الشفاعة لها عند الامير سيرغي ، فهي مثقلـــة ** des vilaines affaires d'argent ، ولا بدّ انها مطبوعـــة على الدس . ولكن امي اضافت قائلة بانها دعتها وابنتها الى الغداء في غد (حينما سمعت كلمة «ابنتها» طمرت وجهي في الصحن) لانها جارة

* امرأة في غاية الابتذال (بالفرنسية في الاصل) .
** بالمشاكل المالية الخسيسة (بالفرنسية في الاصل) .

على كل حال ، وامرأة من ذوي المحتد العريق . وقال أبي انه يذكر الآن من تكون هذه السيدة ، فقد عرف في شبابه الامير الراحل زاسيكين ، وكان على جانب كبير من التهذيب ، ولكنـــه فارغ طائش ، عرف في المجتمع بلقب «le Parisien» * من جرّاء اقامته الطويلة في باريس . كان واسع الثراء ، ولكنه بدّد ثروته كلها في المقامرة ، وتزوج بنت موظف صغير ، بدافع غير بيّن ، لعله أن يكون المال ، هنا أضاف أبي وهو يبتسم في برود : – على حين كان يستطيع أن يختار أفضل منها ؛ وانغمس بعد زواجه في المضاربات المالية حتى انتهى الى الخراب .

فقالت امي : – ارجو الاّ تحاول اقتراض النقود .

فقال أبي : – ذلك غير مستبعد ، – ثم سأل : – أتتكلم الفرنسية ؟

– في أسوأ صورة .

– مهما يكن فالامر سواء . أظنك قلت إنك دعوت ابنتهـــا ايضاً . لقد بلغني أنها فتاة فائقة العذوبة والثقافة .

– آ ، لئن كانت كذلك فما أشبهت امها في شيء .

– ولا أباها ، فقد كان هو ايضاً ذا ثقافة . ولكنه غبي ، – استدرك ابي .

فتنهدت امي ، واستغرقت في افكارها ، وركن أبي الى الصمت ، وكنت في اشد حالات الضيق طوال هذه المحادثة .

مضيت بعد الغداء الى الحديقة ، ولكن من دون سلاح ، وقد عاهدت نفسي الاّ اقترب من «حديقة آل زاسيكين» ، ولكن قوة لا تقاوم دفعتني الى هناك ، ولم يكن ذلك عبثاً . فما ان اقتربت من السياج حتى رأيت زينايبدا ، كانت وحيدة هذه المرة ، في يدها كتاب ، وهي تسير في تمهّل ، ولم تلحظني .

فاوشكت أتركها لحال سبيلها ، ولكني داركت الامر فجأة ، فسعلت ، فاستدارت ، ولكنها لم تتوقف عن السير ، بل أزاحت بيدها شريطاً أزرق عريضاً يحلّي قبعتها المستديرة المصنوعة من القش ، ورمقتني بابتسامة هادئة ، وعادت تنظر في الكتاب .

فرفعت قبعتي ، وتلكأت قليلا ، ثم غادرت مكاني مثقل القلب ،

* الباريسي (بالفرنسية في الاصل) .

وانا اقول في سري بالفرنسية (ربك أعلم لِمَ بالفرنسيـــة) :
«Que suis-je pour elle?» *

وسمعت وقع خطوات مألوفة قادمة من وراء ، فلما تلفتّ رأيت أبي يقبل نحوي بمشيته السريعة الرشيقة ، وسألني قائلا :

– اهذه بنت الاميرة ؟

– نعم ، انها بنت الاميرة .

– افانت تعرفها اذن ؟

– لقد رأيتها هذا الصباح لدى الاميرة .

فتوقف أبي ، ثم استدار على كعبيه في حدة ، ومضى عائداً ، حتى اذا اقترب من زينايبدا ، انحنى لها محيياً ، فردت عليـــه بانحناءة ، وفي محياها شيء من الدهشة ، وقد خفضت كتابها ؛ ورايت كيف تاثرته بعينيها . كان أبي أنيق المظهر دائماً ، يلبس في ذوق وبساطة ، ولكنه لم يبد لي على مثل ما بدا من رشاقة الجسم ، ولا استقامت قبعته الرمادية بمثل هذه الرشاقة على شعره الجعد الذي بدأت تمتد اليه يد الزمن .

اقبلت اتصدّى لزينايبدا ، ولكنها لم تنصرف اليّ ولو بالنظر ، بل عادت تبسط كتابها ، وهي تمضي في سبيلها مبتعدة .

٦

قضيت ذلك المساء ثم صباح اليوم التالي كئيباً موزع النفس ، واذكر انني حاولت ان أعمل ، فتناولت كتاب كايدانوف ، ولكن السطور والصفحات من هذا الكتاب المدرسي الشهير كانت تتلامح امامي على غير جدوى . عشر مرات بدأت فيها وأعدت : «واشتهر يوليوس قيصر بشجاعته في معارك القتال» ، ولكن دون أن أعي شيئاً ، فتركت الكتاب . وقبيل الغداء ، رجّلت شعري ، وتطيّبت مرّات ، ولبست حلّتي ** وعقدت رباط عنقي .

سألتني أمي :

– علام ذلك ؟ انك لمّا تصبح طالباً ، وأمر امتحانك لا يعلمه

* من اكون عندها ؟
** القصد هنا الحلة الرسمية كالفراك وما اليه . **المعرب** .

إلا الله وحده . ثم هل أصبحت سترتك قديمة العهد فنرميها ؟

فقلت بصوت خفيض وقد غلبني اليأس :

– ولكن سيكون عندنا ضيوف .

– عَلَمَك ! أيّ ضيوف هؤلاء ؟

كان لا بدّ من الاذعان ، فأبدلت الحلة بالسترة ، واحتفظت بربطة العنق وقدمت الاميرة وابنتها قبل نصف ساعة من موعد الغداء ، كانت العجوز ترتدي الثوب الاخضر اياه وعليه الشال الاصفر ، وفوق رأسها قبعة عتيقة الطراز ذات شرائط صارخـــة الالوان . وأخذت لساعتها تتحدث عن صكوك دينهــــا ، وتتأوه وتتشكى من فقرهـــا و«تتوحوح» * ولم تتحرج من أمر : فكانت تتنشّق التبغ بالصوت الصفيق نفســـه ، وتنوس في الكرسي وتتململ دون تحشّم ، كأن دماغها لم يهضم انها اميرة . امــا زينايبدا ، فقد كانت مالكة لزمام نفسها ، بل انها تكاد تكون في توقّر الاميرة الحقيقية . واكتسى وجهها بالبرود والعنجهية ، حتى لقد انكرتها ، وانكرت نظرتها وابتسامتها ، ولكنها ظهرت لي جميلة حتى في هذا المظهر الجديد ؛ كانت ترتدي ثوباً خفيفاً من الصوف تنداح فيه زخارف زرقاء ، وشعرها يسترسل في خصل متموجة على امتداد الخدين – على الزي الانكليزي – وكان هذا يلائم التعبير الصارم الذي ارتسم في وجهها . جلس أبي الى جانبها في أثناء الغداء ، فكان يؤنس جارته بما طبع عليه من أريحية وتهذيب ، وينظر اليها احياناً فتنظر اليه ، وكان في نظراتها معنى مبهم يوشك ان يكون اختصاماً . كانا يتبادلان الحديث باللغة الفرنسية ، فاعجبت بما في نطق زينايبدا من الصفاء والطلاقة . أما الاميرة الأم ، فقد احتفظت بمسلكها الصفيق نفسه طوال وقت المائدة ، فكانت تطعم في نهم ، وتمتدح الطعام ، وكان واضحاً أن أمي تستثقل ظلها ، فقد كانت ترد عليها في جفوة وازدراء ، فيقطب أبي من حين لآخر حاجبيـــه قليلا . ولم تستلطف أمي زينايبدا ايضاً ، ذلك انها قالت في اليوم التالي :

– من تحسب نفسها هذه القنزعة ؛ ليتني عرفت فيم تشمخ بانفها وهي ** avec sa mine de grisette!

* تتباكى لتستدر الحنان . من الكلام الدارج الصحيح . **المعرب** .
** لها مظهر المتكسبات (بالفرنسية في الاصل) .

فأجابها أبي ملاحظاً :

– من الواضح انك لم تشاهدي هؤلاء المتكسّبات .

– ايْ والحمد لله .

– له الحمد ولا ريب ، فكيف سوّغت الحكم عليهن ؟

لم يبد من زينايبيدا أيّ انتباه لشاني ، وعقب الغداء ، قامت الاميرة من فورها للانصراف ، وقالت تخاطب أمّي وأبي كليهما بصوت مائع منغّم :

– ماريا نيقولايفنا ، بيوتر فاسيليفيتش ، سيكون أملي معلقاً برعايتكما . ما باليد حيلة ، كان لي زمان وراح . – واضافت في ضحكة نابية : – وها انا كما ترون «صاحبة سمو» اي نعم ، ولكن ما نفع هذا الشرف وليس في البيت ما يؤكل !

انحنى لها أبي في توقير ، ورافقها حتى الباب الخارجي ، على حين وقفتُ في مكاني ، بسترتي القصيرة ، وانا مطرق براسي كالمحكوم بالاعدام . لقد أصمتني زينايبيدا بما فرط منها نحوي ، وأجهزت عليّ . فما أشد ما تولاني من الدهشة حينما أسرّت اليّ على عجل ، وهي تمر بي ، وفي عينيها ما كان لي به عهد من نظرتهما الرقيقة :

– تعال الينا في الساعة الثامنة . اسمع ، من كل بدّ . . .

فاسقط في يدي ، ولكنها كانت قد ابتعدت وهي تعصب راسها بعصابة بيضاء .

٧

في تمام الساعة الثامنة ، كنت ادخل مدخل الجناح الذي تقيم فيه الاميرة بعد ان ارتديت حلّتي ومشطت شعري الى أعلى . ورمقني الخادم العجوز بنظرة عابسة وهو ينهض بتثاقل عن الدكة التي يجلس فيها . كانت تترامى من غرفة الاستقبال اصوات ممراح ، ففتحت الباب ، ولكن الدهشة ردّتني الى وراء ، فقد كانت الاميرة الشابة تتسنمّ كرسياً يقوم في وسط الغرفة ، وبيدها قبعة رجالية ، وحولها خمسة رجال يتزاحمون على ادخال أيديهم في القبعة ، والفتاة تتخطفها الى أعلى وتهزها بشدة . حينما رأتني صاحت قائلة :

– على مهلكم ، انتظروا ! هذا ضيف جديد ، ويجب أن تكون له

بطاقة أيضا . – ونطّت عن الكرسي برشاقة ، واقبلت تأخذني من اكمامي وهي تقول : هيا بنـــا ، علام تقف هناك ؟ اسمحوا لي Messieurs * ان اكون لسان تعارف بينكم : انه السيد فولديمار ابن جارنا . – وتوجهت اليّ وهي تشير الى الضيوف واحداً بعد آخر : – الغراف ** ماليفسكي ، الدكتــور لوشن ، الشاعر مايدانوف ، القبطان المتقاعد نيرماتسكي ، وهذا بيلوفزوروف من الحرس الفرسان ، وقد رأيته من قبل . أرجو ان تقوم بينكم وشائج الاحترام والتعاطف .

لقد تملكني الارتباك حتى اني سهوت عن الانحناء لأحد منهم ، وعرفت في الدكتور لوشن ذلك السيد الاسمر الذي ساطنـــي بسخريته القاسية في الحديقة ، وكانت وجوه الآخرين جديدة عليّ .

واضافت زينايبيدا قائلة :

– ايها الغراف ، اكتب للسيد فولديمار بطاقة .

فاعترض الغراف قائلا بلكنة بولونية خفيفة :

– ليس هذا عدلا ، فانه لم يشترك معنا في لعبة «الجزاء» .

كان الغراف قسيماً وسيماً اسود الشعر ، بعينين بنيّتين ذكيتين ، وانف ابيض صغير دقيق ، وشارب رفيع فوق فمه الصغير وثوب جميل انيق :

– ليس هذا عدلا .

ردد هذا ايضاً بيلوفزوروف ومعه ذلك السيد الذي يسمونه القبطان المتقاعد ، وهو رجل في نحو الاربعين من عمره ، ذو وجه مجدور يبدو دميماً ، وشعر مفتول كشعر الزنوج ، وظهر احدب قليلاً ، وساقين مقوستين ، وكان في سترة عسكرية محلولة الازرار عاطلة من الشارات .

واعادت الاميرة قائلة :

– قلت لكم ان تكتبوا البطاقة ، فما هذا ؟ أعصيان ؟ تلك اول مرة يلعب فيها السيد فولديمار معنا فلا جرم ان نتجاوز الأعراف من أجله ، فاصدع بما قلت لك ، ولا تجادل ، فانا أريد ذلك .

فهز الغراف كتفيه ، ولكنه طاطأ خاضعاً ، واخذ القلم باصابعه البيضاء الحالية بالخواتم ، وقطع قصاصة من ورق ومضى يكتب .

* ايها السادة (بالفرنسية في الاصل) .

** كونت . **المعرب** .

استلم الكلام لوشن فقال بصوت ساخر :

– اسمحي لي على الاقل أن اشرح للسيد فولديمار طرف الخيط فانه غارق في حيرته . والامر أيها الشاب أننا نلعب لعبة «الجزاء» ، وقد وقعت ضريبته على الاميرة ، فمن يسحب البطاقة المحظوظة يصبح من حقه أن يقبل يدها . افهمت ما قلته لك ؟

فلم افعل الا ان نظرت اليه وانا لا أزال واقفاً كالماخوذ ، اما الاميرة فقد وثبت الى الكرسي من جديد ، وعادت تهز القبعة وفيها البطاقات ، واقبلوا عليها وانا وراءهم .

قالت الاميرة توجه خطابها الى شاب طويل ، ذي وجه نحيل وعينين صغيرتين كليلتين وشعر اسود مسترسل : يا مايدانوف ، انك شاعر ، فينبغي أن تكون اريحياً بان تنزل عن بطاقتك للسيد فولديمار لكي تتوفر له فرصتان بدلا من واحدة .

ولكن مايدانوف هز راسه بالرفض وهو يرد شعره الى وراء . في اعقاب آخرهم ادخلت يدي في القبعة ، وسحبت بطاقتي وفتحتها . . . فيا لله مما اعتراني حينما قرات فيها كلمة : قبلة !

– قبلة ! –هتفت دون وعي .

فردت الاميرة على الصوت – مرحى ، لقد فاز واني اشد الغبطة . – وهبطت من الكرسي وهي تنظر في عينيّ نظرة لا أصرح ولا احلى حتى لقد اشتد خفق قلبي ، وسألتني : – هل أنت سعيد ؟

– انا ؟

وفجاة همس بيلوفزوروف في اذني :

– بعني بطاقتك تلقاء مئة روبل .

فرجمته مجيباً بنظرة لاهبة بحيث صفقت لها زينايدا ، وهتف لوشن : – يا للفتى ! – واضاف قائلا : – ولكن باعتباري مشرفاً على المراسم ، يجب ان اشرف على تطبيقها بدقة ، ويقضي العرف أيها السيد فولديمار بان تركع على ركبتك .

وقفت زينايدا امامي وراسها يميل الى جانب كانها تتزيد من النظر اليّ ، ومدت يدها في جلال ، فزاغت عيناي ، كنت راغباً في ان اجثو على احدى الركبتين ، فوقعت على الثنتين ، ولمست اناملها بشفيّ على نحو أهوج جعلني اخدش أنفي بظفرها .

– طيب ! – قال لوشن وهو يساعدني في النهوض .

واجلستني زينايدا الى قربها بينما استمرت لعبة «الجزاء» ،

وما اكثر ما ابتكرته زينايدا من ضروب الغرم . فقد اقتضى منها ان تقف كتمثال ، فاختارت الدميم نيرماتسكي قاعدة لها ، وامرته بان ينبطح على الارض وراسه في صدره . لم يكن الضحك لينقطع لحظة واحدة . اما واني ترعرعت في بيت محترم ، وتلقيت تربية خاصة منفردة ، فقد أدارت راسي العربدة الضاحكة وعدم الكلفة في العلاقة مع هؤلاء الاغراب ، فسكرت من دون خمر ، وطاولت الآخرين بالضحك والثرثرة ، حتى لقد تركت الاميرة العجوز مجلسها من الغرفة المجاورة ، وكانت مع موظف من بوابة ايفيرسكيه (٦٩) دعته للاستشارة ، وخرجت تنظر فيّ . كنت أستشعر السعادة الى حدّ اطلقت فيه الأسار وخلعت العذار كما يقول المثل ، فلم اعبأ بغمزة سخر ، ولا بنظرة شزر . واستمرت زينايدا فيما اختصتني به من الامتياز ، ولم تسمح لي بأن ابتعد عنها . كان الغرم الذي وقع عليّ يقضي بأن أجلس ملتصقاً بها يغطي راسينا منديل ، وان اكاشفها بما أضمره من سر . واني لأذكر ما اطبق علينا في ذلك الظلام من أريج فاغم شفاف ، حيث كانت عيناها القريبتان تتالقان ، وانفاسها دافئة ، وأسنانها تلمع خلال شفتيها المنفرجتين ، وخصل شعرها تتافعى كالسنة النار . كنت صامتاً فابتسمت هي في استخفاء ومكر ، ثم همست أخيراً : «وماذا بعد ؟» فما كان مني الا أن شاعت الحمرة في وجهي ، وضحكت وانا ادير راسي جانباً ، وقد ضاق صدري الى حد الغصّة . داخلنا السأم من لعبة «الجزاء» هذه فتركناها الى لعبة «الحبل» . ويا لغبطتي حينما سهوت فعاجلتني بضربة قوية على أصابعي ، وقد اخذت اصطنع الابطاء في سحب يدي ففهمت قصدي وتجنبت أن تلمسها !

وما اكثر الألعاب التي قمنا بها في تلك الليلة ، فقد عزفنا على البيانو وغنينا ورقصنا ، واصطنعنا مخيماً للغجر ، حيث ألبسنا نيرماتسكي هيئة دب وسقيناه ماء مالحاً ، وعرض علينا الغراف ماليفسكي شعوذات شتى من العاب الورق ، ووزع الورق على نحو يجمع في يده كل الاوراق الرابحة ، «فتشرف لوشن بتهنئته على هذا» . وقرأ علينا مايدانوف مقاطع من قصيدته «السفاح» (كانت الحركة الرومانتيكية وقتئذ فى فجرها) وكان يرغب فى نشر هذه القصيدة بحروف كبيرة مطبوعة بلون الدم على غلاف أسود ؛ وسرقنا قبعة موظف بوابة ايفيرسكيه ، وفرضنا عليه تلقاء اعادتها

ان يؤدي رقصة ، ووضعنا على راس العجوز فونيفاتي قبعة نسائية ، بينما اعتمرت زينايبدا بقبعة رجالية . . . ومن العسير ان نحصى كل ما حدث . اما بيلوفزوروف فانه الوحيد الذي انطوى على نفسه وحيداً في ركن من الغرفة وهو غاضب مقطب الحاجبين . . . كانت تلتهب عيناه حيناً ويحمر وجهه حيناً آخر ، ويبدو اثناء ذلك كانه بسبيله الى الانقضاض علينا ليبعثرنا في كل ناحية كاننا الهباء المنثور ، وعندئذ كانت الاميرة تشزره بنظرتها وتهز اصبعهـا محذّرة ، فيعود الى الانطواء في الركن الذي هو فيه .

شاع فينا الوهن اخيراً ، وشعرت الاميرة الام بالتعب فرغبت في بعض الراحة – وهي التي كانت على حد قولها تدّعى القدرة على تحمل التعب والضجة . ثم قدم الينا العشاء قبيل الساعة الثانية عشرة ، وكان قطعة من الجبن الناشف القديم ، وبعض الفطائر الباردة المحشوة بلحم الخنزير ، وقد اسغتها من اي طعام آخر . والى هذا كانت على المائدة زجاجة واحدة من الخمر لم تخل ايضاً من شذوذ المظهر ، فهي ذات لون مظلم وعنق اغدّ ، وفي نبيذها رائحة تشبه ما يفوح من صبغة حمراء ، وقد بقيت في ارضها ولم يشرب أحدّ منها . كنت منهوكاً من السعادة حينما غادرت البيت ، فودعتني زينايبدا وهي تشد على يدي ، وقد عادت الى ثغرها من جديد تلك الابتسامة المستخفية .

لفحت وجهي الملتهب انفاس الليل المثقلة بالرطوبة ، وكان يبدو ان الجو بسبيله الى التجهم ، فقد اخذت الغيوم ، المكفهرة تتكثف وتتمدد في السماء وتزحف وهي كما يبدو لا تثبت على شكل . واضطربت الأنسام في قمم الاشجار القاتمة ، وفي الآفاق البعيدة كان الرعد يرسل زمجرة غاضبة مكتومة كانه يهمهم لنفسه .

قصدت الى غرفتي من الباب الخلفي ، كان الوصيف ينام على الارض ، فاضطررت ان اخطو فوقه ، فاستيقظ ورآني ، وابلغني ان امي عادت الى استيائها مني ، وكانت راغبة في ان ترسله ورائي ولكن ابي استوقفها عن ذلك . (لم اكن من قبل لأذهب للنوم الا بعد ان تستودعني الله واتمنى لها ليلة سعيدة) ولكن هذا ما حدث .

قلت للوصيف باني سأخلع ملابسي دون عونه ، ثم اطفأت الشمعة . . . ولكني بقيت في ثيابي ولم ارقد في سريري .

فقد جلست في كرسي وانا مستغرق في جلستي كالمسحور . . .

يغمرني شعور جديد عذب ، كنت ادير بصري دون ان تنهد عني حركة ، واتنفس في هدوء ، وقد تندّ بين اللحظة واللحظة ضحكة تنطلق مني في خفوت حين أستعرض ما حدث ، او تسري فيّ البرودة حين ترتادني فكرة أنني عاشق وان هذا هو الحب . كان وجـه زينايبدا يسبح امامي في الظلام ، يكاد لا يغيب ، وشفتاها تبتسمان في استخفاء ، وعيناها ترنوان اليّ بالطّرف ، وفيهما سؤال وتفكير وحنان مثل حالهما لحظة ودعتني . ثم تركت مجلسي اخيراً ، وذهبت الى السرير محاذراً ، في خطوات مسترقة ، وارحت راسي على الوسادة وانا لا ازال في ثيابي ، وكاني خائف ان تند اي حركة شديدة قد تقطع عليّ كل ما كنت ممتلئاً به . . .

استلقيت دون ان يغمض لي جفن ، ولسرعان ما لحظت ان بعض الاضواء الشاحبة ما تفتأ تتسلل الى غرفتي . . . فنهضت قليلا في مرقدي والقيت نظرة الى جهة النافذة ، كانت عوارضهـا السوداء ظاهرة على بياض الزجاج ، ففكرت بأنها العاصفة ، ولم اكن على خطأ ، ولكن العاصفة كانت تمضي في الابعاد القاصية ، حتى ان الرعد لم يبلغ سمعي ، وليس هناك الا البرق يومض في السماء من غير انقطاع في فروع طويلة شاحبة : والاحرى انه لم يكن يومض بل كان يرف ويرتعش كجناح طائر يعالج سكرات الموت . قمت الى النافذة حيث بقيت حتى طلع الفجر . . . لم يتوقف ومض البرق لحظة ، فقد كانت الليلة من ليالي عصفور الدوري على حدّ القول الشائع بين الشعب ؛ ووقفت مرسـلا بصري الى حقول الرمال الصامتة ، والى الظلال الغامقة التي تتكاثف في حديقة «نيسكوشني ساد» ، والى واجهات المباني الصفر البعيدة ، حيث بدت وكانها ترتعش ايضاً بومض البرق . . . كنت ارى ولا استطيع ان انتزع بصري : فقد بدت تلك البروق الصامتة والاضواء الخافتة كانهـا استجابة لذلك الانفعال الصامت الخفي الذي ينبعث في ذات نفسي . ثم آذن النهار بالاشراق ، وبرز الصباح في واحات من الشفـق الوردي ، واصبح ومض البرق يحول ويقصر كلما اقترب بزوغ الشمس ، وما زال يرتعش ويتضاءل حتى ذاب جملة في الشروق ، وغرقت تلك البروق في ضوء النهار الطالع . . .

انطفأت البروق في نفسي ايضاً ، وآدني تعب شديد ، واطبق الصمت . . . ولكن طيف زينايبدا بقي يرفرف امامي باهراً قاهراً ،

وما لبث ان فاء الى الدعة . ومثلما تطير البجعة من فرجات اعشاب المستنقع كان هذا الطيف يبتعد عما يشوبه من الاطياف ؛ كنت آخذاً في التهويم حينما الممت به أودعه باشواقي الوديعة .

ايه ايتها العواطف الوادعة والاصوات الرقيقة . ايتهذا الحنين تفيض به نفس وامقة ، ايتها السعادة تشرق عذبة في فجر الحب الاول ، اين انت ، اين انت ؟

٨

حينما نزلت في الصباح لاحتساء الشاي تلقتني امي بالتانيب ولكن باقل مما كنت أتوقع ، وأمرتني بأن اروي عليها كيف قضيت المساء امس ، فحدثتها بكلمات مقتضبة دون خوض في التفصيلات ، واجتهدت في التعبير على نحو يوحي بالبراءة ، فلاحظت امي قائلة :

— مهما يكن من الامر فانهم ليسوا comme il faut * وليس ما يدعوك الى التقرب منهم بدلا من الاستعداد للامتحان .

لم احاول أن ادخل معها في اخذ وردّ لأني كنت أعلم ان اهتمام امي بدراستي انما يقف عند هذه الكلمات القليلة ؛ ولكن ابي جذبني من ذراعي بعد الفراغ من احتساء الشاي ، وسرنا نحو الحديقة ، ورغب اليّ هناك في ان اروي عليه كل ما رايته في بيت آل زاسيكين .

وكان لأبي تاثير غريب في نفسي ، وكانت الروابط بيننا غريبة ايضا ، فانه لم يعن الا قليلا بتربيتي ، ولكنه صان لسانه عن اي كلمة تنطوي على تانيبي ، وكان يحترم حريتي ، بل انه كان مهذباً معي — اذا جاز هذا القول — ولكنه لم يستدنني من نفسه . كنت احبه وانا مبهور به ، وارفعه الى المثل الأعلى بين الرجال ، ولولا المخافة أن يذودني عنه بيده لغمرته باشواقي . بيد انه يستطيع من فوره حينما يريد ، ان يبث فيّ ثقة به لا حدود لها ، وذلك بغمزة من عينيه او بكلمة من شفتيه او بايماءة من يديه . فافتح له مغاليق روحي ، وانطلق معه في الحديث وكاني مع صديق ذكي ومرشد متسامح . . . ولكن أبي كان ينأى عني فجأة كما اقبل ، وينبذني ، بترفّق ونعومة ، ولكنه ينبذني .

* قوما على قدّ المقام (بالفرنسية في الاصل) .

وقد يبدو مرحاً في بعض الاحيان ، فيلهو معي ويلعب كالطفل (كان مولعاً بالحركة العنيفة) وفي ذات مرة — وهي الوحيدة — احاطني بقدر من حنانه الغامر اوشكت فيه ان ابكي . . . ولكن مرحه وحنانه كانا يغيضان فلا خبر عنهما ولا اثر ، فكان هذا الذي يحدث بيننا يغلق في وجهي كل أمل في المستقبل ، ويمضي كانما رايته في حلم . وفي أحيان كنت ارسل بصري الى وجهه القسيم الوسيم الصافي . . . فيرتعش قلبي ويهفو كياني كله اليه . . . فكان هو ، وكانه يتحسس بما يدور في نفسي ، يمرّ بي عابراً ويربت على خدي ، ثم يمضي او يتشاغل باي امر آخر ، او يتجمد كما لم يستطع احد سواه أن يفعل ، وعندئذ اراني جامداً على حين غرة . لم تكن تلك الخفقات النادرة من حنانه لتنبعث استجابة لنداءاتي المبينة على الرغم من صمتها ، بل كانت تنبعث فجأة على غير توقع . وحينما اخذت فيما بعد افكر في طبيعة ابي ، استنتجت ان السبب في عدم اكتراثه بي وبحياته العائلية ، يعود الى انه موصول القلب بامر آخر ، وانه مغتبط بهذا الامر كل الاغتباط .

وقد قال لي ذات مرة : «خذ بنفسك كل ما تستطيع أن تحصل عليه ، ولا تسمح لأحد بأن يمتلكك . فان لباب ما تسميه حياة انما هو ان تكون سيد نفسك» . وفي مرة اخرى انطلقت في حضرته اتحدث عن الحرية باعتباري من الشباب الديموقراطي (كان يومها «في مزاجه الطيب» حيث يكون في وسعي ان افضي بما اريد) فقال مرددا :

— الحرية ؟ اتعرف ما الذي يمكن ان يمنح الانسان نعمة الحرية ؟

— ما هو ؟

— الارادة ، الارادة الذاتية ، وانها لتعطي السلطان ايضاً وهو افضل من الحرية . ينبغي لك ان تعرف ما تريد فتصبح عندئذ حراً تملك ان تملي ارادتك على الآخرين .

كانت غاية ابي التي لا غاية بعدها ان يعيش حياته . . . وقد عاشها ، ولعله كان يطوى شعوراً خفياً بانه لن يستمتع طويلا «بهذا الذي نسميه حياة» ، فقد مات وهو في الثانية والاربعين من عمره .

لقد رويت على ابي في تفصيل كل ما كان من امر زيارتي لآل

زاسيكين ، فكان يستمع اليّ ببعض الانتباه وبعض الشرود ، وهو جالس في المقعد يرسم على الرمل بطرف سوطه ، كان يستضحك احياناً ، ويرمقني بنظرة متالقة ، ويشجعني على المضيّ باسئلته المقتضبة واعتراضاته . امسكت في البداية عن ذكر اسم زينايبدا ، ولكني لم املك نفسي ، فمضيت امتدح خصالها . ومضى ابي يضحك ، ثم استغرقه التفكير ، وتمطى متثائباً وهبّ واقفاً .

تذكرت ان ابي امر قبل خروجه من البيت بان يسرج له الجواد ، وكان فارساً لا يُشَقّ له غبار ، يستطيع ان يروّض اشد الخيول نفوراً باسرع ما يستطيع السيد ريري (٧٠) . وسالته :

— هل لي ان ارافقك يا ابيّ ؟

— لا ، إذهبْ وحيداً اذا شئت ، وقل للسائس اني غير راغب في الركوب . — اجابني وقد عاد الى وجهه ما يكسوه في المعتاد من عدم اكتراث مشوب بالدماثة .

ثم ادار لي ظهره ، وابتعد بخطوات سريعة ، بينا ذهبت اتاثره ببصري حتى اختفى وراء البوابة ، ورايت قبعته تتحرك على طول السور ، ثم دخل منزل آل زاسيكين .

لم يمكث لديهم اكثر من ساعة ، توجه بعدها على الفور الى المدينة ولم يرجع الى البيت الا مع المساء .

بعد الغداء ذهبت ازور آل زاسيكين ، وهناك رايت الاميرة العجوز وحيدة في غرفة الاستقبال ، وحينما راتني هرشت في راسها تحت عصابتها بصنارة الصوف ، وسالتني فجاة : ااستطيع ان احرر لها عريضة استرحام .

فاجبتها وانا اجلس على طرف الكرسي : «على الرحب» . فقالت وهي تعطيني ورقة مدعوكة : «ولكن عليك ان تكتب بحروف كبيرة ، فهل لك ان تنجزها اليوم يا شيخي» ؟

— سانجزها اليوم .

انفرج باب الغرفة المجاورة قليلا ، وظهر في فتحته وجه زينايبدا شاحباً ساهماً وشعرها قد عقص الى وراء . وارسلت اليّ نظرة باردة من عينيها الكبيرتين ، ثم ردت الباب في هدوء ، فهتفت امها تناديها :

— زينايبدا !

لم تجب زينايبدا ، فحملت معي عريضة العجوز ، وانكببت عليها طوال المساء .

٩

وبدا «ولهي» في ذلك اليوم . اذكر انني شعرت وقتذاك بما يشبه شعور امرئ عند خطوته الاولى في الوظيفة ، لم اعد ذلك الصبي الغرير بل اصبحت عاشقاً . لقد قلت إن ولهي بدا في ذلك اليوم ، ولكن ينبغي ان اضيف ان عذابي بدا ايضاً في ذلك اليوم . فقد اصبح يشجيني غياب زينايبدا . اصبحت عاجزاً عن التفكير في امر ، افلت الزمام من يدي ، وانحصر فيها تفكيري طوال يومي . . . كنت اتالم . . . ولم تكن الحال وهي حاضرة باحسن منها وهي غائبة ، فقد اصبحت غيوراً وكنت ادرك ما في شاني من الهوان وما في غضبي من الغفلة ، كنت مستعبداً لها فما تفتأ تشدني اليها قوة قاهرة . وما من مرة جاوزت وصيد غرفتها الا استشعرت رعشة من السعادة . وما اسرع ما فطنت زينايبدا الى انني مغرم بها ، ولم افكر في اخفاء هذا الشعور ، فضحكت من غرامي ، واخذت تعبث بي تارة وتعذبني تارة اخرى . ومما يلذ للمرء ان يدرك انه مصدر وحيد وسبب مطلق لما يستشعره امرؤ آخر من سعادة غامرة وحزن عميق . كنت في يدي زينايبدا اطوع من الشمع ، ولكني لم اكن الوحيد الذي يحبها ، بل كان الرجال الذين يطرقون بيتها جميعاً مجانين بها ، كانت تشدهم برباط الى قدميها ، وتحب ان تثير فيهم الامل والشك ، وان تديرهم كالخاتم في اصبعها (كانت تسمى هذا ضرب الناس بعضهم ببعض) ولم يكن يفكر احد منهم بالمقاومة ، بل كانوا يستسلمون اليها في غبطة . كان في طبيعتها الحية الجميلة مزيج لطيف جداً من المكر وعدم الاكتراث ، ومن التصنع والبساطة ، ومن الهدوء والصخب . وهي في كل ما كانت تقول وتفعل ، وفي كل حركة ترفرف روحاً خفيفة لطيفة ، وتظهر قوّتها اللعوب . كان وجهها لعوباً ايضاً ، فهو في تغير دائم ، يعبّر في آن عن السخرية والتفكير والشوق . وكانت العواطف والمشاعر المختلفة تجري خفيفة سريعة في عينيها وشفتيها كانها ظلال السحب في نهار مشمس عاصف الريح .

كان كل فرد من المعجبين بها ضرورياً لها ، فان بيلوفزوروف الذي كانت تناديه احياناً «يا وحشي» او تسميه احياناً شيتي * ، كان مستعداً لاقتحام النار في سبيلها ، وكان لا يفتأ يعرض عليها الزواج دون اعتماد على مواهبه وكفاءاته ، ويشير الى أن الآخرين لم يكونوا الا ثرثارين . وكان مايدانوف يستجيب للجانب الشاعري من نفسها ، وهو على شيء من برودة الطبع كاكثر الكتاب ، وكان يؤكد لها ، ولعله يؤكد لنفسه ايضاً ، انه يحبها ، ويمتدح خصالها في قصائد طويلة يقراها بحماسة يشوب اخلاصها بعض التصنع . وكانت تنال منه بشيء من سخريتها على الرغم من تعاطفها معه ، ولا تثق بما يقوله الا قليلا ، وبعد أن تصغي لما يهرف به كانت تامره بان يقرأ شيئاً من شعر بوشكين لتنقية الهواء — على حد قولها . اما لوشن الطبيب ، فانه رجل ساخر لاذع في كلماته ، وكان يفهم زينائيدا اكثر مما يفهمها الآخرون جميعاً ، ويحبها اكثر مما يحبها الآخرون رغم تعريضه بها في وجهها وفي غيابها . كانت تحترمه ولكن من دون شعور بالعطف ، بل انها كانت تفترض الفرص في شماتة مقصودة لتشعره بانه في قبضة يدها ، وفي ذات مرة قالت له وانا حاضر : «اني لعوب من دون قلب ، وممثلة بطبيعتي . طيب ! هات يدك ، وساغرز فيها دبوساً ، فانك ستخجل أمام هذا الشاب ، وستشعر بالألم ، ولن تضن علينا رغم ذلك بالضحك ايها السيد الصدوق» . فاشاح لوشن بوجهه المحمرّ وهو يعضّ على شفته ، ولكنه مد اليها يده ، فوخزتها ، فاخذ يضحك بالفعل . . . وضحكت هي ايضاً ، ومضت تغرز الدبوس على نحو اعمق وهي تحدق في عينيه على حين كان يحاول عبثاً أن يروغ بهما في كل ناحية . . .

استغلق عليّ أن افهم مقومات تلك العلاقة بين زينائيدا والغراف ماليفسكي . فقد كان جميلا ذكياً اريباً ، ولكن شائبة مخاتلة من الزيف والريبة كانت تخالطه ، وكان يدهشني ان زينائيدا لم تكن لتلحظ ذلك ، على حين شعرت به انا الصبي ، ابن السادسة عشرة ! او لعلها لحظت ولم تستنكر . فان جنوح تربيتها ،

* شيتي في لهجة اهل الشام تقابل كلمة بتاعي في اللهجة المصرية ، والاول من العامي الفصيح . (المعرب) .

وغريب معارفها وعاداتها ، والتصاق امها بها ، وحالة الفقر والفوضى الشاملة في البيت ، وتلك الحرية التي ترتع فيها هذه الفتاة الشابة مع شعورها بالتفوق على الجماعة المحيطة بها — كل هذا غرس فيها ضرباً من الاهمال والازدراء والقناعة . فكان يحدث — على سبيل المثال — أن يأتي فونيفاتي قائلا ان السكر مفقود من البيت ، او تنفضح نميمة دنيئة ، او ينشب شجار بين الضيوف ، فلا تزيد إلاّ ان تهز خصل شعرها وتقول : كلام فارغ . ثم لا تحفل بشيء .

اما عني ، فقد كان دمي يفور حينما يقترب منها ماليفسكي بمكر الثعلب ، ويحيط ظهر كرسيها بذراعه ، ويأخذ بالهمس في اذنها وهو يبتسم متلطفاً مزهواً ، وهي تجلس متصلبة الذراعين ، تنظر اليه في اهتمام ، وتبتسم ، وتهز رأسها يمنة ويسرة . وقد سالتها ذات مرة :

— ما الذي يحدوك الى استقبال السيد ماليفسكي ؟

فاجابت :

— ان له شاربين رائعين . ولكن هذا لا يخصّك . — وقالت في مناسبة أخرى :

— لعلك تظن انني احبه ؟ لا ، فاني لا استطيع أن احب هؤلاء الذين انظر اليهم من عل . فما يلائمني الا ذاك الذي يستطيع ان يكسر شوكتي . . . واظنني لن اعثر على مثل هذا الرجل ، فالحمد لله ! ولم اقع بين براثن احد على الاطلاق .

— ايكون معنى هذا انك لم تحبي احداً ؟

فقالت وهي تضرب انفي بطرف قفازها :

— وانت ؟ افلا احبك ؟

نعم ، لقد كانت زينائيدا تتسلى بي كثيراً ، وكنت اراها كل يوم طوال الاسابيع الثلاثة الماضية ، فما اكثر ما رايت منها . كانت تزورنا قليلا ، ولم يؤسني ذلك ، فانها في بيتنا تاخذ بمظهر الاميرة النبيلة ، فكنت اتهيبها ، واخشى ان ينكشف امري امام امي ، فهي لم تكن حفيّة بزينائيدا ، ولا كانت تنظر الينا بعين راضية . ولم اكن اخاف ابي الى هذا الحد فانه كان يتجاهلني ، ويوجز معها الحديث ، ولكن كلماته ذكية بعيدة المرمى . لقد توقفت عن العمل والمطالعة ، وامسكت حتى عن النزهة في الضواحي على صهوة الجواد ، بقيت ادور حول بيت الحبيبة كالعصفور المربوط

بخيط من رجله ، كنت على استعداد للبقاء هناك الى الابد . . . ولكن ذلك مستحيل لأن أمي كانت تبربر عليّ ، حتى زينايبدا كانت تطردني في بعض الاحيان ، فانطوى عندئذ في غرفتي ، او اعتزل في آخر الحديقة ، حيث أعتلي خرائب دفيئة قديمة من الحجر ، واجلس على الجدار المطل على الطريق بساقين متدليتين ، وابقى هناك ساعات انظر فيما حولي ولا ارى شيئاً ، وبجانبي ترفرف بكسل فراشات بيض فوق العشب المغبار ، ودوريّ نشيط يحطّ غير بعيد على حفّ كسرة من القرميد الاحمر وهو يزقزق في نزوان ويلوب ناشراً ذيله ، والغربان المحترسة تطلق نعيبها بين حين وآخر وهي تحط في اعلى شجرة بتولة عارية ، تلاعب الشمسُ والريحُ اغصانَها الجرداء في خفوت ، ويترامى اليّ أحياناً رنين هادئ حزين من أجراس دير دونسكوي (٧١) ، فكنت أمكث في مجلسي انظر واصغي ، وملء نفسي شعور غامض ولكنه ينطوي على كل شيء ، فهو : الحزن والفرح ، والتشوف الى ما سيأتي به الغد ، والرغبة في الحياة والرهبة منها . ولكنني لم أكن افهم شيئاً من هذا وقتذاك ، ولا استطيع ان اسمي كل ما يختمر في نفسي ، ولعلني لو فعلت لجمعت ذلك كله في اسم واحد وهو زينايبدا .

اما زينايبدا فكانت ماضية في لعبها بي كما تلعب القطة بالفارة . كانت تقبل عليّ بمغازلتها فيداخلني الاضطراب والابتهاج ، او كانت تصدني فجاة فلا أجرؤ بعدئذ على الاقتراب منها والنظر اليها .

واذكر انها مضت تعاملني ببرودة طوال بضعة ايام ، فامتلأت نفسي بالخوف ، وذهبت الى بيتها وانا متردد بين الاقدام والاحجام ، وحاولت هناك ان أبقى الى جانب الاميرة العجوز على الرغم من احتدام صراخها وشتائمها في ذلك الوقت بالذات بسبب اضطراب في شؤونها المالية اضطر شرطي الحي ان يزورها بخصوصه مرتين .

وفي ذات يوم كنت أمرّ قرب حاجز الحديقة المعهود فرأيت زينايبدا . كانت تجلس على العشب لا تندّ عنها حركة معتمدة على يديها ، فاردت ان انسحب في حذر ، ولكنها استدارت برأسها فجاة واومأت اليّ باشارة آمرة ، فتوقفت في مكاني غير مدرك أول الامر معنى اشارتها ، فلما اعادتها لم أتمهل بل قفزت الحاجز واسرعت اليها تستخفني سعادة غامرة ، ولكنها استوقفتني بنظرتها واشارت الى ممر الحديقة الذي يبعد خطوتين عن مجلسها ، فجثوت

على ركبتي وانا حائر فيما ينبغي عليّ ان افعل . كانت تبدو شاحبة ، تدل قسمات وجهها على ما يبهظها من الحزن ، حتى لقد تمزق قلبي حسرة لحالها ، فتمتمت على الرغم مني أسالها :

— ما لك ؟

فمدت زينايبدا يدها ، واقتلعت عوداً من العشب ، واخذته بين اسنانها ، ثم قذفت به بعيداً .

وسألتني بعد لأي :

— انك تحبني كثيراً ، أليس كذلك ؟

فلم أجب بكلمة ، وعلام ينبغي ان أجيب ؟

فاعادت وهي لا تزال ترمقني بعينيها :

— بلى ان الامر كذلك . العيون نفسها ، — اضافت وشردت افكارها فغطت وجهها بيديها وهمست : — لقد زهقت من كل شيء . ليتني اذهب الى آخر الدنيا ، فما استطيع ان أتحمل اكثر مما تحملت ، اني عاجزة . . وماذا ينتظرني فيما بعد ! . . آه مما يثقلني . . . يا ربي ما أشد ما يثقل قلبي !

فسألتها في وجل :

— فيم هذا ؟

لم تجب زينايبدا بل هزت كتفيها . كنت لا ازال جاثياً على ركبتي انظر اليها في حزن عميق . وكل كلمة همست بها كانت تنفذ في قلبي ، وتراءى لي في تلك اللحظة اني على استعداد للتضحية بحياتي فداء لها مما يؤودها . كنت انظر اليها ولا استشف مصدر حزنها ، وقد تصورت حالها : استبد بها الحزن ، فهرعت الى الحديقة ، وسقطت على الارض كالعشبة المقصولة . كان كل ما يحيط بنا صافياً أخضر ، والريح تعبث باوراق الشجر ، وتؤرجح بين الحين والحين غصناً طويلا من شجرة توت فوق راسها ، والحمام يسجع هناك ، ويطنّ النحل وهو يحوّم دانياً من الارض فوق العشب المتناثر ، والسماء فوقنا زرقاء لطيفة ، ولكن ما اشد كآبتي في تلك الساعة . . .

قالت زينايبدا بصوت خافت وهي تتكئ على ساعدها :

— الا تنشدني شيئاً من الشعر ؟ لكم احب ان استمع اليك وانت تقرأ الشعر . انك ترتله ترتيلا ، ولكن لا باس فان للشباب فرحه ، انشدني «على تلال جورجيا» . ولكن عليك ان تجلس اولا .



فجلست وأخذت أنشدها «على تلال جورجيا» (٧٢) . قالت زينايبدا وهي تعيد البيت الأخير :

– «لا يستطيع القلب الا ّ أن يحب» . تلك هي حسنة الشعر ، انه يحدثنا عما ليس له وجود ، على نحو احسن من الموجود ، بل اشد قرباً من الحقيقة . . . نعم ان القلب لا يستطيع الا ّ ان يحب ، ولعله يريد ولكنه لا يستطيع ! – وعادت الى الصمت ، ثم تحركت فجاة وهبت واقفة وهي تقول : – هيا نذهب ، فان مايدانوف يجلس عند أمي ، وقد جاءني باحدى قصائده فتركته وهو الآن محزون ايضاً . . . ولكن لا حيلة لي في الامر ، ستعرف هذا ذات حين . . . فلا تغضب مني .

ضغطت على يدي وانطلقت في اسراع تتقدمني وعدنا الى البيت ، اخذ مايدانوف ينشد قصيدة له كان قد فرغ لساعته من طبعها ، اسمها «السفاح» ، ولكني لم اصغ اليه ، ومضى ينشد رباعياتـــه بصوت مرنان رتيب ، وقوافيه تجلجل كاجراس الزحافة ، صخابة جوفاء . كنت لا أزال انظر الى زينايبدا محاولا أن استجلي معنـــى كلماتها الاخيرة حينما صاح مايدانوف فجاة بصوت أخن :

او لعل غريما مجهولا بالمرّة
تصيدك على حين غرّة . . .

فالتقت عيناي بعيني زينايبدا ، وما لبثت أن خفضتهما وقد شاعت في وجهها حمرة خفيفة . لقد رأيتها وهي تحمر ، فجمدني الخوف ، كنت اغار عليها من قبل ، ولكن الخاطرة التي خطرت في راسي في تلك اللحظة هي أنها تحب : «يا آلهي ! انها لعاشقة !»

١٠

لقد بدا عذابي الحقيقي منذ تلك اللحظة ، وكنت افكر حتى يتفجر راسي من التفكير ، واراقب زينايبدا مخالساً دون انقطاع كلما سنحت الفرصة . كان واضحاً ان طارئاً الم ّ بها فبدّل من حالها . فقد كانت تخرج للنزهة وحيدة وتغيب في نزهتها طويلا او تمسك عن الظهور للضيوف ، وتعتزل في غرفتها ساعات طوالا ، ولم يكن ذلك مألوفاً من عاداتها . وفجاة هبطت عليّ الفطنة ، او

لعل هذا ما تراءى لي ، وذهبت أتساءل في قلق وانا استعرض في خاطري الرجال المحيطين بها : «ايكون هذا ام ذاك ؟» وظهر لي ان الغراف ماليفسكي كان اخطرهم جميعاً (وقد خجلت من هذه الخاطرة تجاه زينايبدا) .

ولكن المراقبة لم تزدني بصراً بما يتجاوز انفي . وقد حاولت ان اتكتم في الامر ، ولكن محاولتي لم تخدع احداً ، فان الدكتور لوشن على الاقل أدركني وكشف سري بسرعة ، ومهما يكن فقد تغير هو ايضاً في الايام الاخيرة . أصبح مهزول الجسم ، لم تنفثئ حدة ضحكه ، ولكنه اصبح يضحك بصوت أجوف ، على نحو مستوفز متقطع ، وتحولت سخريته الخفيفة وتظاهره بالاستهتار الى لذع خليع ينطلق في حدة وعصبية .

كنا وحيدين حينما قال لي ذات مرة ونحن في غرفة الاستقبال بمنزل آل زاسيكين (كانت الاميرة الشابة لا تزال في نزهتها ، واما الاميرة العجوز فكان صوتها ينفذ الينا من الغرفة المجاورة وهي تؤنب خادمها) . – فيم لا تمسك نفسك عن التردد دون انقطاع على هذا المنزل يا فتى ؟ ينبغي لك أن تدرس وتعمل ما دمت في سن الصبا ، فانظر ما أنت تفعل ؟

فأجبته بشيء من التعالي يداخله الارتباك :

– ولكن ما يدريك أنني لا أعمل في البيت ؟

– عن أي عمل تتحدث وفي راسك موّال آخر ؟ . . لا اريد ان اجادلك فانت وشانك ، فان هذا طبيعي وانت في هذه السن ، ولكنك لم تحسن الاختيار . افلا تدري ما طينة هذا البيت ؟

فقلت :

– اني لم افهم الى مَ تقصد .

– الم تفهم ؟ ان هذا ادعى الرثاء ؛ كان من واجبي ان احذرك . اني ومن على شاكلتي من الكهول العزّاب لا علينا من التردد على هذا البيت ، فاي ضرر يصيبنا ؟ نحن قوم تصلب عودنا فما يهزنا شيء ، ولكنك لا تزال طريّ العود ، هذا الجو ضار بك – صدقني ؛ فقد تسري اليك العدوى .

– وكيف ذلك ؟

– هكذا . فهل أنت موفور الصحة الآن ؟ او انت في حالة طبيعية ؟ وهل اعتقدت أن كل ما تشعر به يلائمك ويصلح لك ؟

فسألت وأنا ادرك في اعماقي ان الدكتور على حق :
– وما هذا الذي استشعره ؟
واستمر الدكتور قائلا :
– آخ منك يا فتى ، أيهذا الفتى . (كان يشد على هاتين الكلمتين كأنما ليبث فيهما شيئاً من العتاب) انك لا تعرف المكر ، فان وجهك مرآة نفسك والحمد لله . ولكن ما الفائدة من الشرح ؟ فما كنت انا نفسي لأطرق هذا المكان لو لم (وصرّ الدكتور بأسنانه) . . . لو لم اكن من الطينة ذاتها . ولكن أشد ما يحيرني من امرك أنك انت الذكي ثم لا تدري بما يدور حولك .
فسألته وانا ارهف السمع :
– وما هذا الذي يدور ؟
فرمقني الدكتور بعطف ساخر وقال كأنما يحدث نفسه :
– وما شأني ؟ أكان من الضروري ان أحدثه بكل ذلك ؟ – ثم اضاف بصوت عال : – اعيد عليك القول بأن هذا الجو لا يلائمك . قد يكون هذا الجو مما يعجبك . صحيح ، ولكن هذا لا يكفي ، فان الرائحة الزكية تعجبك في دفيئة الازهار ، ولكنك لا تستطيع ان تعيش في دفيئة . إي ، اصغ اليّ ، ولتعد الى كتابك المدرسي .
وجاءت الاميرة العجوز ، وجعلت تتشكى الى الدكتور من الـم في اسنانها ، ثم اقبلت زينابيدا ، فاضافت الأم :
– ها هي ذي ايها السيد الدكتور ، فلا تمسك عن تأنيبها ، فانها مضت تشرب الماء المثلج طوال النهار ، فهل كان هذا ليلائم صدرها الضعيف ؟
فسألها لوشن :
– علام فعلت ذلك ؟
– واي ضرر فيما فعلت ؟
– اي ضرر ؟ قد يصيبك البرد فتموتين .
– أيحدث هذا حقاً ؟ هذا ما استحقه .
– هكذا اذن ؟ – تمتم الدكتور .
وغادرت الاميرة العجوز الغرفة ، فأعادت زينابيدا :
– هكذا . هل في هذه الحياة مرح ؟ قلّب الطرف فيما حولك . . . فأين ترى الخير ؟ ام لعلك تظن انني لا أفهم ولا اشعر ؟ لقد طاب لي أن اشرب الماء المثلج ، وانت تريدني جاداً

ان اصدق ان حياة على هذه الشاكلة اثمن من ان اخاطر بها وهي على حالها تلك من أجل لحظة هناءة ولا اقول لحظة سعادة .
فقال لوشن ملاحظاً :
– آ ، نعم ، فان النزوان والاستقلال كلمتان تنطويان على موجز حياتك ، كل طبيعتك في هاتين الكلمتين .
فضحكت زينابيدا بعصبية وقالت :
– اخبارك جاءت بعد فوات الاوان يا عزيزي الدكتور ، ان تشخيصك غلط ولا يمشي مع الزمن . ضع نظارتك على عينيك ، سترى ان النزوان ليس من شأني الآن . وليس هنا شيء من المرح في ان استغفلكم واستغفل نفسي . . . اما عن الاستقلال . . . – وامسكت فجأة عن كلامها وهي تدق الارض بقدمها وقالت : – مسيو فولديمار ، لا تلبس هذه السحنة الكئيبة ، فاني لا اطيق ان اكون موضع اشفاق – وانصرفت مسرعة لا تلوي .
فاعاد لوشن ما قاله لي : – انه لمؤذ لك هذا الجو أيها الشاب ، مؤذ .

١١

في مساء ذلك اليوم انتظم عقد الجماعة في منزل آل زاسيكين وكنت بينهم .
انطلق الحديث حول قصيدة مايدانوف فاثنت زينابيدا عليها في اخلاص ، قالت له : ولكن اتدري لو انني كنت شاعرة لطرقت موضوعات اخرى . قد يكون هذا لغواً فارغاً ، ولكن تراودني احياناً افكار غريبة ، وبخاصة حينما اكون مسهّدة قبيل الفجر ، وقت اصطباغ السماء باللون الوردي الرمادي . فمثلا . . . الا تضحكون مني ؟
فهتفنا جميعاً بصوت واحد : «لا ! لا !»
فقالت وهي تطوي ذراعيها على صدرها وتلقي ببصرها الى جانب :
– لكنت وضعت جماعة من الفتيات ، وهن على مركب عظيم يتهادى في الليل على مياه نهر هادئ ، تحت ضوء القمر المنير ، وقد ارتدين الابيض ، وعلى رؤوسهن اكاليل من الزهر الابيض ، وانطلقن يغنين شيئاً يشبه النشيد .

فتنطع * مايدانوف قائلا وهو يصطنـــع هيئة الفاهم والحالم في آن :

– مفهوم ، مفهوم . . . امضي في حديثك .

– وفجاة تنفجر الضوضاء والضحكات ، وتتالق المشاعــل ، وتدق الدفوف على الشاطئ ، ويظهر حشـــد حاشد من رعية إله المجون يقبل مسرعاً وهو يغني ويصخب . وهنا ينبغي عليك ايهـا السيد الشاعر ان ترسم من هذا لوحة . . . ولكني اريد ان تكون المشاعل حمراء ينبعث منها دخان كثيف وان تلمع عيون الماجنات تحت ازهار الاكاليل ، ويجب ان تكون الازهار قاتمة ، ولا تنس جلود النمور ، والكؤوس ، والذهب ، الوفرة من الذهب .

فسألها مايدانوف وهو يرفع شعره الى وراء ويمد انفه :

– واين ينبغي ان يوضع هذا الذهب ؟

– اين ؟ على الاكتاف وفي الايدي والأرجل ، في كل موضع ، فقد كانت النساء على ما روى ، يتزيّن في قديم الزمان بالخلاخيل الذهب . وتنادي الماجنات فتيات المركب . فتمسك الفتيات عن الغناء ويتولاهن العجز عن المضي فيه ، ولكنهن لا يتحركن : كان النهر يدفع بهن الى الشاطئ . فتقوم احداهن فجاة في سكون . . . وهذا يحتاج الى براعة في وصف قومتها الساكنة تحت ضوء القمـر الساطع ، ووصف الذعر الذي شاع في صديقاتها . . . وتخطو فوق طرف المركب ، فتحيط بها الماجنات ويحملنها ويختفين بها في اعماق الليل ، في الظلمة . . . وتصوروا سحب الدخان تنعقد ويسود الهرج فلا يسمع الا صيحات الماجنات واكليلها متروك على الشاطئ .

قطعت زينايدا حديثها . (فقلت لنفسي : «اوه انها عاشقة !»)

وسألها مايدانوف قائلا :

– أهذا كل شيء ؟

فقالت :

– هذا كل شيء .

فتنطع ملاحظاً :

– لا يصلح هذا موضوعاً لقصيدة طويلة ولكني سأعتمد هذه الفكرة في قصيدة عاطفية .

فسأله ماليفسكي :

* تنطع بالكلام : تفصح فيه وتشدق . **المعرب** .

– أبالأسلوب الرومانتيكي ؟

– طبعاً بالاسلوب الرومانتيكي وبالطريقة البايرونية (٧٣) .

فقال الغراف الشاب باستهتار :

– في رايي ان هوغو أطرف من بايرون .

فقاطعه مايدانوف قائلا :

– ان فيكتور هوغو كاتب من الطراز الاول ، ويقول صديقي تونكوشييف في روايته الاسبانية «التروفادور» ان . . .

فقاطعته زينايدا قائلة :

– آ . . . اتقصد ذلك الكتاب المملوء بعلامات الاستفهـــام المقلوبة ؟

– نعم ، فان هذا من التقاليد الاسبانية . وكنـــت اريد ان اقول – ان تونكوشييف . . .

وعادت زينايدا تقطع حديثه :

– يه ! ستعودون الى جدلكم حول الكلاسيكية والرومانتيكية . هيا نلعب لعبة فان هذا افضل . . .

فتدخل لوشن وسألها :

– العبة الجزاء ؟

– لا ، ان لعبة «الجزاء» تشيع الملل . سنلعب لعبة التشبيهات . (كانت هذه اللعبة من بنات افكار زينايدا ، حيث تسمى الاشياء وياخذ المتبارون في ابتكار التشبيهات المناسبة ويفوز بالجائزة من ياتي باحسن تشبيه) .

وسارت زينايدا الى النافذة . كانت الشمس قد انحدرت لحظتها نحو الغروب ، وامتدت في أعلى السماء سحائب طويلة حمراء .

وسألت زينايدا :

– ماذا تشبه هذه السحب ؟ – واضافت دون ان تنتظـر جواباً : – في رايي انها تشبه شراعاً قرمزياً على ذلك المركب الذهبي الذي حمل كليوباطره الى لقاء انطونيو (٧٤) . أتذكـر يا مايدانوف انك رويت عليّ هذا منذ وقت قريب .

وقررنا نحن ، على طريقة بولوني في «هاملت» ان هذه السحب تشبه ذاك الشراع ، ولا سبيل لأحد ان ياتي باحسن مـن هذا التشبيه .

وسألت زينايدا :
– كم كان لانطونيو من العمر وقتذاك ؟
ولاحظ ماليفسكي :
– لعل الارجح انه كان شاباً .
واكد مايدانوف :
– نعم كان شاباً .
فصرخ لوشن :
– عفواً ، لقد كان فوق الاربعين .
فرددت زينايدا عبارته وهي تلقي عليه نظرة سريعة :
– فوق الاربعين .
عدت الى البيت في اسراع ، وتمتمت شفتاي على الرغم مني : «انها تحب ، ولكن من المحبوب ؟»

١٢

تعاقبت الايام ، ولا تزال زينايدا تزداد غرابة وغموضاً . دخلت عليها ذات يوم ، فرايتها تجلس في كرسي من القش وراسها مسترخ على حدّ المائدة ، فلما استقامت كان وجهها مبلولا بالدموع . قالت وهي تبتسم ابتسامة قاسية :
– اوه ، اهذا انت ، تعال .
فاقتربتُ منها ، وكان ان وضعت يدها على راسي ، وامسكت فجاة بخصلة من شعري وجعلت تبرمها .
فقلت لها بعد لأي :
– ان هذا يؤلمني .
– يؤلمك ؟ افلا يؤلمني ، افلا يؤلمني ؟
وصرخت فجاة حينما رات أنها اقتلعت خصلة من شعري :
– ما هذا الذي فعلته ؟ مسكين يا مسيو فولديمار .
واخذت تملس خصلة الشعر في هدوء وتلفها حول اصبعها حتى جعلت منها حلقة ، وقالت والدموع تلمع في عينيها :
– ساضع شعرك في مدالية لأحتفظ به تذكاراً فلعل هذا ان يحمل اليك العزاء . . . أما الآن فوداعاً .

عندما عدت الى البيت رأيت الجو مشوباً بالاضطراب ، والتشاحن قائماً بين ابي وامي ، فهي تلحوه في امر ، وهو على عادته صامت في برودة وتأدب ، ولم يتلبث طويلا بل غادر المنزل . وفاتني ان اسمع ما كانت تقوله امي فما همّني ذلك فقد كنت عنه في شغل شاغل . كل ما أذكره أنها أرسلت من يدعوني الى مكتبها بعد انتهاء المشاجرة وابانت عدم رضاها من زياراتي الكثيرة للاميرة ، لانها على حد قولها une femme capable de tout * فقبلت يدها (على عادتي كلما رغبت في انهاء الحديث) وذهبت الى غرفتي . كانت دموع زينايدا باعث حيرة في نفسي : فما أدري على ايّ وجه ينبغي تاويلها واوشكت انا نفسي على البكاء ، كنت طفلا على الرغم من سنواتي الست عشرة . لم اعد افكر في الغراف ماليفسكي على الرغم من ان بيلوفزوروف كان يبدو اكثر قساوة بنظراته الماكرة التي كان يشزر بها الغراف كما يشزر الذئب الحمل ؛ فقد انقطعت عن التفكير في هذا وذاك . واستغرقتني الظنون ، وذهبت أنشد العزلة ، واصبحت خرائب الدفيئة مكاني الأثير ، فكنت أتسلق جدارها العالي واجلس وحيداً محزوناً حتى أصبحت أشفق على نفسي ، ولشد ما كان هذا الشجى ماتعاً ولشد ما اجتذبني الى الاستغراق فيه . . .
كنت اجلس ذات يوم على الجدار ، مرسلا بصري الى الآفاق البعيدة ، مصغياً الى رنين الاجراس الكنسيّة . . . واذا شعور مباغت بان شيئاً يزحف على جلدي ، فكان نسمة ولا نسيم ، ورعشة ولا ارتعاش ، بل لعله الاحساس بان شخصاً يقترب مني . . . فنظرت الى أسفل نحو الطريق ، فرايت زينايدا تغذّ في السير وهي في فستان رمادي خفيف وعلى كتفها مظلة حمراء . كانت قد راتني ايضاً فتوقفت ، ولوت طرف قبعتها المصنوعة من القش الى اعلى ورفعت نحوي عينيها المخمليتين ، وسالتني وهي تبتسم ابتسامة غريبة :
– ماذا تفعل هناك على هذا المرتفع ؟ – واضافت : – انك ما تفتأ تؤكد لي انك تحبني ، فاقفز الى الطريق ان كنت صادقاً .
فما كادت زينايدا تأتي على نهاية هذه الكلمات حتى كنت اطير الى أسفل كأنما دُفعت من وراء . كان ارتفاع الجدار يزيد على قامتين فبلغت الارض واقفاً ، ولكن عنف الصدمة أعجزني عن التماسك في وقفتي فسقطت غائباً عن الوعي واستمر ذلك لحظة ،

* امرأة لا تزع نفسها عن امر (بالفرنسية في الاصل) .

ولما افقت لنفسي شعرت وانا مغمض العينين بأن زينابيدا بجنبي ، وسمعتها تقول وفي صوتها القلق والعطف وهي تنحني علي :

– «يا حبيبي الصغير . فيم فعلت هذا ، وعلام أصغيت اليّ ؟ . . اني احبك . . . هيا انهض !»

كان صدرها يتنفس قريباً من صدري ، ويداها تمسحان راسي ، وفجاة – يا قلبي على ما جرى لي آنذاك ؟ – اخذت شفتاها الناعمتان الغضّتان تغطيان وجهي بالقبل . . . وتتلمسان شفتي . . . وهنا ادركت زينابيدا من التعبير المرتسم في وجهي انني ثبتُ الى نفسي ولكني لا افتح عينيّ ، فهبت واقفة بحركة سريعة وقالت :

– «قم من ارضك يا عفريت يا مجنون ، ما معنى رقدتك هذه على التراب ؟»

فقمت من أرضي .

وقالت زينابيدا : – جئني بمظلتي من حيث اسقطتها ، ولا ترمقني هكذا . . .ما هذا السخف ؟ . . الصابك اذى ، او لعل القراص قرصك ؟ . . قلت لك لا تنظر اليّ . . .– واضافت كانما تحدث نفسها : – اجل ، انه لا يفهم ولا يجيب . لتذهب الى بيتك يامسيو فولديمار لتتنظف ، واحذر ان تسير في إثري والا غضبتُ ، وعندئذ لن . . .

واسرعت تمضي في سبيلها من دون ان تكمل خطابها ، على حين ذهبت اجلس على كتف الطريق . . . كنت واهن الساقين ، ملتهب اليدين من القراص ، يؤلمني ظهري ويدور راسي ، ولكن الهناءة التي ملات نفسي وقتئذ لن تتكرر مهما عشت في هذه الحياة . كانت تخالجني كانها الم عذب يسري في اطرافي كافة ، ثم انفجرت اخيراً في قفزات وصيحات تلتهب بالحماسة . كان الأكيد : اني ما زلت طفلا .

١٣

لشد ما كنت مرحاً فخوراً طوال ذلك اليوم ، وكم كان حياً ذلك الاحساس بقبلات زينابيدا على وجهي ، وباي نشوة كنت استعيد ما قالت كلمة كلمة . لقد حنوت على سعادتي المفاجئة

بما يشبه الرعب ، واصبحت لا أريد حتى أن أراها ، وهي المسؤولة عن هذا الشعور الجديد . وخيل اليّ انني استنفدت تطلعاتي فلم يبق لي ما أجدّ في طلبه من القدر ، وكأنما آن لي «ان الملم أنفاسي الاخيرة والفظها جملة واموت» . ولكني شعرت في اليوم التالي بتهيب شديد وانا أتوجه الى بيت الاميرة واخفقت محاولتي في اخفاء هذا الشعور وراء مظهر وديع من عدم الكلفة ، لاعتقادي انه المظهر الملائم لامرئ يرغب في اقامة البرهان على انه كتوم للسر . واستقبلتني زينابيدا في بساطة لا اثر فيها للتحرّج ، ولم تفعل الا أنها هزت اصبعها وسالت : ايكون فيّ اثر من بقع زرق ؟ فاذا مظهر الجسارة المتواضعة والتكتم يفارقني في تلك اللحظة ، وزال معهما ارتباكي . وطبيعي انني لم اكن اتوقع اي امتياز خاص ، ولكن هدوء زينابيدا وقع عليّ مثل دلقة من ماء بارد . لقد ادركت أنني ما زلت في نظرها مجرد طفل ، فثقل ذلك عليّ ! كانت زينابيدا تسير في الغرفة ذاهبة جائية ، وترميني بابتسامة عابرة كلما تلاقت نظراتنا ، رايت في وضوح أن افكارها كانت بعيدة عني . . . وخطر ببالي ان ابدأها الحديث عن حادث أمس ، وفكرت : «هل أسالها الى اين ذهبت مسرعة لأكون على علم بخاتمة المطاف . . .» ولكني لوحت بيدي وانتبذت مكاناً في زاوية الغرفة جلست فيه .

أقبل بيلوفزوروف فاغتبطت لقدومه ، وقال بصوت خطير :

– أخفقت في العثور على جواد هادئ يناسبك . لقد نصح لي السيد فرايتاغ بواحد (٧٥) ، ولكني لم أثق بقوله ، وغلبني الخوف .

فسالت زينابيدا :

– وممّ تخاف ؟ اذا سمحت بالسؤال .

– ممّ ؟ انك لا تقدرين على ركوب الخيل . ربّ يا خفيّ الألطاف احفظنا مما نخاف . ثم ما هذا الوهم الذى ملأ راسك فجاة ؟

– هذا شغلي يا مسيو وحشي وليس شغلك . وسالجأ في هذه الحال الى بيوتر فاسيلييفيتش . . . (كان هذا اسم ابي ، وقد ادهشني انها نطقت به في يسر وطلاقة كانها على يقين من حسن استعداده لخدمتها) .

فاعترض بيلوفزوروف قائلا :

– اذن هذا هو من تريدين أن تخرجي معه على صهوة الجواد ؟
– معه او مع غيره ، فان هذا لا يخصك ، وليس معك في كل حال .
فردد بيلوفزوروف قائلا :
– ليس معي . كما تشائين . ماذا بيدي أن افعل . سادبر لك حصاناً .
– واحرص على الاّ يكون بقرة او مما في هذا الجنس ، فانا انذرك باني سانجرد به .
– تفضلي انجردي به ، ولكن مع من ؟ اهو ماليفسكي ؟
– ولِمَ لا يكون ماليفسكي ايها المغوار ؟
واضافت :
– ولكن هدئ من روعك ، ولا تحملق بعينيك ، فانك ايضاً من سآخذه معي ، وانت تعرف ما موضع ماليفسكي عندي الآن – اف ! (ورفعت رأسها في استعلاء) .
فقال بيلوفزوروف متذمراً :
– انك تقولين ذلك من قبيل التعزية .
ضيقت زينايبدا عينيها .
– هل يعزيك هذا ؟ او . . . و . . . . ه ايها المغوار . – وقد نطقت باواخر هذه الكلمة ، كانها لم تعثر على كلمة اخرى . – واضافت :
– وانت يا مسيو فولديمار الا تريد ان تاتي معنا ؟
فقلت من دون ان ارفع بصري :
– اني لا احب . . أن أكون في جماعة كثيرة . . .
– Tête-à-tête * ، هذا ما تفضله اذن ؟ . . لا عليك فالحرية للحر والجنة لمن نجى ** – وتنهدت – امض اذن يا بيلوفزوروف ، اني في حاجة الى الحصان غداً .
فتدخلت الاميرة العجوز بقولها :
– طيب ، والنقود ؟ من اين ستحصلين عليها ؟
فقطبت زينايبدا حاجبيها :
– لم اطلبها منك فان بيلوفزوروف يثق بذمتي .

* راس لراس (بالفرنسية في الاصل) .
** مثل روسي ، معناه لك ما تريد .

فغمغمت الاميرة العجوز :
– يثق ، يثق . . .
وصاحت فجأة بملء صوتها :
– دونياشكا !
فلاحظت الاميرة الصغيرة قائلة :
– Maman ، لقد اهديتك جرساً لهذه الغاية .
وعادت العجوز تصيح :
– دونياشكا !
انحنى بيلوفزوروف مودعاً ، فقمت أقصد الذهاب معه . ولم تحاول زينايبدا ان تستبقيني .

١٤

نهضت مبكراً في صباح اليوم التالي ، فاقتضبت قضيباً من شجرة ومضيت أتجول فيما وراء باب المدينة ، وقد قيل : اذا ضقت بمطرح فاتركه واسرح . كان النهار رائعاً مشرق الضياء معتدل الجو ، والأنسام المراح تتفسّح على الارض ، وتضوضي في حفيف خافت ، وتلعب فتهز كل ما تلمسه من دون ان تؤذيه . واطلت في التجوال خلال الغابات والجبال ، ولكنني لم أشعر بسعادة ، لأني غادرت المنزل وبي نزوع الى الاستغراق في الاحزان . ثم ما لبث الشباب اليافع ، والطقس الرائع ، والهواء النقي ، وتلك الغبطة التي يبتعثها المشي السريع ، وراحة الاستلقاء على العشب الكثيف ، ان عملت عملها ، فتواردتني الذكريات : ذكريات الكلمات التي لا تنسى ، والقبلات . استشعرت الغبطة حينما فكرت في أن زينايبدا لا تستطيع ان تنفي أنني امرؤ لا تنقصه العزيمة والشجاعة . . . «انها تفضل الآخرين عليّ . ليكن ! ولكن الآخرين لا يتجاوزون حدود الحديث عما سيفعلون ، اما انا فقد فعلت . . . وأملك القدرة على أن افعل في سبيلها فوق ما فعلت ! . .» وسرح بي الخيال ، فتصورتني أنقذها من قبضة اعداء ، ورأيتني غارقاً في الدم وانا أخلصها من سجن مظلم ثم أهوي ميتاً عند قدميها . وخطرت ببالي لوحة معلقة عندنا في غرفة الاستقبال وهي صورة الملك

العادل يحمل ماتيلدا (٧٦) . . . وهنا شغلت بنقار كبير ذي لون محبر لامع يتسلق في اهتمام على شجرة بتولة دقيقة الساق وهو ينظر من خلفها ذات اليمين وذات اليسار في حذر كأنــه عازف موسيقي وراء عنق كمان جهير .

ثم اخذت اغني : «الثلوج ليست بيضاء» ، وانتقلت منها الى الاغنية العاطفية الشائعة في ذلك الحين : «أنا في انتظارك حينمـا يتلاعب النسيم» . وقطعتها لاقرأ بصوت مرتفع خطاب يرماك الى النجوم في مأساة خومياكوف (٧٧) ، بل لقد حاولت أن أنظم ما يحضر من شعر العاطفة ، وارتأيت ان تختتم القصيدة بهذا البيت : «أوه ، زينايبيدا ، زينايبيدا !» . ولكن محاولتي أخفقت . وحـل موعد الغداء في هذه الاثناء ، فقمت اهبط الوادي . كان فيه طريق رملي ضيق يتأفعى ذاهباً حتى المدينة . فذهبت في هذا الطريق . . . وترامى اليّ من ورائي خلال السير ايقاع مكتوم لحوافر جياد ، فالتفت الى وراء ، وتوقفت عن غير قصد وانا ارفع قبعتي : رأيت أبي وزينايبيدا ، كانا متواكبين ، وأبي يحدثها وهو منحن عليها بجسمه جميعاً معتمد بيده على عنق الجواد ؛ كان يبتسم ، وزينايبيدا تصغي اليه صامتة وقد ارخت عينيها في جد ، وكزّت شفتيها . لم ار غيرهما اول الامر ، وبعد لحظات برز بيلوفزوروف من منعطف في الطريق ، وهو في حلة الفرسان ، وتحته حصان ادهم كان يلمع بالعرق ويرمح براسه وينخر ويتوثب . كان راكبه يكبحه بالعنان ويهمزه بالمهاز في آن ، فانتحيت جانب الطريق ، واخذ أبي عنان الجواد بيديه ، وابتعد عن زينايبيدا ، بينما أرسلت هي اليه نظرة وانية ، وانطلقا يخبّان جواديهمـا متواكبين . . . وتبعهمـا بيلوفزوروف وسيفه يقعقع . قلت في نفسي : «انه احمر كالسرطان البحري واما هي . . . ففيم شحوبها ؟ انها كانت تقضي الصباح كله في الركوب فلماذا هذا الشحوب ؟»

حثثت الخطى فبلغت الدار في موعد الغداء . كان أبي قد بدل ثيابه ، واغتسل فبدا نضراً ، وجلس بجنب مقعد أمي وراح يقرأ عليها بصوته الرتيب المرنان مقالة ساخرة في «Journal des Débats» (٧٨) كانت أمي تصغي في غير اقبال ، ولما رأتني سألتني : أين كنت شارداً طوال النهار . ثم اضافت قائلة : انها لا تحب مـن

يتسكعون حيث لا يعلم الا الله ، او يرافقون من ليس يدري بامورهم الا الله . وهممت بأن اقول لها انني كنت أتنزّه وحيداً ، ولكنني نظرت الى أبي ، ولا ادري لماذا التزمت الصمت .

١٥

لم ألتق زينايبيدا الا لماما طوال الايام الخمسة او الستـة الاخيرة ، قالت انها مريضة ، ولكن ذلك لم يمنـع الزائرين التقليديين من الذهاب الى بيتها لأداء الواجب — على حد قولهم . كانوا يأتون الى بيتها جميعاً ما عدا مايدانوف ، فقد كان يشتمله القنوط والوهن كلما نضب معين إلهامه . وكان بيلوفزوروف ينتبذ ركناً قصياً من الغرفة ، فيجلس بوجه عبوس شديد الاحمرار ، وسترة مزررة حتى العنق . واستقرت في وجه الغراف ماليفسكي الدقيق ابتسامة شائلة ؛ فانه فقد في الواقع الحظوة عند زينايبيدا واصبح شديد الحرص على استرضاء الاميرة العجوز ، بل انه رافقها ذات مرة في عربة الى دار الحاكم العام ، ولكن تلك الزيارة لم تثمر شيئاً ، وكان من نكدها عليه : أن القوم ذكّروه هناك بسابقة من السوابق اشترك فيها مع بعض الضباط ، ولم يكن لديه ما يدافع به عن نفسه الا القول بانه كان مغفلا عديم التجربة . اما لوشن فكان يأتي الى الجناح زائراً مرة او مرتين في اليوم ، ولكنه لا يمكث الا قليلا ، وقد اصبحت أخشاه بعض الخشية بعد حديثنا الاخير ، واشعر بالميل نحوه في الوقت نفسه . وقد ذهبنا ذات مرة في نزهة خلال حديقة نيسكوتشني ، فكان حديثه معي في غاية اللطـف والرقة ، جعل يذكر لي أسماء الاعشاب والازهار المختلفـة ، ويحدثني بخواصها ، ثم اذا هو يهتف فجاة ، ونحن على حدّ القول الدارج لا هنا ولا هناك ويضرب بيده على جبينه قائلا : «ما انا الا احمق . لقد ظننت انها مجرد فتاة لعوب ، فظهر أن التضحية بالنفس مستعذبة عند البعض» .

فسألته :

— ماذا تريد بهذا ان تقول ؟

فاجابني لوشن في حدة :

– لا شيء اريد أن أقوله لك أنت .

كانت زينايبيدا تتجنب مقابلتي ، ولاحظت انها تضيق ذرعاً برؤيتي ، وتشيح وجهها عني بصورة غريزية . . . بصورة غريزية : وهذا بالذات ما كان يعذبني ويسحقني وأنا لا أملك شيئا حياله . وقد جهدت في توقّي نظراتها ، واكتفيت بمراقبتها من بعيد ، فلم افلح في ذلك كل الفلاح . كان يتداخلها شيء مبهم يتعصّى على الفهم : أصبح الوجه غير وجهها ، وتغيرت احوالها جملة . وادهشني على الخصوص ما ظهر منها في ذات مساء هادئ داي . كنت أجلس على دكة واطئة ، وراسي تحت فرع عريض من شجيرة خزام ؛ وهو مضوع آثرته لأنه يكشف لي عن نافذة زينايبيدا . كنت أجلس وفوق راسي طائر صغير يلوب بين الاوراق المظلمة ؛ وتمطت قطة رمادية ثم انسلت الى الحديقة في هدوء ، واوائل الصراصير تملأ الجو بازيزها الثقيل ، والفضاء ما زال شفافاً ولكنه غير مضيء . كنت أنظر من مجلسي الى النافذة وانتظر ان تفتح ؛ وما لبثت ان فتحت ، وظهرت فيها زينايبيدا . كان عليها فستان أبيض ، وهي نفسها ، بوجهها وكتفيها وذراعيها بدت شاحبة الى حد البياض . طال وقوفها من دون حركة ، وهي تنظر بحاجبين مقطبين نظرة ثابتة ولا تندّ منها حركة ، لم اكن اعرف أنها قادرة على مثل هذه النظرة ؛ ثم ضمت يديها باقصى ما تكون الشدة ورفعتهما الى شفتيها فجبينها ؛ وفجأة بسطت أصابعها وجعلت شعرها وراء أذنيها ، وهزت راسها ، ونفضت شعرها في عزم ، وصفقت مصراع النافذة .

التقينا بعد ثلاثة ايام في الحديقة ، أردت أن أمضي مجانباً ولكنها استوقفتني وقالت بلهجتها في الايام الخالية :

– هات اعطني يدك ، فاننا لم نثرثر مع بعضنا البعض منذ وقت بعيد .

نظرت اليها فاذا عيناها تضيئان بنور هادئ ، وكان وجهها يبتسم من خلال ضباب خفيف .

سألتها :

– أما زلت موعوكة ؟

فاجابت وهي تقطف وردة حمراء :

– لا ، فقد زال كل شيء الآن . اني متعبة قليلا ، ولكن هذا سيزول ايضاً .

– هل تعودين كما كنت من قبل ؟

فرفعت زينايبيدا الوردة الى وجهها ، وعندئذ تراءى لي كأن ضياء اوراق الوردة المتألق ينعكس في خديها . وسألتني :

– أتراني تغيرت ؟

فقلت بصوت خافت :

– أجل ، تغيرت .

فقالت زينايبيدا :

– اعرف أنني كنت باردة معك ، ولكن ما كان ينبغي لك ان تهتم بهذا الأمر . . . لم أكن أستطيع غير ذلك . . . ولكن فيم الحديث عن هذا !

فصحت دون قصد بنبرة حزينة :

– لا تريدين لي أن أحبك . هذا هو الامر !

– لا جرم أن تحبني ولكن غير حبك من قبل .

– بل كيف ؟

– أن نكون اصدقاء .

واضافت وهي ترفع الوردة لأشمها :

– اسمع . اني أكبر منك سناً ، وكان يمكن لي ان اكون عمتك ، ليس عمتك بل اختك الكبرى ، وأما انت . . .

فقاطعتها قائلا :

– مجرد طفل في نظرك .

– اجل ، ولكنك الطفل الظريف الطيب الذكي الذي احبه كثيراً . اصغ الي ، ستكون وصيفي الخاص منذ اليوم ، ولا تنس ان الوصيف لا يستطيع أن يبتعد عن سيدته . وها هي ذي شارة منصبك الجديد . – اضافت وهي تضع الوردة في عروتي – شارة رعايتنا لك .

فتمتمت قائلا :

– لقد تلقيت لوناً آخر من رعايتك فيما مضى .

فصاحت زينايبيدا :

– آ ! . .

واضافت وهي ترمقني بجانب عينيها :

– يا لقوة ذاكرته ! ولكن ما المانع ؟ فانا مستعدة الآن ايضاً . . .

وانحنت عليّ تطبع على جبيني قبلة صافية هادئة .

لم أملك سوى ان نظرت اليها ، بينما استدارت تقول : «هيا اتبعني يا وصيفي» ، وسارت نحو الجناح وانا في اثرها . كنت في حيرة من كل هذا ، ورأيتني اقول في نفسي : «ايعقل ان تكون هذه الفتاة الوديعة الفطنة هي نفسها زينايبيدا التي عرفتها من قبل ؟» لقد تغيرت حتى ان مشيتها تراءت لي اهدأ مما كانت ، وزاد جسدها كله جلالا ورشاقة . . .

يا آلهي ، بأية قوة جديدة أصبح حبي يتلهب !

١٦

اجتمع الضيوف في الجناح بعد الغداء ، وخرجت الاميرة الشابة الى استقبالهم . التقى افراد الشلة جميعاً كما كانوا في تلك السهرة الاولى التي لن انساها : بل حتى نيرماتسكي جاء ؛ وصل مايداتوف قبل الآخرين في هذه المرة ومعه قصيدة جديدة وبدأت لعبة الجزاءات ايضاً ، ولكن من دون تلك المزحات الشاذة وما اليها من الهرج والمرج ، فقد اختفى من ضوضائنا عنصرها الثَوري ، واضفت زينايبيدا على المجلس روحاً جديدة . جلست الى جانبها كما يقتضي من الوصيف . كانت قد اقترحت في اثناء اللعب ان يروي من يسحب الورقة الخاسرة ما رآه في المنام ؛ ولكن اقتراحها لم يحالفه النجاح ، فالاحلام جاءت اما سخيفة (رأى بيلوفزوروف في المنام انه يعلف حصانه سمك الشبوط ، وان للحصان رأساً من خشب) ، او لا أصل لها ولا فصل ، فقد تكرّم علينا مايدانوف بقصة طافحة بالتوابيت ، وبالملائكة في ايديهم المزاهر ، وبالازهار الناطقة ، والترانيم القصية الرنين . . . ولكن زينايبيدا قطعت عليه حبل الاستمرار الى النهاية ، وقالت :

— ما دمنا في مجرى الاختلاق فليرو كل واحد شيئاً من بنات الخيال .

كان على بيلوفزورف ان يكون البادئ في الحديث .

ولكن الفارس الشاب احرجه الموقف فصاح :

— اني لا استطيع ان ابتكر شيئاً .

فقالت زينايبيدا :

— ما هذا الكلام الفارغ ! افترض انك ، على سبيل المثال ، متزوج ، فحدثنا كيف تعامل زوجتك . هل تغلق دونها الابواب ؟

— اجل ، كنت احبسها .

— هل تجلس اليها انت بالذات ؟

— اكيد كنت أجلس اليها .

— ظريف ، ولكن هب أنها انزهقت وخانتك ؟

— كنت اقتلها .

— واذا هربت ؟

— اذهب في طلبها ، ومهما يكن فاني اقتلها .

— ولكن هب اني زوجتك فماذا كنت تفعل ؟

فامسك بيلوفزروف عن الكلام لحظة ثم قال :

— كنت اقتل نفسي . . .

فضحكت زينايبيدا وقالت :

— أرى ان انفاسك في الغناء قصيرة * .

في السحب الثاني جاءت الورقة مع زينايبيدا ، فرفعت عينيها الى السقف واستغرقت في التفكير ، ثم قالت اخيراً :

— اسمعوا ماذا اخترعت . تصوروا قصراً منيفاً ، وليلة صيف ، وحفلة رقص رائعة . الحفلة اقامتها ملكة شابة . في كل ناحية ذهب ومرمر وبلور وحرير واضواء والماس وازهار وبخور وكل ما يشتهى من الترف .

فقاطعها لوشين قائلا :

— وهل انت تحبين الترف ؟

فاجابت :

— الترف جميل ، وانا احب كل جميل .

فسأل :

— اكثر من الرائع ؟

— هذا تعقيد لا أفهمه فلا تشوش عليّ . . . واذن فان الحفلة غاية في الروعة . الضيوف كثرة ، وهم جميعا شبان وسماة شجعان ؛ وكلهم متيّم بحب الملكة .

---

* المقصود انه ضيق الصدر قليل الصبر . (**المعرب**) .

فسأل ماليفسكي :
– هل بين الضيوف نساء ؟
– لا . . . بل طوّل بالك ، أجل ، هناك نساء .
– وهل هنّ جميعاً غير جميلات ؟
– بل فاتنات الجمال ، ولكن الرجال كلهم واقعون في حب الملكة ، فهي هيفاء رشيقة . . . تزين شعرها الأسود باكليل صغير من الذهب .

نظرت الى زينابيدا فبدت لي في تلك اللحظة أرفع شأناً منا نحن جميعاً ، ورأيت الذكاء والاقتدار يتألقان في جبينها الوضاء وحاجبيها الثابتين ، فقلت في نفسي : «انك أنت تلك الملكة !»

واستطردت زينابيدا :
– وأحاطوا كلهم بها يتملقونها بالمدائح .
فسأل لوشن :
– هل تحب الملق ؟
– يا لك رجلا لا يطاق ، ما تفتأ تقاطعني . . . فمن لا يحب الملق ؟
فقال ماليفسكي :
– هناك ايضاً سؤال أخير . هل للملكة زوج ؟
– لم افكر في هذا . ولكن ، لا ، فلماذا الزوج ؟
فقال ماليفسكي موافقاً :
– طبيعي فلماذا الزوج ؟
فصاح مايدانوف بالفرنسية وكانت لهجته فيها قبيحة :
– Silence! *
فقالت له زينابيدا :
– Merci** . وعلى ذلك ، تستمع الملكة الى تلك المدائح ، وتصغي الى الموسيقى ، من دون أن تنظر الى احد من الضيوف ؛ هناك ست نوافذ مفتوحة المصاريع من السقف الى الارض ، ووراءها السماء المظلمة والنجوم الكبيرة ، ثم ان الحديقة مظلمة ، فيها اشجار ضخمة ، والملكة بصرها في الحديقة ؛ بين الاشجار نافورة

* اسكت ! (بالفرنسية في الاصل) .
** شكراً !(بالفرنسية في الاصل) .

تسطع في الظلمة ، طويلة طويلة كأنها الشبح . وتستمع الملكة من خلال الكلام والموسيقى الى ترشش الماء الهادئ ؛ وانها لتنظر وتفكر : انتم جميعاً ايها السادة ، معشر نبلاء أذكياء أغنياء . وها انتم اولاء تحيطون بي ، وتعتزون بكل كلمة من كلماتي ، كلكم مستعد للموت على قدمي ، وانا المسيطرة عليكم . . . ولكن هناك على مقربة من النافورة ، حيث يترشش ذلك الماء ، يقف ذاك الذي احبه وينتظر ، ذاك الذي يسيطر عليّ ، ليس عليه ثوب فاخر ولا حجر كريم ، وهو مجهول ، ولكنه ينتظرني ، وهو على يقين من أنني سأجيء ، ولسوف أجيء ، فما من قوة تحبسني عنه حينما أريد ان اذهب اليه ، والبث لديه ، وتضيع معاً في ظلمة الحديقة ، بين حفيف الشجر وخرير النافورة . . .

سكتت زينابيدا .
فسألها ماليفسكي في خبث :
– هل هذا من نسج الخيال ؟
ولكن زينابيدا لم تتنازل حتى الى النظر نحوه . وقال لوشن فجأة :
– وماذا سنفعل نحن ايها السادة ، اذا كنا بين الضيوف وعلمنا بأمر ذلك المحظوظ صاحب النافورة ؟
فقاطعته زينابيدا بقولها :
– طوّلوا بالكم ، لا تعجلوا ، فانا بالذات أقول ما سيفعله كلّ منكم . فانت يا بيلوفزوروف تدعوه الى المبارزة ، وانت يا مايدانوف تهجوه بمقطوعة . . . ولكن لا ، فانك قصير باع في كتابة المقطوعات ، ستهجوه بمعلقة على طريقة باربيه (٧٩) وتنشر خريدتك في مجلة «التلغراف» (٨٠) . وانت يا نيرماتسكي تقترض منه . . . كلا ، بل تقرضه النقود بفائدة مئوية . اما انت يا دكتور . . . – وامسكت لحظة ثم قالت – هل رايت ، اني لا أدري ما كنت ستفعله انت .
فأجاب لوشن :
– بصفتي طبيب البلاط ، كنت انصح للملكة أن لا تحيي حفلات راقصة حينما تكون في مزاج ينبو بها عن الضيوف .
– لعلك أن تكون على صواب . وانت يا غراف . . .
– انا ؟ – عاد ماليفسكي يسألها وعلى وجهه ابتسامة خبيثة .

– اما انت فكنت تقدم اليه السم في قطعة حلوى .

فارتعش وجه ماليفسكي ، واكتسى خلال لمحة بتعبير لئيم ولكنه ما لبث ان قهقه ضاحكاً .

وتابعت زينابيدا متوجهة الي :

– وماذا بخصوصك يا فولديمار . . . ولكن بس ففي هذا القدر كفاية ، وهيّا نلعب لعبة اخرى .

فقال ماليفسكي في لذع :

– ان المسيو فولديمار وصيف الملكة ، وبهذا الحق سيحمل اذيال ثوبها حينما تهرع الى الحديقة .

فاختنق وجهي بالاحمرار ، ولكن زينابيدا وضعت يدها على كتفي ونهضت ، وقالت بصوت فيه رجفة خفيفة :

– اني لم أسمح لسيادتك قط بان تكون بذيئاً ، ولهذا ارجوك ان تغادر هذا المنزل . – واشارت له نحو الباب .

فتمتم ماليفسكي وقد شحب لونه :

– ما هذا الكلام يا اميرة ؟

فصاح بيلوفزوروف وهو ينهض ايضاً :

– ان الاميرة على حق .

فقال ماليفسكي :

– اقسم بالله اني ما كنت اتوقع ، ما كنت اظن ان في كلامي شيئاً مما . . . لم يخطر ببالي شيء يسيء اليك . . . سامحيني ارجوك .

فرمته بنظرة باردة ، وضحكت في برودة ، وقالت وهي تطوح يدها في استخفاف :

– لك أن تبقى اذا شئت ، فقد غضبنا انا والمسيو فولديمار من دون مبرر . انت تمزح لتجرح . . . تفضل صحتين .

فعاد ماليفسكي يقول :

– سامحيني أرجوك .

وتذكرت حركة زينابيدا فقلت في نفسي ، ما كان لملكة حقيقية أن تومئ لمطرود نحو الباب بجلال أعظم من تلك الايماءة .

لم تستمر لعبة الجزاءات الا قليلا بعد هذا الحادث العابر ؛ فقد سرى التحرج بين الحاضرين جميعاً لا بسبب الحادث نفسه ، بل من

جراء شعور ثقيل لم يتحدث عنه احد ، وانما استشعره كلّ في نفسه وادركه في جاره . وانشدنا مايدانوف قصيدته ، فاندفع ماليفسكي يثني عليها بكثير من الحماسة ، فهمس لوشن في اذني : «ما اشد رغبته في ان يبدو كريم النفس الآن» . وما لبثنا ان تفرقنا ، فان زينابيدا قد استغرقت في التفكير ، والاميرة العجوز ارسلت من يقول انها تتالم من راسها ، واخذ نيرماتسكي يتشكى من روماتيزمه . . .

وتعصى عليّ النوم وقتاً طويلا فقد بهرتني قصة زينابيدا .

وساءلت نفسي : «هل قصدت ان تلمح بها الى امر ، فما هو المقصود ، ومن هو المقصود ؟ واذا كان ما لمحت اليه واقعاً بحذافيره فكيف اقدمت ؟ . . لا ، لا ، فان هذا مستحيل» ، – همست وانا اتقلب من خد متوقد الى آخر . . . ثم تذكرت ما ارتسم في وجه زينابيدا من تعبير وهي تروي قصتها . . . وصيحة لوشن التي اطلقها عفو لحظته في حديقة نيسكوتشني ، وما طرا فجاة من انقلاب على مسلكها تجاهي – وارهقتني الظنون «فيمن يكون ؟» .

كانت هاتان الكلمتان بالذات نصب عيني منقوشتين في الظلام ، وشعرت كان سحابة منخفضة مملوءة بالشر تخيم فوق راسي ، شعرت بضغطها وانتظرت ان تنفجر في اية لحظة . لقد تعودت كثيراً من الاشياء فى الآن الاخير ، ورايت كثيراً من الاشياء عند آل زاسيكين ، حيث : الفوضى ، واعقاب الشموع الذائبة ، والسكاكين المثلمة ، والشوكات المهتمّة ، وسحنة فونيفاتي العابسة ، ورثاثة الخدم ، وبدوات الاميرة العجوز . كل هذه الحياة الغريبة اصبحت لا تذهلني . . . ولكني لم استطع ان اتعود ما كان يبدو مستغلقاً في زينابيدا «المغامرة» – هذا ما قالته امي عنها ذات مرة ، ان هذه «المغامرة» معبودتي ، إلهتي ! لقد الهبتني هذه التسمية فالتمست الفرار منها باغراق وجهي في الوسادة . كنت مغيظاً . . . ولكني مهيأ في الوقت نفسه لكل تضحية وبذل ابهظ ثمن تلقاء ان اكون انا ذلك المحظوظ صاحب النافورة ! . .

كان دمي يغلي ويفور ، وفكرت : «الحديقة . . . النافورة . . . عليّ ان اخرج الى الحديقة» . وفي ومضة كنت ارتدي ثيابي وانسل من المنزل . كان الليل مظلماً ، والاشجار تتهامس في خفوت ، وبرودة هادئة تسقط من السماء ، ورائحة الشمّار تنبعث من

المبقلة . ذهبت ارتاد دروب الحديقة ، ووقع خطواتي يثير فيّ الرهبة والانتعاش في آن . كنت اتوقف وانتظر واصغي الى نبض قلبي وهو يخفق قوياً سريعاً ، واخيراً بلغت السور ، فاستندت الى احدى دعائمه الدقيقة . وفجأة شعرت – او لعل هذا ما توهمته – ان جسماً انثوياً على مبعدة بضع خطوات من موقفي ، قد انخطف مسرعاً . . . فحدقت في اعماق الظلام وانا احبس انفاسي . . . فما هذا ؟ اكان وقع خطواتي ، ام نبض قلبي ؟ وعدت أهمس : «من هناك ؟» ولكن ما هذا ايضاً ؟ اهو ضحك مكتوم ؟ . . ام حفيف اغصان ؟ . . ام انفاس تتردد في اذني ؟ لقد ملأ الرعب قلبي فهمست باطراف شفتي : «من هناك ؟»

تراوحت نسمة في خلال لحظة ، وبرق بارق في السماء ، وسقطت نجمة ، فهممت بان أسأل : «هل انت زينايدا ؟» ، ولكن الصوت اختنق في حلقي ، وجثم فجأة سكون عميق كهذا السكون الذي يلمّ كثيراً في دلج الليل . . . وصمت كل شيء حتى أزيز الجنادب في دغل الشجيرات ، ثم سمعت صرير نافذة ، ولم ابرح مكاني بل مكثت قليلا وعدت بعدئذ الى غرفتي والى فراشي البارد . كنت اضطرم بانفعال غريب : فكأنني ذهبت الى موعد لقاء ، بقيت فيه وحيداً ، ومررت عابراً بسعادة امرئ غريب .

١٧

لم استطع ان ارى زينايدا في اليوم التالي اكثر من لمحة مختطفة وهي تمر في عربة مع امها ، ورأيت لوشين ولكنه اختصر التحية ولم يتلبث ثم رأيت ماليفسكي ، فلبث الغراف الشاب يبتسم ويتحدث اليّ في ود ، كان الوحيد بين زبن الجناح الذي استطاع ان يندس علينا في المنزل وان يكون مقرباً من امي . كان أبي يستثقل ظله ويسرف في التأدب معه الى درجة الاهانة . وبدأ ماليفسكي قائلا :

– Ah, monsineur le page, * اني لسعيد بلقائك . ترى ماذا تفعل ملكتك الرائعة ؟

---

* آه ، يا سيدي الوصيف (بالفرنسية في الاصل) .

وبدا وجهه النضير الجميل مقرفاً في تلك اللحظة ، ونظرته ماجنة مستهترة بحيث امسكت دونه عن كل جواب .

ومضى يقول :

– ألا تزال غاضباً ، دع هذا العبث ، فما انا من لقبك بالوصيف ، فأن اصطناع الوصفاء من حق الملكات ، ولكن اسمح لي ان الفت انتباهك الى انك تهمل واجباتك .

– كيف ذلك ؟

– من واجبات الوصيف الاّ يفترق ابداً عن سيدته ، وعلى الوصفاء ان يحيطوا علماً بكل امر ، والاّ يجهلوا ما يجري في السر . – واضاف بصوت خافت : – وعليهم ايضاً ان يراقبوهن في النهار والليل .

– ماذا تريد ان تقول ؟

– ماذا اريد ان اقول ؟ ما بعد هذا الافصاح زيادة في الايضاح . ليل نهار ، في النهار بين بين لأنه مبصر بنوره وبالناس ، وانتظر الفجاءات في الليل ، وانصح لك بأن تسهر الليالي ، وان تراقب بعين مفتوحة . راقب بكل ما تملك من القوة ، وتذكر : الحديقة والليل والنافورة ، فهناك ينبغي لك ان تترصد ، ولسوف تشكرني .

ضحك ماليفسكي وهو يدير لي ظهره . ولعل الأرجح انه لم يكن يحفل كثيراً بما قال ؛ فالمعروف عنه انه مهذار لا يشق له غبار ، كان مشهوراً بخداعه الناس في الحفلات المقنعة يساعده ما هو عليه من زيف يتغلغل في كل طبيعته . . . اراد ان يعبث بي فقط ، ولكن كلماته سرت في عروقي كأنها السم ، وصعد الدم في راسي . . . وقلت لنفسي : «آ ، واذن هكذا ! طيب ! الامر اذن ان هواجسي امس كانت في محلها ، وان انجذابي الى الحديقة لم يكن من دون سبب !» فصحت وانا اقرع صدري بقبضة يدي : «هذا لن يكون !» ولم يكن في مقدرتي ان اعرف ما هذا الذي لن يكون . وفكرت : «لئن جاء ماليفسكي نفسه الى الحديقة (ولعله كان ينطق بالحقيقة ففي صفاقته ما يكفي لهذا) او كان القادم شخصاً آخر (كان سياج حديقتنا منخفضاً فلا يصعب على احد ان يتخطاه) فان من سيقع في يدي لن يلقى ما يشرح الصدر ، ولا انصح لاحد ان يتصدى لمواجهتي ، سأثبت للعالم كله ، ولتلك الخائنة (اجل سميتها ، الخائنة) انني قادر على الانتقام !»

عدت الى غرفتي وسحبت من درج مكتبتي سكيناً انجليزية كنت اشتريتها منذ وقت غير بعيد ، وتحسست شفرتها القاطعة ، ثم وضعتها في جيبي بحركة باردة حازمة وانا مقطب الجبين كانني صاحب سوابق عريق في نظائر هذا التدبير ، وقد توقد قلبي بالشر واصبح كالحجر ، وبقيت مقطب الجبين مكتزّ الشفتين حتى أقبل الليل ، أروح وأجيء ، ويدي في جيبي تقبض على السكين الدافئة ، وقد اعددت نفسي لأمر رهيب . شغلتني هذه الاحاسيس الجديدة حتى انها اشعرتني بالمرح ايضاً ، ورأيتني لا افكر في زينايبدا الا قليلا ، واطاف بي طيف الفتى النوري «اليكو» : «الى اين ايها الفتى الجميل ؟ — هيا توسد الارض . . .» (٨١) ثم : «انك خضبت بالدماء ! . . اوه ماذا فعلت ؟ . .» — «لا شيء !» ، وباي ابتسامة قاسية رددت هذه الكلمة : «لا شيء» . لم يكن ابي في البيت ، ولكن امي ، وكانت منذ ايام تقيم على حال دائمة من الانفعال المكبوت ، تنبهت لما يظهر في سحنتي من علائم الشؤم ، فسألتني وقت العشاء : «فيم انت عابس الوجه مثل الفار في الطحين ؟» فتلطفت عليها بابتسامة كانت فصل الجواب ، وانا اقول في نفسي : «آه لو انهم عرفوا !» دقت الساعة الحادية عشرة ، فذهبت الى غرفتي ، ولكني لم اخلع ثيابي ، بل انتظرت ان ينتصف الليل ، وما لبثت الساعة ان دقت ، فهمست لنفسي من خلال اسناني المطبقة : «حان الوقت !» ، وزررت سترتي حتى العنق ، وشمرت عن ساعدي ، وانطلقت نحو الحديقة .

كنت قد انتقيت المكان الملائم للترصد : ففي آخر الحديقة حيث يتصل السياج الذي يفصل بين عقارنا وعقار آل زاسيكين ، كانت تقوم شجرة شوح متوحدة ، فلو انني وقفت تحت اغصانها الكثيفة المنخفضة ، لتمكنت ان ارى ما يجري حولي بالمقدار الذي تسمح به ظلمة الليل ؛ فهنا يتلوى الطريق الذي كان يبدو لي محاطاً بالغموض ، ويتافعى ذاهباً تحت السياج ، وعليه في هذا الموضع آثار القافزين ، ثم يفضي الى عريش مستدير تتاهت اليه فروع من اشجار الاكاسية . عندئـــذ مضيت الى شجرة الشوح واستندت الى جذعها واخذت ارقب .

خيم على الليل سكون عميق يشبه ما خيم على الليلة الفائتة ؛ ولكن السماء بدت اقل ظلمة مما كانت امس ، فظهرت اطياف

الشجيرات وحتى الاطراف العالية من الازهار على نحو أوضح . مرت الدقائق الاولى من الانتظار مملولة بل مخوفة ايضاً ، كنت مستعداً لكل امر ، لا يشغلني الآن كيف ابدأ الهجوم : أأرعد صائحاً : «الى اين تذهب ؟ قف ! اعترف او تموت !» ام أطعن فقط . . . كان كل صوت ، وكل نامة من حفيف او هفيف يبدو لي مثيراً عجيبـــاً خارقاً . . . فاتحفزّ وانحني الى امام . . . ولكن مضى نصف ساعة ، ثم ساعة ، فهدأت فورة دمي وبردت ؛ وبدات ادرك ان عملي هذا عبث لا جدوى منه ، وانني سلكت على نحو يدعو الى الضحك ، وان ماليفسكي قصد الى الهزء بي ، وقد سرى ذلك كله في نفسي ، فغادرت مكمني ، وذهبت أجوس خلال الحديقة . وبدا كان في الامر قصداً لا صدفة ، فقد اشتمل السكون كل شيء ، فما يلتقط السمع نبرة ولا نامة ، بل حتى كلبنا تكوّر منطوياً على نفسه عند باب الحديقة وغطّ في النوم . ثم تسلقت الدفيئة المتهدمة وارسلت بصري من عليائها الى الحقول البعيدة ، وخطر ببالي التقائي بزينايبدا فسرح ذهني . . .

وتفزت فجاة . . فقد شبّه علي انني سمعت صرير باب يفتح ويتبعه على الاثر صوت غصن يتقصف في خفوت ؛ فرايتني ابلغ الارض بوثبتين واجمد في مكاني . فهناك خطوات سريعة خفيفة ولكنها محاذرة كانت تخفق واضحة وتدب في الحديقة . . . اخذت تقترب مني ، فومض في قلبي : «انه هو ، ها هو ذا اخيراً !» وسحبت السكين من جيبي بيد يرعشها الانفعال ، وفتحتها مهتزاً والشرز الاحمر يتطاير من عيني ، وقـــد قفّ شعر راسي من الخوف والغضب . . . وزادت الخطوات اقتراباً مني ، فتربصت ، وهممت بها . . . فتراءى لي شخص . . . ولكن يا إلهي ! كان الرجل ابي !

عرفته في الحال على الرغم من معطفه الاسود الذي اسبغه على جسمه ، ومن قبعته التي شدها على وجهه ، واجتاز بي على اصابع قدميه . لم يكن هناك ما يحجبني ، ولكنه لم يلحظني . ذلك لانني انكمشت وتضاءلت حتى لكأنني وطاة من الارض . وتحول عطيل الغيران الظمآن الى الدم ، دفعة واحدة ، الى مجرد تلميذ . . . لقد افزعني ظهور ابي المفاجئ ، حتى انني ذهلت للوهلة الاولى فلم الحظ من اين جاء واين اختفى ، ولما عاد السكون يمد رواقـــه حولي ، شددت قامتي وتساءلت : «فيـــم جاء الاب يسير ليلا

في الحديقة ؟» . كانت السكين قد سقطت مني في العشب أثناء الوهل ، ولكني لم اذهب في البحث عنها جرّاء ما اعتراني من شعور طاغ بالخجل . لقد افقت لنفسي دفعة واحدة ، ولكني عجت في طريق العودة الى البيت على دكتي تحت شجيرة الطلح ، وارسلت بصري الى نافذة الغرفة التي تنام فيها زينايبيدا ؛ لم تكن النافذة كبيرة ، كان زجاجها المستدير قليلا يبدو ازرق اغبش تحت النور الضعيف الذي يسقط من غسق السماء . وفجأة اخذ لونه يتغير . . . ووراءه كان ستار ابيض ينزل – لقد رأيت هذا ، رأيته واضحاً بأم عيني – واستمر ينزل في بطء وهدوء حتى بلغ حافة النافذة ، ثم سكن عن الحركة .

حينما صرت الى غرفتي رأيتني اقول بصوت مرفوع : – ما هذا ؟ أكان ما كان حلماً أم مصادفة أم . . . – لقد ازدحمت الظنون بغتة في راسي ، وكانت جديدة غريبة بحيث تعصّى عليّ ان أركن اليها .

١٨

استيقظت في الصباح براس موجوع ، وقد زال ما اعتراني في الليل من الانفعال ، وتبدل بشعور من دهشة ثقيلة ومن كآبة لم اعرف مثلها من قبل ، فكان شيئاً يموت في نفسي .

وقال لوشن حينما التقينا :

– لماذا تنظر كالأرنب الذي نزع عنه نصف مخه ؟

جعلت استرق النظر في اثناء الفطور تارة الى أمي وتارة الى ابي ، فكان هو في مالوف عادته من الهدوء ، وهي في مالوف عادتها من الغيظ المكتوم . وانتظرت ان ياخذ ابي معي في حديث ودود مما يجري مثله بيننا في بعض الاحيان . . . ولكنه لم يتكرم عليّ بملاطفته اليومية الباردة . وقلت في نفسي : «هل احدث زينايبيدا بكل شيء ، فالامر سواء ما دام كل شيء قد انتهى بيننا» . وذهبت اليها ، ولكن لم يتفق لي ان اتكلم معها على امر ، بل ما تاح لي ان اتحدث معها على حدة كما رغبت . فقد كان ابن الاميرة الحميم قد وصل قادماً من بطرسبورغ لتمضية العطلة ، وهو تلميذ في المدرسة

العسكرية في الثانية عشرة من عمره ، فعهدت اليّ زينايبيدا بامر اخيها قائلة :

– اليك بهذا الرفيق يا حبيبي فولوديا (هذه اول مرة تناديني على هذا النحو) ، اسمه فولوديا أيضاً ، ارجو ان تحبه ، انه لا يزال وحيشاً * ولكن قلبه طيب . اخرج للتجول معه في حديقة نيسكوتشني ، او للنزهات ، فاني أعهد به الى رعايتك ، فهل تفعل ؟ انك لطيب على ما أعرف .

ووضعت يديها على كتفي بلطف فتضعضعت وضعت . لقد اعادني قدوم هذا الصبي الى عهد الصبا ؛ ونظرت صامتاً اليه ، وكان يحدق فيّ صامتاً ، فقهقهت زينايبيدا ودفعت بنا أحدنا نحو الآخر ، وقالت :

– هيا تعانقا أيها الطفلان !

فتعانقنا .

وسألت الصبي :

– اتريد ان أقودك الى الحديقة ؟

فأجابني بنبرة جشّاء ولهجة تلميذ نظامي :

– تفضلوا اذا سمحتموا .

فعادت زينايبيدا تضحك . . . فلاحظت ان وجهها لم يكن أبداً على ما كان عليه من الاشراقات البديعة . وانطلقت ذاهباً مع الصبي . كان في حديقتنا ارجوحة قديمة ، فاصعدته على مقعدها الخشبي الضيق ، وجعلت اؤرجحه وهو جالس من دون حركة ببدلته النظامية الجديدة المفصّلة من قماش سميك والمزينة بشرائط ذهبية عريضة ، وقد تشبث بالحبال في قوة .

قلت له :

– لماذا لا تحل ياقتك ؟

فقال وهو يجلو حلقه :

– لا باس ، فنحن تعودنا .

كان يشبه اخته ، وقد ذكرتني عيناه خاصة بعينيها ، فابهجني ان اعنى بشؤونه ، كنت مؤوداً في الوقت نفسه بحزن دفين يمضّ في قلبي ، وفكرت : «اني الآن لا أزيد عن طفل ، واما امس . . .» وتذكرت اين سقطت مني السكين فوجدتها ، وطلب الصبي ان

* المقصود انه لم يألف المجتمعات من الناس . **المعرب** .

أعيره اياها ، ثم انه قطع ساقاً غليظة من القصب فصنع مزماراً وجعل ينفخ فيه ،، وكذلك فعـــل عطيل فكان له دوره في الزمير أيضاً .

ولكن هذا العطيل بكى في ذلك المساء بكاء شديداً على ذراعي زينايبيدا حينما عثرت عليه في ركن الحديقة وسألته عما يحزنه . لقد انهمرت دموعي بغزارة افزعتها فسألتني :

— ماذا بك ، ماذا بك يا فولوديا ؟ — أعادت سؤالها بقوة فلما راتني لا أجيب ولا أنقطع عن البكاء ، ارادت ان تقبل خدي النديّ ، ولكني استدرت عنها بوجهي وانا اتمتم من خلال الزفرات :

— اني اعرف كل شيء ، فلماذا عبثت بي ، وما الذي احوجك الى بعث هذا الحب في قلبي ؟

فقالت زينايبيدا :

— اني مذنبة تجاهـــك يا فولوديـــا . . . آه ، ان ذنبي لعظيم . . . — أعادت قولها وهي تضم يديها — ما أكثر ما أنطوي عليه من الشر والظلمة والأثم . . . ولكني الآن لا اعبث بك ، فانني احبك وانت لا تتصور لماذا ، وكيف . . . ولكن . . . ما هذا الشيء الذي تعرفه ؟

ماذا بمقدرتي ان اقول لها ؟ كانت واقفة امامي لا ترفع بصرها عني ، كنت مملوكهـــا من راسي الى قدمي تلقاء هذه النظرات اليّ . . . وبعد انقضاء ربع ساعة كنت أجري مع الصبي وزينايبيدا في سباق ؛ لم أكن ابكي ، بل كنت اضحك ، وكان الضحك يستنفر دموعي فتطفر من اجفاني المتورمة ، وقد استبدلت من ربطة عنقي شريط زينايبيدا ، كنت اصرخ من السعادة كلما تمكنت من اللحاق بها وتطويق خصرها ؛ لقد كانت قادرة على ان تفعل بي ما شاءت .

١٩

أصعب ما يصعب عليّ أن اروي بالتفصيل ، لو طلب احد ذلك ، كل ما عانيته طوال الاسبوع الذي تلا تلك الرحلـــة الاستطلاعية الليلية الخائبة ، فقد كانت اياماً غريبـــة محمومة ، اختلطت فيهـــا النقائض من المشاعر والافكار والظنون والآمال

والاحزان واخذت تدور في دوامة . لكان يفزعني ان انظر في ذات نفسي لو أن بمقدرة صبي في السادسة عشرة من عمره أن ينظر في ذات نفسه . كنت اخاف ان اناقش نفسي الحساب عما كان ، ولا افعل الا ان استدفع النهار واستعجل المساء . اما في الليل فكنت انام ، وقد ساعدتني غرارة سني . كنت لا أريد ان أعرف هل كانت تحبني ، ولا اريد ان اعترف لنفسي بانها لا تحبني ؛ وقد التمست كل مهرب من ابي ، أما التهرب من زينايبيدا فكان فوق طاقتي . . . كنت اضطرم كالنار وهي مني على قرب . . . ولم يهمني ان اعرف ما هذه النار التي احترق فيها واذوب ما دمت ألتذّ ما اشعر به من احتراق وذوبان . كنت مستسلماً لكل انفعال مما يلم بي ، اخدع نفسي ، واعرض عن الذكريات ، واغمض عيني عن هموم الغد . . . ولكن ما كان لهذا الشقاء ان يستمر وقتاً طويلا . . . فقد قصفته ضربة قاصمة قضت عليه جميعاً ودفعت حياتي في مجرى جديد .

عدت ذات يوم وقت الغداء بعد نزهة طويلة ، ففوجئت بمن اخبرني بانني سأطعم وحيداً ، فقد سافر أبي ، واعتزلت امي في غرفة نومها وهي موعوكة لا تشتهي ان تأكل . ولكن ادركت من وجوه الخدم ان واقعة غير عادية قد وقعت . . . لم اجرؤ على استجوابهم بالاسئلة ، ولكن كان لي فيهم صديق وهو الساقي الشاب فيليب ، وكان مولعاً بالشعر وبالعزف بالقيثارة ، فعلمت منه حين استجوبته ان مشاجرة مروعة شجرت بينهما (امكن الاستماع لكل كلمة في غرفة الوصيفات وكان الحديث أكثره بالفرنسية ، ولكن القهرمانة ماشا قضت خمس سنين من حياتها لدى خياطة من باريس فكانت تفهم ما يدور منه) ، وان امي قد اتهمت ابي في أمانته الزوجية ، وبانه على صلة موصولة بالجارة الصبية ، وكان ابي يتبرأ من التهمة في اول الامر ، ولكنه غضب ايضاً بدوره ، ورماها بكلمة وجيعة ، «لعلها عن عمرها» ، فبكت امي ، وذكرته بأمر كمبيالة أعطيتهـــا الاميرة العجوز ، وتحدثت عنها وعن الآنسة ايضاً بأشد السوء ، وعندئذ استشاط ابي غضباً عليها . ثم اضاف فيليب قائلا :

— ولكن هذا البلاء كله انما وقع بعد رسالة خالية مـــن التوقيع ، كتبها مجهول ، فانكشف بها الغطاء ، ولولاها لما كان هناك دليل .

فقلت بصوت متعب ، وقد شاعت برودة في اطرافي وسرت رعدة في اعماق صدري :

– هل أردت ان تقول ان امراً قد حدث ؟

فغمز فيليب غمزة ذات معنى وقال :

– لقد حدث ، فهذه امور لا تخفى ، وقد كان ابوك في هذه المرة شديد الحذر ، ولكن لا يخلو الامر ، مثلا : تدبير عربة او شيء من هذا القبيل . . . ولا يمكن الاستغناء عن الناس في هذه الحالة .

صرفت فيليب ، وارتميت على الفراش . لم اشهق بالبكاء ، ولا استغرقت في القنوط ، ولا تساءلت متى حدث ذلك وكيف ، ولا دهشت من اني لم افطن الى الامر منذ وقت بعيد ، بل اني لم اعذل ابي بلومة . . . كل ما اعلمته كان فوق ما اطيق : لقد سحقتني هذه المكاشفة . . . فانتهى كل شيء . وها هي ازهاري مقتلعة من الجذور ، مبعثرة فيما حولي تحت مواطئ الاقدام .

٢٠

أعلنت امي في اليوم التالي أنها راحلة الى المدينة . فدخل ابي عليها في الصباح غرفة نومها ، وجلس اليها وقتاً طويلا . لم يسمع احد ما قال لها ، ولكن امي انقطعت عن البكاء ، واشتملتها السكينة ، وامرت بان يأتيها الطعام من دون ان تظهر في غرفة الطعام او تلغي قرارها . واذكر انني قضيت النهار في التجول ، ولكني لم اطرق الحديقة ، ولا القيت نظرة على الجناح . وفي المساء رايت مشهداً أدهشني : كان ابي يأخذ الغراف ماليفسكي من ذراعه ويعبر به الصالة الى المخرج ويخاطبه في برودة على مراي من الوصيف قائلاً : «منذ بضعة ايام مضت ، حدث في أحد البيوت ان دلوا سيادتكم على الباب ، والآن لا أريد ان اخوض معكم في الايضاحات ، ولكني اتشرف بابلاغكم بانه اذا خطر لكم ان تتفضلوا بزيارتي مرة اخرى ، فسارميكم من النافذة . ان خطكم لا يعجبني» . فانحنى الغراف ، وكزّ باسنانه ، واصطنع المسكنة ، واختفى .

بدأت الاستعدادات للانتقال الى المدينة حيث كان لنا منزل في شارع آربات ؛ واغلب الظن ان ابي نفسه أصبح راغباً عن المكثان في الدارة ، ولكن كان من الواضح انه افلح في اقناع امي بان تحسم الحكاية . وجرى كل شيء في هدوء من دون استعجال ، بل ان امي امرت بمن يبلغ الاميرة العجوز تحيتها والاعتذار عنها بان صحتها الموعوكة لا تساعدها في ان تمر بها مودعة قبل الرحيل . اما انا فقد كنت اتجول كالماخوذ ، لا اتمنى الا امراً ليس غير ، وهو ان ينتهي هذا كله بسرعة . فكرة واحدة لم يتهضمها عقلي ، وهي : كيف امكنها ، وهي الفتاة الشابة – والاميرة على كل حال – ان يخطر لها هذا المسلك ، على الرغم من علمها ان ابي امرؤ غير طليق ، وفي قدرتها ان تتزوج لو ارادت ، فها هو ذا بيلوفزوروف على سبيل المثال ؟ فعلى اي اساس اقامت املها ؟ افلم تخش ان تهدم مستقبلها جملة ؟ وقلت في نفسي : أجل ، هذا هو الحب ، هذا هو الهيام ، هذا هو الوفاء . . . وخطرت ببالي كلمات لوشن : ان التضحية بالنفس مستعذبة عند البعض . ولمحت عيني في تلك الاثناء بقعة بيضاء تراءت في احدى نوافذ الجناح . . . ففكرت : «اليس هذا وجه زينايدا ؟» . . . كان ذلك وجهها من دون ريب ، فانتفى عني الصبر ، ولم احتمل رحيلا عنها من غير كلمة وداع ، فانتهزت فرصة سانحة وذهبت اسعى الى الجناح .

في غرفة الاستقبال طالعتني الاميرة العجوز على عادتها من ثقل الدم والاستهتار ، وسالتني وهي تدس السعوط في فتحتي انفها :

– ما هذا يا شيخي ، ان جماعتك قد ابكروا في اهتمامات الرحيل ؟

نظرت اليها فانزاح عبء عن قلبي ، فان كلمة كمبيالة التي قالها فيليب كانت تثقلني ، ولكن الاميرة العجوز كانت خالية البال مما حدث ، او لعل هذا ما تراءى لي آنذاك . واقبلت زينايدا من الغرفة المجاورة في ثوب أسود ، ووجه شاحب ، وشعر محلول . من غير كلام ، امسكت بيدي ، وقادتني الى غرفتها ، وابتدأتني قائلة :

– سمعت صوتك فاتيت من فوري ، فهل من اليسير عليك ان تهجرنا ايها الولد الشرير ؟

فاجبت :

– جئت اودعك يا اميرة ، واغلب الظن انه وداع الى الابد ، ولعلك سمعت اننا عائدون .

فاخذت زينايبدا تمعن النظر في وجهي :

– نعم ، سمعت ، واشكر لك هذه الزيارة ، كنت اظن انني لن اراك ، اذكرني بالمعروف ، ولئن أسأت اليك في بعض الاحيان ، على كل حال لست تلك التي تداخلك فيها الظن .

استدارت واستندت الى حافة النافذة .

– الحقيقة اني لست كذلك . ولا أجهل انك تسيء بي الظن .

– أنا ؟

– أجل ، أنت . . . أنت .

– انا ؟ – كررت القول في شجى ، وقد ارتعش قلبي كما في الماضي تحت تأثير سحرها الغلاب الذي يتعصّى على الوصف . – انا ؟ صدقيني ، يا زينايبدا الكسندروفنا ، ومهما يكن مما فعلت وعذّبت ، فاني سأحبك واعبدك حتى آخر يوم من حياتي .

فاستدارت بسرعة ، واقبلت بذراعين مفتوحين على رحبهما ، فحاطت بهما راسي ، وقبلتني بقوة وحرارة ، ولا يعلم الا الله من كان المقصود بهذه القبلة الوداعية الطويلة ، ولكني انتهلت من عذوبتها في نهم ، وانا اعرف انها لن تتكرر على الاطلاق .

واعدت بقوة :

– وداعاً ، وداعاً . . .

فانتزعت نفسها وذهبت ، فخرجت في اثرها . ليس في طوقي ان اصف ذلك الشعور الذي ملأ نفسي لحظة انصرافي ، ولا اتمنى ان يتكرر في يوم من الايام ، ومع هذا ما كنت احسب نفسي في السعداء لو انني لم أُمتحن بهذه التجربة .

عدنا الى المدينة ؛ ولكن البرء من الماضي لم يكن سريعاً ولا كان اقبالي على العمل سريعاً ، فقد كانت جراحي تندمل في بطء ، ولكن نفسي لم تضمر ولو مثقال ذرة من الضغن على ابي ، بل على العكس : لقد كبر في عيني . . . وليعلل علماء النفس هذا التناقض كما يشاؤون . في ذات مرة كنت اتجول في البولفار ، فكانت سعادتي تفوق الوصف حينما صادفت لوشن ، فقد كنت احبه اعجاباً باستقامته وصراحته ، وكان عزيزاً بما يوقظه في نفسي من

الذكريات ، فاندفعت اليه حينما رايته فقال وهو ينظر اليّ بحاجبين مقرونين :

– آها ، أهذا أنت يا فتى ؟ دعني أتبين احوالك . انك بعامة لا تزال ازغب الوجه ، ولكن تلك الكآبة القديمة زالت من عينيك ، وانت الآن انسان ولست كلب غرفة ، هذا حسن . والآن قل لي ، هل اخذت في العمل والجد ؟

فتنهدت ، لأني تأبيت عن الكذب ، واستحييت من قول الحقيقة .

فقال لوشن :

– لا بأس عليك تشجع ، فان الاساس أن تكون حياتك طبيعية ، والاّ تتجاذبك الاهواء . فان هذا لا طائل فيه ، والسوء كل السوء ان ينجرف المرء حيث تجرفه الموجة ، على المرء ان يقف على قدميه ما دام له ولو حجر يعتمد عليه . انظر ما انا فيه ، اني اسعل . . . عن بيلوفزوروف – هل سمعت شيئاً ؟

– لا ، فماذا حدث له ؟

– اختفى فلا أثر ولا خبر ، ويقال إنه رحل الى القوقاز (٨٢) . هذا درس لك أيها الشاب . وكل ذلك يتأتى لمن لايستطيع حين يازف وقت الرحيل ان يتخلص من الشبكة . ويخيل اليّ على ما اظن أنك تخلصت . احذر ان تقع وقعة أخرى . وداعاً .

فقلت في نفسي : «لن اقع ، ولن اراها بعد اليوم» .

ولكن قدر لي ان ارى زينايبدا مرة أخرى .

٢١

كان ابي يخرج كل يوم الى الطراد ، وكان عنده جواد انجليزي اصيل ممتاز ، طويل العنق ، كميت ، دقيق القوائم ، قوي جموح يسميه «اليكتريك» . وكان صعب المراس لا تلين صهوته لراكب غير ابي . دخل عليّ ذات يوم غرفتي وهو في مزاج رائق ما عهدته فيه منذ وقت بعيد . كان على اهبة الركوب وقد وضع في حذائه مهمازين ، فالتمست منه ان يستصحبني ، فأجابني قائلا :

– الافضل لك أن تلعب بالنطة ، فانك لا تستطيع ان تجري معي وتجاريني بقزمك .

– بلى استطيع ، وساضع مهمازي .

— طيب تعال .

وخرجنا . كنت على جواد أشعث ، أدهم ، متين القوائم ، خفيف الحركة ؛ كان ينبغي له في الحقيقة ان ينطلق باقصى ما تسعفه قوائمه ليجاري «اليكتريك» في سيره الخبب ؛ ولكني لم اتخلف عن اللحاق في كل حال . وكان ابي فارساً لم تقع عيناي على نظيره ، فهو يستوي على الصهوة في جمال ورشاقة ، حتى ليبدو ان الجواد نفسه يشعر بهما ويرفع رأسه مزهواً بفارسه . وذهبنا نرود الشوارع المشجرة ، ثم طفنا حول منطقة «ديفيتشيه بوله» (٨٣) ، وتواثبنا على بعض الحواجز (الحقيقة انني فزعت من الوثوب اول الامر ، ولكني اقدمت عليه لأن ابي كان يزدري المفزّعين) . وعبرنا نهرموسكو مرتين ، فظننت اننا في طريقنا الى البيت ، ورجح هذا الظن حينما لاحظ ابي أن حصاني متعب ، ولكنه مال بجواده فجاة نحو مخاضة كريمسكي (٨٤) وانطلق على حفّ الشاطئ ، فانطلقت وراءه حتى ادركته عند كومة من الكتل الخشبية القديمة ، وعندئذ وثب عن «اليكتريك» في خفة ، وامرني بأن اترجل في إثره ، والقى الي بعنان جواده ، وقال بأن عليّ ان انتظره هنا عند كومة الخشب ، واما هو فقد مال على طريق فرعي ضيق واختفى . فاخذت اذرع شاطئ النهر ذاهباً جائياً وانا ممسك باعنّة الجوادين ، غير منقطع عن زجر «اليكتريك» الذي لم تهدأ له حركة ، فهو بين حران وجماح وتوثب واهتزاز ونخير وصهيل ، فاذا وقفت به وقف يفحص الأرض بحافره ، وجعل يصهل ويعض جوادي في رقبته ؛ والخلاصة كان يحسب نفسه في المدللين ويأخذ بسلوك اصحاب pur sang * كل ذلك ولما يعد ابي . هبت من النهر رطوبة مؤذية ، وتساقط مطر خفيف فانداحت قطراته في بقع محبرة صغيرة على تلك الكتل الخشبية الرمادية البليدة التي كنت ادور حولها متسكعاً حتى سئمتها . وهيمنت عليّ الكآبة ، ولكن ابي لم يعد . كان هناك حارس من ابناء الشمال ، كله رمادي ايضاً ؛ فوق رأسه خوذة ، وفي يده رمح (لم يكن في الخاطر ان يوضع حارس على شاطئ نهر موسكو !) وما لبث أن أقبل عليّ ، وطالعني بوجهه العجز وهو جلدة على عظم ، وسألني :

* الدم الازرق والاصل الاصيل (بالفرنسية في الاصل) .

— ماذا تفعل هنا ومعك الخيل يا سيدي الشاب ؟ هات المقاود عنك .

لم أجبه ، فطلب مني شيئاً من التبغ ، وكنت ابتغي الخلاص منه (ثم ان صبري قد نفد) ، فمشيت بضع خطوات في الاتجاه الذي ذهب فيه ابي ، ومضيت في الشارع الفرعي حتى بلغت آخره ، وانعطفت وراء زاويته ووقفت أنتظر . في الشارع على مبعدة أربعين خطوة مني ، قرب نافذة مفتوحة من بيت خشبي صغير ، كان أبي يقف ، وظهره الى ناحيتي ، وقد اتكأ بصدره على حافة النافذة . في البيت جلست امرأة في ثوب غامق ، يحتجب نصف جسمها وراء الستار ، وأخذت في حديث مع ابي ؛ وكانت هذه المرأة هي زينايبدا .

جمدت في مكاني . ولأعترف باني لم اتوقع ان ارى ما رايت في اي حال ؛ واتجهت حركتي الاولى نحو التماس سبيل الفرار ، وفكرت : «لو أن أبي التفت الى وراء لدهتني داهية . . .» ولكن شعوراً غريباً ، كان أقوى من الفضول واعظم من الغيرة ، واشد من الخوف ، اوقفني . فوقفت ارى واسمع . كان يبدو ان ابي يطلب امراً ، وزينايبدا ترفض هذا الامر . وكأنني أرى وجهها الآن ، كما رايته وقتذاك ، فهو محزون رصين جميل ، فيه معنى يتعذر وصفه من الاستسلام والأسى والحب ، ومن شيء آخر لعله القنوط — فما استطيع أن أجد غير هذه الكلمة . كانت لا تنطق الا بكلمات موجزة ، ولا ترفع عينيها ، ولكنها تبتسم في خضوع وعناد ، كنت قادراً على ان اتبين زينايبداي القديمة من هذه الابتسامة وحدها . ورأيت أبي يهز كتفيه ويعدل وضع قبعته ، وهي عنده علامة تدل على فراغ الصبر . . . ثم سمعته يقول :

— . . . Vous devez vous Séparer de cette * — فاعتدلت زينايبدا ومدت ذراعها الى امام . . . وفجاة شهدت عيناي مشهداً يبعث على الذهول : فقد رفع أبي السوط الذي يستعمله في الركوب وكان ينفض به معطفه ، وسمعت بغتة ضربة قاسية على ذلك الذراع العاري . فامسكت نفسي عن الصراخ ؛ ولكن زينايبدا ارتعدت ، ونظرت الى ابي صامتة ، ورفعت يدها ببطء الى شفتيها وقبلت

* عليك ان تنفصلي عن هذه (بالفرنسية في الاصل) .

الأثر الدامي الذي تركه السوط . فرمى أبي السوط من يده ، وانطلق يصعد في درجات المدخل ، واقتحم البيت . . . فابتعدت زينايبدا أيضاً عن النافذة ، واقبلت عليه مفتوحة الذراعين ، وراسها ملقى الى وراء .

ارتميت مرتداً على اعقابي في ذهول راعب هدّ عزيمتي وخلع قلبي ، ثم انطلقت اعدو هارباً في الطريق يكاد يفلت من يدي مقود «اليكتريك» ، ورجعت الى شاطىء النهر ، وانا عاجز عن جمع شتيت نفسي . كنت اعرف ان ابي قد يخرج عما فيه من برودة ورصانة مسوقا بنوبات مفاجئة من الغضب والهياج ، ولكني عجزت عن ان افهم هذا الذي رايته . . . غير اني شعرت في الوقت نفسه بانني مهما قدر لي ان اعيش ، فلن أنسى من زينايبدا تلك الحركة والنظرة والابتسامة ، وان صورتها التي برزت لي فجاة في هذا المظهر الجديد ستبقى في ذاكرتي الى الأبد . كنت أنظر من دون تفكير في النهر ، غير شاعر بان الدموع تنحدر على خدي ، وانا اقول في نفسي : «انه يضربها . . . يضربها . . . يضربها . . .»

ثم سمعت صوت ابي من ورائي يقول :

– ماذا بك ؟ هات ناولني الجواد .

فمددت اليه يدي بالعنان في حركة آلية ، فوثب على صهوة «اليكتريك» . . . فشب الجواد المقرور وقفز الى الامام مقدار قامة ونصف القامة . . . ولكن ابي اسرع الى كبحه ، فهمزه في خاصرتيه ، وضربة بقبضة يده في عنقه . . . وتمتم : «آه ! لا سوط معي» .

فتذكرت ما كان منذ قليل من فحيح هذا السوط نفسه ومن ضربته ، فارتجفت ، وسالت أبي بعد قليل :

– وماذا فعلت به ؟

فلم يجبني أبي ، بل اندفع الى امام ، فلحقت به ، فقد استبدت بي رغبة في النظر الى وجهه ؛ فقال من خلال اسنانه :

– هل سئمت الانتظار من دوني ؟

– بعض الشيء . – وعدت أساله : – أين سقط منك سوطك ؟

فرمقني ابي بنظرة مختطفة وقال :

– لم يسقط مني بل رميته .

واطرق مستغرقاً في التفكير . . . وعندئذ رايت اول مرة بل آخر مرة على الاكثر اي مقدار من الرقة والحنان يمكن لقسمات وجهه الصارمة أن تعبر عنه وتفصح .

وعاد يركض جواده ، ولكني لم استطع ان الحق به ، فوصلت الى البيت بعده بربع ساعة .

في تلك الليلة ، رايتني اقول لنفسي مرة اخرى ، وانا جالس الى مكتبي الذي بدات تتركم عليه الدفاتر والكتب : «هذا هو الحب ، هذا هو الهيام ! فما كان ليخطر على البال ان يقدر امرؤ على الاذعان لضربة مهما كان مصدرها . . . ومهما كانت اليد التي ضربتها حبيبة ! ولكن يبدو ان هذا ممكن ، حينما تحب . . . اما انا . . . فكنت أتصور . . .»

انضجتني حوادث الشهر الاخير في السن – فبدا غرامي بكل ما فيه من الانفعالات والاشجان شيئاً صغيراً طفلياً ضئيلا تجاه ذلك الآخر ، ذلك المجهول الذي استطعت ان استشف أمره بالظنون فقط ، والذي ملأني رعباً ، فكانه وجه غير معروف ، جميل ولكنه مكتئب ، يقصر السعي مهما بلغ من القوة عن تعمق ملامحه في الغبشة .

ورايت حلماً غريباً مخوفاً في تلك الليلة نفسها . تراءى لي انني ادخل غرفة مظلمة منخفضة السقف . . . وابي واقف هناك في يده سوط وهو يخبط الارض بقدميه . وفي الزاوية قبعت زينايبدا لم يكن الاثر الاحمر في يدها بل في جبينها . . . ومن ورائهما ينهض بيلوفزوروف ملطخاً كله بالدماء ، ويفتح شفتيه الشاحبتين بوجه ابي متوعداً مغيظاً .

بعد شهرين دخلت الجامعة ، وبعد ستة اشهر فارق أبي الحياة (عقب نوبة قلبية) في مدينة بطرسبورغ بعد وقت قصير من انتقالنا اليها ، ابي وامي وانا . وقبيل بضعة ايام من موته تلقى رسالة من موسكو حملت اليه قلقاً شديداً . . . فذهب الى امي يلتمس منها شيئاً ، ويقال إن ابي ، نعم أبي ، قد بكى ! وفي نفس الصباح الذي اصيب فيه بالنوبة ، شرع يكتب اليّ رسالة باللغة الفرنسية قال فيها : «يا ولدي ، تحرّز من حب المراة ، تحرز من هذه السعادة ، من هذا السمّ . . .» وبعد وفاته ، بعثت امي الى موسكو مقداراً لا يستهان به من النقود .

٢٢

مضت اربع سنين ، وكنت قريب العهد بالتخرج من الجامعة ، ولكني لم أكن قد عرفت على التحديد بم يحسن لي أن أبدأ ولا اي باب أطرق ، فكنت اقضي الوقت من دون عمل . وفي ذات مساء ، التقيت مايدانوف في المسرح ، فعلمت انه أفلح في الزواج ، وانه يعمل في وظيفة حكومية ، ولكنني لم الاحظ فيه اي تغيير ، فلا يزال على ما كان ، ينبهر بصغائر الامور ويصاب بنوبات مفاجئة من الخور . وقال لي في عرض كلامه :

– أتدري ان السيدة دولسكايا هنا ؟

– ومن هذه السيدة دولسكايا ؟

– هل نسيت ؟ انها من كانت تسمى الاميرة زاسيكينا ، وكنا جميعاً متيمين بحبها ، وانت معنا ايضاً . الا تذكر ايام الدارة القريبة من حديقة نيسكوتشني ؟

– وهل تزوجت من دولسكي ؟

– نعم .

– وهل هي هنا في المسرح ؟

– لا ، انها في بطرسبورغ ، وقد جاءت منذ بضعة ايام . وتتهيأ للسفر الى خارج البلاد .

– وما طرز هذا الزوج ؟

– فتى رائع ، وذو ثراء ايضاً ، ومن زملائي بالوظيفة في موسكو . معلومك ، بعد تلك الحكاية . . . ولا بدّ ان هذا كله معروف لديك كل المعرفة . . . (وابتسم مايداتوف ابتسامة ذات مغزى) لم يكن من اليسير عليها ان تدبر أمر نفسها ، فقد كان للحكاية ذيل . . . ولكن امرأة في ذكائها قادرة على كل شيء . اذهب اليها ، فانها ستكون مسرورة بزيارتك ، ثم انها زادت جمالا على جمال .

اعطاني مايدانوف عنوان زينايدا ، وكانت تقيم في فندق «ديموت» (٨٥) . وانبعثت ذكرياتي القديمة . . . فآليت على نفسي أن أزور «صاحبتي» القديمة في اليوم التالي . ولكن حدث ما استأخرني ، ففات اسبوع ، وتلاه اسبوع آخر ، ولما ذهبت اخيراً

اسأل في فندق «ديموت» عن السيدة دولسكايا اعلمت انها ماتت منذ اربعة ايام جراء عسرطارئ في الولادة .

لقد شعرت بما يشبه الصدمة في قلبي ، وكانت الفكرة بانني كنت قادراً على رؤيتها ، ولم أرها ، وانني لن أراها ابدا ، هذه الفكرة المرة كانت تنهش في نفسي بكل قوتها وتبهظني بتأنيبها الثابت القاطع . ورددّت : «ماتت !» وانا انظر ذاهلا الى بواب الفندق ، وانسحبت الى الشارع ، ومضيت لا أدري الى اين اذهب . لقد انبعثت احداث الماضي وانتصبت جميعاً امامي ، ورأيتني أفكر : «تلك هي نهاية المطاف ، وهذا هو المصير الذي كانت تسعى اليه في استعجال واضطراب تلك الحياة الفتية الحارة اللامعة !» واستعدت في ذهني تلك القسمات الغالية ، تلك العيون ، تلك الخصل – ترقد في صندوق ضيق تطويه الارض الرطبة المظلمة – غير بعيد عني أنا الذي لا أزال حياً ، بل لعلها ان تكون راقدة على بضع خطوات من ابي . . . فكرت في هذا كله ، وحصرت فكري فيه . وفيما بين ذلك رنت في نفسي هذه الكلمات :

شفاه غير مكترثة نقلت اليّ خبر الموت
وانا ، من دون اكتراث ، اصغيت . . .(٨٦)

آه لك ايها الشباب ! انك طليق لا تبالي بشيء ، فكأنك تملك كنوز الدنيا ، بل حتى الاحزان تزدهيك وتليق بوجهك . انك تقول وانت واثق بنفسك معتدّ بها : انظروا اليّ ، فأنا فقط من يعيش ، على حين تمضي ايامك ثم تتلاشى فلا اثر ولا ثمر ، ويختفي كل ما فيك ، كما الشمع في وهج الشمس ، وكما الثلج . . . وقد يكون السر فيما انت عليه من السحر ، لا يكمن في قدرتك على تحقيق ما تريد ، وانما في قدرتك على الايمان بانك قادر على تحقيق ما تريد ، وأن جوهره على الخصوص في استهتارك بتلك القوى التي تذريها في الريح حينما لا تجد لها منصرفاً آخر ، وفي أن كل فرد منا لا يعتقد انه يهزل حين يحسب نفسه في المبذرين وانه على حق اذ يقول : «اوه ، كم ذا كنت استطيع أن أعمل لو لم أبدد وقتي في العبث !»

واليكم هذا النموذج – انا . . . فالى اي امنية كنت اتطلع ،

وماذا كنت أنتظر ، وما هذا المستقبل الباهر الذي كنت ارتقبه ، على حين لم تند عني الا زفرة ولم احزن سوى لحظة وانا اودع طيف غرامي الاول ؟

ماذا تحقق من جميع تلك الآمال التي طمحت اليها وجددت في طلبها ؟ وماذا بقي لي الآن بعد ان اخذت حياتي تمضي في ظلالها المسائية ؟ هل بقي شيء أنضر عندي واغلى من ذكريات تلك العاصفة الربيعية المبكرة السريعة التي عبرت حياتي ؟

ولكن من العبث أن افتري على نفسي ، فحتى في ذلك العهد الطائش من زمان الشباب ، لم اغلق سمعي دون ذلك الصوت الحزين الذي طار الي برنينه المهيب من وراء القبر . واذكر انني بعد انقضاء بضعة ايام على معرفتي بموت زينايبدا ، ذهبت مدفوعاً بدافع من نفسي لا يقاوم ، الى عيادة عجوز مسكينة مشرفة على الموت كانت تعيش في البناية التي نسكن فيها . كانت تلتحف غطاء مهلهلا ، وترقد على لوح من خشب ، وتحت راسها كيس ، وهي تقاسي من احتضارها مر العذاب . لقد تصرمت حياتها جميعاً في صراع شديد من اجل القوت ، فما رات قبساً من السعادة ، ولا تذوقت قطرة من عسل الحظ ، وكان المظنون انها سترحب بالموت ، وترى فيه منطلقها الى الحرية والسكينة . ولكن اما وان جسدها البالي ما يزال يقاوم الموت ، وصدرها يتنفس في عسر شديد تحت ثقل اليد الباردة ، وبقية اخيرة من ذماء ، ما تزال فيها ، فان العجوز لم تنقطع عن التصليب وهي تهمس : «رب اغفر لي ذنوبي . . .» ومع انطفاء آخر شرارة من وعيها فقط ، اختفت من عينيها آية رعبها من النهاية . واذكر عندئذ ، وانا اشهد موت تلك العجوز المسكينة ان قلبي امتلأ بالخوف على زينايبدا ، ورغبت نفسي في الصلاة من اجلها ، ومن اجل ابي - ومن اجل نفسي .

عام ١٨٦٠

تعليقات

١ - ص ١٣
قصص

ان ابداع الكاتب الروسي العظيم ايفان تورغينيف (١٨١٨ - ١٨٨٣) هو احدى الذرى في الادب الروسي . وقد عكس في نتاجاته كل ما هو اكثر جوهرية والحاحا في الحياة الروسية ، ويجسد بها مطمح الأمة كلها في الحرية والتقدم .

قضى تورغينيف طفولته في ضيعة امه - سباسكويه-لوتوفينوفو ، الواقعة في ولاية اوريول . وكان يذكر «لقد ولدت وترعرعت في محيط كانت تسود فيه الضربات على القفا ، وانخراط الاظافر على الجلود ، واللكمات ، والصفعات وغيرها . . .» .

«لم استطع أن استنشق نفس الهواء ، واظل الى جانب من كنت امقتهم . . . كان لهذا العدو ، في عيني ، صورة محددة ، واسم معروف : كان هذا العدو هو نظام القنانة» .

واقسم الكاتب على ان يناضل طوال حياته هذا العدو البغيض . وقد كرس لهذا النضال واحد من احسن اعمال تورغينيف - «مذكرات صياد» - وهو كتاب عظيم عن روسيا والروس . و«مذكرات صياد» ، حسب تعبير الكاتب الساخر ميخائيل سالتيكوف-شيدرين «وضعت بداية لأدب كامل يجعل الشعب واحتياجاته هدفه» .

ويضم المجلد الحالي ثلاث قصص من هذه السلسلة ، «خور وكالينيتش» ، و«بيريوك» و«المغنيان» .

٢ – ص ١٥

خور وكالينيتش

القصة الأولى من سلسلة «مذكرات صياد» نشرت لأول مرة في مجلة «سوفريمينيك» العدد الأول ، عام ١٨٤٧ .

٣ – ص ١٦

كانت قرى تورغينيف السبع تقع في قضاء جزدرا من ولاية كالوغا ، وسكانها اكثر من ٤٥٠ نسمة مشمولين بالضرائب ، وقد ورث تورغينيف هذه القرى بعد وفاة امه ، وانفصاله عن اخيه . وقد حوّل تورغينيف فلاحي هذه القرى الى استثمار الارض بايجار اقل مرتين من الايجار السائد في القضاء .

٤ – ص ١٦

«اعمال شعرية ونثرية» لا . ن . ناخيموف (١٧٨٣–١٨١٥) مؤلف مقطوعات شعرية ساخرة وحكايات واشعار بسيطة عن الرشوة الى غير ذلك . و«بينا» قصة لم . ا . ماركوف (١٨١٠–١٨٧٦) مكتوبة باسلوب رومانتيكي مزيف . وقد نعت الناقد الروسي العظيم فيساريون بيلينسكي هذه القصة بـ«الهذر» وذلك في مراجعته لمجموعة «مائة اديب روسي» (١٨٤٥) التي ضمت هذه القصة .

٥ – ص ٢٣

يقصد خور بذلك فئة الموظفين الذين سيجازف بالوقوع تحت تبعيتهم ، اذا تحرر من تبعية القنانة . وبموجب امر من القيصر نيقولاي الأول صدر في ٢ نيسان ١٨٣٧ منع الموظفون المدنيون من اطلاق الشوارب واللحى .

٦ – ص ٢٧

هو بطرس الأول الاكبر (١٦٧٢ – ١٧٢٥) اعتلى عرش روسيا منذ عام ١٦٨٢ (واستقل بالحكم منذ عام ١٦٨٩) ،

23*

وكان اول امبراطور روسي منذ عام ١٧٢١ . وهو شخصية سياسية وعسكرية مرموقة . قام بعدة اصلاحات مهمة .

٧ – ص ٣١

بيريوك

كان ارداليون زامياتين الذي كان قنا لتورغينيف في السابق (وفيما بعد اصبح معلم مدرسة ريفية) يذكر : «كانت جدتي وامي تقولان لي ان الشخصيات المذكورة في «المذكرات» كلها تقريبا لم تكن مختلقة . . . وحتى اسماؤها حقيقية . . . كان هناك شخص يدعي بيريوك قتله جيرانه الفلاحون في الغابة . . .» .

وكان تورغينيف يحب ان يقرأ «بيريوك» على الناس . وهذا ما كتبه احد معاصري تورغينيف ، مباشرة بعد القاء تورغينيف لهذه القصة : «انه فنان رهيف ، فنان في المعنى الواسع لهذه الكلمة . وبيريوك . . . التي قراها ، صورة صغيرة في حجمها ، وذات موضوع غير معقد ، كما هو معروف – ولكن كم فيها من الشعر والمنظر الطبيعي الروسي ، والشكل الدراماتي في شخص حارس الغابة بيريوك . . .» .

نشرت القصة لأول مرة في مجلة «سوفريمينيك» العدد الثاني ، عام ١٨٤٨ .

٨ – ص ٣٢

اقتباس من قصيدة للشاعر الروسي العظيم ميخائيل ليرمونتوف بعنوان «ثلاث نخلات» (١٨٣٩) .

٩ – ص ٤٢

المغنيان

ضمنت هذه القصة حقيقة واقعية . فقد كتب تورغينيف عام ١٨٥٠ بان «صورّت مباراة بين مغنيين كنت قد حضرتها . . .» .

وصف نيقولاي نيكراسوف محرر مجلة «سوفريمينيك» قصة «المغنيان» بانها «معجزة» ، اما فيدور دوستويفسكي فقد كتب في عام ١٨٧٣ بشأن المشهد الاخير من القصة «هل

تذكر انتروبكا عند تورغينيف – ان هذه القطعة للكاتب المحبوب لدى الجمهور نابغة حقا» .
نشرت هذه القصة لأول مرة في مجلة «سوفريمينيك» ، العدد ١١ عام ١٨٥٠ .

١٠ – ص ٤٢
كانت قرية بهذا الأسم تقع على بعد فرسخين من قرية تورغينيف .

١١ – ص ٥٥
الترجمة الحرفية هي صاحب قطعة ارض واحدة ، وهو في نظام القنانة في روسيا شخص كان ينحدر من مرتبة واطئة من الموظفين ، ويملك ارضا صغيرة تتألف عادة من استثمارة واحدة ، كما كان له الحق في امتلاك الفلاحين . الا انه (منذ القرن الثامن عشر) فرض عليه دفع الضريبة على كل نفس شأنه شأن الفلاحين .

١٢ – ص ٥٦
اغنية روسية غنائية شعبية واسعة الانتشار لها نغم راقص . نشرت لأول مرة في عام ١٧٧٠ .

١٣ – ص ٥٧
هي الآن مدينة بلافسك في الطريق من تولا الى اوريل .

١٤ – ص ٦٤
اللقاءات الثلاثة

«اللقاءات الثلاثة» هي احدى القصص الطويلة المبكرة لتورغينيف . الا ان هذه القصص المبكرة التي اعقبت «مذكرات صياد» التي اثارت نجاحا عاصفا ، تستحق التفات القارئ . فهي تؤلف مرحلة مهمة وضرورية في السيرة الابداعية للكاتب الكبير ، حين تتكون طريقته واسلوبه .
كان تورغينيف في رسائل لاشخاص مختلفين يصف قصة

«اللقاءات الثلاثة» بأنها «قصة تافهة» و«قطعة صغيرة فارغة» .
الا أن نيكراسوف الشاعر الروسي العظيم ومحرر مجلة «سوفريمينيك» كان يرى في هذه «القطعة الصغيرة الفارغة» امارة سارة جدا على أن تورغينيف في سبيله الى ان يجد طريقه الخاصة . وقد لاحظ نيكراسوف في رسالته الى تورغينيف ، وهو يتحدث عن هذه القصة ان «نغمتها مدهشة ، لهجة حزن عاطفي عميق . وهذا ما اراه : انك شاعر اكثر من كل الكتاب الروس بعد بوشكين قاطبة . . .ارجوك ان تعيد قراءة «اللقاءات الثلاثة» وتتوغل في اعماق نفسك ، في الشباب ، في الحب ، في سورات الصبا غير المحددة والرائعة في جنونها ، في تلك اللوعة بلا لوعة ، وان تكتب شيئا على هذه النغمة . انت نفسك لا تعرف اي اصوات تتدفق ، حين يحالفك الحظ فتمسك هذه الاوتار لقلب حافل – مثل قلبك – بالحب والعذاب وكل تمسك بالمثل» .
نشرت هذه القصة لاول مرة في العدد الثاني من مجلة «سوفريمينيك» عام ١٨٥٢ .

١٥ – ٦٩
كان البيت الذي ولد فيه الشاعر الايطالي الشهير توركفاتو تاسو (١٥٤٤–١٥٩٥) مكانا رئيسيا من الأماكن التي يؤمها الزوار في سورنتو .

١٦ – ص ٩١
يقصد المشهد الثاني من الفصل الثالث من تراجيديا «هاملت» لشكسبير ، حين راح هملت اثناء تمثيل الممثلين لمشهد القتل يراقب الملك كلوديوس بامعان ، ليتأكد من جرمه .

١٧ – ص ٩١
هيئة للتسيير الذاتي لفئة النبلاء في الامبراطورية الروسية من عام ١٧٨٥ الى ١٩١٧ .

١٨ – ص ٩٢
عشق النحات بجماليون ، حسب الاسطورة الاغريقية ،

تمثال غالاتيا الذي صنعه . واستجابة لدعوات بجماليون بثت ربة الحب افروديت الحياة في التمثال .

١٩ – ص ٩٦

اقتباس من الرواية الشعرية «يفغيني اونيغين» للشاعر الروسي العظيم الكسندر بوشكين :

عاصفة الفالس الصاخبة
تدور رتيبة مخبولة
كحياة الصبا .

٢٠ – ص ٩٨

مومو

قصة «مومو» في اتجاهها المناهض للقنانة قريبة من «مذكرات صياد» .

وضمنت في اساسها القصة الواقعية للفلاح الابكم اندريه قن والدة الكاتب فارفارا بتروفنا لوتوفينوفا ، مالكة الاراضي المستبدة ذات النزوات .

وقد غيّر تورغينيف النهاية الحقيقة للقصة . اذ في الواقع استمر اندريه في خدمة سيدته بولاء . ففي هذا التطور لحل العقد الذي ساقه تورغينيف اتخذت شخصية غيراسيم قيمة كبيرة وتعميما فنيا .

نشرت القصة لاول مرة في العدد الثالث من مجلة «سوفريمينيك» عام ١٨٥٤ .

٢١ – ص ٩٨

اللزمة : هي ضرائب حكومية على الفلاحين في روسيا في عهد القنانة كانت تدفع الى مالك القن عينا او سخرة لدى استثماره لقطعة ارض تعطى لعائلة واحدة .

٢٢ – ص ١٠٦

يقصد مجموعة النصب التذكاري في الساحة الحمراء في موسكو ، التي اقيمت في عام ١٨٢٦ (من اعمال النحات

ي . مارتوس) . كوزما مينين (توفي في عام ١٦١٦) بطل شعبي . ودميتري بوجارسكي (١٥٧٨ – ١٦٤٢) امير وصاحب اطيان ، وبطل شعبي . وكلا الرجلين قاد فرقة المتطوعين ، ونظم الحرب التحررية الوطنية التي خاضها الشعب الروسي ضد البولونيين .

٢٣ – ص ١١٣

مكان عبور نهر موسكو في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حين لم تكن الجسور مقامة عليه .

٢٤ – ص ١٣٠

نُزُل المسافرين

استخدم تورغينيف في موضوع هذه القصة حادثة واقعية حدثت غير بعيد عن «سباسكويه-لوتوفينوفو» ضيعة والدته . وفي مخطوطة القصة الموجودة في باريس ملاحظة من المؤلف : «بداتها في ١٨ تشرين الأول . وانهيتها في ١٤ تشرين الثاني عام ١٨٥٢ . سباسكويه» . في كانون الاول عام ١٨٥٢ ابلغ تورغينيف اصدقاءه «كتبت قصة طويلة تحت عنوان «نُزُل المسافرين» حالفني النجاح فيها ، اذا لم اكن مخطئا . . . اعتقد انني في هذه القصة خطوت خطوة الى الامام . ولا اعرف هل ذلك من تاثير العزلة ام لاسباب اخرى ، الا انني اشعر بانني صرت ابسط ، واسير قدما نحو الغاية» .

نشرت القصة لاول مرة في العدد الحادي عشر من مجلة «سوفريمينيك» عام ١٨٥٥ .

٢٥ – ص ١٣٣

لم يكن لفلاحي روسيا الاقنان الحق في امتلاك الارض . فكانوا يضطرون (كما هي الحال مع اكيم) ان يشتروها بنقودهم ، ولكن باسم صاحب الأرض الذي كان يمتلكهم هم انفسهم ايضا .

٢٦ – ص ١٣٣

كان هذا الاسم يطلق على سهوب جنوب اوكرانيا . وقد بقيت هذه التسمية ، مثلا ، تطلق على مدينة تشيركاسي .

٢٧ – ص ١٣٩

رمبراندت (١٦٠٦ – ١٦٦٩) رسام هولندي عبقري .

٢٨ – ص ١٤٦

اوراق النقد كانت متداولة في روسيا من عام ١٧٦٩ الى عام ١٨٤٣ . ونسبتها الى العملة الفضية والذهبية كانت كثيرا ما تتغير . والروبل من العملة الورقية في العهود التي يصفها تورغينيف كان يساوي ٣,٥ مرات اقل من الروبل الفضي .

٢٩ – ص ١٨٢

هذه اسماء الأماكن التي كان الاتقياء في روسيا القرن الثامن عشر والتاسع عشر يحجون اليها اكثر من غيرها . دير ترويتسه-سيرغي (دير الثالوث المقدس والقديس سيرغي ، وهو من اكبر الاديرة الروسية) ، يقع على بعد ٧٢ كيلومترا شمال موسكو ، حيث مرقد القديس سيرغي رادونيجسكي ، الذي تقدسه الكنيسة الارثوذوكسية . وقد بني هذا الدير في القرن الرابع عشر . ودير بيليه بيريغا يقع في جنوب غربي روسيا ، ودير اوبتوي دير للرجال شيد في القرن الرابع عشر ، يقع الى الجنوب الغربي من موسكو غير بعيد عن مدينة كالوغا . وفالآم جزيرة على بحيرة لادوجسكويه . وفيها دير فالآم للرجال شيد في بداية القرن الرابع عشر . وفيه بعض الصوامع للرهبان النساك .

٣٠ – ص ١٨٢

هو دير ميلاد العذراء غير بعيد عن مدينة كورسك .

في الاعياد المسيحية كان يجتمع هنا ما يصل الى ٧٠ الفا من الحجاج .

٣١ – ص١٨٢

متسينسك مدينة في الجزء الجنوبي من روسيا الوسطى (ولاية اوريل) .

٣٢ – ص ١٨٥

روايات قصيرة

كان تورغينيف قد تعرف في عام ١٨٤٣ على المغنية الفرنسية المرموقة بولينا فياردو . وما كان من الممكن ان تصبح هذه المراة المعشوقة زوجة له ، فقد كان لها اولاد وزوج .

وهذه احدى رسائل تورغينيف الى بولينا فياردو : «في الثلاثاء القادم ستتم سبعة اعوام ، منذ ان رايتك لاول مرة . وبقينا صديقين ، وصديقين حميمين ، على ما يبدو لي . ويسرني ان اقول لك انني خلال تلك الاعوام السبعة لم أر احسن منك في الدنيا ، وان لقائي بك في طريق حياتي كان اعظم سعادة في عمري ، وان وفائي وامتناني لك ليس لهما حدود ، ولا يموتان الا بمماتي» .

والروايات القصيرة «فاوست» و«آسيا» و«الحب الاول» هي روايات عن الحب – الوليد لتوه خجولا ومن جانب واحد ، او السار السعيد – الحب الذي يجلب للانسان الفرح تارة والهم تارة اخرى ، الا انه في كل الاحوال يجعله افضل وانقى واسمى . ولا يستطيع ان يكتب عن الحب بهذه الصورة الا مَنْ مرّ بهذه العاطفة بكل جمالها وقوتها .

٣٣ – ص ١٨٧

فاوست

نشرت لاول مرة في العدد العاشر من مجلة «سوفريمينيك» ، عام ١٨٥٦ .

٣٤ – ص١٨٧

البيت ١٥٤٩ من الجزء الاول من تراجيديا «فاوست» للشاعر والمفكر الالماني ى . ف . غوته (١٧٤٩ – ١٨٣٢) .

٣٥ – ص ١٨٩

هو تمثال لهرقل مستريحا . وهرقل بطل الميثولوجيا الاغريقية ، ابن زيوس وامراة من البشر ، وكان يملك قوة خارقة . والتمثال موجود في متحف نابولي (ايطاليا) .

٣٦ – ص ١٨٩
يقصد هنا ما جاء في «اوديسا» هوميروس عن موت ارغوس كلب اوديسا (يوليس) المحبب الذي مات حالما عاد مالكه من رحلاته (القصيدة رقم ١٧) .

٣٧ – ص ١٨٩
مانون ليسكو هي بطلة الرواية الشهيرة «مغامرات الفارس دو غريه ومانون ليسكو» (١٧٣٣) للكاهن انطوان فرانسوى بريفو (Prévost d'Exiles) (١٦٩٧ – ١٧٦٣) .

٣٨ – ص ١٩٠
«الناسك» (١٨٢١) رواية شائعة للكاتب الفرنسي ش . ف . دارلنكور (d'Arlincourt) (١٧٨٩ – ١٨٥٦) .

٣٩ – ص ١٩١
المقصود هنا رواية «كانديد او التفاؤل» (١٧٥٩) للكاتب والفيلسوف الفرنسي الشهير فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨) .

٤٠ – ص ١٩١
الاسم الكامل هو «حامليون المنتصر او صورة لنوادر الكونت ميرابو ومناقبه» ، وهو كراس ساخر الماني غفل من اسم المؤلف .

٤١ – ص ١٩١
«الفلاح المفسد» (١٧٧٥) ، رواية عن السيرة الذاتية للكاتب الفرنسي ن . رتيف دو لا بريتون (Restif de la Bretonne) (١٧٣٤–١٨٠٦) .

٤٢ – ص ١٩١
كلارا شتيخ (١٨٢٠–١٨٦٢) ممثلة مسرحية المانية كانت تحظى بنجاح كبير لدى الجمهور في بداية الاربعينات في برلين ، في فترة وجود تورغينيف هناك .

وكارل زيديلمان (١٧٩٣–١٨٤٦) ممثل مسرحي الماني كان يعتبره معاصروه الممثل التراجيدي الاول في المانيا .

٤٣ – ص ١٩١
رادزيفيل ، انتوني هنريك (١٧٧٥–١٨٣٣) مؤلف موسيقي بولوني وضع موسيقى «فاوست» غوته .

٤٤ – ص ١٩٢
تعديل في عبارة وردت في «هاملت» تقول : «هناك اشياء في السماء وعلى الارض ، هوراتسيو ، لا تحلم بها في فلسفتك» . "There are more things in heaven and earth, Horatio, than are dreamt at in your philasophy» (المشهد الخامس من الفصل الاول) .

٤٥ – ص ٢٠١
جورج ساند (George Sand) الاسم المستعار للكاتبة الفرنسية اورورا ديوديفان (Dudevant) (١٨٠٤–١٨٧٦) طرحت رواياتها قضايا اجتماعية جدية من مثل وضع المراة في العالم البرجوازي .

٤٦ – ص ٢٠٣
اقتباس محرّف من شعر للشاعر الروسي الكسندر بوشكين «حديث بائع كتب مع شاعر» (١٨٢٤) .

٤٧ – ص ٢٠٥
مشهد «ليلة فالبورغيا» في الجزء الاول من «فاوست» .

٤٨ – ص ٢١٤
هذه ترجمة تورغينيف لبيتين من «مقدمة في السماوات» الجزء الاول من «فاوست» («Ein guter Mensch in seinem dunklen Drange ist sich der rechtes Weges wohl bewusst»).

٤٩ – ص ٢١٥

المقصود هنا «يفغيني اوتيغين» (١٨٢٣–١٨٣١) ، وهي رواية شعرية للشاعر الروسي العظيم الكسندر بوشكين (١٧٩٩–١٨٣٧) .

٥٠ – ص ٢١٦

هذا المقطع الثالث من قصيدة «النهار يمسي ، والليل قريب» (١٨٥١) للشاعر الروسي فيدور تيوتشيف (١٨٠٣–١٨٧٣) .

٥١ – ص ٢١٧

«الفليوت السحري» اوبرا لمؤلف الموسيقى التمساوى العظيم فولفغانغ آمادي موتسارت (١٧٥٦–١٧٩١) .

٥٢ – ص ٢١٨

هذه الابيات الثلاثة لقصيدة غوته «Auf der See» في ترجمة تورغينيف ، الاول من المقطع الثاني والآخران من المقطع الثالث .

٥٣ – ص ٢٢٠

المقصود هنا جون فرانكلين (Franklin) (١٧٨٦–١٨٤٧) وهو منقّب وسائح انجليزي شهير هلك اثناء بعثة الى الشمال .

٥٤ – ص ٢٢٢

فريتليون – كنية الفنانة والراقصة والمغنية الفرنسية الشهيرة كليرون (١٧٢٣–١٨٠٣) كانت تحظى بنجاح كبير لدى الجمهور .

٥٥ – ص ٢٣٠

مازيبا ايفان (١٦٤٤–١٧٠٩) الحاكم الاعلى لاوكرانيا من انصار فصل اوكرانيا عن روسيا . وفي اثناء الحرب الشمالية

(حرب روسيا ضد السويد) في عام ١٧٠٨ خان القيصر الروسي بطرس الاول ، وانضم الى جانب ملك السويد كارل الثاني عشر . وكوتشوبيه (١٦٤٠–١٧٠٨) رجل عسكري وشخصية من شخصيات الدولة في اوكرانيا ، نبه بطرس الاول غير مرة الى خيانة مازيبا الوشيكة . الا ان القيصر الذي كان يثق بمازيبا اعتبر هذه المعلومات افتراء ، وسلّم كوتشوبيه الى مازيبا ، فاعدمه هذا بعد ان عذبه تعذيبا قاسيا .

وقد ضمن الكسندر بوشكين هذه الاحداث التاريخية في قصيدته «بولتافا» (١٨٢٨–١٨٢٩) . وبطل تورغينيف يشير الى حادثة من الاغنية الثانية من القصيدة ، حين سمع مازيبا ، وهو يتمشى في الحديقة ، صيحة واهنة ، صيحة كوتشوبيه تحت التعذيب .

٥٦ – ص ٢٣٤

آسية

رواية قصيرة نشرت لاول مرة في مجلة «سوفريمينيك» العدد الاول لعام ١٨٥٨ .

٥٧ – ص ٢٣٤

حرفيا «القبة الخضراء» (بالالمانية) ، وهو الاسم الذي يطلق على «رواق المجوهرات» في درزدن ، حيث تحفظ مجموعة من المصوغات يصل عددها ثلاثة الاف قطعة ، من بينها مجوهرات التاج لملوك ساكسونيا .

٥٨ – ص ٢٤٢

يوسف لانّير (١٨٠١–١٨٤٣) مؤلف موسيقي نمساوي واحد مؤلفي الفالس الفيني .

٥٩ – ص ٢٤٣

رومانس للمؤلف الموسيقي الروسي غلينكا (١٨٠٤–

١٨٥٧) على كلمات قصيدة لالكسندر بوشكين «انا هنا ، اينيزيليا» .

٦٠ – ص ٢٤٩

الفريسكو المشهورة «نصر غالاتيا» من ابداع الرسام الايطالي العبقري روفائيل (١٤٨٣–١٥٢٠) في فيلا فارنيزين ، في روما .

٦١ – ص ٢٥٠

يعني : «امي يا محبوبتي» ، اغنية روسية للمؤلف الموسيقي الكسندر غوريليف (١٨٠٣–١٨٥٨) واسعة الانتشار ، حتى صارت تعتبر اغنية شعبية .

٦٢ – ص ٢٥٢

قصيدة ملحمية للشاعر والمفكر الالماني غوته (١٧٩٧) .

٦٣ – ص ٢٦٣

اقتبست اسطورة لوريلاي اساسا للعديد من النتاجات الشعرية : القصيدة الغنائية للشاعر الالماني ك . برينتانو (١٧٧٨–١٨٤٢) من روايته «غودفي» ، والقصيدة الثانية للشاعر الالماني هـ . هايني من سلسلة «في الوطن مرة آخرى» (١٨٢٣) وغيرهما . كما رويت هذه الاسطورة في ادلة السياحة .

٦٤ – ص ٢٦٤

من الرواية الشعرية «يفغيني اونيغين» لالكسندر بوشكين (١٧٩٩–١٨٣٧) . عند بوشكين «على جدث مربيتي . . .» .

٦٥ – ص ٢٦٥

بطلة رواية الكسندر بوشكين «يفغيني اونيغين» . ومسودة المخطوطة كانت تضم مزيدا من مواضع للمقارنة المباشرة وغير المباشرة بين آسية وتاتيانا بطلة بوشكين .

٦٦ – ص ٢٩١

الحب الاول

نشرت هذه الرواية القصيرة في عدد آذار لمجلة «بيليوتيكا دلا جتينيا» (مكتبة المطالعة) لعام ١٨٦٠ ، مهداة الى بافل انينكوف (١٨١٣–١٨٨٧) الناقد الادبي ومؤلف المذكرات الروسي ، صديق تورغينيف ، وقد كرّس لانتاجه مقالات عديدة .

٦٧ – ص ٢٩٣

ي . كايدانوف ، الاستاذ في ليسيه (مدرسة ثانوية) تسارسكويه سيلو في اعوام ١٨١١–١٨٤١ مؤلف كتب مدرسية في التاريخ اعيد طبعها عدة مرات . والمقصود هنا كتابه «المرشد الى معرفة التاريخ السياسي العام» .

٦٨ – ص ٢٩٤

«اللصوص» دراما الشاعر الالماني العظيم شيللر (١٧٥٩–١٨٠٥) فيها احتجاج على الطغيان ، وقد اثرت تاثيرا قويا في الشبيبة الروسية في العشرينات والثلاثينات من القرن التاسع عشر .

٦٩ – ص ٣١١

عادة كان يجتمع عند بوابة ايفيرسكيه في موسكو القديمة (قرب الساحة الحمراء) المرافعون في قضايا المحاكم ، والموظفون المتقاعدون ، الذين كانوا يوكلون لصياغة الوثائق الرسمية ، وتمشية الدعاوى القضائية .

٧٠ – ص ٣١٦

ريري ، مؤلف «الفن الحديث في ترويض الخيول المتوحشة» «The modern art of taiming wild horses»

(١٨٥٨) ولد في امريكا كان يمتلك «مهارة فائقة في ترويض الخيول الجامحة» .

٧١ – ص ٣٢٠

أسس دير دونسكوي-بوغوروديتسكي في موسكو في القرن السادس عشر من قبل القيصر فيدور ايفانوفيتش في البقعة التي هُزم فيها خان القرم غازا-غيري .

٧٢ – ص ٣٢٢

قصيدة للشاعر الروسي العبقري الكسندر بوشكين (١٨٢٩) .

٧٣ – ص ٣٢٩

جورج نويل غوردون بايرون (١٧٨٨–١٨٢٤) شاعر انجليزي بارز ، وممثل الرومانسية الثورية .

٧٤ – ص ٣٣٠

من ابطال بلوتارك (حوالي ٤٦–١٢٧ بعد الميلاد) الكاتب اليوناني المدوّن والمؤرخ والفيلسوف .

مارك انطونيو شخصية سياسية رومانية وقائد عسكري (حوالي ٨٣–٣٠ قبل الميلاد) وكليوباطره ملكة من اسرة البطالسة المالكة (٦٣ الى ٣٠ قبل الميلاد) وكانت حليفة وخليلة مارك انطونيو (في عام ٣٧ تزوج منها) .

٧٥ – ص ٣٣٣

فرايتاغ مروض شهير للخيول العداءة في موسكو في الثلاثينيات من القرن الماضي ، وصاحب اسطبل للخيول .

٧٦ – ص ٣٣٦

شخصيات من رواية الكاتبة الفرنسية صوفي كوتون (ماريا صوفي ريستو) «ماتيلدا ، أم مذكرات مأخوذة من تاريخ الحملات الصليبية» (١٨٠٥) .

٧٧ – ص ٣٣٦

رومانس على كلمات من قصيدة للشاعر والناقد بيتر فيازيامسكي «أنا في انتظارك» (١٨١٦) .

«الثلوج ليست بيضاء» اغنية شعبية روسية قديمة .

«يرماك» (١٨٣٢) مسرحية تراجيدية شعرية للشاعر الروسي الكسي خومياكوف (١٨٠٤–١٨٦٠) .

٧٨ – ص ٣٣٦

«Journal des Débats» – صحيفة باريسية .

٧٩ – ص ٣٤٣

اوغيوست باربيه (١٨٠٣–١٨٨٢) شاعر ثوري فرنسي ، ومؤلف المجموعة الشعرية الشهيرة «يامبي» (المعلقات) التي صدرت في باريس عام ١٨٣٢ ، وقد منعته الرقابة في روسيا على الفور .

٨٠ – ص ٣٤٣

«موسكوفسكي تيلغراف» مجلة ادبية نقدية تقدمية (١٨٢٥–١٨٣٤) .

٨١ – ص ٣٤٨

كلمات أليكو ، بطل القصيدة الرومانسية «النوَر» للشاعر الكسندر بوشكين (١٨٢٤) . وبطل القصيدة يقتل من الغيرة زوجته زمفيرا ومحبوبها ، النوري الشاب .

٨٢ – ص ٣٥٧

في اعوام ١٨١٧–١٨٦٤ قام الجيش الروسي في القوقاز بعمليات عسكرية تستهدف الاستيلاء على بعض مناطقه . وقد ابدى سكان القوقاز مقاومة صلبة ضد القوات الروسية .

٨٣ – ص ٣٥٨

كان ديفيتشيه بوله في الفترة التي يصفها تورغينيف حقلا في الضاحية الجنوبية الغربية لموسكو ، حيث كانت تجري التدريبات العسكرية والنزهات الشعبية .

٨٤ – ص ٣٥٨
راجع تعليق رقم ٢٣ .

٨٥ – ص ٣٦٢
فندق «ديموت» في بطرسبورغ ، وقد سمي على اسم مالكه الاول ف . ديموت (١٧٥٠–١٨٠٢) ، وكان موقعه على شاطئ نهر مويكا عند الجسر الاخضر (الآن شارع مويكا ، رقم ٤٠) .

٨٦ – ص ٣٦٣
اقتباس من قصيدة لالكسندر بوشكين : «تحت سماء وطني الزرقاء . . .» (١٨٢٦) .

محتويات